إهداء
إلى من لها الفضل بعد الله
في هذا العمل
عفاف

التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي
٤٦١ - ٥٣٧هـ

يطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق
ماهر أديب حبوش

المجلد الأول

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير
في
التفسير

(١)

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ-٢٠١٩م

9 786052 279311

دار اللُّباب
للدِّراسات وتحقيق التُّراث
DAR-ALLOBAB
Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

اسطنبول - تركيا
00905454729850
00902125255551
info@allobab.com

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990
Www.allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

مقدّمة التحقيق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الكريمِ المنَّان، ذي الفضل والإحسان، والسَّطوة والسلطان، والصلاةُ والسلام على عبدِه ورسولِه المُختار، الذي أقامَ الشَّريعةَ وراغَمَ الكفَّار، صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه، الذين آمَنُوا به وتمسَّكوا بحَبْلِه، صلاةً تُشرَحُ بها القُلوب، ويَتيسَّرُ بها كلُّ مطلوب.

وبعد:

فإنَّ كتاب الله هو النورُ المُبِيْن، والطَّريقُ القَوِيم، والحقُّ المستَبِين، والصراطُ المستقيم، لا شيءَ أسطعُ من أعلامه، ولا حُكمَ أصدعُ مِن أحكامه، ولا كلامَ أفصحُ مِن بلاغته، ولا قولَ أرجحُ من فصاحته، ولا عملَ في ليلٍ أو نهارٍ ألذُّ مِن تِلاوته، فيه خبرُ مَن قَبْلَنا، ونبأُ مَن بعدَنا، وحُكْمُ ما بينَنا.

أَعجزَ الفصحاءَ، وحيَّر البُلغاء، وأعياهم أنْ يأتوا بسورةٍ مِن مِثْلِه، حتى شهِد بإعجازه الأعداءُ قبل الأصدقاء، وأيقنَ بصدقهِ الجاحدون والملحِدون؛ فإعجازُه وبلاغتُه وحسنُ نظامه يشهدُ للنبيِّ ﷺ بنبوَّته، وبأنه أعظمُ معجزاتهِ، الباقيةِ على طولِ أيام الدهرِ وسنواتهِ.

وقد كان النبيُّ من الأنبياءِ عليهم السلامُ يأتي بالآيةِ وتَنْقَضي بموته، فقَلَّ لذلك مَن يتَّبعه، وكَثُرَ أتْباعُ نبيِّنا ﷺ لكونِ معجزتهِ الكبرى باقيةً بعدَه، فيؤمنُ باللهِ ورسولهِ كثيرٌ ممَّن يسمعُ القرآن على ممرِّ الأزمان.

فلا غَرْوَ أنْ نَهَض العلماءُ منذُ فجرِ الدَّعوةِ مشمِّرِينَ عن ساعِدِ الجِدِّ لشرحه وتفسيرِه، وبيانِ ما غَمضَ من معانيه، وحلِّ ما أَشْكَل على مَن يُعانيه.

ومِن أَجْلِ هذا ظَهَر على مَرِّ التَّاريخِ الإسلاميِّ تصانيفُ لا يَحْصُرُها العَدُّ، اخْتَلَفَتْ أساليبُها لكنَّ غايتَها كانت واحدةً، وهي تفسيرُ كتابِ الله، وإيصالُه إلى أجيالِ الأُمَّة جيلاً إِثْرَ جيلٍ، وتفهيمُ الأُمَّةِ معانيَه، وما فيه مِن عِبَرٍ وأمثال، وحِكَمٍ وأحكام، وبلاغةٍ لا تُرام، وخيرٍ عمَّ الأَنام؛ لتُدْرِكَ هذه الأُمَّةُ عَظَمتَه، فتتمَسَّكَ به، وتجتهدَ في اتِّباعِه والعملِ بـمُقْتضاه، ودعوة الخلقِ إليه.

وهذه التصانيفُ كانت متفاوِتةً مِن حيثُ الفائدةُ، وبعضُها يقدَّمُ على بعضٍ، بل قد يكونُ بعضُها أصلاً والآخَرُ فَرْعاً، فإنَّ منها ما يُمْكِنُ أنْ يُعَدَّ فَرْداً في بابِه، وإماماً في محرابِه، وأساساً في موضوعِه، بحيثُ يُمْكِنُ أنْ يُقالَ مَثَلاً: إنَّ ما جاء بَعْدَه ليس كالذي كان قَبْلَه، فيُقالَ مثلاً: إنَّ ما أُلِّفَ قبل «تفسير الطبري» في التَّفسيرِ بالمأثورِ ليس كما أُلِّفَ بَعْدَهُ، وإنَّ ما كُتِبَ في معاني القرآنِ وبلاغته قبلَ «كشَّاف» الزَّمَخْشريِّ ليس كالذي كُتِبَ بعدَه، وإنَّ موضوعَ أحكامِ القرآنِ قبلَ «الجامع لأحكام القرآن» ليس كموضوعِه بَعْدَهُ، وإنَّ كُتبَ إعرابِ القرآنِ قبلَ «بحر» أبي حيَّانَ ليست كالتي أَعقبت «بحره».

وجاء مِن التفاسيرِ بعد تلك الأمَّهات ما هو تَبَعٌ لها، فهَذَّبَ ونَقَّحَ، وزادَ ورَجَّحَ، وشَرَحَ وصَحَّحَ، ومع أن هذه أيضاً لا تُنْكَر مكانتُها وفضلُها، لكنْ يَبْقَى الفضلُ للسَّابق ولو أجادَ اللَّاحِق.

وكان هناك كثيرٌ من التفاسير التي حَوَت فنونَ التفسير من الآثارِ والأحكامِ والمعاني والإعرابِ واللغة، لكنْ لم يكن فيها ما يجعلها متميِّزةً عن باقي التفاسير.

وهذا التفسيرُ الذي بين أيدينا لا يمكنُ إلا أنْ يعدَّ من تلك الأمَّهات، بل هو كتابٌ فريدٌ في بابه، لم يَنسجْ أحدٌ على مِنواله، جامعٌ للفرائد، زاخرٌ بالفوائد، قد خُطَّ بيدٍ دَرِبة خبيرة، ذاتِ فكرٍ ثاقبِ البصيرة، فمؤلِّفهُ قد فاق أقرانه علماً وفضلاً، وكُتبه في الفقه وغيره معروفةٌ شرقاً وغرباً، كما أنه عالمٌ باللغة والنحو مشهودٌ له بذلك، وهو مع ذلك من المتقدِّمين المعاصرين لأئمةِ التفسير الكبار أمثالِ الزمخشريِّ وابنِ عطية وطبقتهما، فلم ينهلْ من كتبهم، ولا اتَّكأ على أقوالهم، فتفسيرُه لذلك يعدُّ من المراجع الهامَّةِ التي استفاد منها كثيرٌ ممَّن جاء بعده من المفسِّرين وغيرهم، وذلك لِمَا حوَاهُ من العلوم والآثار، وما ضمَّه من النِّكاتِ والأفكار، والتي أكثرُها من إبداعه، لا نقلاً عن غيره كما هو شأنُ الكثير من المفسِّرين الذين يعوِّلون في تفاسيرهم على النقل عمَّن سبَقهم.

وقد سعى فيه المؤلِّف لتحقيقِ أمرين اثنين:

الأول: الارتقاءُ بالإيمان والتقوى، وذلك لكثرةِ ما حواه من المواعظ والحكَم، والتذكيرِ بالله، ونقل عباراتِ العلماءِ العاملين، وأهلِ الزهدِ المخلِصين.

والثاني: الارتقاءُ بالعلم بالقرآن لغةً وإعراباً، وتفسيراً وتأويلاً، مع حشد الأقوال ونقل الآثار، مما تفرَّد بكثير منه هذا التفسير، فما له في الكتب المطبوعة من نظير، وقد سماه:

«التيسير في التفسير»

فكان اسماً على مسمًّى، فهو ميسَّرٌ لمن قرأه، ميسِّرٌ معرفةَ التفسير على مَن طالَعه.

وقد أكرمَني الله سبحانه بتحقيقه بعد مدَّةٍ طويلةٍ من العملِ في كتبِ التفسير

تَنوفُ على خمسةَ عشرَ عاماً، طالعتُ خِلالها غالبَ المشهورِ منها والمغمور، فخُضتُ غمارها، وغُصتُ في أعماقها، وعندما بدأت فيه كنتُ أظنه كباقي التفاسير لا يتميَّز عنها بشيء، ولم أكنْ أتوقَّع أنني سأجدُ فيه هذا الكمَّ الهائلَ من الفوائد والنِّكات، والرَّقائق والعِظَات، مع حسنِ الإشارة ومتانةِ العبارة، وسلامةِ الذوق، والذبِّ عن مذهبِ الحقّ.

فالعجَبُ كيف لم تمتدَّ إليه يدُ العناية إلى الآن، وبقي حبيسَ المكتبات يَنتظرُ مَن يمسحُ عنه غبارَ الإهمال، ويكشفُ عن أنواره ظلمةَ النسيان، مع أنه يفوقُ في فوائده كثيراً مما حقِّق وطُبع من كتب التفسير، فكان من فضلِ المولى عليّ أن أُوكلتْ هذه المهمةُ إليّ.

وكما يُقال: التيسيرُ علَامةُ الإذن، فقد يسَّر الله سبحانه لنا سبيل تحقيقه، وتهيَّأ لنا في سبيل ذلك كمٌّ كبيرٌ من النسخ الخطيةِ النَّفيسةِ الكاملة، ما لا يتيسَّر مثلُه في كثيرٍ من الكتب، فقمنا بالمقارنة بينها لانتقاءِ أفضل النسخ وأكثرِها دقةً وأقلِّها تحريفاً، وقد تمَّ لنا هذا المسعى بعون الله، واخترنا ثلاثةً من النسخ الخطية النَّفيسة، فتمَّ نسخ الكتاب ومقابلته من إحداها ثم مقابلتُه على الأخريين.

وقد كان من الصُّعوبات التي واجهتْنا أن الكتابَ لم يُطبع قبل الآن، ولا يوجد له، ولا حواشيَ أو شروح له يمكنُ الاستفادة منها، فكان علينا القيامُ بالمهمة كاملةً، وكانت تلك المهمةُ من الصعوبة بمكان، وذلك لكثرةِ ما فيه من أحاديثَ وآثار وأقوال، تحتاج للتخريج والشرح، وكذا لبيان حالِ المرفوعِ وما في حكمه، هذا مع كونِ أكثرِ الكتاب من إبداعِ المؤلِّف وإنشائه، وحتى ما ينقلُه فإنه يتصرَّف فيه فيزيدُ وينقص ويغيِّر، فلا تكاد تجدُ له في عباراته وأقواله سلَفاً يمكنُ الرجوعُ إليه لتصحيح تحريفٍ أو توضيحِ عبارة.

لكنْ مع كلِّ هذا قد يسَّر لنا سبحانه القيامَ بالمهمة خيرَ قيام، ليخرجَ الكتاب في النهايةِ بأبهى حلةٍ وأحسنِ حال، فنسألُ اللهَ سبحانه القَبول، فإنه خيرُ مأمول.

ومن أجل إتمامِ العملِ على أحسنِ وجه فقد قُمنا بكتابةِ مقدِّمة له تشتمِلُ على فصلين:

الأول: ترجمةُ المؤلف ترجمةً وافيةً بحيث تستوعِبُ كلَّ ما جاء عنه في المصادرِ المتوفرةِ لدينا، مع إعادةِ سبكِها وترتيبها، وقد استقصَيْنا لهذه الغايةِ كلَّ ما كُتب عنه تقريباً مما كان ترجمةً له، أو كان منبثًّا في كتبِ التراجم والأنسابِ وغيرها، الأمرُ الذي استغرَق تعباً وتدقيقاً لا يستهانُ بهما، وبالله التوفيق.

الثاني: كتابةُ مقدمةٍ للكتاب تتضمَّن تأكيد نسبة الكتاب للمؤلِّف، وأهمَّ المراجع التي نهلتْ منه ونهل منها، وطريقةَ مؤلِّفه في تأليفه، وأهمَّ المواضيعِ التي تناولها، هذا مع دراسةٍ مستفيضةٍ لخصائص هذا التفسير وما يميِّزه عن غيره من التفاسير.

وفي الختام نحمدُ الله أولاً وآخِراً على توفيقه وتيسيره، وما أنزل علينا من الرحمات، وامتنَّ به من البركات، في الجهدِ والفهمِ والأوقات.

كما نشكرُه سبحانه أن هيَّأ لهذا العملِ من الأساتذةِ الأخيار مَن بذَلوا غايةَ جهدهم ليرى هذا السِّفرُ العظيمُ النورَ بعد طولِ مكثٍ في غياهب الظلمات:

فنشكر **أولاً دار اللباب** للدراسات وتحقيق التراث التي حملتْ على عاتقها تحقيقَه وطبعَه وكلَّ ما يتعلَّق به متمثِّلةً **بمديرِها الأستاذِ أبي عبد الله محمد خلوف العبد الله**، والذي لولاه لَمَا خرجَ هذا الكتابُ إلى النور، فهو الذي استَخرجه من بينِ

آلاف المخطوطات، وبسعيِهِ ودأبه تمَّ تأمينُ نسخه الخطيَّة، وبمتابعته لكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تمَّ بفضلِ اللهِ الانتهاءُ منه على الوجه الأكمل.

كما نشكرُ الأساتذةَ توفيق التكلة، وفادي السيد، وخالد شمسو، وهادي الهندي، وخالد محمد ياسين علوان، الذين عملوا في نسخِهِ ومقابلتِهِ وإخراجه، وبذلوا لذلك جهوداً هائلةً لضمانِ الدقَّة والصِّحة وسلامةِ النصِّ. ونخص بالذكر الأستاذ **خالد محمد ياسين علوان** الذي بذل جهداً كبيراً في إتقان إخراج هذا الكتاب فنيًّا.

والشكرُ موصولٌ للإخوة الذين **ساعدوا في تحقيقِهِ**، وهم الأساتذةُ: **فادي المغربي، ومحمد سارية عجلوني، وجمال عبد الرحيم فارس**.

فنسألُ الله الرضا والقبول لنا جميعاً، وأن يوفِّقنا لخدمةِ كتابه العظيم، فهو أعظمُ عمل للمؤمن، وأكرمُه عند الله، وأرجاهُ للقَبول.

وكتبه

ماهر أديب حبوش

٢٦/٥/٢٠١٩

***

الفصل الأول

ترجمة الإمام النسفي[1]

١ ـ اسمه ونسبه ومولده ونشأته:

في مدينة «نَسَف» وفي أحد أيام سنةِ إحدى أو اثْنَتَين وسِتِّين وأربعِ مئةٍ كان سُطوعُ نجمِ الإمام نجم الدين شيخ زمانه، وعالمِ عصره وأوانه، ونَسَف بلدةٌ بين جَيحون وسمرقندَ وتسمَّى أيضاً: نخشب.

(١) تنظر ترجمته في «التحبير في المعجم الكبير» للسمعاني (١/ ٥٢٧)، و«معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٥/ ٢٠٩٨)، و«ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار (٥/ ٩٨)، و«العبر في خبر من غبر» للذهبي (٤/ ١٠٢)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٠/ ١٢٦)، و«بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم (١٠/ ٤٣٤٢)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٣/ ٢٦٨)، و«الجواهر المضية في طبقات الحنفية» للقرشي (١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥)، و«لسان الميزان» لابن حجر (٤/ ٣٢٧)، و«تاج التراجم» لابن قطلوبغا (ص: ٢٢٠)، و«طبقات المفسرين» للسيوطي (ص: ٨٨)، و«طبقات المفسرين» للداودي (٢/ ٥ ـ ٧)، و«طبقات المفسرين» للأدنه وي (ص: ١٧١)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ١٨٩)، و«الفوائد البهية في تراجم الحنفية» للكنوي (ص: ١٤٩)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٢٤٧، ٢٩٦، ٤١٥، ٤١٨، ٥١٩، ٥٥٣، ٥٦٤، ٦٠٢، ٦٦٨، ٧٠٦، ٧٥٦)، و(٢/ ١١١٤، ١١٢٥، ١١٤٥، ١٢٣٠، ١٣٥٦، ١٦٠٢، ١٦٨٦، ١٧٣١، ١٨٦٧، ١٨٦٨، ١٨٧١، ١٩٢٩، ٢٠٢٧، ٢٠٤٨، ٢٠٥٤)، و«سلم الوصول إلى طبقات الفحول» لحاجي خليفة (٢/ ٤٢١)، و«هدية العارفين» للبغدادي (١/ ٧٨٣)، و«مفتاح السعادة ومصباح السيادة» لطاش كبري زاده (١/ ١٢٣ ـ ١٢٤)، و«فهرس الفهارس» لعبد الحي الكتاني (١/ ٢١٥)، و«نثل النبال» للحويني (٢/ ٥٨٩)، و«الأعلام» للزركلي (٥/ ٦٠).

وهو عمرُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ إسماعيلَ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ لُقْمانَ، النَّسَفيُّ ثم السمرقنديُّ، وهو مصنِّفُ تاريخِها الملقَّبِ بـ«القَنْد»، الإمامُ الزَّاهد نجمُ الدِّين أبو حَفْص.

أما نشأتُه فلم يَرِدْنا الكثيرُ عنها، لكن الذي يظهرُ من تلامذته ومشايخه ومكانتهم العالية أنه كان في مجتمعٍ يَزخرُ بالعلمِ والعلماء، وأنه قد تفاعَل مع هذا المجتمعِ منذ حداثةِ سنِّه، يدلُّ على ذلك مثلاً أنه قد رُوي عنه «أصول البزدوي» لفخرِ الإسلام البَزْدَوِيِّ كما سيأتي، وفخرُ الإسلام تُوفي سنة (٤٨٢هـ)، وكان من شيوخه أيضاً إسماعيل بن إبراهيم بن محمد أبو محمدٍ النُّوحيُّ المتوفى سنة (٤٨١هـ)، وكان العلامةُ صاحبُ الترجمة أيامَ موت هذين الإمامين في حوالي العشرين من عمره، ما يدلُّ على أن طلبه للعلم كان قبل ذلك بكثير، ولا شكَّ أن مَن بلغ شأوَه وصنَّف تصانيفَه لا بد وأن يكون قد طلَب العلم وهو صغير حدثُ السن.

وقد رحل الإمامُ النسفيُّ لأداء فريضةِ الحج، فمرَّ ببغدادَ وأخذ عن بعض علمائها، وحدَّث فيها عن شيوخه، قال ابن النجَّار: قدِم بغدادَ حاجًّا في سنة سبعٍ وخمس مئة، وسمع من أبي القاسم بنِ بَيَانٍ وغيره، وحدَّث بكتاب «تطويل الأسفار لتحصيل الأخبار» من جمعه وتأليفه، روى فيه عن عامة مشايخه.

٢ ـ علمه وثناء العلماء عليه:

هو عالمُ عصره، وفقيهُ زمانه، الذي ملأتْ تصانيفه طباقَ الأرض، وقد بلغتْ ما يقاربُ المئة في فنونٍ وألوانٍ شتَّى، من التفسير والفقه واللغة وغيرها، ويكفيكَ دلالةً على علمه ومكانته أنه تتلمذَ على يدِ كبار علماءِ عصره كفخر الإسلام البَزْدويِّ صاحب الأصول المشهورة، وأخيهِ العلَّامةِ أبي اليُسرِ البَزْدَوِيِّ، كما تتلمذ على يده

كبارُ العلماء الذين عمَّ صيتُهم الآفاق، وشغلت كتبُهم الناس، ومنهم العَلَّامة المُحَقق شيخ الإسلام عليُّ بن أبي بكر بن عبد الجَلِيل الفرغاني صاحب «الهدَايَة»، بل إنه كان أجلَّ مشايخه حيث صدَّر «مشيخته» التي جمعهَا لنَفسِهِ بِذكرِ الإمام نجم الدين، وذكرِ ابنِه أبي اللَّيْث أحمدَ بنِ عمر بعدَه، وقال: **سمعتُ نجم الدِّين عمر يَقُول: أَنَا أروي الحَدِيث عَن خمس مئَة وَخمسين شَيخاً.**

وقد أثنى عليه كلُّ مَن عاصره أو جاء بعده، ولم يذكر فيه أحدٌ شيئاً سوى ما قاله السمعانيُّ من أنه لم يكن من أهلِ الحديث، وله فيه أوهامٌ وأخطاءٌ، وسيأتي كلامُ السمعاني، وسوف يأتي في هذه المقدِّمة إشارةٌ لهذا عند ذكر طريقته في إيراد الأحاديث.

أمَّا ثناءُ العلماء عليه فممَّا لا يُحصى، وسنسوقُ طرفاً منه لبيانِ مكانته في زمانه وبينَ علماء عصره، ومدْحِهم له في علمه وزُهده ودِينه، وحُسنِ جمعِه وتصنيفه، ونبدأ بقول السمعاني، فقد كان معاصراً له وإن لم يلقه:

قال السمعاني: إمامٌ فقيهٌ فاضل، عارف بالمذهب والأدب، صنَّف التصانيف في الفقه والحديث، ونظَم «الجامع الصغير» وجعله شعراً، وأما مجموعاتُه في الحديث فطالعتُ منها الكثير وتصفَّحتها، فرأيتُ فيها من الخطأ وتغييرِ الأسماء وإسقاطِ بعضها شيئاً كثيراً وأوهاماً غيرَ محصورة، ولكنْ كان مرزوقاً في الجمع والتصنيف، كتب إليَّ الإجازةَ بجميع مسموعاته ومجموعاته، ولم أُدركه بسمرقندَ حيًّا، وحدَّثني عنه جماعة، وإنما ذكرتُه في هذا المجموع لكثرة تصانيفه، وشيوع ذكره، وإن لم يكن إسنادُه عالياً، وكان ممن أحبَّ الحديثَ وطلبه، ولم يُرزق فهمه، وكان له شعرٌ حسنٌ مطبوعٌ على طريقة الفقهاء والحكماء.

وذكره ابن النجار فقال: كان فقيهاً فاضلاً مفسِّراً محدِّثاً أديباً متفنِّناً، وقد صنَّف كتباً في التفسير والحديث والشروط.

وقال الأدنَهْ وي: كان إماماً فاضلاً أصوليًّا متكلِّماً مفسِّراً محدِّثاً فقيهاً حافظاً نَحْويًّا لُغَويًّا ذكيًّا فَطِناً، أحدَ الأئمَّة الأربعة المشهورين بالحظِّ الوافر من العلوم والقَبُول التَّامِّ عند الخاصِّ والعامّ، وكان أستاذاً نشَر العلوم إملاءً وتذكيراً.

وقال اللَّكْنوي: كان إمامًا فاضلًا أصوليًّا متكلِّماً مفسِّرًا محدِّثاً فقيهاً حافظاً نحويًّا، أحدَ الأئمة المشهورين بالحفظ الوافر والقبولِ التامِّ عند الخواصِّ والعوامّ، وقيل: إنه كان يعلِّم الإنس والجن، ولذلك قيل له: مفتي الثقلين، كذا قال القاري.

وقال المرغِينانيُّ: إمامُ الأئمَّة ومقتدَى الأمَّة(١).

وقال ابن عابدين: مفتي الإنس والجن، رأسُ الأولياء في عصره(٢).

وقال الكشميريُّ: واعلَمْ أن الشيخَ نجمَ الدين عُمرَ النَّسفيَّ قد أَلَّفَ كتابًا في الوَقْف، فلمَّا رأيتُه تحيَّرتُ من كمال فصاحته وبلاغته، وهذا «النَّسفي» مقدَّم على صاحب «الكنز» ومُحَدِّثٌ فقيه، ومؤرِّخٌ كبير، صنَّف «تاريخ سمرقند» في اثنين وعشرين مجلدًا(٣).

٣ ـ لقاؤه مع الزمخشري:

وأمَّا لقاؤه مع الزمخشري، فقد ذكر فيه القرشيُّ قصةً طريفةً، وهي أنه أرادَ أن يزور جَار الله العلَّامةَ الزَّمَخْشَرِيَّ في مكَّة، فلمَّا وصل إلى داره دقَّ الباب ليفتحوه

---

(١) انظر: «كشف الأسرار شرح أصول البزدوي» (١/ ٤).

(٢) انظر: «حاشية ابن عابدين» (٤/ ٢٦٠).

(٣) انظر: «فيض الباري على صحيح البخاري» للكشميري (٤/ ١١٠).

ويأذنوا له بالدُّخولِ، فقال الشَّيخ: مَن ذا الذي يدقُّ الباب؟ فقال: عمر، فقال جَار الله: انْصَرِفْ، فقال نجم الدِّين: يَا سَيِّدي عمر لا ينْصَرف، فقال الشَّيخ: إِذا نكِّر ينْصَرف.

كذا وقعت القصةُ، ولم أجدْ مَن زاد عليها، وليس فيها أيُّ شيءٍ عن لقائهما، وإن كان قد تمَّ أم لا، لكنَّ الظاهر أن اللقاء قد حصَل؛ لأنه مِن غيرِ المعقول أن يصل إلى بابه ولا يلتقي به، ويبدو أن تلك كانت دعابةً من الزمخشريِّ، وكان يَعلمُ بالجواب مسبقاً، ولعل معرفةً جمعَتْهُما قبلَ ذلك، أو أنَّ الزمخشري سمع بهذا العلَّامة وعرف أنه في الحج معه وأنه سوف يَقدمُ لزيارته، واللهُ أعلم.

٤ ـ شيوخه:

لقد نهلَ العلَّامة نجم الدِّين من كبار علماء عصره، والمقدَّمين في ناحيته ومصره، فتشرَّب زبدةَ العلوم، ونهل من خُلاصة أهل العقول والفهوم، وكانوا في كثرةِ عددهم كما هم في سعةِ علومهم، وكثيرٌ منهم ممن ذاعَ صيتُه، وانتشرت في الأنام علومُه.

قال صاحب «الهداية»: سَمِعتُ نجمَ الدِّين عمرَ يقول: أنا أروي الحديث عن خمس مئةٍ وخمسين شيخاً، قال: وقد جمع أسماءَ مشايخه في كتاب سَمَّاهُ «تعداد الشُّيُوخ لعمر مستطرفٌ على الحروف مستَطَر» رحمه الله تعالى.

ومِن أجلِّ شيوخه:

١ ـ **عليُّ بنُ محمدِ بنِ الحُسَين بنِ عبد الكرِيم بنِ مُوسى بن عِيسى بن مجاهدٍ، أبو الحسن، المعروفُ بفَخْر الإسلام البَزْدَوِيِّ**، الفقيهُ الإمامُ الكبير بما وراءَ النَّهر، أخو القاضِي محمدٍ أبي اليُسْر. توفِّي في رجب سنة (٤٨٢هـ)، ومن تصانيفه «المَبْسُوط»، و«شرح الجامع الكبير والجامع الصَّغير» وله في أصول الفقه كتاب كبير مشهور ومفيد، رحمه الله تعالى.

وهذا الإمام لم أجدْ مَن ذكَره في شيوخ الإمام نجم الدين، سوى تلك الإشارةِ إلى أخذِه العلمَ عنه في كلام علَمين شرَحا «أصوله»، وهما:

الحسينُ بنُ عليِّ بنِ حجَّاجِ بن عليٍّ، حسامُ الدِّين السِّغْنَاقيُّ (ت٧١١ هـ)، قال في مقدمة «شرح أصول البزدوي»: وقد بلغَتْني روايةُ هذا الكتاب بالإسنادين المذكورين في «النهاية في شرح الهداية» مع زيادةِ أنَّ صاحب «الهداية» يرويه عن الشيخ الإمام الزاهد الحافظ نجم الدين أبي حفصٍ عمرَ بنِ محمدِ بن أحمدَ بنِ إسماعيلَ النسفيِّ، وهو عن المصنف رحمهم الله[1].

وعبدُ العزيز بنُ أحمدَ بنِ محمد، علاءُ الدِّين البخاريُّ (ت٧٣٠هـ)، قال في مقدمة شرحه أيضا: (حدَّثني بهذا الكتابِ شيخي وأستاذي وعمي الذي تقدَّم ذكره آنفاً قراءةً عليه بسرخسَ في المدرسة الملكية العباسية...) فذكر إسناده شيخاً عن شيخ إلى أن قال: (حدثنا شيخُ شيوخِ الإسلام برهانُ الدِّين عليُّ بنُ أبي بكر بن عبد الجليل الرِّشْدانيُّ (وهو نفسُه صاحب الهداية) قال: حدَّثنا إمامُ الأئمة ومقتدَى الأمة نجمُ الدِّين أبو حفصٍ عمر بن أحمد النسفيُّ عن الشيخ الإمام المصنف قدَّس الله أرواحَهم)[2].

ففي كلام هذين العلَمين ما يدلُّ على أن الإمامَ نجمَ الدِّين قد تتلمذَ على فخرِ الإسلام وأخذ العلم عنه، بل كما هو واضحٌ من كلاميهما أنه روى كتاب «أصول البزدوي» المشهور عن مؤلِّفه البزدويِّ مباشرةً دون واسطةٍ بينهما.

٢ ـ محمد بن محمد بن الحسين أخو فخر الإسلام، العلَّامة أبو اليسر البزدويُّ

---

(١) انظر: «الكافي شرح البزدوي» للسغناقي (١/ ١٨٣ ـ ١٣٩).

(٢) انظر: «كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي» لعلاء الدين البخاري (١/ ١٠).

النَّسَفيّ، شيخ الحنفيَّة بما وراء النهر، وكان قاضيَ قضاة سَمَرْقَنْدَ، وكان يدرِّس في الدَّار الجُوزجانيَّة ويُمْلي فيها الحديث. تُوُفِّي ببخارى (٤٩٣ هـ).

قَالَ السّمعانيّ: عُرف بالقاضي الصدر، وُلِد سنة إحدى وعشرين وأربع مئة.

وهو من شيوخ المؤلف كما ذكر العلماء، منهم صاحب «الجواهر المضية»، والداودي في «طبقات المفسرين».

وقال اللَّكنوي: أخذ الفقه عن صدر الإسلام أبي اليسر محمد البَزْدويِّ، عن أبي يعقوبَ يوسفَ السَّيَّاريِّ، عن أبي إسحاقَ الحاكمِ النَّوْقَدي، عن الـهِنْدُوانيِّ، عن أبي بكرٍ الأعمش وأبي بكرٍ الإسكاف وأبي القاسم الصَّفَّار.

والأعمشُ عن أبي بكرٍ الإسكافِ عن محمد بن سلمة عن أبي سليمان الجوزجاني عن محمد بن الحسن.

والصفَّار عن نصيرِ بن يحيى عن محمد بن سَمَاعة عن أبي يوسف[1].

وجاء في ترجمة أبي اليسر في «الجواهر المضية»: قال عمر بن محمد النَّسَفيُّ في كتاب «القَنْد»: وكان شيخَ أصحابنا بما وراءَ النَّهر، وكان إمامَ الأئمَّة على الإطلاق، والوفودُ إليه من الآفاق، ملأ المشرق والمغرب بتصانيفه في الأصول والفروع[2].

٣ ـ إسماعيلُ بن إبراهيم بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ نوحِ بنِ زيدِ بنِ نعمانَ بنِ عبدِ الله بنِ الحسنِ بنِ زيدِ بن نوحٍ، أبو محمدٍ النُّوحيُّ[3] **النَّسَفيُّ** الإمامُ الخطيب

---

(١) انظر: «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص: ١٤٩).

(٢) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (٢/ ٢٧٠).

(٣) نسبة إلى جده نوح المذكور، وقد تحرفت في بعض المصادر إلى: التنوخي.

من أهل نَسَف، ولد بسمرقند سنة (٤٢٣هـ) سمع أبا العبَّاس جعفر بن محمد المستغفريَّ، ذكره السَّمْعانيُّ وقال: كتَب الحديث بسمرقند.

روى عنه الإمام نجم الدِّين، له ذكر في «طِلْبَةِ الطَّلَبَة» توفِّي سنة (٤٨١هـ)(١).

قلت: وله ذكرٌ وروايةٌ في هذا «التفسير»، فقد جاء فيه في شرح البسملة: (قال الشيخ نجم الدين رضي الله عنه: وكان شيخُنا الإمامُ الأستاذُ الخطيبُ أبو محمد إسماعيلُ بنُ محمد النوحيُّ النسفيُّ ـ رحمهُ اللهُ ورضيَ عنه ـ روَى لنا عن بعضِ أولادِ عليٍّ رضي الله عنه: أنَّ اللهَ تعالى لمَّا خلقَ القلمَ قال له: اكتُب بسمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحيم...).

٤ ـ **أحمد بن عبد الله بن يُوسُف بن الفضل الصِّبْغي** الإمامُ من أهل سَمَرْقَنْد، سمع يُوسُف بن يحيى البَلْخيَّ، سمع منه الحافظ أبو حَفْصٍ النَّسَفِيُّ وغيرُه، كان إمامًا فَقِيهًا فاضلاً، ورد بغداد حاجًّا، وكان مُفِيداً في الدَّار الجُوزجانية بسمرقندَ، ذكره السَّمْعَانيُّ في «ذيله» وقال: سَمِعت أبا بكر الزُّهْرِيَّ بسمرقند: سمعتُ أبا حفصٍ يقول: توفِّي الإمام أحمد الصِّبْغيُّ يوم الخميس الثَّامِن من شهر رَجَب الفرد سنة سِتٍّ وعشرين وخمس مئة، وقد زَاد على سبعين سنة.

والصِّبْغي بكسر الصَّاد المُهمَلة وسكونِ الباء الموحَّدة وفي آخرها غينٌ معجمة نسبةً إلى الصِّبْغ، والصِّبَاغ هو ما تُصبغ به الألوان، قاله السَّمْعَانِيّ(٢).

٥ ـ **عمرُ بن محمدِ بن عمرَ بن أحمدَ بن خُشْنام الخُشْناميُّ البُخَاريُّ**، قال السَّمْعانيُّ: كان فقيهاً فاضلاً مُناظراً أديباً سمع أبا بكرٍ محمدَ بنَ عليٍّ بنِ حيدرةَ

---

(١) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٥/ ٥٣١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٣/ ٥١)، و«الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ١٤٥).

(٢) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٧٣).

الجَعْفَرِيَّ البُخاريَّ، سمع منه أبو حفص النَّسَفِيُّ، وتُوفِّي ببخارَى في ذي القعدة سنة اثنتينِ وعشرين وخمس مئة[1].

٦ ـ **أبو الفضائل عبد القادر بن عبد الخالق بن عبد الرحمن بن كاسم بن الفضل بن عبد الرحيم بن الحسن بن الربيع النَّوْقَديُّ**، من أهل نَوْقَدِ قريشٍ، كان إماماً فاضلاً، سمع ببُخارى السيدَ أبا بكر محمدَ بن عليٍّ بن حيدرةَ الجعفريَّ، وبمكة أبا عبد الله الحسين بن عليٍّ الطبريَّ وغيرهما، سمع منه أبو حفص عمر النسفي، وكانت ولادته سنة خمسين وأربع مئة[2].

٧ ـ **الإمام أبو محمدٍ عبدُ الرحمن بنُ عبدِ الرحيم العصَّارُ البَنْدِيمشيُّ**، روَى عنه أبو حفصٍ عمر النسفيُّ، وتوفي في شعبان سنة (٥٢٤هـ)[3].

٨ ـ **أبو الحسن علي بن يوسف بن محمد البِنْكَتِيُّ**، كان فقيهاً صالحاً، حجَّ بيت الله تعالى، وسمع بمكة أبا محمد عبد الملك بن محمد بن عبيد الله الزبيديَّ المقرئَ، سمع منه أبو حفصٍ عمر النسفي الحافظ[4].

٩ ـ **أبو حامد أحمدُ بنُ حمزةَ بنِ محمدِ بن إسحاق بن أحمد المطوِّعيُّ الرُّوذباريُّ التُّوذِيجيُّ**، سكَن سمرقند، حدَّث عن أبيه حمزةَ بن محمد التُّوذِيجي، روى عنه أبو حفصٍ عمر بن محمد النسفيُّ الحافظ، وأبو بكرٍ محمدُ بنُ محمد بن عليٍّ الزهري وغيرهما[5].

---

(١) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٣٩٧).

(٢) انظر: «الأنساب» للسمعاني (١٣/ ٢٠٧).

(٣) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٢/ ٣٣٩).

(٤) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٢/ ٣٤١).

(٥) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٣/ ١٠٥).

١٠ ـ أبو جعفر محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أحمد الجُرْجُساريُّ البلخيُّ، يروي عن أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد الشومانِّي، سمع منه أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي، قال: كَتب عني أيضا[(١)].

١١ ـ أبو محمد عبد الرحمن بن يحيى بن يونس الجِكِلِيُّ الخطيب، كان خطيبَ سمرقند أيام قدرخان، يروي عن أبي القاسم عبيد الله بن عمر الكُشَاني الخطيب، روى عنه أبو حفص عمر النسفي، وتوفي بسمرقندَ سنة ستَّ عشرةَ وخمسٍ مئة[(٢)].

١٢ ـ أبو المؤيَّد ميمونُ بن أبي العلاء أحمد بن الحسن الحاتميُّ النَّسفي، كان قاضيَ نسف مدةً مديدة، سمع جدَّه أبا عليٍّ الحسنَ بنَ عديٍّ الحاتمي، روى عنه أبو حفص عمر النسفي، ولد سنة اثنتين وأربعين وأربع مئة، وتوفي بنسف سنة ثلاث عشرة وخمس مئة[(٣)].

١٢ ـ أبو سعد محمد بن الحسن بن عليِّ بنِ المكيِّ بن عبد الله بن إسرافيل بن حماد الحَمَّاديُّ النَّخشبيُّ، يروي عن أبيه وأبي نصر محمد بن يعقوب السَّلامي، روى عنه أبو حفص عمر بن محمد النسفيُّ، ولد سنة أربع وعشرين وأربع مئة، وتوفي بنسف بعد سنةِ أربعٍ وتسعين وأربع مئة[(٤)].

١٣ ـ أبو بكرٍ محمدُ بن أبي بكر بن عبد الرحمن الخاوُصي الخطيب، حدَّث

---

(١) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٣/ ١٧٣).

(٢) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٣/ ٢٩٩).

(٣) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٤/ ٣).

(٤) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٤/ ٢٢٦).

بسمرقند، يروي عن أبي الحسن علي بن سعيد المطهِّري، روى عنه أبو حفصٍ عمر بن محمد النسفيُّ(١).

وغير هؤلاء كثير ممن ذكرهم السمعاني في كتابه، فنكتفي بهؤلاء لعدم الإطالة.

وممن سمع منهم النسفيُّ أيضاً وأخذ العلم عنهم: أبو علي الحسن بن عبد الملك الماتُريديُّ، وأبو محمد عبدُ الله بن أحمدَ القَنْطَريُّ، وأبو عبد الله التُّورِبشتيُّ بن عبد الملك القاضي، وأبو طاهرٍ المهديُّ بنُ محمد بن المهديِّ بنِ إسحاق العلوي، وأبو محمدٍ عبدُ الله بنُ عليِّ بنِ عيسى النسفيُّ، وأبو القاسم محمدُ بن محمد بن الحسين النسفيُّ، وأبو عبد الله الحسين بن أبي الحسن الكاشْغَريُّ، وأبو بكرٍ محمدُ بنُ الحسن بنِ منصور النسفيُّ، وأبو نصرٍ أحمد بن عبد الرحمن الرِّيغْذَمونيُّ، وأبو محمد الحسن بن أحمد السمرقنديُّ، وأبو حَفْصٍ عمر بن أحمد بن محمد الدَّيْزَكيُّ، وأبو الحسن عليُّ بن الحسن الماتُريدي(٢).

٤ ـ تلامذته:

لا شكَّ أنَّ مَن كان مثلَ هذا الإمام في علمه وزهده فسيقصدُه الناس من شتَّى البقاع ليَنهلُوا من مَعين علمه، وخصوصاً في مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله حيث كان سنداً فيه. ونذكر من أجلِّ تلامذته:

١ ـ **ابنه أحمد بن عمر، أبو اللَّيث، يعرف بالمَجْد،** قال السَّمْعانيُّ في «ذيله»: سَأَلته عَن مولده فقال: ولدتُ في سنة سبعٍ وخمسٍ مئة، تفقَّه على والده الإمام نجم الدِّين عمر النَّسَفِيِّ وغيره، أسمعهُ أبوهُ من جماعةٍ من السمرقنديين والغرباءِ

---

(١) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٥/ ٣٣).

(٢) انظر: «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار (٥/ ٩٨)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٠/ ١٢٦)، و«الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٣٩٤).

الواردين عليهم بسمرقند، وكان قد سمع من أبيه كثيراً غيرَ أنه لم يكن له عنايةٌ بالحديثِ مثلَ والده، وكان فقيهاً فاضلاً واعظاً كاملاً حسنَ الصَّمتِ وَصُولاً للأصدقاء، وفي صفر سنة اثنتين وخمسين خرج من بغداد مُتَوَجِّها إلى وطنه بعد عودته من الحج، فلمَّا وصل إلى قُومسَ وجاوَزَ بسطامَ خرج جماعة من أهل القلاع وقَطعُوا الطَّريق على القافلة وقتلوا مقتلةً عظيمة من العلماء والقافلين من الحجاز أَكثر من سبعين نفساً، وكانَ فيهم المجد النَّسَفِيُّ رحمه الله، وذلك يوم الإثنينِ السَّابع والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة بقرب كوف من نواحي بسطام(١).

٢ ـ عليُّ بن أبي بكر بنِ عبد الجليل الفَرْغانيُّ المرغِينانيُّ صاحب «الهداية»، كان إماماً فقيهاً حافظاً محدِّثاً مفسِّراً جامعاً للعلوم ضابطاً للفنون متقِناً محقِّقاً ناظراً مدقِّقاً زاهداً ورعاً بارعاً فاضلاً ماهراً أصوليًّا أديباً شاعراً لم ترَ العيون مثلَه في العلم والأدب، وله اليدُ الباسطةُ في الخلاف، والباعُ الممتدُّ في المذهب، تفقَّه على الأئمة المشهورين، منهم مفتي الثَّقلين نجم الدين أبو حفص عمر النسفي، وقد صدَّر المرغينانيُّ مشيختَه التي جمعَها بذكره ثم ذكَر بعده ابنَه أبا الليث أحمد بن عمر النسفي، قال: وقرأتُ عليه بعض تصانيفه وسمعتُ منه كتاب «المسندات» للخصَّاف بقراءة الشَّيخ الإمام ظهير الدِّين مُحَمَّد بن عُثْمَان(٢).

وهذه إجازة العلَّامة نجم الدين للمرغيناني في رواية «صحيح البخاري» بسنده إلى الكُشْمِيهَني والكُشَاني: قال الكَرْدَري: أخبرنا شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل بن الخليل بن أبي بكر بن عليٍّ الفرغانيُّ المرغينني صاحب

---

(١) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٨٦).

(٢) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٣٨٣).

كتاب «الهداية» إجازة عامة إن لم تكن خاصة، في صفر سنة تسع وثمانين وخمس مئة قال: أخبرنا الإمام أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن علي بن لقمان النسفي ـ رحمه الله ـ إجازة عامة إن لم تكن خاصة، قال: أخبرنا بكتاب «صحاح البخاري» الإمام الحافظ أبو محمد الحسن بن أحمد القاسمي الكوخميثني قال: أخبرنا الإمام الحافظ أبو العباس جعفر بن محمد بن المعتز المستغفِريُّ النسفي، قال: أخبرنا أبو الهيثم محمد بن المكي الكشميهني والشيخ أبو علي إسماعيل بن محمد بن أحمد بن حاجب الكُشَاني(١).

٣ ـ **محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن الدلقمانيِّ**، أبو عبد الله الفَقِيه من أهل سَمَرْقَنْد، ذكره ابن النجار وقال: قدم بغداد حاجًّا في سنة سِتٍّ وسبعين وخمسٍ مئة، وأملى بها الحديث عن عمر بن محمد النَّسَفِيِّ(٢).

٤ ـ **الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن مأمون الكَشِّيُّ الحنفي**، كان فقيهًا مناظرًا لزم الشيخ نجم الدين عمر النسفي وأخذ عنه، وارتفع شأنه وأقر له أقرانه بالفضل والكمال، وله كتاب «مجموع الحوادث والنوازل والواقعات» وهو كتاب نفيس مشتمل على فوائدَ جمَّة(٣).

٥ ـ **محمد بن الحسن بن محمد، برهانُ الدِّين الكاسانيُّ، أبو عبد الله الفقيه من أهل سمرقند**، كان إمامًا فاضلاً وشيخاً كاملاً في الفروع والأصول، وكان في الحديث أحفظَ زمانه، أخذَ عن نجم الدين عمر النسفيِّ عن صدر الإسلام أبي اليسر

(١) انظر: «إسناد صحيح البخاري» لابن ناصر الدين (ص: ٣٠٧).

(٢) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (٢/ ٤٥).

(٣) انظر: «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» (١/ ٢٥٨).

البَزْدَويِّ، وقدم بغداد حاجًّا سنةَ ستٍّ وسبعين وخمس مئة، وأملى بها الحديثَ عن النسفي[1].

٦ ـ **برهان الدين الحسنُ بن محمدٍ الكاسانيُّ**: ذكره العينيُّ في ترجمة أثير الدين بن نجيب بن محمد الكاسانيِّ، صاحبِ كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» فقال: وكان يروي كتاب «التيسير في التفسير» للإمام نجم الدين النسفي عن الشيخ الأجلِّ برهان الدين الحسن بن محمد الكاساني، وهو عن الشيخ الإمام نجم الدين[2].

قلت: ولعله الذي قَبْله.

٧ ـ **محمد بن عبد الجليل بنِ عبد الملك بن عليٍّ بنِ حيدر السَّمَرْقَنْديّ الإمام أبو الفضل**، له «منتخب كتاب القند في تاريخ سَمَرْقَنْد» لأستاذه[3].

٨ ـ **أبو بكر بن أحمد بن عليٍّ بن عبد العزيز البَلْخِيُّ الأصل السَّمرقَنْدِي الحنفي، عُرف بالظَّهير**، أخذ عن أبي حفصٍ عمر النَّسَفيِّ وقرأ عليه بعضَ تصانيفه، والإمامِ المرغيناني والأسبِيْجَابيِّ، ودرَّس بمراغة، وقدم حلب أَيَّام نور الدِّين محمود بن زنكي، ثمَّ توجَّه إلى دمشق ودرَّس بالخاتونية وغيرها، وتوفي بها سنة (٥٥٣هـ)، وله كتاب أَلفه في شرح «الجامع الصَّغير»

قال ابنُ العَديم: أخبرنا أبو هاشمٍ عبدُ المطلب بنُ الفضل بنِ عبد المطلب الهاشميُّ قال: أخبرنا أبو سعدٍ عبدُ الكريم بن محمد بن منصورٍ السمعانيُّ ـ ونقلتُه

---

(١) انظر: «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص: ١٦٢).

(٢) انظر: «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» للعيني (١/ ٣٢٥).

(٣) انظر: «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» لحاجي خليفة (٣/ ١٦٧).

أنا من خطِّ السمعاني ـ قال: وقال عمر بن محمد بن أحمد النسفي: الْتَمس الإجازةَ مني الإمام أبو بكر بن أحمدَ البلخيُّ السمرقنديُّ بهذه الأبيات:

أَيا مقتدَى الأيام يَاذَا العلَا عمرْ ... وقاكَ حفيظُ الخلق من شُبْهَة الضَّرَرْ
أَجِزْ لأبي بكر بن أحمدَ مُفْضلاً ... وبدِّل له بالأَجْرِ بالصَّفوةِ الكَدَرْ
جميعَ الذي صنَّفْتَه وسمعتَه ... وخذْ صالح الدَّعْوَات في ظُلمَةِ السَّحَرْ

قال: فكتبتُ إليه:

أجزتُ لسيدي وفريدِ عَصْري ... أبي بكرِ بن أَحْمد مَا ابتغاهُ
على شَرطِ التَّحَرُّزِ والتَّوَقِّي ... وذكري بِالدُّعَاءِ كَمَا حَكَاهُ
أجبْتُ دعاءَه فينا وفيه ... وفي الدَّاريْنِ تمَّ له مُناهُ(١)

٩ ـ عمر بن عبد الْمُؤمن بن يُوسُف الكجواديُّ البَلْخِيُّ، أبو حَفْصٍ شيخُ الإسلام المنعوتُ بصفيِّ الدِّين، اجتمع به صاحب «الهدايَة» في سفرهما إلى الحج سنة أربع وأربعين وخمس مئة وقرأ عليه أحاديثَ وناظره في المسائِل.

قال صاحب «الهدايَة»: أنشدنا الشَّيخ الإمام الزَّاهِد صفيُّ الدِّين منظوماً في الإجَازَة للشَّيخ الإمام نجمِ الدِّين عمر بن محمد النَّسَفيِّ:

أجزتُ لهم رواية مستَجازي ... ومسموعي ومجموعي بِشَرْطِهْ
فَلَا يَدْعُو دعائي بعد موتي ... وكاتبُه أَبُو حَفْص بِخَطِّهْ

(١) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (٢/ ٢٧١)، و«سلم الوصول» (١/ ٧٨)، و«الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص: ١٤٩).

ماتَ الكجوادريُّ سنة تسع وَخمسين وخمس مئَة(١).

١٠ ـ مُوسى بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن سِنَانٍ القحطانيُّ المعمَّريُّ أبو هارُون، تفقَّه ببخارى على عبد العَزِيز بن عمر بن مازة البُرْهَان، ذكره أبو حَفْص النَّسَفِيُّ في كتاب «القند في تَارِيخ سَمَرْقَنْد» وَقَال: قدم علينا سنة سِتَّ عشرَة وَخمْس مئَة، رَحل من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق وفارق أولاده، فَقِيه فَاضل مناظِر شَاعِر بليغ مُحدِّث محَاضِر، وبَقِي في بلاد العراق وخراسان وبخارى ثلاثَ عشرةَ سنةً ينشر الحديث والفقه والنَّظَر والكلام، وبَقِي عندي أَيَّامًا وكتب عني الكثير، ولأجله جمعتُ كتاباً لقَّبته: «عُجالة النَّخشبيِّ لضيفِه المغربي» وفيه قلت:

لقد طلع الشَّمْسُ من غربها ... على خافقَيْها وأوساطِها
فَقلتُ القيَامَةُ قد أَقبلت ... فقد جاءَ أَوَّل أشراطها(٢)

١١ ـ روى عنه محمد بن إبراهيم بن محمد التُّورِبِشْتيُّ(٣).

١٢ ـ روى عنه عمر بن محمد بن عمر العُقيليُّ(٤).

٥ ـ مؤلفاته:

لقد كان النسفيُّ رحمه الله صاحبَ فُنُونٍ، فَقِيهاً فاضلاً عارفاً بالمذهب والأدب، صنَّف التصانيف في الفِقْه والحديث والتفسير والشُّروط، وله نحوٌ مِن مئةِ مُصنَّفٍ، ومن مصنفاته:

---

(١) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٣٩٢).

(٢) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (٢/ ١٨٧).

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٠/ ١٢٦). وقد تقدم ضمن سند الحديث المروي عنه.

(٤) انظر: «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٣٩٤)

١ ـ «التيسير في التفسير» وهو موضوع بحثنا.

٢ ـ «طِلبة الطَّلَبَة» في اللغة، على ألفاظ كتب الحنفية.

٣ ـ «تعداد الشُّيوخ لعمر مستطرَفٌ على الحروف مستَطَر» جمع فيه أسماء مشايخه، وهم: خمس مئة وخمسون شيخاً.

٤ ـ «تطويل الأسفار لتحصيل الأخبار» روى فيه عن خمس مئة وخمسين شيخاً، وجمع أيضاً أسماء شيوخه، وحدَّث به لمَّا قدم بغداد.

٥ ـ «الأكمل الأطول في تفسير القرآن»، هكذا سماه في «هدية العارفين»، ولعله هو التفسير الكبير الذي ذكره في «التيسير»، فقد أشار إلى أن له غيرَه مطولاً فقال: والإتيانُ في القرآن لأربعينَ معنىً عدَّدْناها في تفسيرِنا الأولِ الأطول وسمَّاه في أكثر من موضع في تفسيره هنا باسم: «بحر علوم التفسير على نحو رسوم التذكير»، ونبه على ذلك ابن قطلوبغا عند ذكره لمشاهير كتب المؤلف فقال: و«التيسير» وفيه حَوالةٌ على تفسير كبير.

٦ ـ «النجاح في شرح أخبار كتاب الصحاح» وهو شرح لـ«صحيح البخاري»، ذكر في أوله أسانيده عن خمسين طريقاً إلى المصنف[1].

٧ ـ «الإشعار بالمختار من الأشعار» في عشرين مجلدًا.

٨ ـ «مشارع الشارع في فروع الحنفية»: ذكر فيه أنه لمَّا رأى المتعلِّمين

---

(١) ذكره ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (١/ ١١٤)، وابن قطلوبغا في «تاج التراجم» (ص: ٢٧١)، وحاجي خليفة في «كشف الظنون» (١/ ٥٥٣) وقال: ذكر في أوله أسانيده عن خمسين طريقًا إلى المصنف. وذكره أيضًا في (٢/ ١٩٢٩) وقال: وهو لعمر النسفي، قال في أوله بعد ذكر أسانيده: هذِه خمسون طريقًا لإسناد كتاب «صحيح البخاري» أخذتها عن مشايخي، وذكره البغدادي في «هدية العارفين» (١/ ٧٨٣)، وكحالة في «معجم المؤلفين» (٧/ ٣٠٦).

متألِّمين، أغناهم عن البَطالة، وما أبلاهم بالإطالة، فجمع لهم ما هو عجالة الراكب، وسمَّاه: «مشارع الشارع»، وجعله خمسين كتاباً، وخمسةَ أقسام، وهي: العبادات، والمعاملات، والمباحات، والتبرعات، والجنايات. شرحه أبو علي العالي بن إبراهيم بن إسماعيل الغَزْنَويُّ الحنفي المتوفَّى سنة (٥٨١هـ)، وسمَّاه: «المنابع في شرح المشارع» وهذا الرجل مذكور في ديباجة الكتاب بأنه مؤلفه، لا عمر النسفي، وهو وهم(١).

٩ ـ نظم «الجامع الصغير» لمحمد بن الحسن، في فروع الحنفية. وقد ذكر في أوله قصيدة رائية في العقائد إلى إحدى وثمانين بيتاً.

١٠ ـ «القَنْد في ذكر علماء سَمَرْقَنْد» وهو مخطوط في مكتبة طرخان والده سي بتركيا، وخطُّه رائعٌ رائقٌ، ولكنه ناقص من أوله وآخره(٢).

١١ ـ «الإجارات المترجمة بالحروف المُعْجَمَة».

١٢ ـ «بعث الرغائب لبحث الغرائب».

١٣ ـ «تاريخ بُخَارى».

١٤ ـ «الجمل المأثورة».

١٥ ـ «الحصائل في المسائل».

١٦ ـ «الخصائل في الفروع».

١٧ ـ «دعوات المستغفرين».

---

(١) انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٦٨٦).

(٢) انظر: «نثل النبال» للحويني (٢/ ٥٨٩)، ومقدمة التحقيق لمطبوع «القند».

١٨ ـ «مجمع العُلُوم».

١٩ ـ «المعتقد» منظومة في الخلاف.

٢٠ ـ «منهاج الدِّرايَة في الفُرُوع».

٢١ ـ «ياقوتة في الأحاديث».

٢٢ ـ «يَوَاقِيت المَواقيت في فضائل الشُّهور والأيام».

٢٣ ـ «أجناس الفقه».

٢٤ ـ «الجمل المأثورة».

٢٥ ـ «الفتاوى النسفية» وهي فتاواه التي أجاب بها عن جميع ما سئل عنه في أيامه، دون ما جمعه لغيره.

٢٦ ـ «فتاوى» نجم الدين أبي الحسن عطاء بن حمزة السُّغْديِّ، التي تولَّى جمعها الإمام أبو حفص النسفي.

٢٧ ـ «المعتقد» شرحه الشيخ شرف الدين أبو الفضل إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد الشيباني المتوفى سنة (٥٧٣هـ) وسمَّاه: «المنتقد»، ذكر فيه أنه رواه أبو جعفر الطحاوي ـ وهو الموثوق بروايته ـ عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله، ورواه عن أصحابه، وذكره بأوجز عبارة وأبلغ إشارة، وضمَّنه معظم أصول الدين.

٢٨ ـ «منظومة النسفي في الخلاف» رتبها على عشرة أبواب: الأول: في قول الإمام. الثاني: في قول أبي يوسف. الثالث: في قول محمد. الرابع: في قول الإمام مع أبي يوسف. الخامس: في قوله مع محمد. السادس: في قول أبي يوسف مع محمد. السابع: في قول كل واحد منهم. الثامن: في قول زفر. التاسع: في قول الشافعي. العاشر: في قول مالك. أتمها في يوم السبت في صفر سنة (٥٠٤هـ)، وعدد أبياتها ألفان وتسعة وستون وستُّ مئة، وأولها:

بـــاسمِ الإلـــهِ ربِّ كلِّ عـبـد والحـــمدُ لله ولـــيِّ الحمـــدِ

ولها شروح كثيرة تنظر في «كشف الظنون»[1].

٢٩ ـ «قيد الأوابد» منظومة في الفقه.

٣٠ ـ «كتاب ما ورد من الأخبار في ذكر معراج النبي المختار»[2].

٣١ ـ «عقائد النسفي»: قال في «كشف الظنون»: (وهو متن متين اعتنى عليه جماعة من الفضلاء...) ثم ذكر وأطال في تعداد شروحه وحواشيه، فلْتُنظَر ثمة[3].

وهذا الكتاب يُعدُّ من أهمِّ الكتب التي نُسبت للمؤلِّف، وإنما أَخَّرناه لذكرِ ما وقعَ من الخلافِ في نسبته، فإن بعضَ العلماء خالَفَ في نسبةِ هذا الكتاب لنجم الدِّين النسفيِّ، ومنهم:

شمس الدِّين أبو عبدِ الله محمدُ بن محمد بن سليمان المكيُّ المالكيُّ (المتوفى: ١٠٩٤هـ) قال في كتابه «صلة الخلف بموصول السلف»: النسفيُّ هذا ليس هو مصنِّفَ العقائدِ المشهورة التي شرَحَها السَّعدُ كما توهَّمه الكمالُ بنُ أبي شريفٍ في حاشيته على شرح السَّعد لها، بل مصنِّفُها أبو الفضل محمدُ بن محمدِ بنِ محمدٍ النسفيُّ المعروفُ بالبرهان صاحبُ «مختصر تفسير الفخر الرازي»، و«المقدمة» المشهورة في الخلاف، و«بحر الكلام»، وله تصانيفُ كثيرة في علم الكلام وغيره، أجاز للبرزاليِّ وتوفِّي سنةَ سبعٍ وثمانين وستِّ مئة، وفاةُ الأولِ في سبعٍ وثلاثين وخمسِ مئة.

---

(١) انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٨٦٧).

(٢) ذكره في هذا التفسير (١٤/ ١٢٠).

(٣) انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١١٤٥).

قال: وللحنفية نسفيُّون سواهما:

منهم: أبو الليثِ أحمدُ بن عمرَ المتقدِّمِ، الفقيهُ الواعظ، توفي بعد أبيه بخمسَ عشرةَ سنةً.

ومنهم: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي صاحب «الكنز» و«المدارك» و«المنار» وغيرها، ويأتي سند مروياته في كتاب «السير الكبير» لمحمد بن الحسن.

ومنهم: أبو المعين ميمون بن محمد بن سعيد بن مكحول النسفي صاحب «التبصرة في علم الكلام» و«التمهيد لقواعد التوحيد» وغيرها[1].

ونحوَ هذا الكلام قاله أبو عبدِ الله محمدُ بن عبد الباقي بن يوسف الزرقانيُّ المالكيُّ (المتوفى: ١١٢٢هـ) في «شرح المواهب اللدنِيَّة»[2].

وكلام الزرقاني نقله اللَّكنوي في «الفوائد المجموعة» على أنه من الفوائد[3]، وظاهر كلامه موافقتُه فيما ذهب إليه، بل هو قد جَزَم تقريباً بذلك في ترجمةِ محمد بن محمد بن محمد أبي الفضل البرهان النسفي، فقال: وتصنيفه في الكلام مشهور بـ«العقائد النسفية» الذي شرحه سعد الدين التفتازانيُّ وغيره، كذا ذكره الزرقاني وغيره، قد نسبه صاحب «كشف الظنون» إلى أبي حفص عمر النسفي المتوفى سنة (٥٣٧)[4].

---

(١) انظر: «صلة الخلف بموصول السلف» (ص: ١٩٠).

(٢) انظر: «شرح المواهب اللدنية» (٧/ ٣٩٣).

(٣) انظر: «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص: ٢٤٧).

(٤) انظر: «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص: ١٩٤).

كذا قال هؤلاء، **لكنَّ الدلائلَ التي تشيرُ لكونِ الإمامِ نجم الدِّين هو المؤلِّفَ له أقوى:**

فأولاً: كلامُ الأئمَّة السابقين أساسُه ومصدرُه هو الأول، أعني شمسَ الدِّين المالكي وما قاله في «صلة الخلف بموصول السلف»، فقد أخذ كلامه الزرقانيُّ فذكره بصياغةٍ قريبة جدًّا منه لكنه لم يَعزُه إليه، ومَن يراجعْ كلام الزرقانيِّ يعلم أنه قد اقتبَسه من شمس الدِّين، ثم جاء اللكنويُّ فاعتمد كلام الزرقاني.

وثانياً: أن العلامة سعدَ الدِّين التفتازانيَّ الشارحَ للعقائد قد صرَّح بنسبةِ الكتاب للإمام نجم الدين، فقال في خطبةِ شرحه: (وإن المختصر المسمَّى بـ«العقائد»، للإمامِ الهمام، قدوةِ علماء الإسلام، نجمِ الملة والدِّين، عمرَ النَّسَفِيِّ أعلى الله درجته في دار السلام...)[1]، فنسبه للإمام نجم الدين، ولا شكَّ أنه أعرف بذلك من غيره، وخصوصاً أنه من أئمَّة الحنفية، ومَن نفى ذلك مالكيُّ المذهب، وأهلُ مكةَ أدرَى بشِعابها.

وثالثاً: أن كثيراً من العلماء المحقِّقين قد نَسَبوه لنجم الدِّين عمر رحمه الله، منهم الكمال بن أبي شريف في حاشيته على شرح السَّعد للعقائد كما تقدم، وابن الشِّحنة كما ذكر ابن عابدين في حاشيته «رد المحتار» ووافقه، وحاجي خليفة في «كشف الظنون»، والبغدادي في «هدية العارفين»، وكحالة في «معجم المؤلفين»، والزركلي في «الأعلام»[2].

فهذا كلُّه يرجِّح نسبة الكتاب للمؤلف رحمه الله، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) انظر: «شرح العقائد النسفية» للتفتازاني (ط: مكتبة المدينة كراتشي باكستان) (ص: ٤٦ ـ ٤٧).

(٢) انظر: «رد المحتار على الدر المختار» (٣/ ٥٥١)، و«كشف الظنون» (٢/ ١١٤٥) و«هدية العارفين» (١/ ٧٨٣)، و«معجم المؤلفين» (٧/ ٣٠٦)، و«الأعلام» (٥/ ٦٠).

٦ ـ شعره:

قال السمعانيُّ: وكان له شعرٌ حسنٌ مطبوعٌ على طريقةِ الفُقهاء والحُكماء.

قلتُ: وسنذكر هنا ما استطَعْنا التقاطَه من ثمار الحكمة التي جادت بها يدُ هذا العالم الجليل، فمِن ذلك ما ذكره الذهبي فقال: ومن شِعره:

كم ساكتٍ أبلغُ من ناطقٍ ... وراجِل أشجعُ من فارسِ
ولاحقٍ يَسبق عُربًا مَضَوْا ... بفضلِ دِينٍ وهو من فارسِ[١]

وقال ابن النجار: أنشدنا شهابٌ الحاتمي بهراةَ، أنشدنا عبد الكريم بنُ محمدٍ أبو سعد، أنشدنا أبو الليث أحمد بن عمر بن محمد النسفيُّ، أنشدنا والدي لنفسه:

تزورُ المشاهدَ مستشفعاً ... بحُرمة مَن دفنوهم هناك
فكن أنت آخذاً أوصافهم ... نزوركَ حيًّا ومَيتاً لذاك[٢]

وذكر له المستعصِميُّ:

الأَمْنُ واليُمنُ في ثلاثٍ ... في الحِلم والرِّفقِ والسَّخاوَه
والشَّرُّ والشؤمُ في ثلاثٍ ... في البُخل والظُّلم والقَساوَه[٣]

وذكر له المستعصِميُّ أيضا:

قال النَّبيُّ فاسْمَعُوا وسَلِّمُوا لِحُكْمِهِ ... شَرُّ الأَنَامِ عَالِمٌ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ

---

(١) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٦/ ٤٤٨).

(٢) انظر: «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار (٥/ ٩٨).

(٣) انظر: «الدر الفريد وبيت القصيد» للمستعصمي (٥/ ٩٧).

مَـن لَم يزَعهُ عِلمُـهُ عن فِسـقِهِ وظُلمِهِ فإثـمُ كُلِّ آثـمٍ يكُـون دُونَ إثمـهِ(١)

وقال برهان الإسلام الزَّرْنُوجي: وأنشدتُ للشيخ الإمام الجليلِ الزاهد الحَجَاج نجم الدِّين عمرَ بن محمد النسفيِّ شعراً:

كُـنْ للأوامـرِ والنَّواهـي حافظـاً وعـلى الصـلاةِ مُواظبـاً ومُحافِظـا
واطلُبْ علومَ الشرعِ واجْهَدْ واستَعِنْ بالطيِّبـاتِ تَـصِرْ فَقيهـاً حافِظـا
واسـألْ إلهَـكَ حِفْـظَ حِفْظِـكَ راغباً مـن فَضْلـهِ فـاللهُ خـيرٌ حافظـا

وقال رحمةُ الله عليه:

أطيعـوا وجِـدُّوا ولا تَكْسَـلوا وأنتـم إلى ربِّكـم تُرجعـونْ
ولا تهجَعـوا فخِيَـارُ الـورى قليـلاً مـن الليـل مـا يَهجعـونْ(٢)

وقال في أمِّ ولدٍ له:

سـلامٌ عـلى مَـن تيَّمَتْنـي بطَرْفهـا ولمعـةِ خدِّهـا ولمحـةِ طَرْفِهـا
سَـبَتْني وأَصْبَتْنـي فتـاةٌ مليحـةٌ تحـيَّرتِ الأوهـامُ في كُنْـهِ وَصْفِهـا
فقلـتُ ذَرِينـي واعذُرِينـي فإنَّنـي شُـغِفْتُ بتحصيـلِ العلـومِ وكَشْـفِها
ولي في طِلَابِ الفضلِ والعلمِ والتُّقى غِنًـى عـن غِنـاءِ الغانيـاتِ وعَرْفِها(٣)

وقال كمالُ الدِّين محمدُ بن موسى بن عيسى بن عليٍّ الدَّمِيريُّ أبو البقاء الشافعي: وما أحسن قول عمر بن محمد النسفي:

---

(١) انظر: «الدر الفريد وبيت القصيد» للمستعصمي (٩/ ٣٧٩).

(٢) انظر: «تعليم المتعلم عن طريق التعلم» للزرنوجي (ص: ٥٨).

(٣) انظر: «تعليم المتعلم عن طريق التعلم» للزرنوجي (ص: ٦٢).

أَنِلْنِي بالذي استَقْرَضْتَ خطًّا … وأَشْهِدْ مَعشرًا قد شاهَدُوهُ
فإن الله خلَّاقَ البرايا … عنَتْ لجلالِ هَيْبتهِ الوجوهُ
يقول إذا تدايَنْتُم بدينٍ … إلى أجلٍ مسمًّى فاكتبوهُ[1]

ورَحِم الله الإمامَ نجمَ الدين فقد استمرَّ ولعُه بالكتابة نثراً ونظماً حتى في قبره بعد وفاته، فقد رُوي أنَّ شخصاً رآه بعد موته في المنام فقال: كيف كان سؤالُ مُنكرٍ ونَكير؟ فقال: ردَّ الله إليَّ روحي فسألاني، فقلت لهما: أُخبرُكما في ردِّ الجواب نظماً أو نثراً؟ فقالا: قلْ نظماً، فقلتُ:

ربِّي اللهُ لا إلهَ سواهُ … ونبيِّي محمدٌ مصطَفاهُ
دينيَ الإسلامُ وفِعْلي ذميمٌ … أسألُ الله عفوَه وعطَاهُ[2]

فانتبه ذلك الشخص من المنام وقد حَفِظ البيتين.

٧ ـ وفاته:

توفِّي العلَّامة نجمُ الدِّين ليلةَ الخميس ثاني عشرَ جُمادى الأولى سنةَ سبعٍ وثلاثين وخمس مئةٍ بسمرقند، فرحمه الله وأجزلَ له الثواب على ما قدَّم من خيرٍ لهذه الأمة، ولو لم يكن له سوى التفسيرِ لكفاه، وهذا ما سيتبيَّن إن شاء الله حين نبحرُ في ذلك البحر الواسع المليء بالكنوز، الزاخر بالدُّرِّ واليَواقيت.

* * *

---

(١) انظر: «النجم الوهاج في شرح المنهاج» للدميري (٤/ ٢٨٧).

(٢) انظر: «روح البيان» لأبي الفناء الخلوتي (٤/ ٣٩٢).

الفصل الثاني

دراسة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وبعد:

فبعد أن أكرمنا الله سبحانه بإنجازِ هذا السفر العظيم كان لا بدَّ لنا من وضعِ دراسةٍ له تليق به وبما يستحقُّه من بيانٍ وتعريف، وتكونُ كاشفةً لِمَا فيه من أبحاث، ومعرِّفةً بما تميَّز به عن غيرِه من التفاسير.

وسوف نقوم في هذه الدراسة بتناول الموضوعات التالية:

أولاً: تأكيد نسبة الكتاب لمؤلفه.

ثانياً: مصادرُ نقلت عن هذا التفسير.

ثالثاً: بيانُ خصائص وميزات هذا التفسير التي تميَّز بها عن غيره من التفاسير.

رابعاً: بيانُ منهج المؤلف الذي سلكه في تأليف تفسيره.

وهذا هو البحثُ الأهمُّ في هذه المقدمة، ونتناول فيه:

١ ـ مصادرَه التي اعتَمد عليها وكيفيَّةُ إفادته منها.

٢ ـ تفسيرَ القرآن بالقرآن في هذا الكتاب.

٣ ـ التفسيرَ بالمأثور فيه.

٤ ـ ردودَه على المذاهب الفاسدة.

٥ ـ منهجَه في النحو.

٦ ـ منهجَه في الفقه.

٧ ـ منهجَه في القراءات.

٨ ـ تعامُلَه مع الإسرائيليات.

خامساً: وصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق.

سادساً: عملُنا في الكتاب.

ونسأل الله تعالى التوفيقَ في مسعانا لرسمِ الصورةِ اللائقة بهذا التفسير.

* * *

أولاً: تأكيد نسبة الكتاب إلى المؤلف

لا شكَّ في نسبةِ هذا التفسير للعلَّامة أبي حفصٍ النسفيِّ، وقد ذكره عنه كلُّ مَن ترجم له أو نقل عنه، فمن هؤلاء:

١ ـ ذكره الأدنوي في «طبقات المفسرين» (ص: ١٧١) فقال: وأجلُّ تصانيفه «التَّيْسير في تَفْسير كتاب الله تعالى» في أربعِ مجلَّداتٍ أَبدعَ فيها بالنِّكات.

٢ ـ ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١/ ٥١٩) فقال: «التيسير في التفسير» لنجم الدين أبي حفصٍ عمرَ بنِ محمدٍ النسفيِّ الحنفيِّ، ذكر في الخطبة مئةَ اسم من أسماءِ القرآن، ثم عرَّف التفسير والتأويل، ثم شرع في المقصود، وفسَّر الآيات بالقول، وبسَط في معناها كلَّ البسط، وهو من الكتب المبسوطة في هذا الفن.

٣ ـ وقال اللَّكنويُّ في «الفوائد البهيَّة في تراجم الحنفية» (ص: ١٥٠): وله تصنيفاتٌ جليلة في التفسير والفقه، وأجلُّ تصنيفاته: «التيسير في التفسير».

وانظر الفقرة الآتية فإنها متمِّمةٌ لهذه الفقرة.

***

ثانياً: مصادر نقلت عن هذا التفسير

وقد نقل عنه جمعٌ من كبارِ العلماء، مصرِّحينَ في كثيرٍ من المواضع بعنوانِ الكتابِ واسمِ مؤلِّفه، ومُكتَفين في أخرى باسم الكتاب، وربما وقع ذلك دونَ تصريح، لكنْ بالمقارنةِ مع كلام المؤلِّف تبيَّن أن هذا التفسيرَ هو مصدرُ ذلك، ففي كلِّ ذلك زيادةُ تأكيدٍ في نسبة الكتاب للمؤلِّف:

١ ـ فمِن أوائلِ مَن وجدتُ أنه نقَل عنه علاءُ الدِّين البخاريُّ في «كشف الأسرار»: حيث قال: قال الإمامُ نجمُ الدِّين رحمه الله في «التيسير»: ويدخل في البيانِ الكتابةُ والإشارةُ وما يقع به الدلالةُ، وهو امتنانٌ منه على العباد بتعليمِ اللُّغاتِ المختلفةِ ووجوهِ الكلام المتفرِّقة[1].

ونقل عنه في موضع آخر تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] فقال: قال الإمامُ نجمُ الدِّين رحمه الله في «التيسير»: قيل: هما واحدٌ، ومعناهما: مجاوزةُ قَدْرِ الحاجة، والتكرارُ للتأكيد كقوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧][2].

٢ ـ وممن نقل عنه العلَّامة الطيبي في حاشيته على «الكشاف»: نَقل عنه في كثير من المواضع:

منها: عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨]، قال: ونقل صاحبُ «الفَرائد» عن صاحبِ «التيسير»: الأغلالُ مع الأيدي مجموعةً إلى الأذقان عبارةٌ عن منعِ التوفيق حين [كذا، والصواب: حتى] كانوا متكبِّرين مستثقلينَ للحق، لأن المتكبِّر يُوصَف بانتصابِ العنق، والمتواضِعَ

(١) انظر: «كشف الأسرار شرح أصول البزدوي» (٣/ ١٥٩).

(٢) انظر: «كشف الأسرار شرح أصول البزدوي» (٤/ ٥٣٢).

يُوصف بضده، قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦][(١)].

قلت: والكلام بحرفه منقول من هذا التفسير وسيأتي في مكانه.

ومنها: قوله: وقد أجاد صاحب «التيسير» حيث قال: قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١] دلَّ على الأطعمة، وقوله: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ على الأشربة، وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] على أنَّ في الجنةِ وراءهما من أصنافِ النِّعَم شيئًا آخَرَ[(٢)].

وقد نقل الطيبي عن «التيسير» في مواضع كثيرة من حاشيته المذكورة.

٣ ـ وممَّن نقَل عنه أبو بكرٍ البقاعيُّ: في «مَصاعِد النَّظر» في سورةِ الفاتحة فقال: وقال الإمامُ نجمُ الدِّين أبو حفصٍ عمرُ النسفيُّ في تفسيره «التيسير»: هي ثماني آياتٍ في قول الحسن البَصْريِّ، وستٌّ في قولِ الحسين الجُعْفيِّ، وسبعٌ في قول الجمهور[(٣)].

٤ ـ وممن نقل عنه العلامة ابن كمال باشا: في «تفسيره» وغيره من مؤلفاته:

منها: ما نقله في «أربعينياته» فقال: قال الإمامُ النَّسفيُّ صاحبُ «التَّيسير» في تفسيرِ سورةِ النِّساء: رَوى جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «اتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلاً لإطعامِه الطَّعامَ»[(٤)].

ومنها: تعقُّبه في رسالته المسماة «رِسالةٌ في تَحقِيقِ الغَيبِ» على المؤلف فيما

---

(١) انظر: حاشية الطيبي على «الكشاف» المسماة «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» (١٣/ ١١).

(٢) انظر: «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» (١٤/ ١٧٤).

(٣) انظر: «مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور» (١/ ٢٠٨).

(٤) انظر: «أربعينيات ابن كمال باشا» (ص: ١٣٧).

ذهبَ إليه مِن أنَّ المُرادَ بقَولِهِ تَعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧] حِفظُه مِن الجَوانبِ كيلا يَقْربَه الشَّيطانُ عند إنزالِ الوحي فيُلقِيَ في وَحيه غيرَ الوحي، أو يَسمعَه فيُلقِيَه إلى الكَهنة فيُخبِرون به قَبلَ إخبار الرسول(١).

ومنها: ما نقَله عنه في رسالته المسمَّاةِ: «رسالةٌ في شرحِ حديثِ سأُخْبِرُكم بأوَّلِ أَمْرِي» فقال: وفي روايةِ النَّسفيِّ في «التَّيسير»: «أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبِشارةُ أخي عيسى، ورُؤيا رأتها أمِّي آمِنةُ؛ خَرج منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ بُصرى»(٢).

وغير ذلك كثير، كما نقل عنه أيضاً في «تفسيره» أموراً لا تحصَى مصرِّحاً بالنقل عنه أحياناً ودونَ تصريحٍ في أحيانٍ أخرى:

فممَّا صرَّح فيه: ما نقله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] قال بعدَ أن اختار تأويلاً للآية: وبما قرَّرناه تبيَّن الخلَل فيما قيل: إنه عليه السلام كان يطعن في آلهتهم، فقالوا: لتنتهينَّ عن سَبِّ آلهتنا أو نهجونَّ إلهك، فنزلت. فإنَّ عبارة: (نهجونَّ) تأبى عن التَّأويل المذكور، وقد ذكر في «التيسير» سببَ النزول على وفق ذلك التأويل.

ومنه: قوله في تفسير سورة الكهف: وفي «التَّيسير»: كان البحرُ الذي يعمَلون فيه أصحابُ السَّفينة ما بين بحر فارسَ إلى بحر الرُّوم.

وكلٌّ وَرَدَ في هذا التفسيرِ كما سيأتي في موضعِه، وقد نقَل عنه في مواضعَ أخرى دون تعيينٍ، لكنْ بالمقابلةِ مع ما جاء في هذا التفسيرِ وجدْنا الكلامَ متطابقاً تماماً:

---

(١) انظر: «مجموع رسائل ابن كمال باشا» (١/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «مجموع رسائل ابن كمال باشا» (٢/ ٢٦٩).

فمن ذلك: نكتةٌ ذكَرها ابنُ كمال باشا في تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]، وكنَّا قد أوردناها في مقدِّمة تحقيقنا لـ«تفسير ابن كمال باشا» على أنَّها من إبداعاته وبناتِ أفكاره، ثم تبيَّن عند تحقيقِنا لهذا التفسيرِ أنها للمؤلِّف رحمه الله، وهي قوله: قال في صفةِ الحور: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] وفي صفةِ الولدان: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، وأشار بذلك إلى أن الحورَ للصُّحبة دون الولدان؛ لأنَّ اللؤلؤَ للنَّظر لا للذَّوق، والبيضَ لهما.

وهذا الكلامُ متطابقٌ بين التفسيرين.

ومما نقله عنه دون تصريحٍ أيضاً: قولُه في تفسير سورةِ يوسفَ: فأمَّا قوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] فهي على القلَّة؛ لأنهم كانوا يعدُّون القليل ويَزِنون الكثير.

٥ ـ كما نقل عنه الشهابُ الخَفَاجيُّ في حاشيته على تفسير البيضاويِّ المسمَّاةِ: «عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي» في عشرات المواضع:

منها: قوله في تفسير الفاتحة: الغضبُ والضلالُ وردا جميعاً في القرآن لجميع الكفار على العموم حيث قال: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧] ولليهود والنصارى جميعاً على الخصوص حيث قال في حق اليهود: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] إلخ، وفي حق النصارى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ [المائدة: ٧٧] كما في «التيسير»[1].

---

(١) انظر: «عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي» (١/ ١٤٦).

ومنها: في سورة البقرة قال وهو يتكلَّم عن التعجيبِ والتعجُّب في معنى (كيف): والأُولى أَولى؛ لِمَا في «التيسير»: أن (كيف) تكون للتعجُّب نحو: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٥٠]؛ أي: تعجَّب يا محمد، وللتعجيب؛ أي: الحملِ على التعجُّب(١).

ومنها: قوله: وهذا مأخوذ من قوله في «التيسير»: ويجوز أن يكون الخطابُ للمسلمين، والمعنى: كيف تكفرون نِعَمَ الله عليكم وقد كنتُم أمواتاً بالكفرِ أو الجهلِ فأَحْياكم بالإيمان أو العلم(٢).

٦ ـ ونقل عنه إسماعيل حقي في «روح البيان» في عشرات المواضع بالتصريح(٣)، وفي مواضعَ بغيرِ تصريح:

فممَّا نقله دون تصريح: حديثُ أبي هريرةَ رضي الله عنه: اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من أن أزنيَ أو أسرقَ، فقيل له: قد كبرتْ سنُّك، وأنت صاحبُ رسول الله ﷺ، أتخافُ على نفسك من الزنا والسرقة؟! فقال: كيف آمَنُ وإبليسُ حيٌّ(٤).

٧ ـ ونقل عنه ابن عابدين في «الحاشية» في الكلامِ عن محظوراتِ الإحرام فقال: قال صاحبُ «الملتقَط» في كتاب الأيمان: إنَّ الكفارة تَرفعُ الإثمَ وإنْ لم توجد منه التوبةُ من تلك الجناية اهـ، ويؤيِّده ما ذكره الشيخُ نجمُ الدِّين النسفيُّ في

---

(١) انظر: «عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي» (٢/ ١٠٩).

(٢) انظر: «عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي» (٢/ ١١١).

(٣) منها ما جاء في تفسير قوله تعالى في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي سورة البقرة في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وغيره كثير.

(٤) انظر: «روح البيان» (٢/ ١٩٣).

تفسيره «التيسير» عند قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤]؛ أي: اصطاد بعد هذا الابتداء(١).

٨ ـ ونقل عنه الآلوسي في «روح المعاني» في مواضعَ كثيرةٍ مع التصريح بالنقل من «التيسير»(٢).

***

(١) انظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٥٤٤).

(٢) منها ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وغيره كثير.

ثالثاً: بيانُ خصائصِ هذا التفسيرِ وميِّزاتِه التي تميَّز بها عن غيرِه من التفاسير

لقد اجتمع في هذا التفسيرِ أمورٌ لم تجتمِعْ في أيِّ تفسيرٍ آخر؛ من متانةِ الأسلوب، ووضوحِ المعاني، وكثرةِ النِّكات، وقوةِ الحُجج، وغيرِ ذلك مما سنبيِّنه فيما يأتي.

١ ـ وأولُ ما تميَّز به هذا التفسيرُ: هو أسلوبه في تفسير القرآن بالقرآن، واعتمادُه على ذلك في الاحتجاج والبيان، ووصولُه فيه إلى درجةٍ لم يصلْ إليها أيُّ تفسير، وقد أعددْتُ لهذا دراسةً شاملةً ستأتي إن شاء الله عند بيان منهج المؤلف في تفسيره هذا.

٢ ـ وإنَّ من أهم ما يُميِّز هذا التفسير: هو ذاك النَّفَسُ الإيمانيُّ والنَّفْحُ الرَّبَّانيُّ المتخالِطُ مع التفسيرِ اللفظي، والمتشابِكُ معه، بعباراتٍ لطيفةٍ رائقة، وألفاظٍ منتَقاةٍ لائقة، صادرةٍ عن قلبٍ خاشعٍ ولسانٍ ذاكر، فيَشعر الإنسانُ أنها تتغلغلُ في أعماقه، وتحرِّك منه المشاعر:

ـ كقوله في تفسير: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ بعد نقله كلامَ بعض العلماء في الصراط: وأنا أقول:

هو ما ليس عليه ظلامُ النُّكرةِ ولا غبارُ البِدعة.

هو ما لا يَضلُّ سالكُه ولا يهتدِي تاركُه.

هو ما لا يُخاف فيه قطعُ الطريق، ويُمدُّ سالكُه ببَذْرقةِ[1] العصمة والتوفيق.

---

(١) البدرقة قال في «التاج» (مادة: بذرق): بالذالِ المُعْجَمة والمُهمَلة، وقال ابْن بَرِّي: هِيَ الخفارة، وقالَ الهَروي في (فصل عصم) من كتابِه «الغريبين»: إن البَذْرقَة يُقال لها: عصمةٌ؛ أَي: يعتصم بها... =

هو ما يُسهِّل إلى المقصِد، والمقصودُ وصولُ قُصَّاده، واللهُ تعالى بمِرْصاده.

ـ وقوله في تفسير الصراط أيضاً: إنما سمِّي الدِّين صراطاً لأن مَن كان له مقصودٌ أو مطلَبٌ فإنما يصل إليه بعد قطعِ الطريق، وسلوكِ سواءِ السبيل، واللهُ تعالى متعالٍ عن الأمكنةِ، لكنَّ العبد الطالب صاحبُ المكان، فلا بد له من قطعِ المسافات، ومسِّ الآفَات، وتحمُّلِ المَخافات، ليُكرَم بالوصولِ والموافاة.

ـ وقال في شرح التي بعدها: وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ في البدايةِ بالعناية، وفي الحالِ بالهداية، وفي النهايةِ بالحماية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وهذا في البداية، وقال تعالى: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وهذا في الحال، وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وهذا في النهاية.

ـ وقال في تفسير الآياتِ التي في مطلعِ سورةِ البقرة: ثم مجموعُ الآية أنه قال: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهو مدحٌ بترك كلِّ المخالفات، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وهو ثناءٌ برأس الطاعات، ثم قال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهو مدحٌ بجامعةِ العبادات، ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهو مدحٌ بما هو أساسُ السَّخاوات، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وهو التصديقُ بكلِّ الرسالات، ثم قال: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وهو الإقرارُ والاعتقادُ بالبعث والجزاء على كلِّ المعاملات، ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو شهادةٌ لهؤلاء الموصوفين بالهداية في كلِّ الحالات، وحُقَّ لمن جمَع هذه الصفاتِ أنْ يؤهَّل لهذه الصِّلات.

= يُقال: بَعَث السُّلطانُ بَذْرَقَة مع القافِلَةِ، بالذَّالِ معجَمَةً... والمبذرِق: الخفير.

قلت: وينتج أن المراد بها هنا: العون والمدد، وما في معناهما.

ـ وقال: وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] دلالةٌ على شمول القدرة والصَّنعة، وتنبيهٌ عن سِنَة الغفلة، أنهم كانوا فمضَوا، وجاؤوا وانقضَوا، فلا تنسَوا مصيركم، ولا تَستجيزوا تقصيرَكم.

ـ وفي أولِ يوسف قال: وانتظامُ أَوَّل هذه السُّورةِ بآخرِ السُّورة الَّتي قبلَها: أنَّه افتتحَ هذه السُّورة بقوله: ﴿الٓر﴾ معناه: أنا اللهُ أرى من العرشِ إلى الثَّرى، فلي غيبُ السَّماوات العُلى والأراضي السُّفلى، ولسْتُ بغافلٍ عمَّا يعمل الورى.

وقيل: أنا الله أرى ما نزل بيوسفَ مِن البلوى، من الجبِّ والسِّجن والشَّكوى، ثمَّ جعلتُه مَلِك الدُّنيا، وجمعتُه مع شيخِه المبتلَى.

٣ ـ **كما يتميز بتلك النقول الرائعة والأقوال الجامعة المانعة**، والتي كثير منها لا تجده في الكتب، وفيها جوامعُ الكلِم، والمواعظُ والحكم:

ـ ففي تفسير الفاتحةِ في سببِ تسميتها بأمِّ الكتاب أسهَبَ في شرح ذلك وما قيل فيه، ومنه قوله: وقيل: الأمُّ: الإمامُ؛ فالسورةُ إمامُ أهلِ الإسلام، وأمُّ القرى مقصدُ الأَنام، وجهنَّم قيل لها: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩]؛ لأنَّ الكافرَ له إليها المرجعُ والمقام، والدِّماغُ أمُّ الرأس وللرأسِ به القيام؛ فأمُّ القرآنِ تقوم بهذه المعاني العظام.

ـ وفي الفاتحة أيضاً قال: وقالوا: خيارُ المسلمين سبعةُ أصنافٍ: الحامدونَ، والراجون، والخائفونَ، والمخلِصون، والمتوكِّلونَ، والمستقيمون، والعارفونَ، وفي هذه السورة نصيبٌ لكلِّهم؛ فقولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على نصيبِ الحامدين، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على نصيبِ الراجين، وقولُه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على نصيبِ الخائفين، وقولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على نصيبِ المُخلِصين، وقولُه: ﴿وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ على نصيبِ المتوكِّلين، وقولُه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ على نصيبِ المستقيمين. وبقيَّةُ السورة على نصيبِ العارفين.

ـ وفيها أيضاً في بيان الحمد والشكر: وقيل: الحمدُ مقلوبُ المدح، والشكرُ مقلوبُ الكَشْر، وهو انفتاحُ الشَّفتَيْن بالضَّحك حتى تبدوَ الأسنانُ، فالشكرُ انكشافُ الغطاءِ عن القلب حتى يعرفَ المنَّة مِن المنَّان.

ـ وكقوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: قال الواسطيُّ: أولُ قَدَمٍ في الإيمانِ: أن لا يجريَ عليك التلوين فيما يَرِدُ عليك من نعمةٍ أو بليَّة؛ إذ لا فرق بينهما في الحقيقة.

وقال داودُ الطائيُّ: الإيمان: ما يُوْرِثُك النورَ بعد الظُّلمة، ثم اللِّينَ بعد القَسوة، ثم السُّنَّةَ بعد البِدْعة، ثم التلذُّذَ بالعبادة بعد المجاهدة.

وقال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَريُّ رحمه الله: الإيمانُ أربعةُ أركان: التوكُّلُ على الله، والاستسلامُ لأمر الله، والرِّضا بقضاءِ الله، والشكرُ لنعماء الله عزَّ وعلا، والتقوى بابُ الإيمان، واليقينُ قلبُ الإيمان، والصبرُ عمادُ الإيمان، والإخلاصُ كمال الإيمان.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ٢٠٠] كان مما نقله فيها:

وقال بعض أهل المعرفة: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على بلائي ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ نَعمائي ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أعدائي ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ محبة مَن سوائي ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غداً بلقائي.

وقال آخر: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ عند قيام النفير على احتمال الكُرَب ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ على

مقاساة العناء والتعب ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أعدائي بلا هرَب ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ بهممكم عن الالتفات إلى السبب ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غدا بلقائي على بساط الطَّرب.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: يقال ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ على الطاعات وعن المخالفات ﴿وَصَابِرُواْ﴾ في ترك الهوى والشهوات، وقطع المنى والعلاقات ﴿وَرَابِطُواْ﴾ بالاستقامة في الصحبة في عموم الحالات.

قال: ويقال: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ بنفوسكم ﴿وَصَابِرُواْ﴾ بقلوبكم ﴿وَرَابِطُواْ﴾ بأسراركم.

قال: والصبرُ مرٌّ مذاقتُه إذا كان العبدُ يتحسَّاه على الغَيبة، وهو لذيذٌ طعمُه إذا شربه على الشهود والرؤية ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بمخالفةِ أهوائكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاحُ: الظَّفَر بالبُغية، وهمةُ القومِ اليومَ الظَّفَرُ بنفوسهم، فإذا ظَفِروا بها ذبحوها بسيوفِ المجاهَدة، وصلَبوها على عيدان المكابَدة، وبعد فنائهم عنها يَحصلُ بقاؤهم بالمشاهَدة.

ـ وذكر أيضاً في الموضع نفسه: وقال عطاء: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ على دينكم ﴿وَصَابِرُواْ﴾ الوعد الذي وعَد ربُّكم ﴿وَرَابِطُواْ﴾ عدوِّي وعدوَّكم، حتى يرجعَ عن دينه إلى دينِكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوني فيما نهيتُكم وأطيعوني فيما أمرتُكم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تُسْعَدون وتَبقَون في الجنة ناعمين مخلَّدين كما بشَّرتكم.

٤ ـ وإن من أهم ما تميز به أيضاً كثرة ما ينقله من آثار أو أقوال في التفسير أو النحو أو اللغة أو غيرها مما لا يوجد في الكتب التي بين أيدينا:

وهذا مما يبوِّئ هذا التفسير المكانة العالية السامقة على غيره من التفاسير المطبوعة.

ففي الآثارِ عن السَّلفِ مثلاً كثيرٌ مما ساقهُ لم نقف عليه، والغالبُ أنه نقلَه من

الكتب التي زَخرتْ بها مكتباتُ بلده وغيرِه من بلدانِ العالَم الإسلاميِّ، لكنها لم تَصِلْ إلينا لسببٍ من الأسباب:

ـ فمِن ذلك قولُ عليٍّ رضي الله عنه: لا تُنزِلوا الموحِّدين العارفين المخبِتين الجنةَ حتى يكونَ اللهُ هو يحكُم فيهم؛ لأن الله تعالى يقولُ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا تُنزلوا الموحِّدين العارفين المذنبين النار حتى يكون الله هو يحكم فيهم؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: ١١] نقَل هنا أقوالاً:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أهلكنا. وقال الضحاك: دمَّرنا. وقال أبو العالية: خرَّبنا. وقال ابن كيسان: هزَمْنا وقتلنا، وأنشد قولَ تبَّعٍ اليمانيِّ:

ولقد قَصَمْتُ يهودَ خيبرَ كلَّهم ... فتركتُ خيبرَ غيرَ ذاتِ يهودِ

ولم أقِفْ على هذه الأقوال عدا الأول، فقد رواه الطبري في «تفسيره» لكنْ عن ابن جُريجٍ ومجاهدٍ وابن زيد.

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: ذكر قول عمر رضي الله عنه: نِعْمَ السلاحُ القوسُ.

ـ وعند قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] قال:

وقال محمَّد بن عليٍّ الباقر: كلامُ أهلِ الجنَّة ثلاثة: التَّسبيح والتَّحميد وتسليمُ بعضهم على بعضٍ، ورزَقَ اللهُ تعالى هذه الثَّلاثةَ للمؤمنين في الدُّنيا في الصَّلاة؛ يَفتتِحون الصَّلاة بالتَّسبيح، ويفتتحون القراءة بالحمد، ويختمون بالسَّلام.

وقال الحسين بن علي: إذا أرادوا الطَّعام والشَّراب سبَّحوا، وإذا فرغوا حمدوا، وإذا اشتاقوا هلَّلوا، وإذا تلاقوا سلَّموا، وإذا تفرَّقوا بعدَ التَّزاور فآخر دعواهم ـ أي: آخر كلامهم عند التَّفرُّق ـ الحمد لله ربِّ العالمين.

ـ وعند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٤٠] ذكَر ما فيه من أقوالٍ للسلف فقال:

قال مجاهد: دعا الله فأُخرج له من نفقٍ في الأرض حتى وُضع بين يديه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال: يا حيُّ يا قيوم.

وقال عبد الله بن سلَامٍ: قال: اللهمَّ إني أسألُكَ بأنك أنت اللهُ الذي لا إلهَ إلا أنت، الحيُّ القيوم، الطاهرُ المطهّر، نورُ السماوات والأرض، عالمُ الغيب والشهادة الكبيرُ المتعال.

ورُوي عن جابرٍ أنه قال في الدعاء: يا اللهُ يا اللهُ يا اللهُ.

وقال عمرو بن عديٍّ: دعا فقال: يا ذا الجلالِ والإكرام، والفضلِ العظيم، والعزِّ الذي لا يُرام.

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] ذكَر قولَ الحسن: حصِّل ما في صدور الصُّحف، وهو كتحصيلِ الحساب: يَذهب ممَّا كان في صور الطاعات ما لم يكن لوجهِ الله ويبقَى ما هو لوجهه.

ـ وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ﴾: وقال الحسن: لجهنَّم سُرادقٌ كما قال: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] وللسُّرادق عَمَدٌ، فإذا مُدَّت تلك العَمَد أُطْبقت جهنمُ على أهلها.

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ قال: وقال يَعْلَى بن عطاء: ﴿وَثِيَابَكَ

﴿فَطَهِّرْ﴾ ممَّا كنْتَ تفكِّر فيه، ولا يَكثُرَنَّ[1] عليك ما أوذِيْتَ به، فإنَّه قليلٌ في جنبِ ما يريد الله أن يثيبَكَ.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران: ٣٩] عدَّد ما جاء فيه من أقوالِ السلف، وآخرُها: وقيل: الفقيهُ العاملُ بعلمه. ثم عقَّبه بقوله: وعندي هو الأصوبُ، فإنَّ عمر بنَ عبد العزيزِ قال للحسن البصريِّ: شَرُفْتَ في الدُّنيا بعلمك، فاعمل به تَشرُفْ بالآخرة.

وغيرُه كثيرٌ جدًّا من أقوالِ السلف، التي لم نجد في ذكرها للمؤلِّف سَلَف.

هذا فضلاً عن كثيرٍ من أقوالِ أئمةِ التفسير واللغة والنحو التي لم نقفْ عليها أيضاً، وممَّن أكثَرَ من النقلِ عنهم ولم نجدْ في الغالبِ أقوالهم: الكسائيُّ وقطربٌ ونِفْطويه والأخفشُ والقَفَّال وأبو سعيدٍ الضَّريرُ وأبو معاذٍ وغيرهم.

ـ فمِن ذلك ما نقَله عن الكسائيِّ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] من قوله: فيه وجوهٌ:

إن شئت على العطف بغير واوٍ، كأنه قال: فيه آياتٌ بيناتٌ وفيه مقام إبراهيم وغيرُه.

وإن شئْتَ: على الإضمار، كأنَّه قال: فيه آياتٌ بيناتٌ منها مقام إبراهيم.

وقيل: المقام مع أنه واحدٌ هو آياتٌ بيِّناتٌ؛ لأن المقامَ دلَّ على وحدانيةِ الله تعالى وكمالِ قدرتِه وعلمِه وسائرِ صفاته وأسمائه، وعلى نبوَّة إبراهيمَ وصِدْقِ دعوته وصدقِ شرائعه، فكانَ المقامُ الواحدُ آياتٍ بيِّناتٍ على هذا الوجه، وعلى هذا الوجه تقديرُه: فيه آياتٌ بيناتٌ هي مقامُ إبراهيم....

---

(١) في نسخة: «يكبرن».

ـ وعند تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] قال: قال الكسائيُّ: الباء بمعنى (عن)، كما في قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ومعناه: سأل هذا الكافر عن العذاب بمن يقع؟ فقال الله تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ـ ونقل كلاماً حسناً للقفَّال في تفسير: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ ..﴾ [التوبة: ٢٤]، فقال: وقال القفَّال: قطَع وجوهَ العُذر بهذا التعديد والبسطِ من الكلام، فلم يُجِزْ تركَ الهجرة والجهاد في سبيل الله للميل إلى الشيء من الأسباب المميلة، ولم يجعل ما يَثقُل على الإنسان فراقُه من أبٍ بَرٍّ، وابنٍ يَتزيَّن به، وأخٍ يَعتضِد بمعونته، وزوجةٍ يَسكن إلى صحبتها وإلْفِها وخدمتها، وعشيرةٍ يَتعزَّز بهم، ويَستعين على دفع الـمُلِمَّات بنُصرتهم، وأموالٍ مكتسَبة قد استَنفذَ في تحصيلها الوُسع، وأنفق على جمعها العُمر، وتجشَّم على حملها الأسفار، وخاف عليها الضَّيَاع بالغيبة عنها، وتجارةٍ قائمةٍ يرجو حصولَ أرباحها، ومنازلَ قائمةٍ عامرةٍ نزهةٍ مألوفةٍ يتحصَّن فيها من أذى البرد والحر، وأَعدَّ فيها مواضعَ للشتاء والصيف= حجةً في مخالفةِ ما أمر الله تعالى من الهجرة وجهادِ الكفار، وأَخبر أنَّ مَن آثرَ طاعة الشيطان على طاعة الرحمن فليستعدَّ لنزول أمر الله، فإنه ينزل به ما لا مَدفَعَ له ولا اعتصامَ منه بنصرةِ قرابةٍ أو عشيرة، ولا يتحصَّن بمساكنَ حَريزة، ولْيَعلمْ أن الله لا يُرشد الفاسقين المستخفِّين بدِينه إلى صوابٍ في تدبيره، ولا يهديهم إلى طريقِ رضوانه ورحمته ما داموا على اختيارِ مخالفته.

ـ وعن نفطويه نقل في معنى الغي في قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] قوله: هو الجهل.

وفي معنى ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ [النجم: ٦] قوله: أي: ذو رأيٍ مُحْكَمٍ.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] قولَه: أردتُ أمراً فضلَلْتُ عنه.

وفي معنى: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٨] قولَه: أي: يلقي الحقَّ في قلبِ مَن يشاءُ وعلى لسانه.

ـ وعن قطرب في قوله: ﴿نَفَشَتْ﴾ [الأنبياء: ٧٨] قال: إذا تفرَّقت بلا راعٍ، ومنه: (العهن المنفوش)؛ أي: المتفرِّق.

وفي قوله: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾: قال قطربٌ: زلزلةً وكسراً.

ـ ونقل أيضاً الكثيرَ من كلام الكلبي الذي لم نجده في المطبوعات؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] قال: قال الكلبي: أي: انتظِروا هلاكنا فإنَّا ننتظر هلاككم.

ـ ونقل عن النَّضْر بن شُميلٍ في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] قولَه: أي: لا يَنقصُ كما ينقص ظلُّ الدُّنيا.

ـ وعن أبي سعيد الضَّريرِ في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ قوله: ﴿وَحِيدًا﴾؛ أي: لا أبَ له، وهو في معنى قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾؛ أي: دَعِي.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ عدَّد المؤلِّف ما فيه من الأقوال فقال:

وقال محمد بن كعب: يقول: هذا لي وهذا لي.

وقيل: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾؛ أي: كثَّره؛ يقال: هذا مال له عددٌ؛ أي: كثرةٌ، و: في بني فلان عددٌ؛ أي: كثرة.

وقال أبو معاذ: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾؛ أي: هيَّأه للوجود، هذا لكذا وهذا لكذا، من العُدَّة بمعنى: أعدَّه وأَرصده.

وقال الأخفش: وعدَّده للدهور، وأعدَّ وعدَّد واحد، كقولهم: أَجَدَّ وجَدَّدَ، وأَحَدَّ وحدَّد.

ثم ختم ذلك بقوله: وهذا كلُّه دلالةُ الإمساك، كقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨].

ـ ومن روائع نقله ما ذكره في تفسير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ عن أبي زيد البلخيِّ(١) من قوله: الصمد: هو الذي يُصمد إليه تعظيماً له ورغبةً فيه، ووقوعُ هذا الاسم على مَن تعظَّم من البشر إنما هو على الاستعارة؛ لأنه ليس أحدٌ من المخلوقين وإنْ عظُم شأنُه وعلتْ رتبتُه إلا وهو موصوفٌ بالنقص، عاجزٌ عن إبلاغ مَن يَصمد إليه غايةَ أمله، فالصمدُ في الحقيقة مَن هو ملجأُ كلِّ مستغيثٍ به في نوازله، ومَن بيده ناصيةُ كلٍّ من خليقته، ومِن أجلِ جلالة هذا الاسم جعله الله تعالى مقروناً بلفظةِ ﴿أَحَدٌ﴾ الدالةِ على حقيقة الوحدانية؛ ليدلَّ بأحد الاسمين على أن الموصوف به هو مَن لا نظيرَ له ولا شبيه إذ له الوحدةُ المحضَة، ويدلَّ بالاسم الآخر على أن مِن الواجب إذ كانت الوحدانيةُ بالحقيقة له، وكان مبدعَ الكلِّ وحافظَه ومدبِّره، أن لا يُصمد بالعبادة والتعظيم والرغبة والرهبة غيرُه، فاجتمعَ في لفظي الأحدِ والصَّمدِ وما يتبعهما من نفي صفاتِ الحدوث ووجودِ مثيلٍ له وشبيهٍ له ـ وهو قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ـ ما يستحقُّه من صفات الألوهية والربوبية، ومن أجلِ عظيمِ شأنِ هذه الكلمات الموجودةِ في هذه السورة صارت من أشرفِ سور القرآن في توحيد الله وتمجيده، ولذلك سُميت سورةَ الإخلاص، كلُّ هذا كلام أبي زيد.

ثم نقل عن بعض أهل العلم قوله في تفسير سورة الصمد: إن هذه السورةَ يفسِّر بعضُها بعضاً، إذا قيل: مَن هو؟ فجوابه: ﴿ٱللَّهُ﴾، مَن الله؟ ﴿أَحَدٌ﴾ مَن الأحد؟

---

(١) هو أحمد بن سهل، أحد الكبار الأفذاذ من علماء الإسلام، وستأتي ترجمته في الكتاب.

﴿ٱلصَّمَدُ﴾ مَن الصمد؟ ﴿الذي لم يلد ولم يولد﴾ مَن الذي لم يلد ولم يولد؟ ﴿الذي لم يكن له كفوا أحد﴾.

وقد يذكر أحياناً أقوالاً تخالفُ ما ذهب إليه جميعُ المفسِّرين لكنها جديرةٌ بالتأمُّل:

ـ فمِن ذلك ما ذكَره في تفسير قولِه تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ قال: وقيل: هم عبادُ الخِلقة، وهم الكفار ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: كلمة التوحيد ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يحملُهم على الشرك ويُغري بينهم وبين المؤمنين بالعداوة ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ فإنْ علم منكم توبةً باستماعكم مواعظَ الله وعملِكم بها رَحِمَكم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ مسلَّطاً مكرِهاً على الإيمان، إنما عليك الإنذار.

ففسَّر العبادَ بالكفار، وبنَى عليه تفسيرَ باقي الآية، بينما كلُّ الأقوالِ الأخرى تجعلُها في المؤمنين.

وهذا كلُّه لم نجدْ منه شيئاً فيما توفَّر من مصادرَ، وهو ليس سوى غيضٍ من فيضٍ؛ كما سنرَى في هذا الكتاب إن شاء الله.

٥ ـ كثرة ما فيه من أقوال تفسيرية وفوائدَ ونكاتٍ خاصةٍ بالمؤلف:

فقد كان للمؤلِّف كثيرٌ من النَّظرات والنِّكاتِ التي تفوَّق فيها على غيره من المفسِّرين: ـ فانظُرْ مثلاً لروعةِ تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] حيث قال: أي: وسُهِّلَ لهم اجتناء ثمرها كيف شاؤوا؛ متَّكئين وقاعدين وقائمين، وهذا من عجيبِ الاختصار؛ لأنَّ فيه نزولَ العنقودِ إلى الفمِ والإنسانُ قاعدٌ، وارتفاعَه إليه وهو قائمٌ، وزوالَ امتناعِه عليه في كلِّ حالٍ من أحواله ببُعدٍ أو مانعٍ مِن شوكٍ أو غيره.

لم أجدْ مَن شرَحها هذا الشرحَ ووضَّحها هذا التوضيحَ البليغ، ومَن يراجعْ قولَ الزمخشريِّ مثلاً ـ وهو صاحبُ الباع في مثلِ هذا ـ في تفسيرها ويقارِنْ بينهما يَظهرْ له الفرقُ في التعبير، وفي حسنِ البيانِ والتصوير، فقد قال الزمخشري: وتذليلُ القطوف: أن تُجعلَ ذللاً لا تمتنعُ على قطَّافها كيف شاءوا، أو تجعلَ ذليلةً لهم خاضعةً متقاصِرة، من قولهم: حائط ذليلٌ؛ إذا كان قصيراً.

ـ ومثلُ هذا قولُه في تفسير: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]: أي: لم يثبِّطوا غيرَهم من الموسِرين والأصحَّاءِ عن الخروج، ولم يوهِموهم أن قعودهم كان لجواز التخلُّف لكلِّ مَن أراده، بل بيَّنوا سببَ تخلُّفهم، وحرَّضوا القادرين عليه، وقاموا بأسبابهم عند خروجِهم وأسبابِ مَن خلَّفوهم بالمعونة.

فهذا المعنى الذي ذكره لم أجدْ أحداً من أهل التفسير والمعاني ذكَره ولا ما يقاربُه في الحُسن وإصابةِ الـمَحَزِّ، اللهمَّ إلا ابنَ كمالِ باشا الذي في الحقيقةِ نقَلَه عن المؤلِّف.

ـ وانظرْ ما أروعَ شرحَه لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧] فقد قال في التفريق بين التجارة والبيع: لا تَشغلُهم تجارة؛ أي: بالأسفار في الأمصار ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾؛ أي: في الأسواق في الحوانيت، وحملناهما على هذين لتكون لزيادة إفادةٍ لا لمجرَّد إعادة.

قلت: وهذا التفريق بينهما لم أجد أحداً من المفسرين قد انتبه إليه أو نبَّه عليه.

ـ ثم قال في تفسير باقي الآية: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: أي: خارج الصلاة ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: وعن إقامةِ الصلاة في وقتِ الصلاة ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾: أي: وعن إيتاءِ الزكاة. بيَّن أنهم ليسوا بزَمْنَى لا أبدانَ لهم، ولا فقراءَ لا أموالَ لهم؛ ليكون لهجُهم

بالذكر لعجزهم وفقرهم، بل قال: لهم أبدانٌ يقيمون الصلاة بها، وأموالٌ يؤدُّون الزكاة عنها، ثم لا يَشغلُهم ذلك عن خدمة الله تعالى وذكرِه.

وهذه الحكمةُ التي ذكرها مِن قَرْن إقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة بذكرِ الله لم أجدْها عند أحدٍ من المفسِّرين.

ـ ومِن ذلك كلامه في الحكمة من ختم قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج: ٨ ـ ٩] حيث وَرَد في الآية كونُه عزيزاً حميداً ملكاً دون غيرها من صفاته تعالى، فقال المؤلِّف في تعليل تخصيص هذه الصفات: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ صفة لـ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى، وهو المنيعُ الذي لا يُغْلَب، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ بحمدِ المؤمنين، وفي عقول جميع المكلَّفين، والمستحِقُّ للحمد على الحقيقة ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ثم قال: وأشار بهذا كلِّه إلى أنَّه لو شاءَ لمنعَهم عن ذلك، لكن لم يمنع محنةً لأوليائه.

فهذه الحكمةُ من تخصيصِ تلك الصفاتِ التي ختَم بها لم أجد مَن تنبَّه لها ممَّن تكلَّم في تفسير الآيةِ، ومنهم الزمخشريُّ الذي قال فيها: وذكَرَ الأوصافَ التي يَستحقُّ بها أن يُؤْمَنَ به ويُعْبَدَ، وهو كونُه عزيزاً غالباً قادراً يُخشَى عقابُه، حميداً منعِماً يجب له الحمدُ على نعمته ويُرجى ثوابه، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكلُّ مَن فيهما تحقُّ عليه عبادتُه والخشوعُ له.

وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ كلامٌ حسنٌ لكنه غيرُ كافٍ في تعليلِ التخصيصِ بتلك الصفات، فإنه ينطبِقُ على كلِّ صفات الله وأسمائه.

ـ ومن شروحِه الحسنةِ ما جاء في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] مِن شرحِهِ لقول ابن عباس: إلا لِيُقِرُّوا لي بالعُبوديَّةِ طَوْعاً أو كَرْهاً.

ثم عقَّبه بقوله شارحاً له: يعني: أنَّ المؤمنين يُقِرُّون له طَوْعاً، والكافرون يُقِرُّون له بما جبَلَهم عليه مِن الخِلْقَة الدَّالَّة على وحدانيَّةِ الله تعالى، وانفرادِه بالخَلْقِ، واستحقاقِ العبادةِ دون غيرِه، فالخَلْقُ كلُّهم بهذا له عابِدون، وعلى هذا قولُه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقولُه: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ على معنى: ما يُوجَدُ منهم مِن دلائلِ الحُدوثِ المُوجِبَةِ لكونها مَرْبُوبةً مَخْلُوقةً مُسَخَّرةً.

وكلُّ هذا الذي ذكَرْناه ليس على سبيلِ الحصر، بل للتدليلِ والبيان، فكلُّ الكتابِ على هذا النَّحو.

٦ ـ ومما تميَّز به هذا التفسير أيضا: الإيجازُ في البيان، مع متانةِ العبارة، وجمالِ الإشارة، والوصول إلى توضيحِ المعنى بأسهلِ الطرق وأقربها لنفس المتلقِّي:

ـ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦] قال المؤلِّف على لسان السحرة: وهذا ممَّا لا يُعاب، بل ثَبَت له الإيجاب، ولا يجوزُ لنا عنه الانقلاب، فلا سبيلَ إلى إرضائكَ فقد استَسْلَمنا.

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١] قال: أي: أَمِتْني على الإسلام.

قيل: لَمَّا انتظمَتْ أسبابُه واطَّردَتْ أحوالُه اشتاقَ إلى ربِّه.

وقيل: لَمَّا رأى أمرَه على الكمال، علمَ أنَّه أشرفَ على الزَّوال، سألَ سعادةَ الانتقالِ، قال قائلُهم:

إذا تـــمَّ أمـــرٌ دنـــا نقصُـــهُ   توقَّـــعْ زوالًا إذا قِيْـــلَ تَـــمّ

ـ ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠] قال في معناه: ﴿لَعِبٌ﴾ كلعبِ الصِّبيان، ﴿وَلَهْوٌ﴾ كلهو الفتيان، ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النِّسوان، ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ كتفاخر الأقران، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ كتكاثر الدِّهْقان.

٧ ـ ومما تميز به هذا التفسير أيضاً: أنه لا ينقل الأقوال نقلاً حرفيًّا بل يَطبعُ ما ينقله بأسلوبه ويلوِّنه بفكره.

وأكثر ما رأيتُ هذا في نقله عن «تأويلات أهل السنة» للماتُريديِّ و«لطائف الإشارات» للقشيريِّ، وهما أكثرُ مصدرين نقَل عنهما المؤلف ورافَقاه من أولِ التفسير حتى آخِره:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠] قال المؤلف: وقال القشيريُّ: إنهم طاحُوا في أوديةِ التفرقة، واستَطابوا صحبةَ الأغيار، فشَقَّ عليهم حين طُولبوا بهجرانِ العادةِ والقرارِ في ساحاتِ التوحيد حتى قالوا ما قالوا.

ولفظ القشيري: (طاحوا في أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً في ساحات التوحيد، فشقَّ عليهم الإعراض عن الأغيار)[١].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٧٥] قال: وقال القشيري رحمه الله: استكثَرَ القليلَ من عباده فعدَّد أفعالهم في آيات، واستقلَّ الكثيرَ من نفسه فعدَّ الجنة بما فيها على كثرتها غرفةً.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤٥).

وعبارة القشيري: (يُعطي سبحانه الكثيرَ من عطائه ويَعدُّه قليلاً، ويَقبل اليسيرَ من طاعةِ العبد ويَعُدُّه كثيراً عظيماً، يعطيهم الجنةَ قصوراً وحوراً ثم يقولُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾، ويقبلُ اليسيرَ من العبد فيقولُ: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦])[1].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] نقل عن القشيري قوله: وقيل: مَن حاسبَه بكتابه وجد كلَّ زلَّةٍ ومَهلكةٍ، ومَن حاسبَه بكتابِ نفسِه ففي كتابه سبحانه: ﴿ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، فالواجبُ على العبد أن يبتهِلَ في دعائه فيقولَ: اللهمَّ حاسِبْني بكتابك على ما قلتَ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] لا بكتابي فإنه مشتمِل على القبائح والفضائح.

وعبارة القشيري: (ويقال: مَن حاسبَه بكتابه فكتابُه ملازمه في حسابه، فيقول: ربِّ، لا تحاسبني بكتابي، ولكن حاسبني بما قلتَ: إنَّك ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣] لا تعاملني بمقتضَى كتابي ففيه بواري وهلاكي)[2].

ـ وفي أواخر تفسير الفاتحة قال المؤلِّف: وقولُه عليه السلام في حديث القِسمة: «هذا بيني وبينَ عَبْدي نصفَين»[3]، أشار الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله إلى معنيَين فيه:

أحدُهما: أن يكون كلُّ واحدٍ منهما بينَ اللهِ وعبدِه، العبادةُ من العبدِ وهي للهِ تعالى، والاستعانةُ فعلُ العبد وهي طلبُه من الله تعالى.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٥٢).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٤٠).

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم (٣٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والثاني: أن العبادةَ من العبدِ للهِ تعالى، والمعونةَ من اللهِ تعالى للعبد، وهذا أظهرُ؛ لأنه قال في بقية السورة: «هذا لعَبْدي ولعَبْدي ما سَأل»[1] لمَّا كان نفعُ الهدايةِ للعبد جعَله للعبد، فكذلك نَفْعُ المعونة[2].

فهذا ما ذكره المؤلف، أما قول الماتريدي في «تأويلات أهل السنة»: (وقد رُويَ عن النبي ﷺ أنه قال في خبر القسمة: «اللهُ يقول: هذا بَيني وبينَ عبدي نِصْفين»، وذلك يحتملُ: أن يكون كلُّ حرفٍ من ذلك، بما فيها جميعًا الفزعُ إلى الله بالعبادة والاستعانةِ ورفعِ الحاجة إليه، وإظهارِ غناه ـ جلَّ وعلا ـ عنه؛ فيتضمَّنُ ذلك الثناءَ عليه، وطلبَ الحاجةِ إليه.

ويحتمل: أن يكون الحرفُ الأَولُ للهِ بما فيه عبادتُه وتوحيدهُ، والثاني للعبدِ بما فيه طلبُ معونته وقضاءُ حاجته، ويؤيِّدُ ذلك بقيةُ السورة أنه أُخرج على الدعاء فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل».).

وعلى هذا يقاسُ أغلبُ ما نقله المؤلف في تفسيره عمَّن تقدَّمه من العلماء.

٨ ـ وأخيراً فإن مِن أهم ما يميِّز هذا التفسيرَ هو أن مؤلِّفَه ليس مجردَ ناقلٍ لِمَا سطَّره مَن قبلَه أو روَوْه، ولا حاطبِ ليلٍ همُّه التجميعُ دون التحقيق، بل هو من العلماء المحقِّقين المدقِّقين الذين لهم رأيٌ وحضورٌ فيما ينقلونه أو يَروونه:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] نقل قولَ بعضهم في معناه: احبِسْه. ثم قولَ عطاءٍ الخراسانيِّ: أخِّره.

ثم قال عن الثاني: وهو الأصحُّ؛ لأنه لم يَثبت أنه حبَسهما، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ [طه: ٥٨].

---

(١) قطعة من الحديث السابق.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٦٥)، وفي نقل المؤلف شيء من التصرف.

فهو لم يَكتفِ بالترجيح، بل علَّل سببَه وبيَّن مأخذَه.

ـ ويظهرُ ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] حيث نقل عن مقاتلٍ: كان من مدينةِ بلقاءَ، وسُميت بلقاءَ لأن رجلاً ملَكها يقال له: بالقٌ، وكان من قصته: أنَّ موسى عليه السلام أراد أن يغزوَ ملكاً، فقال الملِك لبلعم: إن موسى رجلٌ حديدٌ، ومعه جندٌ كثير، فإنْ ظَهَر علينا أهلَكَنا، فادْعُ اللهَ ـ تعالى ـ أن يردَّه عنَّا، فقال: إنْ فعلتُ ذلك ذهبتْ دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، قالوا: فوقَعَ موسى وبنو إسرائيلَ في التِّيه بدعائه، فلمَّا انقضتِ المحنةُ قال موسى: يا ربّ! بأيِّ ذنب وقعتْ لنا هذه المحنة؟ قال: بدعاء بلعم، قال: فكما سمعتَ دعاءه عليَّ فاسمعْ دعائي عليه، فدعا موسى عليه فسلَخه الله مما كان عليه، ونزعَ منه معرفته فخرجتْ من صدره كحمامةٍ بيضاءَ، وذلك قولُه ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾.

ثم تعقَّبه بقوله: وهذا كلامٌ مختلٌّ، واحتباسُهم في التِّيه كان بقولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] لا بدعاء بلعم، وكيف يُستجاب دعاءُ بلعم وقد انسلخ من الآيات؟! ولأنه قد دعا على موسى وقومَه بالباطل، وكيف دعا موسى على بلعم بزوال الإيمان وكان مبعوثاً إلى الناس ليدعوَهم إلى الإيمان؟!

ـ وفي قوله تعالى: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: ٥٩] ذكر قول القُرظيِّ: تركوها.

ثم ذكر ما روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: أخَّروها عن وقتها.

ثم أعقب القولين بقوله مرجِّحاً: الصحيحُ الأول، فإنه في حقِّ الكفار، بدليلِ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [مريم: ٦٠] فاستثنى المؤمنين منهم، فدلَّ أن المستثنَى منهم هم الكفار.

ـ وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ [مريم: ٦١] قال: أي: موعودُه ﴿مَأْتِيًّا﴾؛ أي: يأتيه الموعودُ له ويبلغه.

ثم قال: ومَن جعله بمعنى الآتي فهو خلافُ الوضع، وما قُلناه أحسنُ؛ لأنه مراعاةُ الوضع، وما أتاكَ فقد أَتيتَه.

ـ ومن أعظم مظاهر تحقيقه وتمحيصِه ردُّه لقصة الغرانيق التي يذكرها المفسِّرون عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، حيث أبطلَها بردودٍ غايةٍ في الإفحام والصحَّة وقوَّةِ الحجة.

ـ وكذا عرضُه لقصة طلاقِ زينبَ بنتِ جحشٍ رضي الله عنها وزواجِ النبيِّ ﷺ منها في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٧ ـ ٣٩] فساق القصة بأحسنِ سياقٍ وأنزهِ معنًى، خاتماً إياه بقوله: وقد تكلَّم الناس في الآية بوجوهٍ وهذا أقومُها وأسلمُها.

قلتُ: وهو كما قال، فإنَّ ما ذكره ـ رحمه الله ـ هو السياقُ الذي عليه المحقِّقون من العلماء، وهو الذي مدَحه القرطبيُّ ونقَل عن علمائه قولَهم: وهذا القولُ أحسنُ ما قيلَ في تأويلِ هذه الآية، وهو الذي عليه أهلُ التَّحقيقِ من المفسِّرين

والعلماءِ الراسخين كالزُّهريِّ، والقاضي بكرِ بنِ العلاءِ القشيريِّ، والقاضي أبي بكرِ بنِ العربيِّ وغيرِهم[1].

ـ ولعل من أجملِ تحقيقاته: استدلالُه على أن الذبيح إسماعيلَ بما يظهر منه قوةُ عقلِه وحُسنُ استنباطه وفهمِه، وذلك في قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فقال: ودلَّت الآيةُ أنَّ الذَّبيح هو إسماعيل، فإنَّ الله تعالى بشَّر إبراهيم عليه السَّلام بأن يكون لإسحاق ولدٌ، وكان يعلمُ أنَّه لا يموت حتَّى يُولَد له ذلك، فلا يكون على هذا في الأمرِ بذبح هذا الولد امتحانٌ؛ إذ يَعلمُ أنَّه لا يتحقَّق فيه الذَّبح للحال، فتعيَّن للابتلاء الولد الآخر؛ وهو إسماعيل.

ـ وكذا استدلاله أن زوجاته ﷺ من أهل بيته من قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، حيث قال: وفيه ردٌّ على مَن أنكرَ مِن الرَّافضة أنْ يكونَ أزواجُ النبيِّ ﷺ مِن أهلِ البيت في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣] قال: أي: مِن مُتَّبعيه ـ يعني: نوحاً ـ إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلامُ.

ثم ذكر عن الفرَّاء قوله: وإنَّ مِن شيعةِ محمَّدٍ لَإبراهيمَ.

وتعقَّبه بقوله: وفيه بُعْدٌ.

ـ ومن ذلك ما نقلَه عند تفسيرِ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] عن الكلبيِّ من أنَّ قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ هذا خطابٌ منه لجبريل عليه السَّلام، ومعناه: يا سيِّدي.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٧)، وانظر: «المفهم» (١/ ٤٠٦) لأبي العباس القرطبي شيخ المفسر، وهو المراد بقوله: قال علماؤنا.

ثم تعقَّبه فقال: وقال عامةُ المفسِّرين وهو الصحيحُ: هذا خطابٌ منه لله تعالى ومناجاةٌ معه؛ لأن جبريل عليه الصلاة والسلام بشَّره من الله تعالى، فخاطَب به اللهَ تعالى، ودعا اللهَ الولدَ فاستجابَ له.

ـ ونحوه في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] قال: وما قال مقاتلٌ وقتادةُ والرَّبيعُ بن أنس: إنَّ ذلك كان عقوبةً له حيث سأَلَ الآيةَ بعد البشارةِ، فذلك باطلٌ، ولا يليق بحال الأنبياء، ولم يكن سؤالُه جنايةً، ولا منعُه عن الكلام عقوبةً؛ لِمَا قلنا: إنَّ سؤالَه لماذا كان، ومنعُه عن كلام النَّاس مع شَغلِه بذكرِ اللهِ تعالى أعظمُ الكرامات وأرفعُ الدَّرجات.

وقريبٌ من هذا عنايتُه بحلِّ الإشكالات، والإجابةِ عمَّا يُتوهَّم فيه التناقُض:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦] قال: ثم في الآيتين نفيُ العلم عنهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإثباتُ العلم لهم بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ولا تناقُضَ فيه، فإن الأول نفيُ العلم بأمور الدِّين، والثاني ثبوتُ العلم بأمور الدنيا، ولأن الأول نفيُ الانتفاع بالعلم بما ينبغي، والثاني صرفُ العلم إلى ما لا ينبغي، ومن العلم القاصر أن يهيِّئ الإنسان أمورَ شتائه في صيفه وأمورَ صيفه في شتائه وهو لا يَتيقَّن بوصوله إلى ذلك الوقت، ويقصِّرَ في الدنيا في إصلاح أمور معاده ولا بد له منها.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧] قال: ثم الجمعُ بين الأمرين وأحدُهما مكروهٌ والآخرُ محبوب ـ والمذكور في صدر الكلام هو العصمة ـ يُشْكِل بظاهره، لكنْ تقديرُه في الثاني: ومَن يمنعِ اللهَ مِن أن يرحمَكم إن أراد بكم رحمة.

فانظر إلى هذه الدقيقة كيف لاحظها، ثم كيف حلَّها بأسلوبه الواضح البسيط.

ـ ومما يدلُّ على دقَّته وبُعدِ نظره أيضاً ما جاء عند قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٤ ـ ٣٥] فقال: وقيل: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ﴾؛ فهو ﴿سَمِيعٌ﴾ لمقالتها ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّتها.

فالمؤلِّف عَلِم أن سائلاً سيسأل: اللهُ سميعٌ عليمٌ دوماً، فكيف قيَّدْتَ سمعَه وعلمَه بوقتِ قولها؟ فأجاب بما يعلِّل كلامه ويردُّ السؤال.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] ذكَر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ثم قال: ولا تُعارض هذه الآيةُ تلك الآيةَ؛ لأن عزَّ الرسول والمؤمنين بإعزازِ الله، فله العزةُ جميعاً على الحقيقة.

ـ وانظرْ لهذه الدَّقيقةِ وحُسنِ حلِّها في قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩ ـ ٢٠] قال: وإنَّما قال: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ﴾، وقد طاف الطَّائف ليلًا؛ لأنَّ معناه: فنظروا إليها صباحًا، فصارَت لهم كجنَّةٍ قد صُرِمَتْ ثمارُها، وكأرضٍ قد حُصِدَ زرعُها.

ـ ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ [القلم: ٤٩] قال: أي: لأُلقيَ بالأرض العارية عن النَّبات والبناء ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ بزلَّته.

قال: وقد مرَّ في آية أخرى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ [الصافات: ١٤٥]؛ أي: ألقاه الحوت.

قال: ولا تختلف الآيتان لوجهين:

أحدهما: أنَّ الأوَّل ليس بمطلَقِ النبذ، بل لنبذِه مذمومًا ولم يكن كذلك، وفي الثَّاني نبذَه بالعراء وقد كان محمودًا، وأرسلَه إلى مئة ألفٍ أو يزيدون.

والثَّاني: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾؛ أي: لبقيَ في بطن حوته إلى يوم القيامة، ثم أُلقي في عراءِ عرصةِ القيامة حين يُحشر النَّاس، ولكنْ منَّ الله تعالى عليه فنبذَه بعراء الدُّنيا، وهو كقوله: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] قال: قيل له: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾، ولم يقل: (عَلِمْتُ)، وإبراهيم قيل له: ﴿أَسۡلِمۡ﴾، ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ﴾ [البقرة: ١٣١]، وجوابُه مِن وجوه:

منها: أنَّ إبراهيم قال: ﴿أَسۡلَمۡتُ﴾، فابتُلِيَ، ومحمد ﷺ لم يقل: (عَلِمْتُ)، فعُوفِيَ.

وقيل: إنَّ إبراهيم سبَقَ، فذُكِرَ جوابُه في الكتاب المُنَزَّل بعده، ولم يَنْزِلْ بعد القرآن كتابٌ آخرُ يُذكَرُ فيه جوابُ محمد.

وقيل: التَّسليمُ مُتَناهٍ، فيُمكِنُ الإخبارُ عنه، والعِلْمُ لا يتناهى، فلا يُمكنُ الإخبارُ عنه.

وقيل: إنَّ إبراهيم هو قال بنفْسِه: ﴿أَسۡلَمۡتُ﴾، واللهُ تعالى أخبَرَ عن محمد ﷺ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهو إخبارٌ عن عِلْمه وزيادةٌ، وإخبارُ اللهِ تعالى عنه أعلى مِن جوابه بنفْسِه.

ـ ومنه قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] قال: وهذا قسَمٌ، ورُؤْيا الأنبياءِ وحيٌ[(١)] لا خَطأَ فيه، وخبَرٌ لا كَذِبَ فيه، والقسَمُ تأكيدٌ لا وَهْنَ فيه، ثم قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وهو في كلامِنا يُذْكَرُ فيما يكون ولا يكون، فما معناه مع ما سبق؟ وجوابُه من وجوه:

---

(١) في نسخة: «حق».

أحدُهـا: أنَّ مَلَـكَ الرُّؤْيـا خاطبَـه فـي الرُّؤْيـا بذلـك إِطْماعـاً، فنـزَلَ الكتـابُ بذلـك إسـماعاً.

والثَّاني: أنه تحقيقٌ لا تعليق، وتقديرُه: لَتَدْخُلُنَّه بإدخال الله، وهو بمشيئتِه وإرادتِه، لا مُعْتَرِضَ عليه، ولا مُنازِعَ له، ولا مانِعَ دونه.

والثَّالثُ: أنَّ اللهَ علِمَ أنَّ بعضَهم يموتُ قَبْلَ ذلك.

والرَّابعُ: أنَّه على قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾، لا على قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، فكان الدُّخولُ مَوْعوداً مُتَحَقِّقاً، وكان الأمانُ عند ذلك مَوْعوداً مُعَلَّقاً.

والخامسُ: أنَّ معنـاه: إذ شـاء اللهُ؛ كما قـال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ أي: إذ كنتم.

فهذا ما هدانا الله سبحانه إليه من بيانِ بعضِ ما تميَّز به هذا السِّفرُ الكريم، ومَن يبحِرْ فيه بفكره ويتأمَّلْ بعقله يجدْ أكثرَ منه بكثير، كما سياتي لاحقاً من بيان منهج المؤلف في هذا التفسير.

* * *

رابعاً: بيان منهج المؤلف الذي سلكه في تأليف تفسيره

هذا كتابٌ فريدٌ مفيد، دقيقٌ أنيق، زاخرٌ بالفوائدِ والنِّكات، حسَنُ الترتيب، متقَنُ التأليف، قد جمع فنونَ التفسير، وسلَك فيه مؤلِّفُه طريقةً واحدةً من أولِ سورةٍ وحتى الأخيرةِ، فهو يبدأُ في كلِّ سورةٍ بمقدِّمة تتناسَبُ مع ما سيردُ فيها من مواضيع:

ـ فسورةُ البقرة بدأ تفسيرَها بقوله: بسم الله الذي أنزلَ الكتابَ بلا ريب، الرحمنِ الذي لَطَف بالمؤمنين المتَّقين بالغيب، الرحيمِ الذي مَنَّ على المقصِّرين بسَتر العيب.

ـ ومقدِّمةُ سورة الأنفال كانت: بسم الله الذي مِن عنده النصرُ وهو العزيز الحكيم، الرحمنِ الذي لم يعاجلْ بالعقوبة للقائلين: ﴿أَمطِرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢]، الرحيمِ الذي وعد الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا بالمغفرةِ والرزقِ الكريم.

ـ ومقدِّمة الرحمن: بسمِ اللهِ الذي خلَقَ الإنسان، الرَّحمنِ الذي علَّمَ القرآن، الرَّحيمِ الذي جعلَ جزاءَ الإحسانِ الإحسانَ.

ـ ومقدِّمة الحاقة: بسم الله الذي أخذ الطَّاغين أخذةً رابِيَة، الرحمنِ الذي لا يخفَى عليه خافِيَة، الرحيمِ الذي وعد المؤمنين بجنَّةٍ عالية.

وهكذا جميعُ السور، ثم يَذكر نوعَ السورة من حيث المكيُّ والمدنيُّ، ثم عددَ آياتها فكلماتِها فحروفِها، ثم يذكر انتظامَ أولها بخاتمةِ التي قبلها، ثم انتظامَها كلِّها بمحتوَى سابقتِها.

وقد أطال بذلك في سورة البقرة وأبدعَ، فقد ذكر أنَّ انتظامها بالفاتحة حاصلٌ من سبعةِ أوجهٍ: بواحدٍ واثنينِ وثلاثةٍ وأربعةٍ وخمسةٍ وستةٍ وسبعةٍ.

فعدَّد هذه الأوجهَ مفصَّلةً، ونكتفي بما جاء في الوجه السابع، حيث قال:

وأمَّا السبعة: فالفاتحةُ سبعُ آياتٍ، وكلماتُ آياتها مذكورةٌ في سورة البقرة:

فـ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

و(اللهُ) في آياتٍ.

و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه ذكرُ يوم القيامة، وفي سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وهي آخرُ آيةٍ نزلت، وهي أبلغُ آيةٍ نزلت في ذكر يوم القيامة.

و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ونحوِه.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقولُه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقولُه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ في قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقد أُريد به الأنبياء صلوات الله عليهم، وذُكر من الأنبياءِ في سورة البقرة: آدمُ، وإبراهيمُ، وإسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ، والأسباطُ، وموسى، وهارونُ، وداودُ، وسليمانُ، وعيسى، وحِزقيلُ(١)، وأشموئيل(٢)، وعزيرٌ، صلوات الله

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] رواه الطبري عن وهب بن منبه وسيأتي.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ [البقرة: ٢٤٦] قال ابن كمال باشا في «تفسيره»: اختلفوا فيه، والأشهر الأظهر أنه أشمويل من نسل هارون عليه السلام.

عليهم. وعلى العموم في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وفي قولِهِ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقولُه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ذُكر الغضب في قوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، والضلالُ في قولِهِ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقولِهِ تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ثم هم اليهودُ والنصارى، وأكثر صدر السورة في ذكرهم، إلى أن قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٢٠].

وسنتناول في بيان منهج المؤلف ما يلي:

١ ـ أهم المصادر التي نقل منها.

٢ ـ تفسير القرآن بالقرآن في هذا الكتاب.

٣ ـ التفسير بالمأثور فيه.

٤ ـ ردوده على المذاهب الفاسدة.

٥ ـ منهجه في النحو.

٦ ـ منهجه في الفقه.

٧ ـ منهجه في القراءات.

٨ ـ تعامله مع الإسرائيليات.

١ ـ أهم المصادر التي نقل منها المؤلف:

هذا التفسيرُ هو من التفاسيرِ التي عُنِيتْ بالمعاني ولم تَخرُجْ عن مواضيعِ الآيات إلى مواضيعَ أخرى متَّصلةٍ بها سواءٌ كان ذلك الاتصالُ مباشراً أو غيرَ مباشرٍ، كما وقع فيه كثيرٌ من المفسِّرين الذين توسَّعوا في تفاسيرِهم على حسابِ تفسيرِ

الآيات، فخرَجوا عن التفسيرِ إلى مواضيعَ أخرى وتشعَّبوا فيها.

وقد انعكسَ هذا المنهجُ للمؤلِّف على المصادر التي استقَى منها، حيث اقتصَر رحمه الله في الغالب على كتبِ التفسير، بل على الأمَّهات منها، فنقل عنها بالتصريحِ أحياناً ودونَ ذلك في أحيانٍ أخرى، ومِن أكثرِ الكتب التي نقَل منها المؤلِّف:

١ ـ «تأويلات أهل السنة» لمحمدِ بنِ محمدِ بن محمودٍ، أبو منصورٍ الماتريديُّ ت (٣٣٣هـ): وقد أكثرَ من النقلِ عن هذا الكتابِ من البدايةِ وحتى النِّهايةِ، وهو في الغالِبِ يصرِّح بالنقلِ عنه، تارةً باسم المؤلف وتارةً باسم كتابه، وله احترامٌ خاصٌّ تُجاه الماتريديِّ، فكثيراً ما كان يصفُه بأوصافٍ تدلُّ على ذلك، فقد وصفَه مرةً بقوله: الشيخُ الإمامُ الزاهد أبو منصورٍ الماتريديُّ رحمه الله، وإن كان في الغالب يقتصرُ على وصفِه بالإمام، ولا يذكُرُه مجرَّداً عن ذلك الوصف.

٢ ـ «لطائف الإشارات» لعبدِ الكريمِ بنِ هوازنَ بنِ عبدِ الملك القُشيريِّ (ت٤٦٥هـ): وهذا الكتاب كالذي قبلَه في كثرةِ النقلِ عنه واستمرارِه، وهو كذلك لا يذكُر مؤلِّفه إلا بنعتِ الإمام، وغالبُ ما ينقلُه عنه في خواتيم الآياتِ لبيانِ ما فيها من الإشارات.

٣ ـ «معاني القرآن» للفرَّاء: وهو يكثرُ من الرجوع إليه، وله اعتمادٌ كبيرٌ على أقواله.

٤ ـ «معاني القرآن» للزجَّاج: وهو من المراجعِ الدوَّارةِ في الكتاب أيضاً.

٥ ـ «مجاز القرآن» لأبي عبيدةَ مَعْمَرِ بن المثنَّى: وقد نقلَ عنه في مواضعَ كثيرةٍ جدًّا مصرِّحاً بذلك في الغالب.

٦ ـ «تفسير مقاتل بن سليمان»: قد أكثرَ المؤلِّفُ رحمهُ الله مِن ذكرِ أقوالِ مقاتلٍ،

وهي مذكورةٌ في «تفسير مقاتل بن سليمان» باختلافٍ يسيرٍ في الغالب، وسيأتي تفصيلٌ لهذا في هذه المقدِّمة.

٧ ـ «تفسير الثعلبي»: وهذا التفسيرُ من المراجعِ الأساسيةِ للمؤلِّف، وخصوصاً في الآثار، مع أنَّ المؤلِّفَ لم يصرِّح بالنقلِ عنه سوى في مواضعَ قليلةٍ جدًّا.

٨ ـ «تفسير الطبري»: وهو من المراجعِ الهامَّة لهذا التفسير، وقد صرَّح المؤلفُ بالنقلِ منه مراتٍ، وهو ينقلُ عنه بالإضافةِ للآثار أقوالَ الطبريِّ التفسيريةَ.

٩ ـ كتب الواحدي «البسيط» و«الوسيط» و«أسباب النزول»: وهي من المصادر التي نقَل عنها كثيراً، لكنه لم يصرِّح بالنقل عن الواحديِّ سوى مرةٍ واحدةٍ، وذلك في أوائل الكتاب في تفسير سورة الفاتحة حيث قال: وروَى الواحديُّ وهو عليُّ بنُ أحمد المفسِّرُ في «تفسيره» بإسنادِه عن أبي مَيْسَرةَ قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا بَرَزَ سمعَ منادياً يُناديه...، الحديث.

١٠ ـ تفسير السُّلميِّ المسمَّى «حقائق التأويل»: وهو من مصادر أقوالِ المتصوِّفةِ كأبي عثمانَ الحِيْريِّ، وابنِ عطاءٍ السكَنْدَريِّ، وفارسِ بنِ عيسى الصُّوفيِّ، ونقلَ عنه أيضاً بعضَ أقوالِ جعفرٍ الصادقِ، وقد صرَّح المؤلِّفُ مرةً بالنقل عنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾ [البقرة: ١٩]، لكنه سماه: «حقائق القرآن».

١١ ـ «تفسير أبي القاسم ابن حبيب»: وهذا التفسيرُ ليس من التفاسير المتوفِّرة، لكن المؤلِّف صرَّح بالنقل عنه مراتٍ مكتفياً أحياناً باسمِ المؤلِّف كما في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ومصرِّحا بكليهما في أحيانٍ أخرى كما في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

١٢ ـ تفسير أبي الليثِ السمرقنديِّ المسمَّى «بحر العلوم»: وكثيرٌ من الأخبار

التي ذكرها المؤلِّفُ موجودةٌ فيه، وقد صرَّح بالنقلِ عنه مرةً عند تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ فقال: وفي «تفسير الفقيه أبي الليث رحمه الله»: فحملت ذاتَ يومٍ حزمةَ شوكٍ..، الخبر.

١٣ ـ كتاب «عصمة الأنبياء» للشَّيخ أبي الحسين محمَّد بن يحيى البشاغريِّ: نقل عنه فأكثر في تفسيرِ سورةِ يوسفَ دون غيرها، مصرِّحاً بذلك.

١٤ ـ تفسير «المشافهات» لعليِّ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الحنظليِّ السمرقنديِّ: وقد صرَّح المؤلِّف بالنقلِ عنه مرَّات.

١٥ ـ «تأويل مشكل القرآن» و«غريب القرآن» كلاهما لابن قتيبة: وهو في نقله عنهما يصرِّح باسم المؤلِّف غالباً، دون الكتاب.

١٦ ـ «تفسير أبي بكر الفارسي»: أحمدَ بنِ محمدِ بنِ أيوبَ الفارسيِّ الواعظِ المفسِّر، نقل عنه مرةً مصرِّحاً به عند تفسيرِ قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

ومن كتبِ اللغةِ التي أكثرَ من النقلِ عنها:

١٧ ـ «العين» المنسوبُ للخليل بن أحمد: وينقل عنه بالتصريح دائماً. وهذا الكتاب يعدُّ أحدَ مصادرِه الأساسيَّة في المعاني اللُّغويَّة، هو والآتي بعدَه وهو:

١٨ ـ «معجم ديوان الأدب» لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي.

وقد أكثرَ من النقلِ عن الكسائيِّ وقطربٍ والأخفشِ ونِفْطويه وابنِ وهبٍ والحسينِ بن الفضلِ والقفَّال. ولهم جميعاً مؤلفاتٌ لكنَّ كتبَهم ليست بين أيدينا.

فهذه غالبُ المصادر التي نهَل منها المؤلِّفُ في هذا الكتاب، لكن ينبغي التنبيهُ إلى أنَّ ما نقله المؤلِّفُ عن هذه المصادر ليس سوى جزءٍ بسيطٍ من هذا التفسير، كما سيَظهرُ جليًّا من الفصل الآتي، وهو:

٢ ـ تفسير القرآن بالقرآن في هذا الكتاب.

التفسيرُ: هو البيان، قال ابنُ فارسٍ: الفاءُ والسِّينُ والراءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحه[1].

فمعنى تفسيرِ القرآنِ بالقرآن إذاً: بيانُ القرآنِ بالقرآن.

وتفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ ليس محصوراً بالبيان اللَّفظي، بل هو مطلَقُ البيان، فمتى استَفَدْنا بيانَ آيةٍ مِن آيةٍ أخرى مِن أيِّ وجهٍ فهو داخلٌ في هذا النوعِ من التفسير.

ومعلومٌ أنَّ آياتِ القرآن الكريم يفسِّر بعضُها بعضاً، ويوضِّح بعضُها الآخرَ، فإنَّ القرآن الكريمَ قد اشتمَل على الإيجازِ والإطنابِ، والإجمالِ والتَّبيينِ، والإطلاقِ والتَّقييد، والعامِّ والخاصِّ، وما أُوجِزَ في موضعٍ بُسط في آخَرَ، وما أُجملَ في مكانٍ فصِّل في غيرِه، وما جاء مطلَقاً في آيةٍ قد يلحقُه التقييدُ في أخرى، وما كان عامًّا في مكانٍ قد يدخلُه التخصيصُ في مكانٍ آخرَ.

وكذلك نجدُ في قصصِ القرآنِ تأتي القصةُ في مكانٍ مختصرةً، ثمَّ تُفصَّل في موضعٍ آخَرَ، وقد يُذكَرُ في مكانٍ تفصيلٌ لا يُذكرُ في المكانِ الآخرِ، فعندما تُجمعُ المواضعُ التي عرَضت تلك القصةَ، وترتبطُ الأجزاءُ ببعضها، عند ذلك تكتمِلُ الصورة، وتصبحُ واضحةً لهذه القصَّة أو تلك.

فهذا هو تفسيرُ القرآن بالقرآن، لكنْ ليس هذا عملاً آليًّا لا يقومُ على شيءٍ من

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٤/ ٥٠٤).

النَّظر، وإنَّما هو عملٌ يقومُ على كثيرٍ من التدبُّرِ والتعقُّل، إذ ليس حملُ المجمَلِ على المبيَّن، أو المطلَقِ على المقيَّد، أو العامِّ على الخاصِّ، أو إحدى القراءتينِ على الأخرى، بالأمرِ الهيِّن الذي يَدخلُ تحت مقدورِ كلِّ إنسان، وإنما هو أمرٌ يَعرفه أهلُ العلم والنظرِ خاصةً(١).

ولقد عُني العلماءُ بتفسيرِ القرآنِ بالقرآن عنايةً كبيرةً، حتى عَدُّوه أصحَّ طرقِ التفسير، كما قال بعضهم: إن أصحَّ الطرقِ في التفسيرِ أنْ يفسَّر القرآنُ بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكانٍ فإنه قد فُسِّرَ في موضعٍ آخر، وما اخْتُصِر من مكانٍ فقد بُسِطَ في موضعٍ آخر.

لكن ينبغي التنبيهُ هنا على أنَّ تفسير القرآنِ بالقرآن ـ فيما عدا ما فسَّره النبيُّ ﷺ من ذلك ـ هو نوعٌ من أنواع التفسير بالرأي، فإنَّ عمليةَ التفسيرِ المعتمِدةَ على الفهمِ والاجتهاد بين الآيتين، والحكمَ بأنَّ إحداهما مبيِّنةٌ للأخرى، أو مفصِّلةٌ لمجمَلها، أو مطلِقةٌ لمقيَّدها، أو ناسخةٌ لحكمِها، إنما هو من قَبيلِ التفسيرِ بالرأي.

وثمةَ أمرٌ آخرُ لا بد من التنبيه عليه أيضاً: أن كونَ تفسيرَ القرآنِ بالقرآن عن طريقِ الاجتهادِ فقد يدخلُه الاختلاف؛ لِـمَا جُبِل عليه البشرُ من اختلافِ العقول، فالآيةُ التي يجتهدُ عالمٌ في تفسيرها بآيةٍ أخرى قد يجتهدُ غيرُه فيفسِّرها بغيرها.

وملاحظةٌ أخيرة: وهي أنه ليس كلُّ مَن حمَل آيةً على أخرى يُقبل قوله بحجةِ أنه من تفسيرِ القرآن بالقرآن، فإنَّ هذا الأسلوب قد يستعملُه أحياناً أهلُ البِدَعِ لتقريرِ بِدْعتِهم، كما فسَّر بعضُ المعتزلةِ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] بأنها تنتظِر ثوابَ ربها، وينفُون رؤيةَ الباري، ويستشهدون لذلك

(١) انظر: «التفسير والمفسرون» (١/ ٣٣).

بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولولا قولُهم بعدمِ رؤيةِ الباري لَمَا حملوا هذه الآيةَ على تلك.

وممَّا ينبغي أن يُعلم أيضاً: أن تفسيرَ القرآن بالقرآنِ هو أحدُ طرقِ التفسير، وثمةَ طرقٌ أخرى لتفسيرِ القرآنِ منها التفسيرُ بالمأثور والتفسيرُ بالرأي، والمفسِّرون بشكلٍ عامٍّ يعتمِدون في تفاسيرهم جميعَ أنواعِ التفسير، وقلَّما يَقتصرُ تفسيرٌ على لونٍ واحدٍ، وعلى هذا فتفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ لا شكَّ موجودٌ في كلِّ التفاسير المعتبَرة عند أهلِ السُّنَّة والجماعة، وإنَّما الذي يختلِفُ هو نسبةُ اعتمادِ هذه الطريقةِ بالقياسِ إلى غيرِها مِن طرقِ التفسير، فابنُ كثيرٍ رحمه الله ـ مثلاً ـ وهو ممَّن أكثرَ من اعتمادِ هذه الطريقةِ في التفسير قد عُرف تفسيرُه من ناحية أخرى بأنه مِن أشهَرِ ما دوِّن في التفسيرِ بالمأثور.

وكذلك هذا التفسيرُ فإنك تجدُ فيه كلَّ أنواع التفسير، لكنْ من أهمِّ ما تميَّز به إنْ لم يكن أهمَّها هو هذا الأسلوبُ من التفسير، فقد قطَع فيه المؤلِّفُ شوطاً لم يُسبَقْ إليه ولم يُلْحَقْ فيه، وتفنَّنَ فيه تفنُّنَ الحاذق المتمكِّنِ من المعاني القرآنيَّة والآياتِ الربَّانيَّة، الأمرُ الذي يدلُّ على فكرٍ ثاقبٍ وقلبٍ خاشعٍ وعقلٍ قد فتَح الله عليه أنوارَ العلمِ والاستنباط، وقد كنَّا أشرنا إليه في ذكرِ مميِّزات هذا التفسيرِ، وحان الآن بيانُه والخوضُ فيه:

وأبسطُ أنواعِ تفسيرِ القرآنِ بالقرآن هو أن يُؤتى في تفسيرِ آيةٍ بآيةٍ أخرى تُوافقُها في المعنى إرادةً لتفسيرِ هذه بتلك، وهذا أمرٌ موجود في غالبِ التفاسير كما ذكرنا، لكنْ ما يميِّز هذا التفسير هو تفرده بتفسير آيات بآيات لم ترد عند غيره، ومن أمثلة ذلك:

ـ في قوله تعالى: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] قال: حين يحشرون، ثم يزولُ ذلك بدليلِ قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١] قال: أي: صرَّفنا في هذا القرآن القولَ في بطلانِ ما يقولونه ويعتقدونه؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١] صرَّح بالقول في تلك الآية وأضمرَه هاهنا.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ٦٢] قال: أي: فتشاوروا؛ كما قال: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف: ٢١]، وهو أخذُ بعضهم القول من بعضٍ، كقوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣] هو أخذُ بعضهم الكأسَ من بعضٍ.

ـ وفي قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] قال: أي: كذباً عظيماً، وهذا كما قال: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] وعظمتُه ما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم: ٩٠].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١] قال: أي: أَقبِلْتُم على ذلكم عهدي، كقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]؛ أي: لا يُقبل.

ـ ونحو هذا قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] قال: أي: قبلتَ؛ كما هو في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ـ ومنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] قال: أي: ولم نُرسل إليهم قبلَكَ رسولاً يا محمدُ يخبرهم عن الله بإبطالِ أمرك، فليست عندهم حجةٌ على ما يقولونه في القرآن وفيك، وهو كقوله: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ٨١] قال: أي: قال اللهُ للأنبياء: أأقررتم؟ وهذا استفهامٌ بمعنى الأمر، كما في قوله: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣] قال: أي: وكلُّ أمرٍ مِن الخير والشَّرِّ، والحَقِّ والباطل، والهوى والحُجَّة، يستقِرُّ يوماً قرارُه، ويتناهى نهايتَه، فتخرُجُ حقيقتُه، وتزولُ شُبْهَتُه، وعند العواقب تظهَرُ الحقائقُ، وهذا وعيدٌ للمشركين، ووعدٌ وبِشارةٌ للرسول والمؤمنين، وهو كقوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]؛ أي: إنَّ مُدَّتَه وإنْ طالَتْ فلا بُدَّ مِن أنْ يستقِرَّ قرارُه، وتنكشِفُ حقيقتُه مِن حقٍّ وباطل.

ـ وقال في قوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: أي: بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالكفر؛ قال الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

ـ ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] قال: أي: مضَى قولُ ربِّك فيهم بما علِمَ منهم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وهناك بعض التعلُّقات التي يذكرُها مما لا تَخطرُ على بالِ حتى المهتمِّين بهذا الشأن:

ـ فانظر كيف ربطَ بين هاتينِ الآيتين فقال: وقولُه تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣]؛ أي: ليقضيَ، وفي الكتاب بيانُ الحكم، فأُضيف الحكم إليه، كما في صفة القرآن: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩] لأنَّ فيه بيانَ التبشير والإنذار.

ـ ومثلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: ٨٧ ـ ٨٨] قال: أي: في اللَّعنة، والخلودُ في اللَّعنة خلودٌ في جهنَّم، وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ [طه: ١٠٠ ـ ١٠١]؛ أي: في الوِزْرِ، وذاك خلودٌ في جهنم.

ـ ونحوُه قولُه تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] قال: أي: إلا كخَلْقِ نفسٍ واحدة وبعثِ نفسٍ واحدة؛ كقوله: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ أي: كدوران الذي يغشى عليه.

ـ ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [يونس: ٤] قال: متصلٌ بقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ... لِيَجۡزِيَ﴾؛ كما قال: ﴿يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الزلزلة: ٦].

ـ ومنه ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠] قال: أي: ماكثون إلى أن يكونَ ذلك، جعَلهم منتظِرين له وإنْ لم يقصدوا ذلك لأنه كان يأتيهم لا محالةَ، فكان كقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: ٤٩].

وقيل: كان بعضهم شاكًّا فيه فكانوا ينتظرونه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ [الحج: ٥٥].

ـ ومنه: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ [غافر: ٢٨] قال: قيل: أي: كلُّ الذي يعِدُكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]: أي: كلَّه.

ثم أضاف إليه فائدةً، وهي ذكرُ ما جاء على عكسِ ذلك، فقال: وقد جاء كلٌّ في إرادةِ البعض؛ كما في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٢٣].

ـ وذكر مثلَ هذا أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] قال: أي: كلَّ ما تعملون، وهو كقوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]؛ أي: كلُّه.

ـ ومن الأمثلة أيضاً: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] قال: أي: إلَّا مَن إذا بلغَ فجَر وكفَر، وهو كقوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، و﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ أي: إذا بلغ مبلغَ العلم والحلم صار موصوفًا بهما.

ـ ومنه: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧] قال: أي: وقيل لهم ذلك. وقيل: معناه: أَذَقْناهم ذلك؛ كما قال: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]؛ أي: سَيَّرْناهم كذلك.

ـ ومن أمثلةِ ذلك أيضاً قولُه في الصراط المستقيم: إن معناه: أن سالكه مستقيمٌ فيه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: يُبصَرُ فيه، وكقولك: نهرٌ جارٍ؛ أي: الماءُ جارٍ فيه، ونظيرُه في القرآن: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]؛ أي: عزَموا فيه. وقولُه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]؛ أي: ما ربحوا فيها، وقولُه تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢].

فلا شكَّ أن مَن يَرى هذا الربطَ بين الآيات يُوقن أن القرآن لا تتناهَى معانيهِ، فلو سلك سالكٌ هذا الطريقَ لوجد العجَبَ العُجَاب.

ومن تفنُّن المؤلِّف بتفسيرِ القرآنِ بالقرآن: أن تحتمِلَ الآيةُ وجوهاً، فلا يَذكر وجهاً من وجوهها إلا ويُتبِعُه بدليله من القرآن:

ـ ومن أروعِ هذه الاستدلالات ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾: حيث أورد معاني الذكر في الآيةِ كلٌّ مع دليله من القرآن، فقال:

قيل: عن توحيدي كما قال: ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ [الفرقان: ١٨].

وقيل: عن طاعتي؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقيل: عن العلم؛ كما قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣].

وقيل: عن الذكر باللسان؛ كما قال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقيل: عن الذكر بالقلب؛ كما قال: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقيل: أي: عن وَعْظي؛ كما قال: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقيل: عن الصلاةِ؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، وقولِه: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ [ص: ٣٢] وقولِه: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

ـ ومن الأمثلة الجميلة عليه: قولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾:

قال السُّدِّي: أي: رافعُ درجاتِ أهل الجنة. وأيَّده المؤلِّف بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

وقيل: درجات الغُزاة، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦].

وقيل: درجات العلماء والمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقيل: درجات أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ـ ومن نحو هذا قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]: ذكر فيها أقوالاً فمنها:

وقيل: أي: في كتب الأنبياء؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ أي: صِفَتهم.

وقيل: معناه: حَدَثْتم ووُجدْتم خيرَ أمَّة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقيل: معناه: أنتم خيرُ أمَّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ [الأعراف: ٨٦] مع أنه قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وإنما صلح ﴿كُنتُمْ﴾ مقام ﴿أَنتُمْ﴾ لأنَّهما ضِدَّان لكلمةِ: (لستم)؛ لأنَّ ذلك للنَّفي وهذان للإثبات، فقام أحدُهما مقامَ الآخر لمشاكلتهما في مُضادَّتهما كلمةَ النَّفي.

وقيل: معناه: صرتُم خيرَ أمَّة، كما في قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤]، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] أي: صرتُم بالإيمان بخير الرُّسل وبخروجه في زمانه خيرَ الأمم.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] ذكر قولين كلٌّ مع دليله من القرآن، فقال:

وقيل: أراد بها شدائدها وأهوالها؛ كما قال: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقيل: هي زلزلة الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

ـ ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١] فعدَّد أنواع الميثاق كلٌّ مع دليله، فقال: وأخذُ الميثاق كان على ثلاثةِ أوجهٍ:

ميثاق الذُّرية: وهو قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

وميثاق الأنبياء بتبليغ الرسالة: وهو في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

وميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمَّدٍ عليه السلام على التَّعيين، وهو في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [آل عمران: ٨١].

ومن مظاهر تفسير القرآن بالقرآن عند المؤلف ذكرُ النظائر، وهو أمرٌ برَع فيه رحمه الله بشكلٍ لا يدانيه فيه أحد: وهو يدلُّ على ثقابة فهمه وعمقِ نظره، وغوصه في معاني الآيات، وغزارةِ علمه بالكتاب الكريم:

ـ فمن ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: وقالوا: لَمَّا نادى الخليلُ الخلقَ بالحج باسم النَّاس، فقال: (يأَيُّها النَّاس، إنَّ الله قد بنى لكم بيتًا وأمركم أن تحجُّوه فحجُّوه) ذكرَ اللهُ تعالى أمورَ الحجِّ في آيٍ مِن القرآن مقرونًا باسم النَّاس؛ فقال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٢٧]، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ [الحج: ٢٥]، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦]، ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ـ وقال: نظير قولِه: ﴿يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ [الزمر: ٢٤] قولُه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

ـ وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾: والجوابُ محذوفٌ

وهو أبلغُ؛ لأن النفس تذهب فيه كلَّ مذهبٍ، وهو كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٣٩]، ونظائرِها.

ـ ومما يندرجُ تحت هذا قولُه في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]: و﴿مَا كَانَ﴾ تأكيدُ نفيٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣].

ونحو النظائر جمع الآيات في موضوعٍ واحد:

ـ فقال في أوائل الكتاب عند تفسير الاستعاذة: ومن صفاته [أي: الشيطان] وأفعاله: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ [الحجر: ٣٣]، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦] ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [يوسف: ٤٢]، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة: ١٩]، ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١]، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ﴿إِنَّمَا يَدۡعُوا۟ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿كَٱلَّذِى ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الأنعام: ٧١]، ﴿مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ الآية ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٢ ـ ٤] قال: ولَمَّا قال مُشْرِكو قريشٍ: ضلَّ محمدٌ عن دين آبائِه، أجابَ اللهُ بهذا، وسائرُ الناس كانوا يُجِيبون بأنفسهم، قال قومُ نوحٍ لنوحٍ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، وقال عادٌ لِهُودٍ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وقال فرعونُ لموسى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، قال له: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

واللهُ تعالى تولَّى جوابَ ما قالوا للمصطفى ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾، ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١]، ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ [يس: ٦٩]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾.

وخُصُوصِيَّةٌ أخرى: قال لداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال للمصطفى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، وقال لآدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وقال للمصطفى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾.

ـ ومن هذا النوع ما جاء عند قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم: ٩] قال

في آخر شرحها: فكأنَّه قال: أَكَّدْنا المحبَّةَ، وأَبْرَمْنا القُرْبَةَ، فمَقْبُولُه مَقبولي، ومَرْدُودُه مَرْدودي، وأبانَ ذلك في آياتٍ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٤]، ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٣]، ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨]، ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]، ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥]، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠]، فما هوَ له فهو لي، وما هو لي فهو له، وهذا مَقامٌ ليس فوقَه مَقامٌ.

وممَّا أَبدعَ فيه المؤلفُ وتفرَّد عن سائرِ المفسِّرين أنه غالباً ما يُتْبِعُ القولَ المأثور بما يوافقُه من الآيات:

ـ ففي تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] ذكر المؤلف عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: لمَّا بلغ قريشاً أن اليهود والنصارى كذَّبوا رسلهم وجحدوهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى، لئن جاءنا رسول لنكونَنَّ أهدى منهم.

ثم أعقبه بقوله: ونظيرُه قولُه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقولُه: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] ذكر عن ابن

عباس رضي الله عنهما قوله: أي: اضربوا الأعناقَ فما فوقَها. وأتبعه بقوله: كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ١١]؛ أي: اثنتين فما فوقهما.

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] أورد قول سعيد بن جبير: الأوَّاب: المسبِّح. وأعقبه بقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]؛ أي: سبِّحي.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾؛ نقل قول يمان بن رئابٍ: يعني: الصناديدَ. وأتبعه بقوله: كما قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]

ـ وعند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] قال: والشعائر: هي أمور الحج؛ قال ابن زيد: منها رميُ الجمار، والسعيُ بين الصفا والمروة، ونحوُها.

وقال مجاهد: هي البدن، وتعظيمُها: استسمانُها واستحسانُها.

ثم ذكرَ دليلَ كلٍّ من القولين لكنْ على طريقةِ اللفِّ والنشرِ غيرِ المرتَّب، فقال في الاستدلال لقول مجاهد: قال تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦]، وأتبعه بدليل قول ابن زيد فقال: ودليلُ القولِ الأولِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ [الفجر: ٩] ذكر قول مجاهد: أي: قطعوا الجبال بيوتًا. ثم استدلَّ له بقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

ـ ومن ذلك ما جاء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦] قال: قال علي بن الحسين بن واقد: أي: في اللَّوحِ المحفوظ. ثم قال: وهو كقولهِ في سورة الحج: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠] وكذا في سورة الحديد.

ـ وعند قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧] ذكر قولَ الضحاك: أي: لا يقبلون أمر الله. وأعقبه بقوله: وهذا كقوله: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]؛ أي: لا نقبل.

ـ وعند قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤] قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: إنْ عملتُم خيراً وتبتُم إلى الله مِن تخلُّفكم فسيرى الله عملَكم ورسولُه فيما تستأنِفون، ثم ترجعون ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾؛ أي: إلى جزاء الله لا يخفى عليه شيء فيخبرُكم بما عملتُم ويجزيكم على ذلك. وأعقبه بقوله: وهو كقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] ذكر عن عطاءٍ قولَه: يريد: الذين يذكُرون المهاجرين والأنصارَ بالخير والرحمة والدعاء. قال المؤلف: أشار إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

ويصنعُ مثل ذلك أيضاً مع أقوال المتقدِّمين من العلماء:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١] قال: قال القتبي: أي: لم يَفهموا ذلك ولم يقفوا عليه.

ثم بيَّن المؤلِّف مأخذَه فقال: من قوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ [الكهف: ٢٠].

ثم ذكر قولَ الفراء في الجملة نفسها: أي: لم يبلغوا أن يطيقوا النساء، يقال: صارع فلان فلاناً وظهر عليه. واستدلَّ له المؤلِّفُ بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وقد ينتهِج مثلَ هذا في القراءات:

ـ ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت: ٥٠] قال: وقرأ ابن كثير، وعاصمٌ في رواية أبي بكرٍ، وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿آيات من ربه﴾، وقرأ الباقون: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

استدل المؤلف لكلِّ قراءة بما يوافقها من الآيات، فعقَّب قراءة الجمع بقوله: لأنهم كانوا يقترحون آيات كما قال: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات.

ثم عاد إلى القراءة الأولى فقال: ومَن وحَّد فهو للجنس فيؤدِّي معنى الجمع، وهو كقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

ـ ومثله عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] قال: مَن قرأ بفتح اللَّام فمعناه: إلَّا عبادَكَ الَّذين أخلَصْتَهم بتوفيقِكَ وعصَمْتَهم مِن فِتنتي، مِن قولِه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

ومَنْ قرأ بكسرها[1] فمعناه: إلَّا عبادَكَ الذين أخلَصُوا أعمالَهم لكَ، مِن قولِه: ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦].

فهذه بعضُ الأمثلةِ من تفسيرِ القرآنِ بالقرآن، ذكرناها على سبيل البيان لا الاستقصاء، فالكتابُ كلُّه على هذا النحو، وهو كما ذكرْنا مما تميَّز به هذا التفسير، لكنه تميَّز بسمةٍ أخرى لا تقلُّ عنه أهميَّةً، وهي:

٢ ـ التفسير بالمأثور في تفسير «التيسير»:

وهذا الجانبُ من التفسيرِ لا يقلُّ أهميةً عن الذي قبلَه، بل إنَّ هذا الكتابَ ليُعدُّ

---

(١) قرأ الكوفيون ونافع بفتح اللام، والباقون بكسرها.

من أنواع التفسير بالمأثورِ؛ لكثرةِ ما فيه من أقوالِ السَّلف، فلا تمرُّ آيةٌ، بل ولا لفظةٌ، إلا ويَسردُ المؤلِّف ما رُوي عن السَّلَفِ في تفسيرها، بما قد يصلُ أحياناً إلى عشرةِ أقوالٍ أو أكثر.

ونعني بالمأثور: ما رُوِي عن النبيِّ ﷺ، ثم مَن بعدَه من الأجيال الثلاثةِ وهم:

١ ـ الصحابة: وقولُهم رضي الله عنهم مقدَّمٌ على كلِّ قولٍ، فإنَّ صُحبتَهم للنبيِّ ﷺ، ومخالطتَهم له، وتلقُّفَهم كلَّ قولٍ أو فعلٍ منه عليه الصلاةُ والسلام، واقتداءَهم به في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، قد أكسبَهم ـ بالإضافةِ لِمَا جُبِلوا عليه من شدَّةِ الفِطْنةِ وسلامةِ الفطرةِ ـ فهماً ثاقباً، وعقلاً راجحاً، وعلماً واسعاً، وقريحةً وقَّادةً، إضافةً لِمَا عَرَفوا من أحوالِ مَن نزل فيهم القرآنُ من العرب واليهود، هذا مع ما كانوا عليه مِن التَّقوى العظيمةِ التي أكسبتْهم نوراً يضيءُ طريقَهم، ويكشفُ لهم ما غمضَ على غيرهم من المسائل، ويجلِّي ما أَشكَلَ من المعاني، فلا عَجَب أنْ كانت لهم تلك المكانةُ السامقةُ والمرتبةُ العاليةُ التي لا يمكنُ أن يبلغها غيرُهم بعد النبيِّ ﷺ.

وأكثرُ مَن رُوي عنه التفسيرُ في جيلِ الصحابة ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما، ثم عليٌّ وابن مسعود، ثم باقي الصحابةِ رضي الله عنهم أجمعين.

٢ ـ التابعين: وللتابعين مكانةٌ لا تُنكَر عند أهل العلم، فهم قد تَلَقَّوا التفسيرَ عن الصحابة الذين شأنُهم ما قدَّمناه، وكانوا ـ أي: التابعون ـ في عصرِ الاحتجاج اللغويِّ، فلم تَفسُدْ ألسنتُهم بالعُجمة، وكان لهم من الفهم وسلامةِ المقصد ما لهم، إضافةً إلى خلوِّهم من البِدَع والأهواء، فلم يكونوا شيعًا وأحزابًا، بل كانوا متفقينَ على أصولِ أهل السُّنَّة والجماعة التي أرساها الصحابة. كلُّ هذا جعَل لكلامهم وزناً عند العلماء، مع الاختلافِ في الرجوعِ إلى تفسيراتهم وحجِّيَّة أقوالهم.

وأبـرز هذا الجيل: مجـاهـدُ بنُ جَبْرٍ، وقَتادةُ بـنُ دِعامةَ، والحسنُ البَصْريُّ، وسعيدُ بن جُبيرٍ، وعطاءُ بن أبي رَباحٍ، وإسماعيلُ بنُ عبدِ الرحمنِ السُّدِّيُّ، ورُفيعُ بن مِهْران أبو العاليةِ الرياحيُّ.

٣ ـ أتباع التابعين: وعندهم ينتهِي جيل السَّلف، وتأتي أهميةُ أقوالِهم عند العلماء مِن قُربِ عهدهم بأنوارِ النبوةِ، وشمولِ حديثِ النبيِّ ﷺ لهم في قوله: «خيرُ القرونِ قَرْني ثم الذينَ يَلُونَهم ثم الذين يَلُونَهم»، فهو لا شكَّ يَشمَلُ جيلَ أتباعِ التابعين الذين هم آخِرُ القرون المُنيفةِ في الخيريَّة على مَن بعدَها بشهادةِ النبيِّ ﷺ، وكفَى به شرفاً أكسبَهم إياه النبيُّ الكريم عليه أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم، ثم هم قد تتلمذوا على جيلِ التابعين الذي قدَّمنا صفاته، ونهَلوا من مَعينِ عِلمهم، وحملوا التراثَ الذى خَلَّفوهُ، ثم زادوا عليه بمقدارِ كشفِ ما زاد من غموضٍ عند الناس، وما جَدَّ من اختلافٍ في الرأي بينهم، فصار التفسيرُ في جيلهم بين التفسيرِ النقليِّ المحضِ، والتفسيرِ الذي يدخلُه الاجتهاد، وعن هؤلاء أخذ مَن جاء بعدهم، فكانوا هم الينبوع الذي صدرت عنه أجيال العلماء الذين لحقوهم.

ومن أبرز هذا الجيل: عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وابنُ جُريجٍ، وسفيانُ بنُ عيينةَ، ومقاتل بن حيان، ومنهم محمدُ بنُ السَّائب الكلبيُّ ومقاتل بن سليمان إلا أنهما متروكان لا يوثَقُ بروايتهما كما سيأتي.

والمؤلف رحمه الله لا يمرُّ بآية ورد فيها حديثٌ مرفوعٌ أو قولٌ للسلف إلا توقَّفَ عندها وأوردَ أكثرَ ما روي عن السلف فيها، وسنذكرُ هنا بعضَ الملاحظاتِ الضروريَّة لفهمِ ما جاء في الكتاب:

فأما حديثُ النبيِّ ﷺ فيُلاحَظُ عند المؤلِّف عدمُ التمييزِ بين الصحيحِ والضعيفِ

وحتى الموضوعِ، فهو يُورِدُ ما وقَف عليه من رواياتٍ دون النظرِ إلى حالها، فوقعَ فيه لذلك بعضُ الأحاديثِ الموضوعة:

وأولُ هذه الأحاديثِ: الحديثُ الموضوعُ في فضائل السُّورِ سورةً سورةً، فقد وقع المؤلفُ رحمه الله فيما وقعَ فيه كثيرٌ من المفسِّرين ـ كالثَّعلبيِّ والواحديِّ والزمخشريِّ والبيضاويِّ ـ من الاغترارِ بهذا الحديث، فيَذكر في مطلعِ كلِّ سورةٍ قطعةً منه، وهو ما تضمَّنه في فضلِها منسوبةً إلى أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه، وأولُ مَن فعَل هذا الثعلبيُّ، ثم تبعَه تلميذُه الواحديُّ، وتابعهما على ذلك المؤلف والزمخشريُّ، ثم البيضاويُّ وأبو السعود. وهذا الحديث قد نبَّه العلماء على وضعه، وعلى رأسهم ابنُ الجوزيِّ رحمه الله الذي قال عنه في «الموضوعات»: وهذا حديث فضائلِ السور مصنوعٌ بلا شكٍّ.

قال: وقد فرَّق هذا الحديثَ أبو إسحاقَ الثعلبيُّ في «تفسيره»، فذكَر عند كلِّ سورةٍ منه ما يخصُّها، وتَبِعَه أبو الحسن الواحديُّ في ذلك، ولا أعجبُ منهما لأنَّهما ليسا من أصحابِ الحديث، وإنما عَجِبْتُ من أبي بكرِ بنِ أبي داودَ كيف فرَّقه على كتابه الذي صنَّفه في فضائل القرآن وهو يعلمُ أنه حديثٌ مُحال، ولكنْ شَرَهُ جمهورِ المحدِّثين، فإن من عادتهم تنفيقُ حديثهم ولو بالبواطيل[1].

وقال السيوطيُّ في حاشيته على البيضاويِّ: هذا من الحديثِ الموضوعِ الذي رُوي عن أبيٍّ بن كعبٍ في فضائلِ القرآنِ سورةً سورةً، وقد نبَّه أئمةُ الحديث وحُفَّاظه ونقَّادُه قديماً وحديثاً على أنه موضوعٌ مختلقٌ على رسول الله ﷺ، وعابُوا على مَن أَورده من المفسِّرين في تفاسيرهم[2].

---

(١) انظر: «الموضوعات» (١/ ١٧٤).

(٢) انظر: حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي المسماة: «نواهد الأبكار» (٣/ ١١٢).

وقال مرعيٌّ الكرميُّ: أحاديثُ فضائِل السُّورِ المرويةُ عن ابن عباس وأبيٍّ بنِ كَعْبٍ، كالذي ذكره البغوِيُّ والواحديُّ ونحوُهما كلُّها كذبٌ باتِّفاق أهل المعرفة بالحديثِ، قال العراقيُّ:

(وكلُّ مَن أَوْدَعَهُ كِتَابَهْ كالواحديِّ مُخطِئٌ صَوَابَهْ)(١)

وقال ابنُ كثيرٍ في أولِ يوسفَ: وهو منكرٌ من سائرِ طُرقه.

وممن نبَّه على وضعِه أيضاً الـمُنَاويُّ في «الفتح السماويِّ» مفرِّقا ذلك في كلِّ سورةٍ على حسَبِ ما أورده البيضاوي.

وكذا الملَّا عليٌّ القاري، وقال: وقد اعترفَ بوضعِها واضعُها وقال: قصدْتُ أنْ أُشْغِلَ الناسَ بالقرآنِ عن غيرِه(٢).

وإنما أطلتُ في الكلامِ عليه لأنه سيَرِدُ في هذا الكتابِ مع كلِّ سورةٍ، فلا بدَّ من جلاءِ حالِهِ وبيانِ حقيقته.

ومن الأحاديثِ الموضوعة التي أوردها أيضاً: حديثُ جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ يهوديًّا أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا محمَّد؛ أخبرني عن أسماء الكواكب اللاتي سجدْنَ ليوسف، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «إنْ أخبرْتُكَ أتؤمنُ بي؟» قال: نعم، فأتاه جبريلُ صلوات الله عليه فعلَّمه أسماءها، الحديث.

وهو من طريق الحكَم بن ظَهيرٍ عن السُّدِّي عن عبدِ الرحمن بنِ سابطٍ عن جابر.

---

(١) انظر: «الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة» لمرعي الكرمي المطبوعة ضمن «مجموع رسائل العلامة مرعي الكرمي».

(٢) انظر: «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» لعلي القاري (ص: ٤٧٥).

قال ابنُ حبَّانَ: هذا لا أصلَ له مِن حديثِ رسول الله ﷺ، والحكَمُ بن ظَهيرٍ الفَزَاريُّ الكوفيُّ كان يَشتِم أصحابَ محمدٍ ﷺ، يَروِي عن الثِّقات الأشياءَ الموضوعات.

وقال ابن الجوزيِّ: هذا حديثٌ موضوعٌ على رسول الله ﷺ، وكأن واضعَه قصد شينَ الإسلام بمثلِ هذا، وفيه جماعةٌ ليسوا بشيءٍ، قال يحيى بن معين: الحكمُ بن ظهيرٍ ليس بشيءٍ. وقال النسائيُّ: متروكُ الحديث.

وقال الجوزجانيُّ كما في «التهذيب»: ساقطٌ؛ لميله وأعاجيبِ حديثه، وهو صاحب حديثِ نجوم يوسف.

ومنها: حديثُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: كنتُ مع رسولِ الله ﷺ في بعضِ طرقاتِ المدينة، إذا برجلٍ قد صُرع، فدنوتُ فقرأتُ في أذنه فاستوى جالساً، فقال النبيُّ ﷺ: «ماذا قرأتَ في أذنه يا ابنَ أمِّ عبدٍ؟» قلتُ: فداكَ أبي وأمي، قرأتُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فقال النبيُّ ﷺ: «والذي بَعَثني بالحقِّ لو قرأها مُوقنٌ على جبلٍ لذاب».

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في «العلل»، والعقيليُّ في «الضعفاء»، وابن الجوزي في «الموضوعات»، من طريق سلام بن رَزينٍ عن الأعمش عن شَقيقٍ عن ابن مسعود به. قال الإمام أحمد: هذا حديثٌ موضوع، هذا حديثُ الكذَّابين. وقال الذهبيُّ في «الميزان» ترجمة سلام بن رزين: لا يُعرف، وحديثه باطلٌ.

فهذه بعضُ الأمثلة على ما وَرد في الكتاب من الموضوع، مع التنبيهِ إلى أن أمثالَ هذه الأحاديثِ لم يَسْلَمْ منها كثيرٌ من كتبِ التفسير، حتى إنَّ حديثَ

الحكم بن ظهيرٍ في أسماء الكواكب قد رواه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره»، وابنُ أبي حاتم معروفٌ في الجلالة والعلم.

ونذكرُ هنا أيضاً أن كثيراً مما أوردَه المؤلف هو من الأحاديثِ الصحيحةِ المرويَّة في الصحيحين وغيرِهما من دواوين الإسلام المعروفة، لكنْ مع ذلك قد وقَع فيه بعضُ الأحاديثِ التي لم نقف عليها في المصادرِ التي بين أيدينا:

ـ فمن ذلك: حديثُ: «أنا قائدُها، وعيسى سائقُها» عن أمةِ المؤمنين.

ـ وحديثُ: «مفتاحُ القرآنِ التَّسميةُ».

ـ وحديثُ: «الصلاةُ ثانيةُ الإيمان».

ـ وحديثُ: «إذا غَضِبَ الله على قومٍ سلَّط الله عليهم شرارَهم في البرِّ والبحر».

ـ ومن ذلك: حديثُ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قرأ في ليلةٍ سورةَ تنزيل السجدة، وسورةَ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أو في يوم، بنَى الله له بيتان في الجنة، وكان كمَن وافَقَ ليلةَ القَدْر، وحفَّتْ به الملائكةُ، وحفَّته بسورةِ ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، ومنعَتْه ملائكةَ العذاب».

ـ وحديثُ عائشةَ في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك فقال: «هو قولُ اللهِ تعالى: لولا العِتابُ ما كان معَ أُمَّتِكَ الحِسابُ».

ـ ومثلُه في الآية نفسِها: وقيل: أوحَى اللهُ إليه: «إنِّي ضَمِنْتُ الرزقَ لعبادي وأُمَّتُكَ لا يَثِقون بذلك، وخلقْتُ النارَ لأعدائي وهُم يجتهدون أنْ يدخلُوها، وأنا لم أُطالِبْهم بعمَلِ الغدِ وهُم يَطْلُبون مني رِزْقَ الغدِ، وأنا لا أُعْطِي رِزْقَهم غيرَهم وهُم

يُؤَدُّون طاعتي لِرؤية غيري، وأنا المُعِزُّ والمُذِلُّ وهُم يَرْجُون ويخافون غيري، وأنا المُنْعِمُ عليهم وهم يشكُرون لغيري».

ثم قال: يُروى هذا عن فاطمةَ رضي الله عنها: أنها سألَتْ رسولَ الله ﷺ عن هذا، فقال هو هذا.

ـ وقول ابن عباس في الآية نفسها: قال اللهُ تعالى له: عَبَدْتَنا في الخَلْوَةِ، فاشْفَعْ لِأُمَّتِكَ في الخَلْوَةِ.

ـ وهذا من الموقوف، ومنه أيضاً: قولُ ابنِ عباس رضي الله عنهما: إجلالُ القرآن: أعوذُ بالله مِن الشيطانِ الرجيمِ، ومفتاحُ القرآن: بسم الله الرحمنِ الرحيمِ.

ـ وقولُ ابن مسعود رضي الله عنه: سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ هي المانعةُ تمنع من عذاب القبر.

فهذا ما يتعلَّقُ بالأحاديث المرفوعة والموقوفة، أمَّا الآثارُ فلنا معها هنا ملاحظاتٌ وتنبيهاتٌ مهمةٌ:

فأول هذه الملاحظات ما يتعلَّق بتفسير الكلبي:

والكلبي: هو محمد بن السائب، أبو النَّضر الكوفيُّ المفسِّر النسَّابة الأخباريُّ. وقد اتَّفق جميعُ العلماء على تركه وعدمِ الاحتجاج برواياته، أمَّا أقوالُه في التفسير فاختلفوا فيها.

قال الثوريُّ: اتَّقُوا الكلبيَّ، فقيل: فإنك تروي عنه، قال: أنا أعرِفُ صدقَه من كذبه.

وقال البخاريُّ: أبو النضر الكلبيُّ تركه يحيى وابنُ مهدي.

ثم قال البخاريُّ: قال عليٌّ: حدثنا يحيى، عن سفيان، قال لي الكلبيُّ: كلُّ ما حدَّثْتُك عن أبي صالحٍ فهو كذب.

وقال سفيان: قال الكلبيُّ: قال لي أبو صالح: انظر كلَّ شيءٍ رويتَ عنِّي عن ابنِ عباسٍ فلا تروِه.

وقال ابن معين: قال يحيى بن يعلى عن أبيه، قال: كنتُ أختلفُ إلى الكلبيِّ أقرأُ عليه القرآن، فسمعتُه يقول: مرضْتُ مرضةً فنَسِيتُ ما كنتُ أحفظُ، فأتيتُ آلَ محمدٍ ﷺ فتَفَلوا في فيَّ، فحفظتُ ما كنتُ نسيتُ. فقلتُ: لا والله، لا أروي عنك بعد هذا شيئاً، فتركتُه.

وقال يزيد بن زريعٍ: حدَّثنا الكلبي وكان سبئيًّا.

وقال ابن حبَّان: كان الكلبيُّ سبئيًّا من أولئك الذين يقولون: إن عليًّا لم يَمتْ، وإنه راجعٌ إلى الدنيا ويملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً، وإن رأوا سحابةً قالوا: أميرُ المؤمنين فيها.

وقال التبوذكي: سمعتُ هماماً يقول: سمعتُ الكلبيَّ يقول: أنا سَبئيٌّ.

عباس عن ابن معينٍ قال: الكلبيُّ قال ليس بثقة. وقال الجوزجاني وغيره: كذاب. وقال الدارقطني وجماعة: متروك.

وقال ابن حبان: مذهبه في الدِّين ووضوحُ الكذب فيه أظهرُ من أن يحتاجَ إلى الإغراقِ في وصفه، يروي عن أبي صالحٍ عن ابنِ عباسٍ التفسيرَ، وأبو صالحٍ لم يرَ ابنَ عباسٍ، ولا سمع الكلبيُّ من أبي صالحٍ إلا الحرفَ بعد الحرف، فلمَّا احتيجَ إليه أَخرجت له الأرضُ أفلاذَ كبدِها، لا يحلُّ ذكرُه في الكتب، فكيف الاحتجاج به!

فهذا حاله في الرواية، أما في التفسير فقد اختلفوا فيه كما ذكرنا:

ففريقٌ منعوه، منهم الإمام أحمد، قال أحمد بن زهيرٍ: قلتُ لأحمدَ بن حنبل: يحلُّ النظر في تفسير الكلبي؟ قال: لا.

وفريق ارتضَوا أقواله في التفسير، قال ابن عديٍّ: وقد حدَّث عن الكلبيِّ سفيانُ وشعبةُ وجماعةٌ، ورضُوه في التفسير[1].

وإنما أطلت في بيان حاله لكثرة ما أورد المؤلف من أقواله، وتمهيداً لملاحظةٍ هامةٍ في نقل العلماء عن الكلبي يجب التنبيه عليها، وقد لاحظتها من خلال عملي الطويل في التفسير، واطِّلاعي على كثيرٍ من أمَّهات التفاسير، وقد وقع منها في هذا التفسير الكثير:

وهذه الملاحظة: هي أنه كثيراً ما يقع الخلطُ وعدمُ التمييزِ بين ما يُروى عن الكلبيِّ، وما يُروى عن ابن عباس من طريقِه، وهي طريقُ الكلبيِّ عن أبي صالحٍ عن ابنِ عباس، فتجدُ مثلاً خبراً يذكره بعضُ العلماء عن الكلبيِّ، بينما يذكرُه آخرون عن ابن عباس، وهؤلاء منهم مَن ينسبُه لابن عباسٍ دون بيانِ الراوي، ومنهم مَن يشيرُ إلى أنه من طرِيقِ أبي صالحٍ عن ابن عباسٍ، ومنهم مَن يذكره من طريقِ الكلبيِّ عن أبي صالحٍ عن ابن عباسٍ، لا أعني أن هذا كلَّه يحصل في خبرٍ واحد، لكن أكثرُ الأخبار يجري فيها شيءٌ من هذا، وإنما يُعرفُ حال ما ذكَرْنا بالتَّنقيب في كتبِ التفسير، وحصرِ ما وردَ فيها في ذلك الخبر.

ومن الفوائدِ التي تتحصَّلُ من هذا الأمر: معرفةُ حالِ المرويِّ عن ابن عباس، وأنه من طريقِ الكلبي، فالاحتجاجُ به على ما قدَّمنا، كما يستفاد منه في الترجيحِ إذا وردت عن الحبر روايةٌ أخرى أو أكثرُ مخالفةٌ لتلك الروايةِ، وكانت من طريقٍ أصلحَ منها.

ثم إن مَن ينسبُه لابن عباس دون بيانٍ لعلَّه إنما يَفعلُ ذلك لتقويةِ حاله؛ لمعرفته

---

(١) انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ١٢٥) بتصرف وتقديم وتأخير.

بمكانة أقوالِ ابن عباسٍ رضي الله عنهما عند الناس، ولعلمِه أنَّ ذكرَ الكلبيِّ فيها يدفعُ للإعراض عنها.

وسنسوقُ بعضَ الأمثلة لبيان المسألة:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] ذكر المؤلف عن الكلبيِّ قوله: ﴿مُنَادِيٗا﴾: داعياً، يعني: محمداً ﷺ.

وهذا القول ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» عن ابن عباس.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ ﴾ [الأعراف: ١١٣] قال: قال الكلبيُّ رحمه الله: فأَتَوه وكانوا سبعين ساحراً غيرَ رئيسهم، وكان يعلِّمهم رجلان مجوسيان من أهل نينوى.

وهذا أورده الثعلبيُّ والبغويُّ عن الكلبيِّ كالمؤلِّف، بينما ذكره الرازي في «تفسيره» عن ابن عباس.

ـوفي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال: ٢٥] قال: قال الكلبيُّ رحمه الله: نزلت في رجلينِ من قريشٍ أَخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ أنها ستكونُ بعده في أصحابه، وقد كانت تلك الواقعةُ بعد وفاته ومضت.

وهذا ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» من طريق أبي صالح عن ابن عباس مختصراً بلفظ: نزلت في رجلين من قريش، ولم يسمِّهما.

ـ وفي قوله: ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦] قال: قال الكلبي: أي: أهلُ مكة.

وهذا ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ

ﭐلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] قال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أهل مكة قالوا: يا محمدُ! ألا يخبرُكَ ربُّك بالسعر الرخيص قبل أن يغلوَ فتشتريَه فتربحَ به، أو يخبرُك بالأرض التي يريد أن تُجدِب فترتحلَ منها إلى ما أخصبَتْ، فأنزل الله هذه الآية.

وردَ هذا الخبر في «تفسير الثعلبي»، و«البسيط» للواحدي، و«تفسير البغوي»، و«زاد المسير»، عن ابن عباس، وفي «تفسير أبي الليث»، و«أسباب النزول» للواحدي، عن الكلبي

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] قال: روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال الله تعالى للسماوات والأرض والجبال: إن أحسنتُنَّ جُوزِيتُنَّ وإن أسأْتُنَّ عوقِبْتُنَّ.

ذكره يحيى بن سلام في «تفسيره» عن الكلبي، وأبو الليث السمرقنديُّ في «تفسيره» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] قال: قال الكلبيُّ: لمَّا أَنزل الله الفرائضَ فعمل بها الناسُ، ثم جاء ما ينسخُها من القرآنِ وقد غاب أناسٌ وهم يعملون بالأمرِ الأولِ من القبلة والخمرِ وأشباهِ ذلك، سألوا رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فأَنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ.

ذكره الثعلبيُّ والبغويُّ عن مقاتل والكلبيِّ، وابنُ الجوزيِّ في «زاد المسير» من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس.

- وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] قال المؤلفُ: قال الكلبيُّ: أي: جماعات.

ذكره عن الكلبيِّ الماورديُّ في «النكت والعيون»، وذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» والواحديُّ في «البسيط»، عن ابن عباس

ـ ومثل ذلك: ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥] قال: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بُكۡرَةٗ﴾: صلاةُ الفجرِ، ﴿وَأَصِيلٗا﴾: سائرُ الصلوات.

ذكره الماورديُّ في «النكت والعيون» والبغويُّ في «تفسيره» والواحديُّ في «البسيط» عن الكلبي.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [المطففين: ٧] قال: روى أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: عمَل الكفَّار مكتوبٌ في صخرةٍ تحت الأرضِ السَّابعة، خضراءَ خُضرةُ السَّماوات منها.

ذكره الثعلبي في «تفسيره» عن الكلبي.

ـ وفي سبب نزول سورة الطارق ذَكر عن ابن عبَّاس قوله: نزلت في أبي طالبٍ، وذلك أنَّ ليلةً من اللَّيالي انحطَّ نجمٌ، فامتلأَتْ الآفاقُ نارًا، ففزِعَ لذلك أبو طالب، فقال: أيُّ شيءٍ هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا نجمٌ رُمِيَ به، وهو آيةٌ من آياتِ اللهِ»، فعجِبَ أبو طالب، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ الآيات.

ذكره القرطبي من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وذكره البغويُّ عن الكلبيِّ، وذكره دون عزوٍ الثعلبيُّ في «تفسيره»، والواحديُّ في «أسباب النزول».

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾: ذكَر عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قولَه: كان عَهِدَ إلى بني إسرائيلَ على لسانِ موسى صلواتُ الله عليه: إنِّي باعثٌ مِن بني إسماعيل نبيًّا أُمِّيًّا؛ فمَن اتَّبعه وصدَّق بالنُّور الذي يأتي به غفرتُ له ذنبَه وأدخلتُه الجنة، وجعلتُ له أجرينِ اثنين، فذكَّرهم ذلك بهذه الآية.

كذا ذكره المؤلفُ عن ابن عباس، وذكره أبو الليث السمرقنديُّ في «تفسيره» من طريق أبي صالح عن ابن عباس. وذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» عن الكلبيِّ.

ومثل هذا كثيرٌ جدًّا، وإنما اقتطَفْنا بعضَ الأمثلة لتوضيح المسألة لا أكثر.

ملاحظة ثانية: وهذه الملاحظةُ تتعلَّق بما يُروى عن عطاءٍ، وهناك علَمان من السَّلَف بهذا الاسم: عطاءُ بن أبي رباحٍ، وعطاءُ بن أبي مسلمٍ الخراسانيُّ، وثمةَ فرقٌ كبيرٌ بين الرجلين:

فالأول تابعيٌّ ثقةٌ فقيهٌ فاضلٌ روَى عن جمعٍ من الصحابة منهم ابنُ عباسٍ وابن عمرٍو وابنُ عمرَ وابن الزبير ومعاوية وأسامة بن زيد وجابر بن عبد الله وغيرهم، وكان مع ذلك كثيرَ الإرسال، وقد روَى له الستة.

والثاني روايتُه عن الصحابةِ مرسلةٌ، وهو صدوقٌ يهمُ كثيراً ويرسِل ويدلِّس، ولم يصحَّ أن البخاريَّ أخرج له، وروى له مسلمٌ متابعةً.

ويحصل الخلطُ في الأخبارِ هنا بأنْ يُنسبَ الخبرُ لعطاءٍ دون تعيينِ مَن هو، ومن ناحيةٍ أخرى كثيراً ما يَنسب بعضُ العلماء الخبرَ لعطاءٍ، وينسبه آخرون لابن عباس، ويصرِّح بعضُ هؤلاء بأنه من طريق عطاءٍ عن ابن عباسٍ، وأكثرُ ما يقع هذا عندَ الواحديِّ في كتابيه «البسيط» و«الوسيط»، فيجعلُ أكثرَ أخبارِ عطاءٍ متَّصلةً لابنِ عباسٍ، وهذه الأخبارُ ضعيفةٌ واهيةٌ لا يُحتجُّ بها كما بيَّن ابنُ حجر في «العُجاب» فقال: ومِن التفاسيرِ الواهيةِ لوَهَاءِ رواتها التفسيرُ الذي جمَعه موسى بنُ عبدِ الرحمن الثَّقَفيُّ الصنعانيُّ، وهو قَدْرُ مجلَّدين يُسنده إلى ابن جُريجٍ عن عطاءٍ عن ابنِ عباس، وقد نَسب ابنُ حبَّان موسى هذا إلى وضعِ الحديثِ، ورواه عن موسى عبدُ الغنيِّ بنُ سعيدٍ الثقفيُّ وهو ضعيف.

وقد قال ابن حبَّان في «المجروحين»: مُوسَى بنُ عبد الرَّحْمَن الصَّنْعَانِيُّ شيخٌ دجَّالٌ يَضع الحديثَ روى عنه عبد الغَنِيّ بن سعيد الثَّقَفِيُّ، وضعَ على ابنِ جريجٍ عن عَطاءٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ كتاباً في التَّفْسِير جمَعه من كلام الكَلْبِيِّ وَمُقَاتِلِ بن سُلَيْمَان، وألزقه بابن جريجٍ عن عطاء عن بن عبَّاس، ولم يحدِّث به ابنُ عَبَّاس، ولا عطاءٌ سَمِعَه، ولا ابنُ جريجٍ سمع من عطاء، وإنَّما سمع ابنُ جريجٍ من عطاء الخُرَاسَانيِّ عن ابن عبَّاس في التفسير أحرفاً شَبِيهاً بِجُزْء، وعطاءٌ الخُراساني لم يسمع من ابن عبَّاس شيئاً ولا رواهُ، لا تحل الرِّوَاية عن هذا الشَّيخ ولا النَّظرُ فِي كتابه إلَّا على سَبِيل الاعْتِبار(١).

ويظهرُ من كلامِ ابن حبَّان أن عطاءً المذكورَ في هذا التفسيرِ هو الخراسانيُّ، فهو لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا التفسيرُ قد روى طرفاً منه الطبرانيُّ في «الكبير» عن شيخه بكرِ بن سهلٍ الدِّمياطيِّ، عن عبدِ الغنيِّ بنِ سعيدٍ الثَّقفيِّ، عن موسى بنِ عبد الرحمنِ الصَّنعانيِّ، عن ابن جريجٍ، عن عطاءٍ، عن ابن عباس.

وما ذكره الواحديُّ من رواياتِ عطاء عن ابن عباس موافقٌ لتلك الرواياتِ التي عند الطبرانيِّ، لكنَّ الواحديَّ قد أكثرَ مِن نقلِها مع شدَّةِ ضعفِها ووَهَائها.

وسنذكرُ فيما يلي بعضَ الأمثلةِ للاختلاف الحاصلِ بين الرواياتِ من هذه الطريقِ:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] ذكر المؤلِّف عن عطاء قولَه: شعيبُ بنُ توبةَ بنِ مدينَ بنِ إبراهيم.

---

(١) انظر: «المجروحين» (٢/ ٢٤٢).

ذكره الثعلبيُّ والبغويُّ عن عطاءٍ كالمؤلف، وذكره الواحديُّ في «البسيط» عن عطاءٍ عن ابن عباس.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] قال المؤلِّف: وقال عطاءٌ: كانت بنو إسرائيلَ إذا قامتْ تصلِّي للهِ لبِسوا المُسوحَ، وغَلُّوا أيديَهم إلى أعناقهم؛ تواضُعاً لله، وخوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه، فرفَعها الله تعالى عن هذه الأمة.

ذكره الواحدي في «البسيط» عن عطاء عن ابن عباس.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥] قال: وقال عطاء: يعني: يومَ بدر وأحد.

ذكره الواحديُّ في «البسيط» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ـ وكذا: وقال عطاءٌ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]: بلا إلهَ إلا الله.

ذكره عن عطاءٍ الثعلبيُّ والبغويُّ، وذكره الواحديُّ في «البسيط» من طريقِ عطاء عن ابن عباس.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] قال: قال عطاءٌ: وإما يَعْرِضنَّك من الشيطان عارضٌ.

ذكره الواحديُّ في «البسيط» من طريق عطاءٍ عن ابن عباس.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ [التوبة: ٥٨] قال: قال عطاءٌ: أي: يغتابُك.

ذكره الثعلبيُّ عن عطاء، والواحديُّ في «البسيط» عن عطاءٍ عن ابن عباس.

ـ وفي قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٤] قال المؤلف: وقال عطاءٌ: هم سبعون رجلاً أنزل الله تعالى أسماءَهم وأسماء آبائهم، ثم رُفعت مرحمةً على العباد، ولأنَّ أولادهم أَسلموا وأَخلصوا.

ذكره الواحدي في «البسيط» عن عطاء عن ابن عباس، والبغوي في «تفسيره» عن ابن عباس.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] ذكر عن عطاء أنها في سهل بن رافع.

ذكره الواحديُّ في «البسيط» من طريق عطاءٍ عن ابن عباس.

ـ وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] قال: وقال عطاءٌ: يريد: الذين يذكُرون المهاجرين والأنصارَ بالخير والرحمة والدعاء.

ذكره الثعلبيُّ عن عطاءٍ، وذكره الواحديُّ في «البسيط» من طريقِ عطاءٍ عن ابنِ عباس.

والأمثلةُ كثيرةٌ جدًّا، لكنَّ الملاحظَ أن هذه الروايات مقتصرةٌ تقريباً على الثعلبيِّ والواحديِّ والبغويِّ، وقد يوردُها مَن يأخذُ عنهم كالرازي وابن الجوزيِّ والقرطبي. ويوضح هذا الأمرَ معرفةُ أن الواحديَّ تلميذُ الثعلبي، وقد نقل في تفاسيرِه كثيراً مما أورده الثعلبيُّ في «تفسيره»، كما أن البغويَّ تلميذُ الواحديِّ، وقد أكثرَ في «تفسيره» من نقلِ ما جاء عند شيخه الواحديِّ وشيخِ شيخِه الثعلبيِّ. والله تعالى أعلم.

أمَّا الملاحظةُ الثالثةُ: فتتعلَّق بما ينقلُ عن مقاتل، وهاهنا علَمان أيضاً بهذا الاسم: مقاتلُ بن حيَّان، ومقاتلُ بن سليمان، والبَون بينهما شاسعٌ أيضاً:

فالأول قال عنه الحافظ في «التقريب»: صدوقٌ فاضلٌ، أخطأ الأزديُّ في زَعْمِه أن وكيعًا كذَّبه، وإنما كَذَّب الذي بعده.

ويعني بالذي بعده مقاتل بن سليمان فإنه أعقبه به وقال: كذَّبوه وهَجَروه ورُمِيَ بالتجسيم.

قلتُ: لكن بعضَهم استحسَن تفسيرَه، فقد قال الحافظ نفسُه في «التهذيب»:

ورُوي عن الشافعي من وجوه: الناس عيالٌ على مقاتلٍ في التفسير.

وقال نعيمُ بن حمَّاد: رأيتُ عند ابنِ عيينةَ كتاباً لمقاتلٍ فقلتُ: يا أبا محمدٍ تروي لمقاتلٍ في التفسير؟! قال: لا، ولكنْ أستدلُّ به وأستعين.

وقال ابن المبارك لمَّا نظر إلى شيءٍ من تفسيره: يا له مِن علَم لو كان له إسناد.

وقال مكيُّ بن إبراهيم عن يحيى بن شبلٍ: قال لي عبَّادُ بن كثيرٍ: ما يمنعُك من مقاتلٍ؟ قلتُ: إن أهل بلادنا كرهوه، فقال: لا تكرهْه، فما بقي أحدٌ أعلمَ بكتاب الله تعالى منه.

وبعضُهم لم يقبل تفسيرَه كإبراهيمَ الحربيِّ، فقد ذكر عنه الحافظ في «التهذيب» قوله: وإنما جمع مقاتلٌ تفسيرَ الناس وفسَّر عليه من غيرِ سماع، قال إبراهيم: ولم أُدخلْ في تفسيري عنه شيئاً، وقال إبراهيم: تفسيرُ الكلبي مثلُ تفسيرِ مقاتلٍ سواءٌ.

قلت: وكلَا المقاتلَين قد رُوي عنه أقوالٌ في التفسير أوردها المفسِّرون في كتبهم، وقد رأيتُ من خلال العمل في هذا التفسير وقوعَ خلطٍ أيضاً بينهما، فما ينسبُه بعضهم للأول ينسبه غيرُه للثاني، كما أن كثيراً مما يُنسب لابن حيانَ وجدتُه مذكوراً في التفسير المنسوبِ لابن سليمان، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] قال المؤلف: وقال مقاتل بن سليمان رحمه الله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: على المعرفة ولم يرتدُّوا.

وهو في «تفسير مقاتل بن سليمان»، وذكره عنه الواحديُّ في «البسيط» والبغويُّ في «تفسيره»، أما الثعلبيُّ فعزاه في «تفسيره» لمقاتل بن حيان.

ثم ذكر المؤلِّف بعده عن مقاتل بن حيَّان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: على أنَّ اللهَ ربُّهم. وهذا على العكسِ مما قبله ذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» عن مقاتل بن سليمان.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] قال: وقال مقاتل بن حيَّان: وحمل نوحٌ في السَّفينة معه ثمانين نفسًا؛ أربعين رجلًا، وأربعين امرأةً، وفيهم أولادُه الثَّلاثة.

وهذا ورد في «تفسير مقاتل بن سليمان».

ـ وفي موضعٍ آخر قال المؤلِّف: وقال مقاتل بن حيَّان: لَمَّا نزل قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ٥]، قال عبد الله بن أُبَيٍّ: ما نحن وهم ـ يعني: الصَّحابةَ ـ إلا في منزلةٍ واحدةٍ، فأنزل الله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [الفتح: ٦].

وهذا أيضاً ورد في «تفسير مقاتل بن سليمان»، وذكره عنه ابن الجوزيِّ في «زاد المسير».

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥] قال المؤلف: وقال مقاتل بن حيَّان: رأى رسول الله ﷺ جبريلَ من قِبَلِ المشرقِ بأجياد وهو بمكَّةَ قد ملأ الأفقَ بكَلْكَله، رجلاه في الأرض، ورأسُه في السَّماء، جناحٌ له بالمشرق، وجناحٌ له بالمغرب، فغُشِيَ عليه فتحوَّل جبريل في صورة بني آدم، فقيل لرسول الله ﷺ لَمَّا رجع: ما رأيناك منذ بُعِثْتَ أحسنَ منك اليوم، فقال: «جاءني جبريل في صورته، فعَلِقني هذا من حسنه».

وهذا ورد في «تفسير مقاتل بن سليمان».

ـ وفي موضع آخر قال المؤلف: وقال مقاتل بن حيَّان: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩]؛ أي: مكتوبٌ لهم في ساق العرش، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١]؛ يعني: يشهدُ ذلك

الكتابَ سبعةُ أملاك من مقرَّبي أهلِ كلِّ سماءٍ حتَّى يُصعَد به إلى السَّماء، من كرامةِ المؤمن على الله تعالى.

وهو في «تفسير مقاتل بن سليمان».

ـ وفي قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] ذكر المؤلِّفُ عن مقاتلٍ دون تعيينٍ: نزلتْ في ثلاثة نفَرٍ، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ بعَثَ سَرِيَّةً وأمَّرَ عليهم المنذرَ بن عمرٍو، فخرج بنو عامر بن صَعْصَعَةَ عند بئرِ مَعُونَةَ، فرَصَدُوهم على الطريق وقتَلوهم، فرجعَ ثلاثةٌ منهم، فلمَّا دنَوا إلى المدينة خرَجَ رجلان مِن بني سُلَيمٍ صالَحا رسولَ اللهِ ﷺ، وقد كان أعطاهما وكسَاهما، فقالا: نحن مِن بني عامر؛ لأنَّ بني عامرٍ كانوا أقربَ إلى المدينة، فقتلوهما وأخذوا ثيابَهما، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيةُ.

وهذا الخبر ورد في «تفسير مقاتل بن سليمان»، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره».

لكن رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٣٠) عن مقاتل بن حيَّان.

وغيرُ هذا كثير، وإنما ذكرنا ما ذكرنا لتوضيحِ المسألة.

وتبقى هنا ملاحظةٌ أخيرة: وهي أنه يجب التفريقُ بين ما يرويه الضعفاءُ ممن ذكرنا كمقاتلٍ والكلبيِّ وبين ما يقولونه من التفسير، فبابُ التفسيرِ واسعٌ، وما دامت أقوالُهم لا تخرجُ عن الأصولِ فلا ضيرَ فيها واللهُ أعلم، بل كثيرٌ مما يذهبون إليه هو في الحقيقةِ من الوجوهِ المقبولة أو المستحسَنة، حتى رجَّح الماتريديُّ مرةً قول الكلبيِّ على قولِ سعيد بن جبيرٍ.

قال الماتريديُّ: قال سعيد بن جُبير رحمه الله: يُجمع بين أرواح الأحياء وبين

أرواح الموتى، يتعارفُ منها ما شاء الله أنْ يتعارف، ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ إلى أجسادها[1].

قال: وبهذا لم يُفْهَمْ شيءٌ مِن تأويل الآية.

قال: وقال الكلبيُّ: النائم مُتوفًّى حتى يرُدَّ الله إليه نفْسَه، وأمَّا التي يتوفاها حين موتها فإنه يقبِض الرُّوح والنَّفْس معاً، ويُرسل التي يتوفاها في منامها حتى تبلغَ أجلَها المُسمَّى، وهو الموت.

ويقول: إنما يقبِض الله مِن النائم النَّفْس لا الرُّوح.

ثم قال الماتريدي: وهذا الذي ذكره الكلبي أقربُ إلى تأويل الآية مِن الذي ذكرَه سعيدٌ...، إلى آخر كلامه.

فهذه بعضُ الملاحظات التي عرَضتْ لي خلالَ العمل في هذا التفسير، وقد كان البعضُ منها في البالِ قبلاً، لكنْ لم يتسنَّ لي التحقيقُ فيه، حتى يسَّره الله في هذا التفسير، الذي وقع فيه الإكثارُ من نقلِ أقوالِ السَّلف، فكان من ضمنِ ذلك أقوالُ الأعلامِ المتقدِّم ذكرُهم، وهو ما يسَّر الأمر عليَّ، واللهُ وليُّ التوفيق.

٤ ـ ردودُه على المذاهب الفاسدة والفرقِ الضالَّة.

من المعروفِ عن المؤلِّف رحمه الله التزامُه بعقيدةِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ ودفاعُه عنها، وإبطالُ أقوال أصحابِ المذاهبِ الفاسدة، والفرقِ الضالة، وتفنيدُها بالحجة والبرهان.

وهو في تفسيرِه هذا لم يَدَعْ آيةً فيها ردٌّ على أهل الباطل، أو إبطالٌ لتأويلهم الفاسد، إلا بيَّن ذلك، مُثْبِتاً مذهبَ أهلِ الحقِّ فيها وأنه هو الصَّواب، وما عدَاه من

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٥).

تلك التأويلاتِ الفاسدةِ فضلالٌ وانحرافٌ عن الصَّواب، فهو يردُّ على الجهميَّةِ والجَبْريَّة والكرَّاميَّة والمعتزلةِ وغيرهم.

فمن ردِّه على الكرَّامية: ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٨] قال المؤلفُ: أخبرَ عنهم أنهم يدَّعون ذلك، ثم قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليسوا بمؤمنين، فنَفَى الإيمانَ عنهم لأنه لم يكن في قلوبهم، وقد قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وبَطَل بهذا قولُ الكرَّامية: إنه مجرَّد الإقرار، فإن المنافقين أقرُّوا بذلك والله تعالى نفَى عنهم ذلك.

وردَّ مذهب الجبرية والقدرية: وذلك في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

فقال: في الآيةِ دليلُ أهل السُّنَّة والجماعة، فإنه قال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾، وهو إثباتُ فعلِ نفسِه، وقال: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وهو إثباتُ فعلِ العبد، فدلَّ على أنَّ العبدَ فاعلٌ، واللهَ تعالى لفعل العبد خالقٌ، وبطَل قولُ الجبرية أنْ لا فعلَ للعبد، وقولُ القدريَّة أنْ لا صنعَ لله في فعل العبد.

وعلى الإباحية من جهلة الصوفية: في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ [البقرة: ٢٩] فقال: ثم إنَّ أهلَ الإباحة مِن المتصوِّفة الجَهَلةِ حملوا اللامَ في قوله: ﴿لَكُم﴾ على الإطلاق، والإباحةَ على الإطلاق، وقالوا: لا حَجْر ولا حَظْر، ولا نهيَ ولا أَمْرَ، وإذا تحقَّقت المعرفةُ وتأكَّدت المحبَّةُ، سقطت الخدمةُ وزالت الحرمةُ، فالحبيبُ لا يُكلِّف حبيبَه ما يُتعبه، ولا يَمنعه ما يُريده ويَطلبه، وهذا منهم كفرٌ صُراح، وخروجٌ مِن الإيمان بإفصاح، فقد نهى اللهُ تعالى وأَمَر، وأباح وحظر،

ووعد وأَوعد، وبشَّر وهدَّد، والنصوصُ ظاهرة، والدلائلُ متظاهرة، فمَن حَمل هذه الآيةَ على الإباحة المطلَقة، فقد انسلخَ مِن الدِّين بالكليَّة، فالمحملُ الصحيحُ ما قاله ابنُ عباس رضي الله تعالى عنهما: خَلَق لمنافعكم ومصالحكم.

وردَّ مذهب الجهميَّة بأبسطِ طريق: وذلك عند قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩] فقال: وفي الآيتين نقضُ قولِ الجهميَّة: أنَّ الجنَّة والنَّار يَفنيان ويَنقطع ما فيهما، فإنَّ الله تعالى نفى الخوف والحزنَ عنهم، ولو كانتا تَفْنيَان لكان لأهل الجنَّة أشدُّ الخوف والحزن.

وردَّ على الرافضة بالدليلِ الذي لا مَدْفعَ له: وذلك في قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] فقال: وتعلَّقت الروافضُ بظاهرها لإباحةِ الجمع بين تسعِ نسوةٍ، فإنَّه ذُكر بالواو لا بـ(أو)، وذلك للجمع.

لكنَّا نقول: هذا على البدلِ دون الجمع في حالةٍ واحدةٍ؛ أي: فانكحوا مثنى، وانكحوا ثُلاثَ، بدل مثنَى، وانكحوا رُباع، بدل مثنَى وثلاثَ.

والدَّليل على أنَّ المراد هذا لا غيره: أنَّه لو قيل هذا في الأمر بشيءٍ آخرَ لم يكنْ إلَّا على هذا الوجه، فإنَّه إذا قيل لقوم: ادخلوا الدَّار مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ، لم يكن أمرًا بدخول تسعةٍ منهم جملةً في حالةٍ، بل هو أمرٌ لهم أن يدخلوا اثنين اثنين، ولهم أن يدخلوا بدلَ ذلك ثلاثةً ثلاثةً، ولهم أن يدخلوا بدلَ ذلك أربعةً أربعةً، وكذا في كلِّ موضعٍ، هذا هو قضيَّة اللُّغة.

وفي موضع آخر: وقالت الروافضُ في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾: لا

يخلو إما أن يكون حزنُ أبي بكر طاعةً أو معصيةً، فإن كان معصيةً ففيه نقصانه لا فضلُه، وإن كان طاعةً فلمَ نهاه رسول الله ﷺ؟

قلنا: لم يكن حزنُه سوءَ الظنِّ بربِّه تعالى، ولا استبطاءً لنصره، لكنْ شفقةً على رسول الله ﷺ وحبيبه، وكان ذلك شيئاً نشأ عن طبعه ولا نقصَ في مثله.

ثم نعارضُهم بخوفِ موسى وهارونَ عليهما السلام، وقال الله تعالى لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ [طه: ٤٦] إلى آخر السؤال حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، على أنهما قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾ [طه: ٤٥]، وليس في القرآن أن أبا بكر رضي الله عنه قال: إني أحزنُ.

أما ردودُه على المعتزلة فكثيرةٌ جدًّا، فهو لا يَدَعُ آيةً لهم فيها تأويلٌ منحرفٌ لإثباتِ مذهبهم الفاسد إلا رد عليهم:

ـ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] قال: أي: هُيِّئت وخُلقت... والآيةُ ردٌّ على المعتزلة، فإنهم قالوا: النار والجنةُ لم يُخلقا بعد، وإنما يُخلَقان يوم القيامة عند حضور أهلهما، وقولُهم باطلٌ مردودٌ بهذه الآية، ولقوله تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ونحوِهما من الآيات.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٧] قال: وقيل: أي: لم يُخرجهم منه، كما يقال: تركَه في الدار؛ أي: لم يُخرجْه منها، وهذا تأويل المعتزلة؛ فإنهم لا يقولون بخلقِ أفعال البشر من الله تعالى، والصحيحُ من التأويل عند أهل السُّنَّة والجماعة: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾؛ أي: جعَلهم في الظلمات، وهو كقوله: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ أي: جعَله صلداً.

ـ وردَّ مذهب الجبرية والمعتزلة بكلماتٍ بسيطةٍ واضحةٍ لا لبس فيها لمريدِ الحقِّ والساعي إليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فقال: ثم في مجموعِ الكلمتين تحقيقُ مذهب أهل السُّنة والجماعة، وهو إثباتُ الفعل من

العبدِ والتوفيقِ من الله تعالى، وفيه ردٌّ على الجبريَّة والمعتزلةِ:

فالجبريةُ يَنْفون الفعلَ من العبد، وقولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يردُّ عليهم ذلك.

والمعتزلةُ لا يَرون التوفيقَ من الله، وقولُه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يردُّ ذلك عليهم.

وأهلُ السنَّة والجماعةِ يقولون: من العبد الفعلُ واختيار الفعل، ومن الله تعالى خلقُ ذلك الفعلِ ومشيئةُ ذلك الفعلِ، والآيةُ تدلُّ على ذلك كلِّه.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٣] قال: ثم الرِّزقُ يكون هو التغذيةَ عندنا، وهو عند المعتزلة: التمليكُ، فالحرامُ عندهم ليس برزقٍ؛ لأنه ليس بمِلكٍ، وهذا في غايةِ الفُحش منهم، وهو نهايةُ الضَّلال؛ فإنه ردُّ كتاب الله تعالى، قال عزَّ وعلا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

والحيواناتُ عندهم ليست تأكلُ من رزقِ الله تعالى؛ لأنها لا تملك، وآكِلُ الحرام عندهم وكاسبُه في جميع عمره لم يأكلْ من رزقِ الله شيئاً، ولم يَرزقه اللهُ عزَّ وجلَّ شيئاً.

والأمثلةُ لا تحصى، وإنما أوردنا منها ما فيه كفايةٌ لبيان المراد.

٥ ـ منهجه في النحو:

وملخَّص منهج المؤلِّف في النحو الذي انتحاهُ في تفسيره: أنه يُعنَى بالإعراب، لكنه لا يستقصِي كما هي طريقةُ أبي حيَّان والسَّمين الحلبي، ويتابعُ مذهبَ الكوفيين في بعضِ المسائل وخصوصاً الفراء، كما يُعنَى أيضاً بالفوائد النحوية:

فمن أمثلة عنايته بالإعراب وشرحه وتوضيحه:

ـ قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [طه: ١٢٨] قال: ﴿كَمْ﴾ في موضع الرفع، وتقديره: كثرةُ مَن أهلكنا من القرون، وهو فاعلُ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾، والمفعول مضمَرٌ؛ أي:

أفلم يبيِّن للمشركين كثرةُ القرون المهلَكين بمخالفة الأمر أن حالهم كذلك.

ويجوز أن يكون الفاعل هو القرآن، و﴿كَمْ﴾ في موضع النصب لأنه مفعولٌ؛ أي: أفلم يبيِّن القرآنُ للمشركين كثرةَ مَن أهلكنا.

ومن ذلك العناية بالتقديرات عند القول بأن في الكلام حذفاً:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] قال: قيل: جوابُه محذوفٌ في آخرِه، وهو: أَجَلُّ مَثَلٍ.

وقيل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: صفةُ الجنَّة، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وعلى هذا فيه مُضْمَرٌ أيضًا، تقديرُه: صفةُ الجنَّة التي وُعِدَ المتَّقون [أنها] تجري مِن تحتِها الأنهارُ.

وقيل: الإضمار في أوَّلِه: وفيما يُتْلَى عليك مثلُ الجنَّةِ.

وقيل: إضمارُه: هذا مثلُ الجنَّة، ذكر وعدَ الأولياءِ بعدَ ذكرِ وعيدِ الأعداءِ.

ـ وفي قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠] قال: وجوابُه محذوفٌ ها هنا؛ قال الزجَّاج: هو: أتؤمنون؟

وقيل: أفما تَهْلِكون؟!

وقيل: أفلا تكونون ظالمين؟! يدلُّ عليه ما بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: ما داموا على ظُلْمهم.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤] قال: قيل: هاهنا مضمر: فوَدُّوا لو كانوا مهتدين إلى الإسلام في الدنيا.

وقيل: الإضمارُ في آخره: لو أنهم كانوا يهتدونَ لخرَجوا من العذاب الذي رَأَوا.

وقيل: بل المضمَرُ في آخره: لو كانوا يهتدون لَمَا رأوا ذلكَ العذاب.

ومن أمثلةِ عدم استقصائه:

ـ ما جاء عند قوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٥] قال: قيل: هو نصبٌ على التفسير؛ كقولك: هذا لك هبةً منِّي.

وقيل: هو مصدرُ فعلٍ مدلولٍ عليه أو مضمرٍ؛ لأن قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ (ولأدخلن) بمعنى: لأُثِيبنَّ بهذا، والإضمارُ: يثابون بذلك ثواباً.

فهذا ما ذكره من إعراب واقتصر عليه، وله عند الاستقصاء وجوهٌ أُخرُ، فقيل: هو حال من ﴿جَنَّٰتٍ﴾ لوصفها؛ أي: مُثاباً بها، أو من ضمير المفعول في ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾؛ أي: مُثابين، وقيل: إنه بدل من ﴿جَنَّٰتٍ﴾ على تضمين ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ معنى: ولأعطينَّهم، وقال الكسائيُّ: إنه منصوب على القطع. وفسَّر بعضهم القطعَ بالنصب على الحال[1].

ومن متابعته للكوفيين والفرَّاء:

قوله بكون الألف واللام بدلاً عن الإضافة:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤] قال: أي: فشُدُّوا وَثاقَهم، والألفُ واللامُ بدلٌ عن الإضافة ها هنا.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] قال: أي: منعَ نفسَه من اتِّباع هواها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١] قال: أي: مأواه، والألفُ واللَّام بدل الإضافة في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] قال: ﴿ٱلْفُؤَادُ﴾: أي:

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٣٦٨).

فؤادُه، بالألف واللَّامِ بدلٌ عن الإضافة؛ كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]؛ أي: مأواه.

قلت: وهذا مذهبٌ كوفيٌّ، قال الفراء: والعربُ تجعل الألف واللام خَلفًا من الإضافة فيقولون: مررتُ عَلَى رجلٍ حَسَنَةٍ العَيْنُ قَبِيحٍ الأنفُ، والمعنى: حسنةٍ عَيْنُه قَبيحٍ أنفهُ، ومنه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

هذا قول الفراء، وأما البصريون فالتقدير عندهم: هي المأوى له[2].

ومن ذلك أخذُه بمذهب الكوفيين في مسألةِ النصب على الصَّرف:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] قال: هو نصبٌ على الصرف كما في قول الشاعر:

لا تنــهَ عــن خلــقٍ وتأتــيَ مثلَه عــارٌ عليــك إذا فعلــتَ عظيــم

قال: ومعنى الصرفِ: أنه مصروفٌ عن معنَى مطلقِ العطف، فإنه ليس معناه النهيَ عن إتيان مثله قصدًا كالنهي عن النهي عن خُلُق، بل معناه النهيُ عن الجمع بينهما، وكذا معنى الصرف في هذه الآية ليس هو مطلقَ نفي علمِ الصابرين كنفيِ علمِ المجاهدين، بل معناه نفيُ اجتماعهما.

قلتُ: وهذا أيضاً مذهبٌ كوفيٌّ، قال ابن الأنباريِّ: ذهب الكوفيُّون إلى أن الفعل المضارعَ في نحوِ قولكَ: (لا تأكلِ السمكَ وتَشْرَبَ اللبنَ) منصوبٌ على الصرف. وذهب البصريون إلى أنه منصوب بتقدير (أنْ)، وذهب أبو عُمَرَ الجَرْمِيُّ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٠٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨١).

من البصريين إلى أن الواو هي الناصبة بنفسها؛ لأنها خرجت عن باب العطف[1].

ومن ذلك القول بزيادة الواو:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٤] قال المؤلف: قال الفراء وغيره: الواو مُقحَمةٌ زائدةٌ، ومعناه: ناديناه، جواباً لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، وهو كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ١٥].

فذكر قول الفراء ولم يذكر غيره، وهو مذهبٌ كوفي، ومذهبُ البصريين أن يقدَّر في هذه الآيات محذوفٌ يُعرفُ مِن سياق الكلام، وتكونُ الواوُ عاطفةً عليه كما هو الأصلُ فيها، فقدَّروا في هذه الآية جوابَ «لما»: سُعِدَا وأَجزلَ لهما الثواب، ونحوَه من التأويلات، قالوا: والقول بالتقدير خيرٌ من الحكم بالزيادة، لا سيما في كتاب الله تعالى[2].

أَمَّا الفوائدُ النحويةُ عند المؤلِّف فأكثرُ من أن تُحصى:

ـ فمن ذلك كلامُه في أولِ سورةِ البقرة عن (الذين) حيث قال: وأصلُه: (اللذِينَ) بلامينِ؛ إحداهما: لامُ التعريف، والثانية: لامُ (لذ)، وإنما اكتُفي في الكتابة بواحدةٍ تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ولهذا تُكتب في التَّثنية في (اللذانِ) بلامين؛ لأنه لم يَكثر استعمالُه.

ثم قال: وإنما لم يُعرب لأنه موصولٌ لا يَتمُّ إلا بصلته، فصار لفظُه كأنه بعضُ الكلمة، ولا إعرابَ إلا لتمامِ الكلمة في آخرها، فأمَّا (اللَّذانِ) في التثنية فإنما أُعرب ـ

(١) انظر: «الإنصاف في مسائل الخلاف» لابن الأنباري (٢/ ٤٥٢).

(٢) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٢)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٩/ ٣٢٤).

فكان رفعُه بالألف، ونصبُه وخفضُه بالياء ـ لأن منعَ الإعراب كان لإلحاقه بالحروف، ولا تثنيةَ للحروف فلم تُلحق بها، بل تحقَّق فيه معنى الاسمِ فأُعرب لذلك.

ـ ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٣] قال: قُرئ فيه بالرَّفع على الاستئناف، وبالنصب على المدح، وهذا شاذٌّ، وبالخفض على البَدَل، وهو قراءة الزهريِّ، وهو كما قال كُثَيِّر به:

وكنتُ كذي رِجلَيْن رِجْلٌ صحيحةٌ ورجلٌ رَمَى فيها الزمانُ فَشُلَّتِ

يُنشَد بالرَّفع والجرِّ معاً.

ولو قلتَ: مررتُ بثلاثةٍ: صريعٌ وجريحٌ، واقتصرتَ عليهما، لم يجزْ بالجرِّ؛ لأنَّك لم تَستوفِ العددَ، ويَجوز بالرَّفع، وتقديره: منهم صريعٌ، ومنهم جريحٌ، وإذا قلتَ: مررتُ بثلاثةٍ؛ صريع وجريح وسليم، جاز فيه الرَّفع والجرُّ، فإنْ زدتَ فيه: اقتَتَلوا، جاز فيه الرَّفعُ والجرُّ والنصبُ.

فانظر إلى هذا التفصيل والتمثيل الذي لا تجده عند غيره.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] قال: منصوباتٌ بالترجمة عن ﴿مَا﴾، ولا تنوينَ فيهنَّ لأنَّها غيرُ منصرفة، فإنَّها معدولةٌ عن اثنين وثلاثٍ وأربعٍ، ومعناه: اثنين اثنين وثلاثًا ثلاثًا وأربعًا أربعًا، ومع العدل فيها معنًى آخرُ، وهو وهمُ الألف واللَّام؛ لأنَّها كالمعارف، ولهذا لا إضافة فيها، فامتنَع صرفُها لذلك.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] قال: حُذف النون من (يكن) تخفيفاً لكثرة الاستعمال؛ لأن (كان) و(يكون) أمَّ الأفعال؛ لأن (ضرَب) في معنى: كان ضرَب، و(يضرب) في

معنى: يكون يضربُ، فلما كانت أمَّ الأفعالِ وكثُر استعمالُها للحاجةِ إليها احتَملتْ هذا الحذفَ، ولم يَحتمِلْه نظائرُها مِن: لم يَصُن ولم يَخُن.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨] قال: يُقرأ بالياء والتاء[1]، فمَن أنَّث فلأنَّ الشفاعةَ مؤنَّثةٌ لفظاً، وأمَّا التذكيرُ فلأنَّ تأنيثَ ما ليس بذي روحٍ غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ الفعلَ مقدَّمٌ على الاسم، ولأنَّ بينهما حائلاً.

وفي القرآن: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ [الممتحنة: ٤] ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧] وقال: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٧].

والحاصل: أنَّ ما كان تأنيثه ليس بحقيقيٍّ فتأنيثُه وتذكيره جائزٌ إنْ تقدَّم أو تأخَّر، وكان بينهما حائلٌ أو لم يكن، وفي الحقيقيِّ يجوز تأنيثُها بكلِّ حالٍ، وتذكيرُها إذا تقدَّم الفعلُ وبينهما حائلٌ، ولا يَحْسُنُ بغير حائلٍ.

ـ ومن أجمل فوائده: ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ﴾ [الحجر: ٣] قال: جُزِمَ ﴿يَأْكُلُواْ﴾ لأنَّه جوابُ الأمرِ، وكذا ما بعدَه، وفي قولِه: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] لم يُجزَمْ لأنَّه حالٌ لا خبرٌ، وتقول العربُ: دَعْ زيدًا يَنَمْ، ودَعْ زيدًا ينامُ، فإذا كانَ غيرَ نائمٍ نقولُ: دَعْ زيدًا يَنَمْ جوابًا للأمر، وإذا كان نائمًا تقولُ: دَعْ زيدًا ينامُ؛ أي: قَرِّرْهُ على حالةِ النَّوم.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ

(١) قرأ بالياء ابن كثير وأبو عمرو، وقرأ باقي السبعة بالتاء.

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣] قال: الباءُ زائدةٌ، وإنما أُدْخِلَتْ لأنَّ معنى قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾: أَوَليسَ، وذاك تدخُلُ فيه الباء.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] قال: اختُلِفَ في جواب هذا القسَمِ، وأصلُه: أنَّ جوابَه بأحدِ خمسةِ أشياءَ:

(إنَّ) المُشَدَّدة؛ كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

و(ما) النَّافية: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣].

واللَّامُ المفتوحةُ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الفجر: ٩٢].

و(إنْ) الخفيفةُ بمعنى (ما): ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧].

و(لا): ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ﴾ [النحل: ٣٨].

قال: وزاد البَعْلِيُّ على هذا:

(قد)؛ كقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا... قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.

و(بل)؛ كما في قوله في هذه السورة: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ... بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢] قال: وفي زيادة الواو أقاويلُ:

قيل: الواو تدخل للمبالغة في المدح للمنعوت واحداً كان أو جماعةً، قال تعالى: ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقيل: لأن الأمر والنهيَ متقابلان، والمعروفَ والمنكرَ كذلك، فكانا كالمتعاندَين(١)، فأَدخل بينهما حرفَ العطف كما في قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ٥].

---

(١) في نسخة: «كالمتغايرين».

وقيل: هي واو الثمانية؛ لأنها الصفةُ الثامنة، والعربُ تخصُّ ذلك بالواو، كما في قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢]، وقوله: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأن أبواب الجنة ثمانيةٌ.

ولا أصل لهذا القول عند المحققين، فليس في هذا العدد ما يوجب ذلك ولا استعمالَ على الاطِّراد كذلك، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] بغير واو، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ الآيةَ بغيرِ واوٍ في الثامن.

ومن فوائده جمع المعاني أو الاستعمالات لكلمةٍ أو حرفٍ:

ـ من ذلك: الكلامُ على (أم) في أول سورة البقرة، حيث قال: وقوله تعالى: ﴿أَمۡ﴾: هذه الكلمةُ في القرآنِ على أربعة أوجُهٍ:

أحدها: عطفٌ على ما دخله ألفُ استفهامٍ كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: ١٦] ثم قال: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٧].

والثاني: ابتداءُ استفهامٍ كالألف: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [النساء: ٥٣]؛ أي: ألهم؟

والثالث: بمعنى (بل): ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ [الزمر: ٥٢]؛ أي: بل أنا خير.

والرابع: بمعنى (أو) من غير استفهامٍ كما في هذه الآية: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [يس: ١٠]؛ أي: أو لم تنذرهم، فلا استفهامَ في هذه الآية.

ـ ومن فوائدِه تعديدُ استعمالات الفعل (كان)، فقال: وكلمةُ (كان) قد تَجيءُ للماضي، كما في قوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ [النمل: ٤٨].

وقد تجيءُ للمستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقد تجيءُ للحال، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

وقد تجيءُ جامعاً لذلك كلِّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ أي: لم يَزَلْ رحيماً بهم في الأزلِ وفي الحالِ وفي الأبد.

وقد تَجيءُ بمعنى: صار، كما في قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وقد تجيء بمعنى: وقع، كما في قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ـ ومن ذلك ذكر معاني (أو) في القرآن، فقال في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩]: (أو) جاءت في القرآن لثلاثةَ عشَر معنًى:

أحدها: للشكِّ، قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

وللتشكيك: قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وهذا غيرُ الأول، هذا إخفاء الحال على السامع من غير شكٍّ من القائل.

وللتخيير: قال تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وللإباحة: قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] وهذا غير التخيير، ذاك بيانٌ أن الواجب أحدُها لا الكلُّ وله الخيارُ، وفي الإباحةِ له أن يفعلَهما وله أن يفعل أحدهما.

قلت: وهذا من أحسن ما رأيتُ في التفريق بين الشكِّ والتشكيك، والإباحةِ والتخيير.

ثم قال: وللتفصيل: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٣]، كلُّ عقوبةٍ منها لجنايةٍ غيرِ الأخرى.

وبمعنى الواو: قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وبمعنى: بل، قال تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وبمعنى: ولا، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وبمعنى: حتى، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

إلى آخر المعاني الثلاثة عشر.

ومثله كثير، وفيما ذكرنا كفاية.

٦ ـ الفقه في تفسير «التيسير»:

لم يقفِ المؤلِّفُ عند الأحكام الفقهيةِ كثيراً، بل كان منهجُه الإشارةَ إليها دونَ التوسُّع فيها، ثم الإحالةَ إلى كتب الفقه بشكلٍ عامٍّ لمن أراد التوسُّع، أو يخصص بعضَ كتبه التي أَلَّفها في الفقه، وهو في الغالبِ يكتفي بعرضِ أقوالِ أئمَّةِ مذهبه أبي حنيفةَ وأبي يوسفَ ومحمد بن الحسن وزُفَرَ، مع الإشارةِ لاختلافهم إن كان:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] قال: اختلفَ العلماءُ فيمَنْ بلغَ مبذِّرًا سفيهًا؛ هل يُحجَر عليه؟

وأراد بالعلماءِ علماءَ مذهبه، فإنه لم يذكر عَقِبه سواهم، ثم إنه اكتفَى بذكر أقوالهم مختصرةً جدًّا، حيث قال:

فأبو حنيفة رحمه الله لا يرى الحجرَ عليه في تصرُّفاته، وأبو يوسف رحمه الله يقول: لا يَنحجِر بذلك، لكن يستحقُّ حجرَ القاضي عليه، وقال محمَّد رحمه الله: يَنحجِر بسفهه.

ثم ختم كلامه في المسألة بقوله:

ويُعرف ذلك في الفقهيَّات، وقد أوضحناه في «حصائل المسائل».

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣] قال بعد ذكرِ بعضِ ما يتعلَّق بالآية: والرَّضاعُ في الكبر لا يحرِّم عندنا؛ لقوله عليه السلام: «الرضاعُ ما أنبتَ اللَّحمَ، وأنشزَ العظمَ»[1]، وذلك في الصَّغير، وذاك في سنتين عند أبي يوسفَ ومحمَّد رحمهما الله، وسنتين ونصفٍ عند أبي حنيفة رضي الله عنه، وثلاثِ سنين عند زُفَرَ رحمه الله، ويُعرف ذلك في الفقهيَّات.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]: قال: وهؤلاء مصارفُ هذا المال بصفةِ الحاجة، فلا يَحلُّ للغنيِّ منهم، ويجوز الصرفُ إلى صنفٍ واحدٍ منهم، وهو بيانُ الصرف دون الاستحقاق كما عُرف في مصارف الصدقات، وهذا عندنا.

وأربعة أخماسه يُقسم بين الغزاة: للفارسِ سهمان وللراجل سهمٌ عند أبي حنيفة، وهو قولُ أكثرِ الصحابة رضي الله عنهم، وفيه أكثرُ الأحاديث، وعند أبي يوسف ومحمدٍ رحمهم الله: للفارس ثلاثةُ أسهم سهمٌ له وسهمان لفرسه، وهو قولُ بعض الصحابة، وفيه بعض الأحاديث.

ثم فيمَن شهد الأمر مَن لا يستحِقُّ السهم ويُرضَخُ له، ومنهم مَن لا يُرضخ، وفي موضع الرَّضخ ومقدارِ الرضخ والمالِ الذي منه الرضخُ كلامٌ، وشرحُه في الفقهيات، وقد أشبَعْنا الكلام فيه على التهذيب والترتيب في «حصائل مسائل الفقه».

فهذا منهجُه رحمه الله في آيات الأحكام، وهو كما يَظهرُ من الأمثلة التي ذكرناها

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٥٩) و(٢٠٦٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قوله: أنشز العظم؛ أي: رفعه وأعلاه وأكبر حجمه، ويروى بالراء؛ أي: شده وقواه.

ومن غيرِها قائمٌ على الاختصار، والاقتصارِ على أقوالِ أئمةِ المذهب، والإحالةِ في التفاصيل على كتبِ الفقه، ومنها كتبُه التي أَلَّفها، وخصوصاً «حصائل المسائل»، وهو ـ والله أعلم ـ قد تناول فيه بسطَ مسائل الفروع وتفصيلَها.

٧ ـ منهجه في القراءات:

أمَّا القراءاتُ فالمؤلفُ رحمه الله له عنايةٌ كبيرة بها، وهو قد انتهَج فيها طريقةً ثابتةً من أولِ الكتاب إلى آخره، وهي ذكرُ القراءاتِ السبعةِ في الغالب، وفي أحيانٍ قليلةٍ يضيفُ باقي العشرة، لكنه لا يكتفِي بالإشارة إلى القراءةِ بل إنَّ له عنايةً خاصةً بتوجيهها وبيانِ ما أشكلَ، مع الدقَّة في عزوِ القراءة لقائليها من السبعة، أمَّا القراءاتُ الشاذةُ فقليلاً ما يتعرَّض لها، ومن أمثلة العناية بالقراءات عنده:

ـ قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل: ٢٤ ـ ٢٥] قال: قرأ الكسائي وأبو جعفر ورويسٌ عن يعقوب بالتخفيف[١]، ومعناه: (أَلَا) كلمة تنبيهٍ، و﴿يَسْجُدُوا﴾ بمعنى: يا اسجدوا، (يا) نداءٌ والمنادى مضمرٌ؛ أي: يا هؤلاءِ اسجُدوا للهِ، قال ذو الرُّمَّة:

أَلَا يا اسْلَمي يا دارَ مَيٍّ على البِلَى ... ولا زالَ مُنْهَلًّا بجَرْعائكِ القَطْرُ

وقرأ الباقون بالتشديد، وله وجوهٌ:

أحدها: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أَلَّا يَسجدوا.

والثاني: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أعمالَهم لئلَّا يَسجدوا.

والثالث: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ لئلَّا يَسجدوا.

---

(١) ويقف هؤلاء على (يا)، ويبتدئون: (اسجدوا) على الأمر.

والرابع: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أنْ لا يَسجدوا، ومعناه: أنْ يسجدوا، و(لا) زائدة، كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ أي: أن تسجد.

والخامس: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لقُبْحِ أنْ لا يسجدوا لله، كما قالوا في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: كراهةَ أن تضلُّوا، على الإضمار.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً﴾ [الأنفال: ١١] قال: قرأ عاصمٌ وابنُ عامر وحمزةُ والكسائيُّ بضمِّ الياء وتشديدِ الشين ونصبِ سينِ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ من التغشيةِ وهي تعديةُ الغِشْيان.

وقرأ نافعٌ بضمِّ الياء وتخفيفِ الشين من الإغشاء، وهو للتعدية أيضاً، ولذلك نصَب هو ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ أيضاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يغشاكم﴾ بفتح الياء والتخفيف وضمِّ سِين ﴿النعاسُ﴾ من الغِشْيان وهو لازمٌ، و﴿النعاسُ﴾ فاعل.

ويجدرُ التنبيه هنا على أن قولَه في آخر النصِّ: (وهو لازم) فيه نظر، فإن الفعل هنا متعدٍّ، ومفعولُه مذكورٌ معه، وهو الكافُ في (يغشاكم)، لكن الفرقَ عن القراءتين الأُخريين أنه فيهما متعدٍّ لاثنينِ، وهنا في (يغشاكم) تعدَّى الفعلُ لواحدٍ، ولعل هذا مرادُ المؤلِّف باللزوم؛ أي: التعدِّي لواحدٍ في هذه القراءة في مقابلةِ التعدِّي لاثنينِ في القراءتين الأُخريين.

والمؤلِّفُ رحمه الله دقيقٌ في عزو القراءاتِ السبعةِ لأصحابها مما يتوافَقُ مع المراجع الأساسية لهذه القراءات كـ«السبعة في القراءات» لابن مجاهد، و«التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرٍو الدَّاني، لكن لا يخلو الأمرُ من بعضِ السهو ـ وهو نادرٌ ـ كما في قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الكهف: ٩٨] قال: على قراءة المد: مستويةً على

الأرض، من قولهم: ناقةٌ دكاءُ؛ أي: لا سنام لها، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، والتأنيثُ راجع إلى مؤنَّثٍ مضمَر؛ كأنه قال: جعله أرضاً دكَّاء، وقرأ الباقون غيرَ ممدودة بالتنوين.

كذا قال في نسبتها والصوابُ العكس، فقد قرأ ابنُ كثير ونافعٌ وأبو عمرو وابن عامر بغير مدٍّ، وقرأ باقي السبعة ـ وهم حمزةُ والكسائيُّ وعاصم ـ بالمد؛ كما في «السبعة» و«التيسير».

وله تحقيقٌ في القراءات، ففي قوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] قال: ومَن تكَلَّفَ وقرأ: (عَبَاقِرِيّ) بالياء[1] ـ لِيَصِحَّ وَصْفُها بالحِسان جَمْعاً ـ لم يَنْفَعْه ذلك؛ لأنَّ المكانَ يَصيرُ جَمْعاً، فأمَّا المنسوبُ إليه فيبقى واحداً كـ«الجَوَالِقِيِّ»، إلَّا أنْ يُقْرَأَ: (عَبَاقِرِ) بدون الياء، فيصيرُ جَمْعاً، ولا ضَرورةَ إليه، فإنا قلنا: إنَّ العَبْقَرِيَّ جَمْعٌ، وواحدتُها: عَبْقَرِيَّةٌ.

وهناك قراءاتٌ من الشواذِّ ذكرها المؤلِّف ولم أجدها فيما توفَّر لديَّ من المصادر، ومنها عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] قال: وفي مصحف حفصةَ رضي الله عنها: (وإذا كالوا لهم).

وفيما أوردناه كفايةٌ لبيان المراد، والله تعالى أعلم.

٨ ـ الإسرائيليات في هذا التفسير:

الإسرائيليات: جمعُ إسرائيليةٍ، نسبةً إلى بني إسرائيل، وهي معارفُ اليهودِ وثقافتُهم المتمثِّلةُ بالتوراةِ وشروحها، والأسفارِ وما اشتَملت عليه، والتلمودِ ـ

---

(١) وهي قراءة شاذة نسبت لجمع من السلف، كما نسبت للنبي ﷺ في خبر، لكنه لم يصح، وسيأتي تفصيل ذلك في مكانه.

وهي التوراةُ الشفهيةُ، وهو مجموعةُ قواعدَ ووصايا وشرائعَ دينيةٍ وأدبيةٍ ومدنيةٍ، وشروحٍ وتفاسيرَ وتعاليمَ ورواياتٍ كانت تُتناقَل وتُدرَّس شفهيًّا من حينٍ إلى آخر ـ وشروحِه، والأساطيرِ والخرافات، والأباطيلِ التي افترَوها أو تناقلوها عن غيرهم، وهذه كلُّها كانت المنابعَ الأصلية للإسرائيليات التي زخرت بها بعضُ كتبِ التفسيرِ والتاريخ والقصص والمواعظ، وهذه المنابعُ إن كان فيها حقٌّ ففيها باطلٌ كثير، وإن كان فيها صدقٌ ففيها كذبٌ صُرَاح، وإن كان فيها سمينٌ ففيها غثٌّ كثير، فمِن ثَم انجرَّ ذلك إلى الإسرائيليات.

وقد يتوسَّع بعضُ الباحثين في الإسرائيليات، فيجعلُها شاملةً لِمَا كان من معارف اليهود، وما كان من معارفِ النصارى التي تدور حولَ الأناجيل وشروحها، والرسلِ وسيَرهم، ونحوِ ذلك؛ وإنما سمِّيت إسرائيلياتٍ لأن الغالبَ والكثيرَ منها إنما هو من ثقافةِ بني إسرائيل، أو من كتبهم ومعارفهم، أو من أساطيرهم وأباطيلهم.

والحق: أن ما في كتب التفسيرِ من المسيحيَّات أو من النصرانيَّات هو شيءٌ قليلٌ بالنسبةِ إلى ما فيها من الإسرائيليات، ولا يكادُ يُذكر بجانبها، وليس لها من الآثارِ السيئة ما للإسرائيليات؛ إذ معظمُها في الأخلاق، والمواعظِ، وتهذيبِ النفوس، وترقيق القلوب(١).

قلتُ: وأخبثُ الإسرائيلياتِ وأكثرُها خطراً هو تلك التي يُخلط فيها بعضُ آيات القرآن، فلا شكَّ أنها مِن وضعِ كذابٍ خبيثٍ؛ لأنه أراد بتضمينه إياها آياتٍ من القرآن إيهامَ رفعها، ودفعَ الشكِّ عنها، وهذا أسلوبٌ لجأ إليه بعضُ الوضَّاعين بأنْ خلطوا مع الإسرائيلياتِ بعضَ ما ورد في القرآن والسنَّة؛ ليلبِّسوا على العامَّة أنها ليست من الإسرائيليات، وليست مما يقال بالرأي، وبالتالي فهي من المرفوع،

---

(١) انظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» لمحمد أبو شهبة (ص: ١٢ ـ ١٤).

فينفِّقوا بذلك أكاذيبَهم وأباطيلهم، ويدسُّوا من خلاله شُبَهَهم، وسيأتي بعض الأمثلة على هذا ضمن هذا الفصل.

وقد كثُر في كتب التفسير إيرادُ الإسرائيليات، وأكثرُها كما تقدَّم طامَّاتٌ لم ينبِّه ناقلوها على أصله، ولم يُوْقَف على قائله، فكانت مثاراً للشكِّ والطعن والتقوُّلِ على الإسلام ونبيِّه ﷺ.

لكن قد نبَّه أبو شهبة رحمه الله هنا إلى مسألةٍ مهمةٍ فقال: وأحبُّ أن أنبِّهَ أنه ليس معنى أنَّ هذه الإسرائيلياتِ المكذوباتِ والباطلاتِ مرويةٌ عن كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالِهم، أنها مِن وضعِهم واختلاقِهم، كما زعم ذلك بعضُ الناسِ اليومَ، وإنما معنى ذلك: أنهم هم الذين روَوْها، ونقلوها لبعضِ الصحابة والتابعين من كتبِ أهل الكتاب ومعارِفهم، وليسوا هم الذين اختلقوها، وإنما اختلَقَها وافْتَجَرها أسلافُهم القدماء.

ولم يقُلْ أحدٌ من أئمةِ الجرح والتعديلِ على حصافتهم وبُعد نظرهم: إن كعباً ووهباً وعبد الله بنَ سلامٍ وتميماً الداريَّ وأمثالَهم كانوا وضَّاعين، يتعمَّدون الكذب والاختلاقَ من عند أنفسِهم، وإنما الذي قالوه عنهم: إنهم كانوا هم الواسطةَ في حمل ونقلِ معارفِ أهل الكتاب إلى المسلمين، وإن البعضَ رواها عنهم، فليس الذنبُ ذنبَهم، وإنما الذَّنبُ ذنبُ مَن نقلها ورواها عنهم من غيرِ بيانٍ لكذبها وبُطلانها[1].

ووهبٌ هو عالمُ أهلِ اليمن، روَى عن ابن عُمرَ وابن عباسٍ وجابرٍ وغيرِهم، وكان ثقةً، توفِّي سنةَ أربعَ عشرةَ ومئةٍ، وقد رُوي عنه في التفسير رواياتٌ كثيرةٌ جدًّا، مما في كتب أهل الكتاب.

---

(١) انظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» لمحمد أبو شهبة (ص: ٩٦ ـ ٩٧).

وكعبُ الأحبار روَى عن النبيِّ ﷺ، ولكنه مرسل؛ لأنه لم يلقَ النبيَّ ولم يَسمع منه، وعن عمرَ، وصهيبٍ، والسيدةِ عائشةَ، وروَى عنه من الصحابةِ معاويةُ وأبو هريرةَ وابنُ عباسٍ، وعطاءُ بن أبي رباحٍ وغيرُه من التابعين. وقد أثنى عليه العلماءُ، وكان قبلَ إسلامه يهوديًّا عالماً بكتبهم وثقافتِهم، حتى قيل له: كعبٌ الحبرُ، وكعبُ الأحبارِ.

ويمكن تقسيمُ الإسرائيلياتِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ لا حجةَ في ذكرِ أيٍّ منها:

فمنها: ما علِمنا صحته بشرعنا، فما جاء به شرعُنا أولَى بالذكر.

ومنها: ما علِمنا كذبَه لكونه خالفَ ما عندنا، فلا يجوزُ ذكره.

ومنها: ما هو مسكوتٌ عنه، فلا نكذِّبه ولا نصدِّقه، وتَجوزُ حكايتُه، لكنْ لا فائدةَ فيه تعودُ على الدِّين، وإنما لجأ إليه كثيرٌ من المفسِّرين لملءِ الفراغاتِ التي يتركُها القرآنُ في القصص بأسلوبِه المعجِز المترفِّع عن إيرادِ التفصيلات التي لا لزومَ لها، بل قد تشتِّت الذهنَ وتصرفُ عن العبرة التي سِيقت القصة لأجلها.

وينبغي الاعترافُ أنَّ هذا التفسيرَ من التفاسيرِ التي وقع فيها ذكرُ الكثير من الإسرائيليات، وغالبُه نسبه المؤلِّف رحمه الله لوهبِ بن منبِّهٍ، وبعضُه عن كعبِ الأحبار.

ويجب التنبيهُ هنا إلى ملاحظة مهمة أشار إليها أبو شهبة رحمه الله، وهي أن مَن أورد الإسرائيليات وعزاها لكعبِ الأحبارِ أو وهبِ بن منبِّهٍ أو عبدِ الله بن سلام وأضرابهم، فإنه قد دلَّ بعزوِها إليهم أنها مما حملوه وتلقَّوه عن كتبِهم ورؤسائهم قبل إسلامهم، ثم لم يَزالوا يذكرونه بعد إسلامهم، وأنها ليستْ مما تلقَّوه عن النبيِّ

أو الصحابةِ، فكانت نسبتُها إليهم تشير إلى مصدرها، ومن أين جاءت، وأن الرواية الإسلامية بريئة منها[1].

قلتُ: ولعل هذا يفسِّرُ كونَ بعضِ هذه الأخبار قد رُويت في كتبٍ تُنسبُ لأئمةٍ كبارٍ من أهل الحديث عُرف عنهم التحرِّي في الأخبار، ككتاب «الزهد» للإمام أحمد، و«تفسير الطبري»، و«تفسير ابن أبي حاتم»، فقد رُوي فيها بعضُ أخبارِ وهبٍ التي لا غبارَ على أنها مما أخذه عن الإسرائيليات، كقصةِ أيوبَ التي وردت عند الطبريِّ في أكثرِ من عشر صفحات، ولم يتعقَّبها بشيءٍ، وكقصةِ موسى التي وردت أيضاً مطوَّلةً في «الزهد» للإمام أحمدَ، وسيأتي العزوُ لهذين المصدرينِ في الكتاب في مواضعه إن شاء الله، فما أورده المؤلف كذلك منسوباً لمَن ذكرْنا لا يَحطُّ من قيمةِ الكتاب كما لم يحطَّ ذلك من تلك الكتب، نعم قد يكونُ في الإكثار منها ما يؤخذ عليه.

وتبقى الطامَّة في الكثيرِ من الإسرائيليَّاتِ الذي جاء موقوفاً على الصَّحابة، ومنسوباً إليهم رضي الله عنهم، فيظنُّ مَن لا يعلمُ حقيقةَ الأمر، ومَن ليس مِن أهل العلمِ بالحديث، أنها متلقَّاةٌ عن النبيِّ ﷺ؛ لأنَّها من الأمورِ التي لا مجالَ للرأي فيها.

وأمَّا الطامَّةُ الأكبرُ والأعظمُ والأخطرُ فهي أن بعض الزنادقة والوضَّاعين وضعفاءِ الإيمانِ قد رفَعوا هذه الإسرائيلياتِ إلى المعصومِ ﷺ، ونَسبوها إليه صراحةً، وهنا يكون الضررُ الفاحشُ والجنايةُ الكبرى على الإسلام، والتجنِّي الآثمُ على النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ نسبة الغلط أو الخطأ أو الكذبِ إلى الراوي أيًّا كان أهونُ بكثيرٍ من نسبة ذلك إلى النبيِّ ﷺ[2].

---

(١) انظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» لمحمد أبو شهبة (ص: ٩٤).

(٢) انظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» لمحمد أبو شهبة (ص: ٩٤ ـ ٩٥).

فهذه مقدِّمةٌ لا بدَّ منها قبلَ الخوضِ فيما ورد في هذا الكتابِ من الأخبارِ التي لا شكَّ أن كثيراً منها هو من خرافاتِ بني إسرائيلَ وأباطيلِهم، فالمؤلِّفُ رحمه الله مثلُ عامَّةِ المفسِّرين لم يتوانَ عن إيراد الإسرائيليات التي يراها مناسبةً للموضع، ولو كان واضحاً أنها كذلك؛ كما في إيراده قصةَ خلقِ آدمَ وأكلِهِ من الشجرةِ نقلاً عن وهبِ بن منبِّهٍ، وقد صرَّح مكيٌّ بأن ذلك الخبرَ مما أخذَه وهبٌ عن أهلِ الكتاب.

ومن ذلك ممَّا يوازي الإسرائيلياتِ في الخرافة بل يفوقُها قصةُ النمرودِ التي رواها المؤلِّفُ بالسند المتَّصل إلى الراوي، وهو دِهقانٌ أسلمَ على زمنِ عُمر، وهي قصةٌ طويلةٌ مليئةٌ بالعجائب والغرائبِ والأساطيرِ التي لا تقبلُها العقول.

ـ ومن أمثلةِ ما نقله المؤلفُ من الإسرائيليات: ما جاء عندَ قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، فقد ذكر خبراً عجيباً غريباً لا تقبلُه عقولٌ ولا تتَّسعُ له الأفهام، فقال: وقال وَهْبٌ: صار أعظمَ ثعبانٍ نظرَ إليه الناظرون، أسودَ مدلهمًّا يدبُّ على قوائمَ غلاظٍ قِصَارٍ شدادٍ في مثلِ بدنِ البُختيِّ العظيم، إلا أنه أطولُ منه بدناً وعنقًا ومشفرًا، وإن له ذنَبًا طويلًا غليظًا يقوم عليه فيُشرف على حيطان المدينة برأسه وعُنقه، ثم يقع على الأرض فلا يأتي على شيءٍ إلا حطَمه، وخدَش بقوائمه الصخرَ والرُّخامَ والحيطانَ والبيوت، حتى يرمي بعضَها على بعضٍ، يتنفَّسُ في البيوت والخزائن فيَشتعِلُ كلُّ شيءٍ منها نارًا، وله عينان تتوقَّدان نارًا، ومَنْخِران يخرج منهما الدُّخان، وقد صار له المحجَن عُرفًا على ظهره، وشعورًا سودًا غلاظًا مثلَ الرِّماح الطِّوال لا يُصيب منها شيئًا إلا قطَعه، وقد جُعلت الشعبتانِ له فمًا مثلَ القَليب الواسع يخرجُ منه رياحُ السَّموم لا يُصيب أحدًا منه نفخةٌ إلا صار أسودَ مثلَ الليل المظلِم، في فيه أضراسٌ وأنيابٌ، في أعلى شدقِه اثنانِ وسبعون ضرسًا، وفي أسفلهِ مثلُ ذلك، له صريرٌ يَصمُّ مَن سمعه، ما يسمعُ الرجل كلامَ جليسه إذا ضربَ

أضراسَه بعضَها على بعضٍ، وإنه ليَهدر مثلَ البعير يتزبَّد شدقاه زبَدًا أبيضَ، يَتطاير لعابه فلا يقع منه قطرةٌ على أحدٍ إلا اشتعل برَصاً، فأدخلَ الثعبانُ أحدَ شدقيهِ تحت سريرِ فرعونَ والآخَرَ فوقه وفرعونُ ـ لعنه الله ـ على سريره، فسَلَح في ثيابه، فلمَّا عاين الناسُ ذلك من أمر الثعبان ـ وكان قد اجتمع أهلُ المدينة بأسرهم ـ انهزموا وولَّوا ذاهبين، وتزاحَموا في الأبواب، وتضاغَطوا ووطئَ بعضهم بعضًا، فمات يومئذ خمسٌ وعشرون ألفًا، فقام فرعونُ اللعينُ فوقع عن سريره، وكان الله تعالى قد أملَى له حتى كان يمكثُ أربعينَ يومًا لا يَخرجُ من بطنه شيءٌ، ولا يُحدِث إلا في كلِّ أربعين يومًا مرةً، فلمَّا كان يومئذٍ أحدَثَ في ثيابه حتى علِم به جلساؤه، وكان يأكلُ ويشرب جاهدًا، ولا يَبصقُ ولا يَتمخَّط لا يتنخَّعُ ولا تَذرُف عيناه، ولا يمرضُ ولا يصدعُ ولا يَسقمُ ولا يَهرمُ ولا يَفتقِر، شابَّ السنِّ، فكان على هذا أربعَ مئة سنةٍ، فلمَّا كان يومئذٍ أحدثَ وبصق وامتخَط وأخذَه المرضُ والصُّداع واختلف بطنُه أربعين مرةً، فلم يزل بعد ذلك يختلفُ حتى مات عليه.

هذا الخبرُ رواه ابنُ عساكرَ في «تاريخه»، وهو مع ما فيه من المبالغاتِ التي لا يقبلُها العقل، فيه مخالفةٌ لِمَا جاء به الشرعُ، فهذا الحيوان بوصفه المذكورِ في هذه القصةِ يخالفُ نصَّ القرآن الذي جاء فيه أنه حيةٌ تسعى، وأنه ثعبانٌ مُبين، وهذا المذكور لا يُشبه الحيةَ ولا الثعبانَ، ولا حتى غيرَهما من الحيوانات التي نعرفُها أو نتخيَّلُها، ثم مَن الذي استطاعَ أن يَثبُتَ في ذلك الموقفِ الرهيبِ الغريبِ العجيبِ ليَعدَّ أضراسَه التي في شِدقهِ الأعلى أنَّها اثنان وسبعون، وإن تسنَّى له ذلك واستطاعَه فكيف عرَف عددَ تلك التي في شِدقه الأسفلِ؟! وكيف هي الوسيلةُ التي عرَف بها جلساءُ فرعون أنه أحدَث؟ أو مَن هو الذي كان بينَ جلسائهِ ونقَل لنا هذا الحدثَ؟

أم كيف عُرف كم اختلف بطنُ فرعون إذ ذاك؟ ومَن الذي كان يراقبه ويعدُّ ذلك الحدثَ عليه؟ فلا شكَّ أن هذا الخبر من أباطيل بني إسرائيل.

ـ ثم ذكر بعدَه المؤلفُ عن الحسن أنه قال: ولمَّا عاينَ ذلك قال: يا موسى، ارجع يومَك هذا وكفَّ ثعبانَك هذا، قاله سرًّا دون أصحابه، وقال لأصحابه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وقال له: يا موسى، ألَا رَفَقْتَ بالأمر، قتلتَ خمسة وعشرين ألفًا، بهذا أمرك ربُّك الذي بعثك؟ قال: يا فرعونُ، أنت فعلتَ هذا، يا فرعونُ أسألُك واحدةً وأعطيك أربعًا، قال: وما الَّذي تسألني؟ قال: أسألُك أن تعبدَ الله وحده ولا تشركَ به شيئًا، وأعطيك الشبابَ لا تهرم، والملكَ لا ينازعك فيه أحد، والصحةَ لا تَسقم، والجنةَ خالدًا، فخضع له فرعون وقال: حتى أستأمرَ آسيةَ بنتَ مزاحمٍ، فدخل عليها فقال لها: يا آسيةُ، ألَا تَرَيْن إلى موسى إلى ما يَدْعوني وما يعطيني؟ قالت: وما هو؟ قال: يدعوني إلى أنْ أعبدَ الله ولا أشركَ به شيئًا، وأنَّ لي الشبابَ لا أهرمُ، والملكَ لا ينازعُني فيه أحد، والصحةَ لا أسقمُ، والجنةَ خالدًا، قالت: يا فرعون، وهل رأيتَ أحدًا يصيب هذا فيَدعَه؟ قال: فخرج فدعا هامانَ ـ قال الحسن رحمه الله: وكان لا يُعرف له نسبٌ ـ فذكر له ذلك واستشاره، فقال له هامان: أتَعبدُ بعد إذ كنتَ تُعبد؟! فبدا له وذكرَ أمرَ الشيب، فقال: أنا أردُّك شابًّا، فخضَبه بالسواد، وهو أولُ مَن خضب بالسَّواد، فدخل على آسية، وقال: يا آسية، ألَا تَريني صرتُ شابًا؟ قالت: مَن فعل هذا بك؟ قال: هامان، قالت: ذاك إن لم يَنْصُل.

وهذا أيضاً رواه ابنُ عساكر في «تاريخه»، وليس هذا بأحسنَ من سابِقِه، ولا شكَّ أنه مكذوبٌ على الحسن، ومَن وضعه كذابٌ خبيث، فقد رواه ابن عساكر من طريق إسحاقَ بنِ بشرٍ عن يزيدَ بنِ إبراهيمَ عنه، وإسحاقُ بن بشرٍ هو صاحب كتاب

«المبتدأ» كذَّبه عليُّ بنُ المدينيِّ، وقال الدارقطنيُّ: كذَّابٌ متروك. وقال ابن حبَّان: لا يحلُّ كَتْبُ حديثه إلا على جهةِ التعجُّب[1].

كما أن قولَ فرعون: قتلتَ خمسةً وعشرين ألفًا، ظاهر أنه مبنيٌّ على الخبر السابق وتابعٌ له، والسابق رواه ابن عساكر من طريق إسحاق عن إدريس عن وهب، ولعله مكذوب على وهب أيضاً، فإسحاقُ هو ابنُ بشرٍ، وقد ذكرنا حاله، وإدريسُ هو ابنُ سنانٍ سبطُ وهبِ بن منبِّه، قال عنه الدارقطني: متروك[2].

ثم كيف يُتصوَّر أن يدعوَ موسى فرعونَ إلى الإيمان بالله على أساسِ تلك المرغِّبات التي يخالفُ بعضُها سنةَ الله في عباده، فمَن ذا الذي يعطَى الشبابَ بلا هرَم، والصحةَ بلا سقم؟! وأيُّ إيمان هذا الذي يُبْنى على زهرةِ الحياة الدنيا التي هي فتنةٌ للكفار وليست طريقاً للإيمان بالله سبحانه؟ كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، فأيُّ ميزةٍ لفرعون حتى يكونَ ما جُعل فتنةً لغيرِه سبيلاً له إلى الإيمان؟ علماً أن هذا التمتيعَ الذي في الآيةِ هو أقلُّ بكثيرٍ مما وعَد به موسى فرعونَ في هذا الخبر.

وإنما قلتُ: إن واضعَها كذابٌ خبيث؛ لأنه ضمَّن الخبر آيةً من القرآن لإيهام رفعِها، وقد تقدَّم بيان ذلك، ومن الأمثلةِ عليه أيضاً ما ذكره المؤلفُ في الآية نفسها عن قتادةَ، حيث قال:

وقال قتادةُ: لمَّا أخذ موسى الألواحَ قال: يا ربّ، إنِّي أجدُ في التوراة ـ أي: الألواح ـ أمَّةً هي خيرُ الأمم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر،

---

(١) انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ١٩٢).

(٢) انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ١٨٠).

فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمةُ محمدٍ ﷺ، فقال: يا ربّ، إنّي أجد في التوراة أمةً سمَّيتَهم المتقين وسمَّيتهم عابدين وصالحين؟ قال: هم أمة محمد، قال: يا ربّ، إنّي أجد في التوراة أمةً هم الآخِرون السابقون يومَ القيامة؟ قال: هم أمة محمد، قال: يا ربّ، إنّي أجدُ في التوراة أمةً يأخذون صدقاتها فيأكلونها في بطونهم فيؤجَرون عليها؟ قال: هم أمة محمد، قال يا ربّ، إني أجد في التوراة أمةً هم المستجيبون والمستجابُ لهم؟ قال: هم أمة محمد، قال: يا رب، إني أجد في التوراة أمةً يقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتِلوا الدجَّال؟ قال: هم أمة محمد، قال: يا ربّ، إني أجد في التوراة أمةً أناجيلُهم في صدورهم؟ فقال: هم أمة محمد، قال: إني أجد في التوراة أمةً الجنةُ محرَّمةٌ على الأنبياء حتى يدخلَها نبيُّهم، وعلى الأمم حتى تدخلها أمَّتُه؟ قال: هم أمة محمد، قال: إني أجد في التوراة أمةً غَفَرْتَ لهم قبل أن يَستغفروك، وأعطيتَهم قبل أن يسألوك؟ قال: هم أمة محمد، قال: إني أجد في التوراة أمةً رضُوا عنك باليسير من الرزق ورضيتَ عنهم باليسير من العمل؟ قال: هم أمة محمد، قال: إني أجدُ في التوراة أمةً هم الشافعون والمشفوعُ لهم؟ قال: هم أمة محمد، قال: فاجعلهم أمتي، قال: إنك لن تدركهم، فقال موسى: الوفدُ وفدي والحياءُ لأمة محمد، فاجعلني من أمة محمد، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ الآية، فرضي، وزِيدَ: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قال أبو شهبةَ: إن آثارَ الوضعِ والاختلاقِ باديةٌ عليه، والسندُ مطعونٌ فيه، وهي أمور مأخوذةٌ من القرآن والأحاديث، ثم صِيغت هذه الصياغةَ الدقيقة، وجُعلتْ على لسانِ موسى عليه السلام.

ثم نقَل عن ابن كثيرٍ قوله: وروَى ابن جرير عن قتادةَ في هذا قولاً غريباً لا يصحُّ إسناده إلى حكاية قتادة، وقد ردَّه ابنُ عطية وغيرُ واحدٍ من العلماء، وهو جديرٌ بالرَّدِّ، وكأنه تلقَّاه قتادةُ عن بعضِ أهل الكتاب، وفيهم كذَّابون ووضَّاعون، وأفَّاكون وزنادقةٌ.

قال: وصدَق ابنُ كثير فيما قال، وأرجِّحُ أن يكون من وضعِ زنادقتهم كي يُظهِروا الأنبياء بمظهَر المتحاسِدِينَ، لا بمظهرِ الإخوان المتحابِّين...

قال: ومما يؤيِّد أنه من وضع الإسرائيليين الدُّهاة أن نحواً من هذا المرويِّ عن قتادة قد رواه الثعلبيُّ وتلميذُه البغويُّ عن كعبِ الأحبار، ولا خلافَ إلا في تقديم بعض الفضائل وتأخيرِ البعض الآخر(١).

فهذا مجملُ ما لاحَ لنا في استبيانِ منهجِ المؤلِّفِ في هذا السِّفرِ الكبيرِ، وهو بحاجةٍ إلى إفرادِ دراساتٍ أكاديميَّةٍ علميَّةٍ عنه، لعلَّ اللهَ ييسِّرُ ـ بعدَ أن منَّ علينا بإخراجِهِ للنُّورِ ـ مَن يقومُ عليهِ من الطلبةِ والباحثينَ بالدراساتِ اللائقةِ به في قادمِ الأيامِ. والله الموفِّق.

***

(١) انظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢٠٥).

سادساً: وصف النسخ الخطية

تمَّ الاعتمادُ في تحقيق هذا الكتابِ على ثلاثِ نسخٍ خطيةٍ، تكامَلت مع بعضها لإخراج النصِّ على أقربِ صورةٍ أرادها مؤلِّفُها إن شاء الله تعالى.

النسخة الأولى:

نسخة مكتبة (أيا صوفيا) التابعة إلى المكتبة السليمانية في إسطنبول، وهي مكوَّنة من مجلدين برقم (٩٦) (٩٦)، يقع المجلد الأول منها في (٣٧٩) ورقة، والمجلد الثاني في (٣٩٢) ورقة، وفي كلِّ ورقةٍ وجهان، وفي الوجه (٣١) سطراً تقريباً، تمَّ الفراغُ من نسخِ المجلَّدِ الأولِ عامَ (٩٦٩هـ)، والثاني عام (٩٧٣هـ)، وهي أتقنُ النسخ وأدقُّها، تميَّزت بوضوحِ الخط، وقلةِ التصحيفات والسُّقوط، ولُوِّنت الآياتُ فيها بالمداد الأحمر.

وتم الرمز لهذه النسخة بالرمز (أ).

النسخة الثانية:

نسخةُ مكتبةِ (فيض الله أفندي) في إسطنبول برقم (٨٨)، تقعُ في مجلدٍ واحد في (٤١٧) ورقة، في كلِّ ورقةٍ وجهان من القَطْع الكبير، وفي الوجه (٦٣) سطراً تقريباً، وهي نسخةٌ جيدةٌ واضحةُ الخط، اختصَّت بترجمةِ العبارات الفارسيةِ التي أوردها المصنِّف إلى العربية، وبضبطِ بعض الكلمات المشكِلة، إلا أنه كثُر فيها السقوط، وفي آخرِها نظمٌ للإمام نجم الدين النسفي بعد فراغه من تصنيفه، كُتبت النسخة في الثاني والعشرين من جمادى الآخر سنة (٨٦٠هـ).

وتم الرمز لهذه النسخة بالرمز (ف).

النسخة الثالثة:

نسـخةُ مكتبـة (راغـب باشـا) التابعةِ إلـى المكتبـةِ السـليمانيَّة في إسـطنبول، برقـم (٩٩)، تقـعُ في مجلدٍ واحدٍ في (٦٠٩) ورقات، وفـي كلِّ ورقةٍ وجهان، وفي الوجـه (٤٤) سـطراً تقريبـاً، ليـس فيهـا ذكرٌ لاسـمِ الناسـخ أو تاريخِ النسـخ، وهي نسـخةٌ جيـدة فيهـا بعـضُ التصحيفـات، وفـي آخرها النظـمُ نفسُـه الذي تقـدَّم في النسخة السابقة.

وتم الرمز لهذه النسخة بالرمز (ر).

* * *

سابعاً: عملنا في الكتاب

وأخيراً فإننا لم ندَّخر وسعاً في تحقيقِ هذا الكتابِ وإخراجِه على الوجهِ اللائق به، ونسألُ الله سبحانه أن نكونَ قد وفِّقنا في مسعانا، وقد تلخَّص عملُنا فيه بما يلي:

١ ـ تمَّ تحقيقُ الكتابِ على عددٍ من النسخِ الخطيةِ النفيسة التي تقدَّم وصفُها آنفاً، وقد قمنا بنسخه من النسخة الخطية لمكتبة راغب باشا المرموز لها بـ(ر) وقابلنا الكتاب عليها، ثم قمنا بمقابلته على النسختين الأخريين لمكتبتي أيا صوفيا (أ) وفيض الله أفندي (ف)، وقد حرصنا على إثباتِ الصوابِ أو الأنسبِ بسياقِ الكلام، مع الإشارةِ إلى فروق النسخ الخطية، وإهمالِ الفروق التي التحريفُ فيها ظاهرٌ ولا فائدةَ في إثباتها بل تُثقل الحواشيَ بلا داعٍ. ولا يستغربنَّ مُطالعُ هذا التفسير كثرة فروق النُّسخ الخطية التي فيه فقد كانت أضعافَ ما هي عليه في ثوبها الأخير، وبذلنا جهدنا في الاقتصار والاقتصاد في إثبات الفروق.

٢ ـ ضبطُ النصِّ وتفصيلُه وترقيمُه بعلاماتِ الترقيم المناسبة التي تُساعد على فهمه، مع العنايةِ بضبط المُشْكِل.

٣ ـ الحرصُ على أن يكونَ النصُّ صحيحاً سالماً من الأخطاء والتحريفات والسُّقوطات، ومن ذلك مقابلتُه على المراجع التي اعتادَ المؤلفُ النقلَ منها، والاستفادةُ من ذلك في تصحيحِ التحريف، واستدراكِ الساقط بين معكوفتين، وشرحِ المبهَم، والتنبيهِ على الخطأ، وغير ذلك.

٤ ـ تخريجُ جميع الأحاديث المرفوعةِ من مصادر التخريج مقتصِرين على الصحيحين أو أحدِهما إن وجد فيه الحديث، وإلا فمِن باقي الكتبِ السِّتة و«مسند

الإمام أحمد»، فإنْ لم يُوجد الحديثُ فيها فمِن باقي كتب التخريج، مع شرحِ ما فيها من غريبٍ، وبيانِ علةٍ إن وُجدت.

٥ ـ تخريجُ الأخبار والآثار وأسبابِ النزول الواردةِ فيه من كتبِ التخريج والتفسير وأسباب النزول.

٦ ـ تخريجُ الشواهد الشعرية وغيرِها من كتب دواوين الشعر، فإن تعذَّر فمِن باقي كتب الأدب المعتمَدة، مع شرح الغريب إنْ وُجد.

٧ ـ توثيقُ ما ينقله المصنفُ من مصادره مع مقابلته على ما جاء في تلك المصادر لضمان صحة النص، وبيان الاختلاف إنْ وجد وكان وجيهاً.

٨ ـ تعقُّبُ المصنف إنْ وقع خطأٌ أو سهوٌ أو سبقُ قلم، والتعليقُ في المواضع التي تحتاج إلى تعليق.

٩ ـ كتابةُ مقدمةٍ للكتاب تتضمنُ بيانَ موقعِ هذا التفسير وأهمَّ المراجع التي نهلَ منها، مع ترجمة المؤلف ترجمةً وافية، كما قُمنا بدراسةٍ مستفيضة لخصائص هذا التفسير ولمنهج المؤلف فيه.

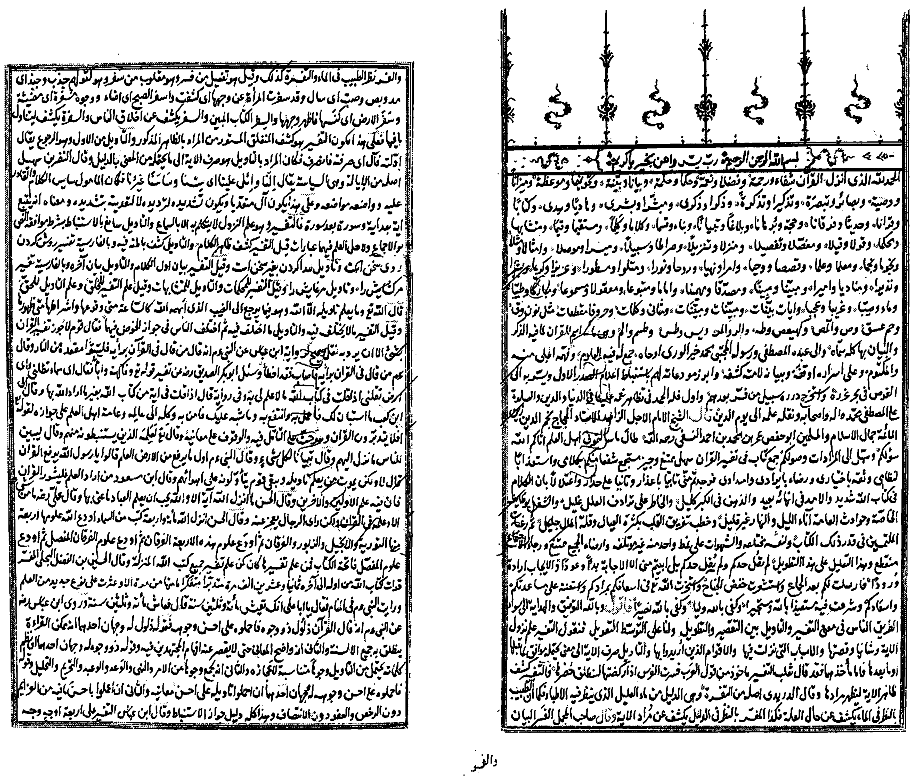
١٠ ـ تذييل الكتاب بالفهارس العلمية المناسبة.

والحمد لله رب العالمين،

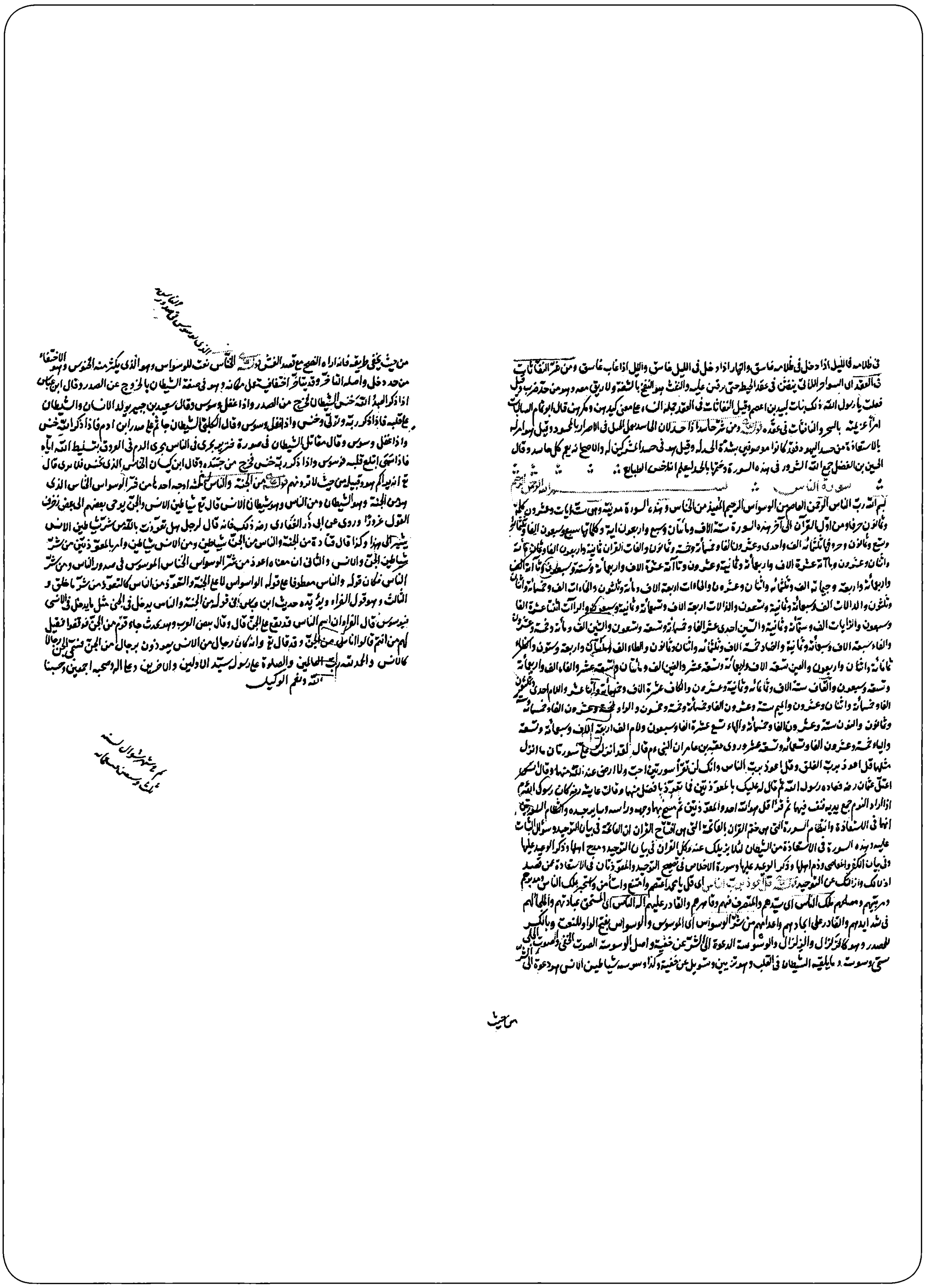
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

* * *

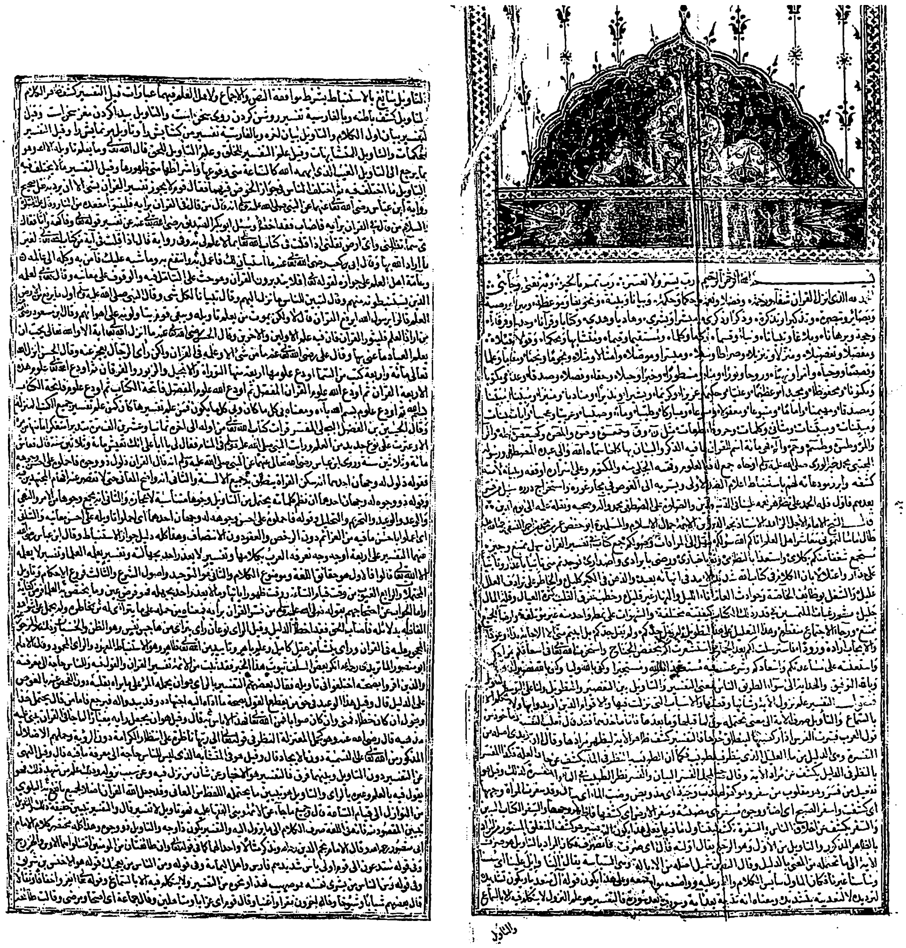
صور المخطوطات



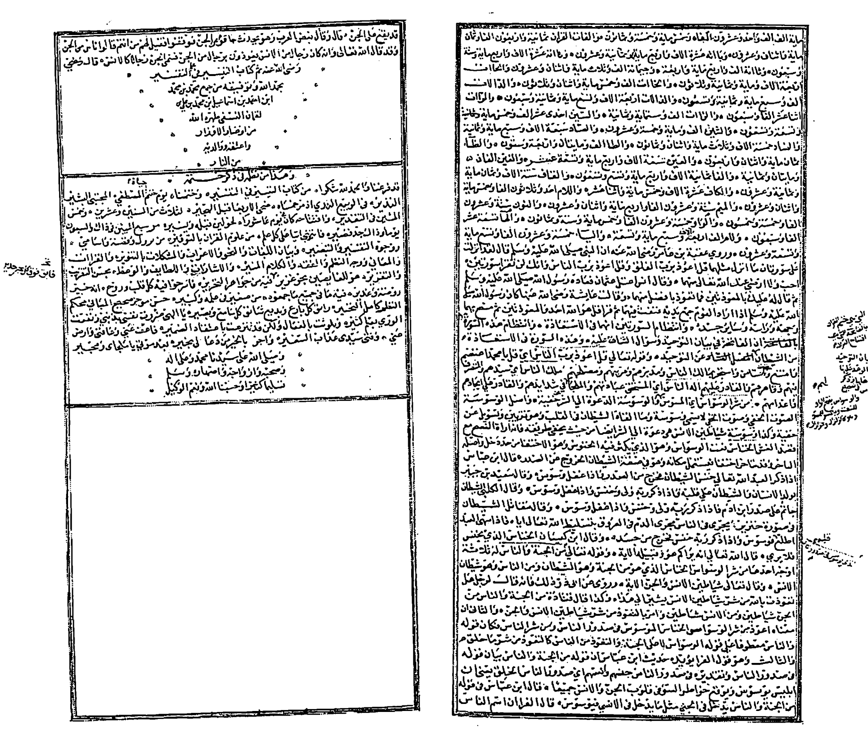
صورة اللوحة الأولى من النسخة الخطية لمكتبة أيا صوفيا والمرموز لها بـ (أ)



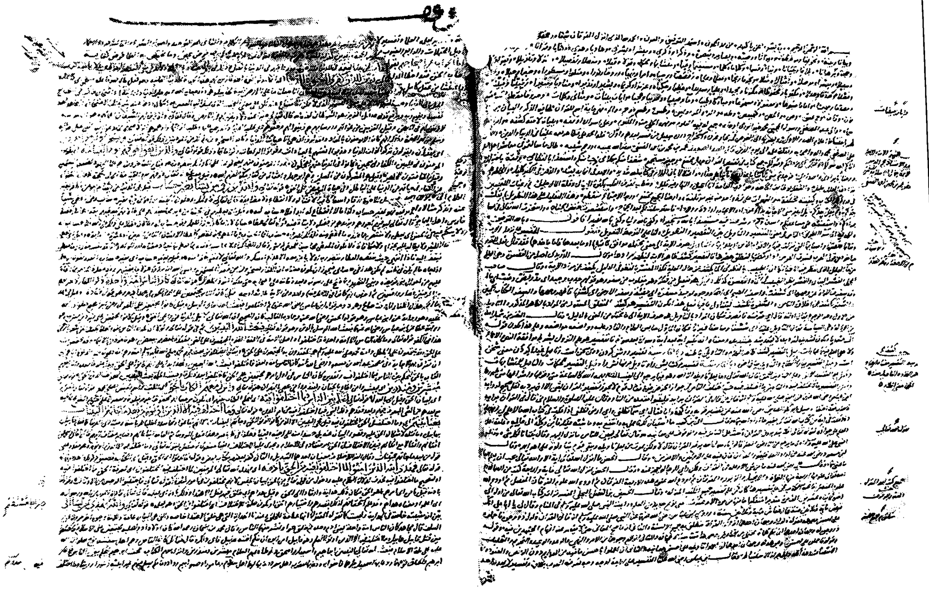
صورة اللوحة الأخيرة من النسخة الخطية لمكتبة أيا صوفيا والمرموز لها بـ (أ)



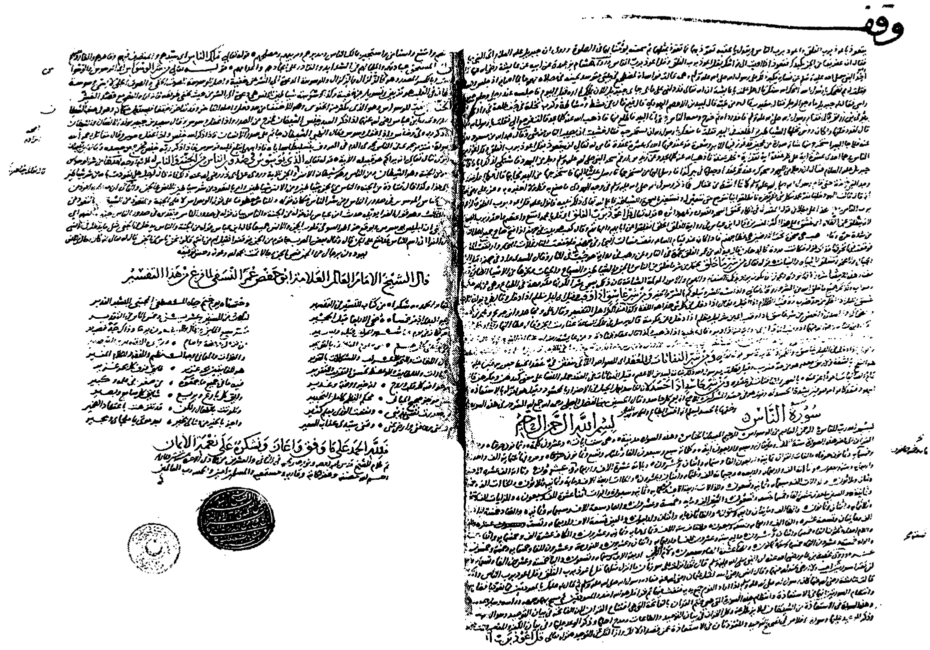
صورة اللوحة الأولى من النسخة الخطية لمكتبة راغب باشا والمرموز لها بـ (ر)



صورة اللوحة الأخيرة من النسخة الخطية لمكتبة راغب باشا والمرموز لها بـ (ر)



صورة اللوحة الأولى من النسخة الخطية لمكتبة فيض الله والمرموز لها بـ (ف)



صورة اللوحة الأخيرة من النسخة الخطية لمكتبة فيض الله والمرموز لها بـ (ف)

التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

٤٦١ - ٥٣٧هـ

يطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

التيسير

في

التفسير

(١)

الطبعَة الأولىٰ
١٤٤٠هـ-٢٠١٩م

9 786052 279311

دَارُ اللُّبَابِ
لِلدِّرَاسَاتِ وَتَحْقِيقِ التُّرَاثِ

DAR-ALLOBAB
Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

اسطنبول - تركيا
00905454729850
00902125255551
info@allobab.com

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990
Www.allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ وسلَّمَ، ربِّ يَسِّرْ ولا تُعسِّرْ، ربِّ تَمِّمْ بالخيرِ، وبه ثِقَتِي ورَجائي[1].

الحمدُ للهِ الذي أَنزل القرآنَ[2] شفاءً ورحمة، وفضلاً ونِعمة، وحُكماً وحِكْمة، وبياناً وبيِّنة، وتخويفاً وموعِظَة، وميراثاً[3] ووصيَّة، وبصائرَ وتَبْصِرة، وتذكيراً وتذكرة، وذكراً وذكرى، ومبشِّراً وبُشرى، وهادياً وهدًى، وكتاباً وقرآناً، وحديثاً وفرقاناً، وحجةً وبرهاناً، وبلاغاً وتبياناً، ونبأً وقَسَماً، وكلاماً وكَلِماً، ومستقيماً وقيِّماً، ومتشابهاً ومحكَماً، وقولاً وقِيلاً، ومفصَّلاً وتفصيلاً، ومُنزَّلاً وتنزيلاً، وصراطاً وسبيلاً، وميسَّراً وموصَّلاً، وأمثالاً ومُثُلاً، ونُجوماً ونُجُماً، ومعلِّماً وعلماً، وقَصَصاً ووَحْياً، وأمراً ونهياً، ورُوحاً ونوراً، ومتلوًّا ومسطوراً، وخبراً وحَبْلاً، وحقًّا وفَصلاً، وصِدقاً وعدلاً، ومكتوباً ومكنوناً ومحفوظاً، ومجيداً وعظيماً، وعليًّا وحكيماً[4]، وعزيزاً وكريماً، وبشيراً ونذيراً، ومنادياً ومنيراً، ومُبِيْناً ومُبيِّناً، ومصدِّقاً

---

(١) في (ف): «رب يسر وأعن يا كريم، من مُمد الكون أستمد التوفيق والعون»، وسقطت العبارة من (أ).

(٢) في (ف): «الفرقان».

(٣) في (أ): «وميزاناً».

(٤) في (ف): «ومكتوباً ومحفوظاً ومكنوناً ومجيداً وعلياً وسديداً وعظيماً وحكيماً». ومن قوله: «وخبرا وحبلا...» إلى هنا سقط من (أ).

ومُهَيْمناً، وإماماً ومتبوعاً[١]، ومعقولاً ومسموعاً، ومباركاً وطيِّباً، وماءً وصيِّباً، وغريباً وعجباً[٢]، وآياتٍ بيِّنات، ومُبيِّنات ومُبيَّنات[٣]، ومثانيَ وكلمات، وحروفاً مقطعات، مثل ﴿نٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿الٓر﴾ و﴿الٓمٓر﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿طسٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾.

فهي[٤] مئةُ اسمٍ للقرآن، لها[٥] فيه الذكرُ والبيان، بها كلِّها سمَّاه[٦]، وإلى عبدِه المصطفَى ورسوله المجتبَى محمدٍ خيرِ الورى ﷺ أوحاه، جمَع له فيه العلوم، وفهَّمه الجليَّ منه والمكتوم، وعلى أسراره أوقَفَه، وببيانه لأمَّته كَشَفه، وأَبرز مودَعاته لهم باستنباطِ أعلام الصَّدْر الأولِ، ويسَّر به إلى الغوصِ في بحار غُرَرِه[٧] واستخراجِ دُرَرِه سبيلَ مَن فَسَّر بعدَهم وأَوَّلَ، فله الحمدُ على[٨] تظاهُرِ نِعَمه علينا في الدُّنيا والدِّين، والصلاةُ على المصطفى محمدٍ وآلِه وصحبه ونَقَلةِ عِلمِه إلى يوم الدِّين.

قال الشيخُ الإمام الأجلُّ الزاهد الأستاذ الحَجَاج[٩]، نجمُ الدِّين، زينُ

(١) في (ف): «وإماماً متبوعاً».
(٢) في (ف): «وعربياً وعجباً»، وفي (ر): «وعربياً وعجمياً».
(٣) قوله: «ومبينات ومبينات» سقط من (ف)، وجاء في هامشها: «وآيات مبينات».
(٤) في (أ): «وهي».
(٥) في (أ) و(ر): «لما».
(٦) في (ر): «سماه الله».
(٧) في (ر): (غوره).
(٨) في (أ): «في».
(٩) «الحجاج» ليست في (ر)، وسيأتي لفظ (ف). والحَجَاجُ: حاجِبُ الشَّمس، يقال: بدا حَجَاجُ الشَّمس، أي: حاجِبُها، وهو قَرْنُها، وهو مَجاز. انظر: «التاج» (مادة: حجج).

الأئمَّة، جمال الإسلام والمسلمين، أبو حفصٍ عمرُ بن محمدِ بن أحمدَ النسفيُّ[١]، سترَ الله عيبَه ورَحِمَ شَيبه، رحمةُ الله عليه[٢]: طال ما سألتُموني معاشرَ أهل العلم ـ آتاكُم الله سُؤلكم، وسهَّل إلى المرادات وصولَكم ـ جمعَ كتابٍ في تفسيرِ القرآن سهلٍ ممتنعٍ، وجيزٍ مستَجمِع، شغَفاً منكم بكلامي، وحبًّا منكم[٣] واستعذاباً لنظامي، وثقةً باختياري، ورضًى بإيرادي وإصداري، فوجدتُم مني تأبِّياً بأعذار، وتأنِّياً على حِذَار، واعتلالاً بأنَّ الكلام في كتاب اللهِ شديد، والأمدَ في إنهائه بعيد، والذِّهنَ في الكِبَر كليل، والخاطرَ على تَرادُف العلَل عليل، والشُّغلَ بوظائف الخاصَّة وحوادثِ العامة آناءَ الليل والنهار غيرُ قليل، وخَطْبَ تفرُّق القلب بكثرةِ العيال وقلَّةِ المال جليل.

ثم رغباتُ الملتمِسين في قَدْر ذلك الكتاب وكيفيَّتِه مختلِفة، والشهواتُ على نمطٍ واحدٍ منه غيرُ مؤتلِفة، وإرضاءُ الجميع ممتنِع، ورجاءُ الاجتماع مُنقطِع، وهذا التعليلُ على هذا التطويل لم يَفُلَّ حدَّكم، ولم يُقلَّ جِدَّكم، بل أَبيتُم مني إلا الإجابةَ بَدْءاً وعَوداً، والإيجابَ إرادةً ورَوداً، فاسترسَلْتُ لكم بعد الجِمَاح، واستشعرتُ لكم بخَفْضِ[٤] الجَناح، واستَخَرْتُ اللهَ تعالى في إسعافكم بمرادكم، واستَعَنْتُه على مساعدتكم وإسعادِكم، وشَرَعْتُ فيه مستَعِيذاً بالله تعالى ومستَجيراً، وكفَى بالله وليًّا وكفَى بالله نصيراً.

---

(١) في (ف): «قال العبد الضعيف عمر بن محمد بن أحمد النسفي»، وجاء في هامشها كالمثبت لكن دون كلمة: «الحجاج».

(٢) من قوله: «ستر الله عيبه...» إلى هنا، وقع بدلًا منه في (أ): «رحمه الله».

(٣) «وحباً منكم» من (ف).

(٤) في (أ) و(ف): «واستشعرت خفض».

فأقولُ وباللهِ التوفيقُ، والهدايةُ إلى سواءِ الطريق:

الناس في معنى التفسيرِ والتأويل بين التَّقصير والتَّطويل، ولنا على التوسُّط التعويلُ؛ فنقول:

التفسير: علمُ نزول الآية وشأنِها وقصَّتِها، والأسبابِ[١] التي نزلت فيها، والأقوامِ الذين أُريدوا بها، ولا يُتكلَّم إلا بالسَّماع.

والتأويل: صرفُ الآية إلى معنًى تحتمِلُه موافقٍ لِـمَا قَبْلَها وما بعدَها.

فأمَّا مأخذُهما: فقد قال ثعلبٌ: التفسير مأخوذٌ من قول العرب: فسَّرتُ الفرس، إذا ركَضْتَها ليَنْطلقَ حُضْرُها[٢]، فالتفسيرُ: كشفُ ظاهرِ الآية ليَظْهَرَ مرادُها.

وقال الدُّريديُّ[٣]: أصلُه من التَّفسرةِ، وهي الدليلُ من ماءِ العَليل الذي ينظر فيه

---

(١) في (ف): «وأسبابها»، وفي هامشها: «والأسباب».

(٢) ضبطت الحاء في (أ) و(ر) بالضم، والحُضْر ـ بضم الحاء ـ كما في «القاموس» (مادة: حضر): ارتفاع الفرس في عَدْوه. وقول ثعلب نقله أبو حيان بلفظ: (فسرت الفرس: عرَّيته لينطلق في حُضره)، ثم قال: (وهو راجعٌ لمعنَى الكشفِ، فكأنَّه كَشَفَ ظهرَه لهذا الذي يريدُه منه مِن الجَرْي)، وهذا يدل على أن الكلمة بالحاء والضاد، لكنها وقعت في بعض المصادر بالحاء والصاد، قال الثعلبي: هو من قول العرب: فسرتُ الفرس: إذا ركضتَها مصورة لينطلق حَصِيرها. وأوضح من هذا قول الفيروز أبادي: وقيل: اشتقاقه من قول العرب: فسَرت الفرس وفسَّرته؛ أي: أَجريته وأَعديته إِذا كان به حُصْر، ليستطلِق بطنُه، وكأَن المفسِّر يُجري فرس فكره في ميادين المعاني ليستخرج شرح الآية، وَيُحلَّ عقْد إِشكالها. انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٨٦)، و«البحر المحيط» (١/ ٣٦)، و«وبصائر ذوي التمييز» للفيروزأبادي (١/ ٧٨).

(٣) الدُّريدي بضم الدال المهملة وفتح الراء، هذه النسبة إلى الجد، وعرف بها أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي الدوسي، بصري المولد نشأ بعمان وطلب الأدب، وورد بغداد بعد أن =

الأطباء[١]، فكما أن الطبيبَ بالنظرِ في الماء يَكشفُ عن حال العلَّة، فكذا المفسِّر بالنظر في الدليل يَكشف عن مراد الآية.

وقال صاحب «المُجْمَل»: الفَسْر: البيان، والفَسْرُ: نظرُ الطبيبِ في الماء، والتَّفسرةُ كذلك[٢].

وقيل: هو تفعيلٌ من فسَرَ، وهو مقلوبٌ من سَفَر، وهو كقولهم: جذَبَ وجبَذَ؛ أي: مدَّ، وبَضَّ وضَبَّ الماءُ؛ أي: سال، وقد سَفَرتِ المرأة عن وجهها؛ أي: كَشفت، وأَسفر الصبحُ؛ أي: أضاء، ووجوهٌ[٣] مُسْفِرة؛ أي: مُضيئة، وسَفَر الأرضَ؛ أي: كنَسها[٤] فأظهرَ وجهَها، والسِّفْر: الكتاب المبين[٥]، والسفَرُ يكشفُ عن أخلاقِ الناس، والسُّفرةُ تُكشف ليُتناول ما فيها.

فعلى هذا يكون التفسيرُ هو: كشفُ المنغلِق المستورِ من المراد بالظاهِر المذكور.

= أسن فأقام بها إلى آخر عمره، حدث عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، وأبي حاتم السجستاني، والرياشي، وغيرهم، وهو الإمام المشهور في اللغة، وله شعر حسن، روى عنه أبو سعيد السيرافي وأبو عبيد الله المرزباني وغيرهما، وتوفي ببغداد سنة (٣٢١هـ). انظر: «اللباب في تهذيب الأنساب» لابن الجزري (١/ ٤٩٩). وقوله الآتي لم أجده في «الجمهرة» ولا غيره من كتبه المطبوعة، لكن رواه عنه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٨٦).

(١) في (ر): «الطبيب».

(٢) انظر: «مجمل اللغة» لابن فارس (ص: ٧٢١).

(٣) بعدها في (ف) زيادة: «يومئذ».

(٤) في (ر) و(ف): «كشفها».

(٥) في (ر): «البين».

والتأويل من الأَوْلِ وهو الرجوع[١]؛ يقال: أَوَّلتُه فآل؛ أي: صَرَفْتُه فانْصَرَفَ، فكأنَّ المراد بالتأويل: هو صرفُ الآية إلى ما تحتمِلُه من المعنى بالدليل.

وقال النَّضْر بنُ شُمَيْلٍ[٢]: أصله من الإيَالة وهي السياسةُ، يقال: أُلْنا وإِيلَ علينا؛ أي: سُسْنا وساسَنا غيرُنا، فكأنَّ المؤوِّل سائسُ الكلام والقادرُ عليه، وواضعُه مواضعَه.

وعلى هذا يكون[٣] آلَ متعدياً، ويكونُ تشديدُه لترديدِه لا لتعديتِهِ بتشديده، ومعناه: أنه تتبَّعَ آيةً بعد آيةٍ وسورةً بعد سورةٍ.

فالتفسير هو علم النزول لا يُتكلَّم فيه إلا بالسماع، والتأويلُ سائغٌ بالاستنباط بشرطِ موافَقةِ النصِّ والإجماع، ولأهل العلم فيهما عبارات:

قيل: التفسير كشفُ ظاهر الكلام، والتأويلُ كشف باطنه، وبالفارسية: (تفسير روشن كردن روى سخن است، وتأويل[٤] بيدا كردن مغز سخن است)[٥].

وقيل: التفسير بيانُ أول الكلام، والتأويل بيانُ آخره، وبالفارسية: (تفسير من كشا يش را، وتأويل مر نما يش را).

وقيل: التفسير للمُحْكَمات، والتأويل للمتشابِهات.

وقيل: علم التفسير للخَلْق، وعلم التأويل للحق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ

---

(١) في (ر): «الرجع».

(٢) في (أ): «سهيل»، وهو تحريف، والكلام الآتي رواه عن النضر: الثعلبيُّ في «تفسيره» (١/ ٨٧).

(٣) بعدها في (ر) و(ف): «قوله».

(٤) في (ر): «والتأويل».

(٥) في (ف): «تعريبه: التفسير معناه إيضاح ظاهر الكلام، والتأويل معناه: إظهار معنى الكلام»

تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧] وهو فيما يَرجع إلى التأويل(١): الغيبُ الذي أبهمه الله؛ كالساعة متى وقوعُها؟ وأشراطها متى ظهورُها؟

وقيل: التفسير ما لا يُختلف فيه، والتأويل ما اختُلف فيه.

ثم اختلَف الناس في جواز الخوض فيهما:

فقال قومٌ: لا يجوز تفسير القرآن بشيءٍ إلا أن يَرِدَ به نقلٌ صحيح؛ لرواية ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قال في القرآنِ برأيه فلْيَتبوَّأْ مَقعَدَه من النَّار»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَن قال في القرآنِ برأيِهِ فأصابَ فقد أَخْطأَ»(٣).

وسئل أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله تعالى عنه عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني إذا قلتُ في كتابِ الله تعالى ما(٤) لا علم لي به(٥)؟!

---

(١) «التأويل» من (ر).

(٢) رواه أبو داود في «سننه» برواية ابن العبد كما في «تحفة الأشراف» (٤/ ٤٢٣)، والترمذي (٢٩٥٠) و(٢٩٥١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٣١). قال الترمذي: حديثٌ حَسَنٌ. قلت: في إسناده عبد الأعلى الثعلبي وهو ضعيف.

(٣) رواه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٣٢) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ، وقد تَكَلَّمَ بعضُ أهلِ الحديثِ في سهيلِ بن أبي حَزْمٍ.

(٤) في (ر): «بما».

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠١٠٧).

وفي رواية قال[١]: إذا قلتُ في آية من كتاب الله تعالى بغيرِ ما أراد الله بها[٢].

وقال أُبيُّ بن كعب رضي الله تعالى عنه: ما استبانَ لك فاعْمَلْ به وانتفِعْ به، وما شبِّهَ عليك فآمِنْ به وكِلْهُ إلى عالِـمه[٣].

وعامةُ أهل العلم على جوازه؛ لقوله تعالى[٤]: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وهو حثٌّ على التأمُّل فيه والوقوفِ[٥] على معانيه.

وقال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وقال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال النبيُّ ﷺ: «أولُ ما يُرفع من الأرض العلمُ»، قالوا: يا رسول الله! يُرفع[٦] القرآن؟ قال: «لا، ولكنْ يموتُ مَن يَعلم تأويلَه، ويبقَى قومٌ يتأوَّلونه على أهوائهم»[٧].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مَن أراد العلمَ فليُثوِّر القرآن فإنَّ فيه علمَ الأوَّلينَ والآخِرين[٨].

---

(١) «قال» ليس في (ف).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٣٩ ـ تفسير). ووقع في (ر): «لغير ما أراد..»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٦٨١).

(٤) في هامش (ف): «بقول الله تعالى».

(٥) في (ر): «للوقوف».

(٦) في (ر): «أيرفع».

(٧) رواه عبد بن حميد عن أبي قلابة عن النبي ﷺ، وهو مرسل. انظر: «الدر المنثور» (٢/ ٦٩).

(٨) رواه ابن المبارك في «الجهاد» (٨١٤)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٩٦)، والفريابي =

وقال الحسن رضي الله تعالى عنه: ما أَنزل اللهُ تعالى آيةً إلا واللهُ تعالى يحبُّ أن يَعْلَم العبادُ ما عَنَى بها[١].

وقال عليٌّ رضي الله تعالى عنه: ما من شيءٍ إلا وعِلْمُه في القرآن، ولكنَّ رأيَ الرجال يَعجزُ عنه[٢].

وقال الحسن: أنزل الله تعالى مئةً وأربعةَ كتبٍ من السماء، أَوْدَعَ علومَها أربعةً منها: التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ والفرقان، ثم أَوْدَعَ[٣] علومَ هذه الأربعةِ القرآنَ[٤]، ثم أودع الله علوم القرآنِ[٥] المفصَّلَ، ثم أَوْدَعَ الله علومَ المفصَّلِ فاتحةَ الكتاب[٦]، فمَن عَلِمَ تفسيرها كان كمَن عَلِمَ تفسير جميع كتب الله[٧] المنزَلة[٨].

= في «فضائل القرآن» (٧٨)، بلفظ: (إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإن فيه...). ورواه أبو الليث في تفسيره «بحر العلوم» (١/ ٣٥) بلفظ: (من أراد العلم فليثر القرآن..) وفي رواية أخرى عنده: (فليؤثر).

(١) رواه عبد بن حميد في «تفسيره». انظر: «الدر المنثور» (٢/ ٦٩).

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٣٥)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٠)، ورواه عبد بن حميد في «تفسيره» كما في «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للبقاعي (١/ ٣٧٩). وروى أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٩٦)، وزهير بن حرب في «العلم» (٥٠) عن مسروق قال: ما نسأل أصحاب محمد ﷺ عن شيء، إلا وعلمه في القرآن، إلا أن علمنا يقصر عنه.

(٣) في (أ): «أودع الله تعالى».

(٤) في (أ) و(ف): «الفرقان».

(٥) في (أ) و(ف): «الفرقان».

(٦) بعدها في (ر) زيادة: «ثم أَوْدَعَ علومَ فاتحةِ الكتاب (بسم الله)، ثم أودع علومَ (بسم الله) باءَه، ومعناه: بي كلُّ ما كان، وبي كلُّ ما يكون» وليست هذه الزيادة في (أ) و(ف)، ولا في مصادر التخريج الآتية.

(٧) في (ر) و(ف): «الكتب»، والمثبت من (أ) وهامش (ف)، والمصادر.

(٨) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٩١)، والبيهقي في «الشعب» (٢٣٧١).

وقال الحسينُ بن الفَضل البَجَليُّ المفسِّر(١) رحمه الله: قرأتُ كتاب الله تعالى من أوَّله إلى آخِره ثانية وعشرين ألفَ مرةٍ متدبِّراً متفكِّراً، ما منها من مرةٍ إلا وعثرتُ على نوعٍ جديد من العلم، ورأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام فقال لي: يا أبا علي! إنك تعيشُ مئةً وثلاثين سنة، قال: فعاش مئة وثلاثين سنة(٢).

ورَوَى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «القرآنُ ذلولٌ ذو وجوهٍ فاحْمِلوه على أحسنِ وُجوهِه»(٣).

فقوله: «ذلول» له وجهان:

أحدهما: أنه ممكِنُ القراءة يَنطلقُ(٤) به جميعُ الألسنة.

والثاني: أنه واضحُ المعاني حتى لا تَقْصُرُ عنه أفهامُ المجتهِدين فيه.

وقوله: «ذو وجوه» له وجهان:

أحدهما: أن نَظْم كلماته يَحتمِل من التأويل وجوهاً متناسِبةً لإعجازه.

والثاني: أنه يجمع وجوهاً من الأمر والنهي والوعد والوعيد والتحريم والتحليل.

وقوله: «فاحملوه على أحسن وجوهه» له وجهان:

---

(١) هو مفسر معمَّر، كان رأساً في معاني القرآن، أصله من الكوفة، انتقل إلى نيسابور، توفي سنة (٢٨٢هـ) وهو ابن مئة وأربع سنين. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤١٤).

(٢) كذا ذكر سنه هنا، ولم أجد من ذكره، والذي في كتب التراجم هو ما ذكرناه عن «السير» أنه توفي وهو ابن مئة وأربع سنين. انظر: «الوافي بالوفيات» (١٣/ ١٨)، و«لسان الميزان» (٢/ ٣٠٨)، و«طبقات المفسرين» للسيوطي (ص: ٤٨).

(٣) رواه الدارقطني في «سننه» (٤٢٧٦).

(٤) في هامش (ف): «ينطق».

أحدهما: أي[١]: احملوا تأويلَه على أحسن معانيهِ.

والثاني: أي[٢]: اعمَلوا بأحسنِ ما فيه من العزائم دون الرُّخَص، والعفوِ دون الانتصاف.

وهذا كلُّه دليلُ جواز الاستنباط.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفُه العرب بكلامها، وتفسيرٌ لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يَعلمُه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمُه إلا الله تعالى[٣].

قالوا: فالأولُ هو حقائقُ اللغة وموضوعُ الكلام، والثاني هو التوحيدُ وأصولُ الشرع[٤]، والثالثُ فروعُ الأحكام وتأويلُ المحتمِلات، والرابعُ الغيوبُ: مِن وقت قيام الساعة، ووقتِ ظهور آياتها.

وما لا يُعذر أحد بجهله فهو فرضُ عينٍ، وما يختصُّ به العلماء فرضُ كفايةٍ.

وأما[٥] الجوابُ عن احتجاجهم بقوله ﷺ: «مَن فسَّر القرآنَ برأيه..» فمعناه: مَن حملَهُ على ما يتراءَى له بخاطره، ولم يَحمل[٦] على شواهدِ ألفاظه بدلائله، فأصاب الحقَّ، فقد أخطأ الدليلَ.

---

(١) في (أ) و(ف): «أن».

(٢) في (أ) و(ف): «أن».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٧٠)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (٣٤٥).

(٤) في (أ): «الشرائع».

(٥) في (أ): «فأما».

(٦) في (أ) و(ف): «يعمل».

وقيل الرأي نوعان:

رأيٌ يَتراءَى من هاجسِ نفسٍ، وهو الظنُّ والحِسْبان[١]، وذلك هو المزجورُ[٢] عنه المحجورُ عليه في القرآن.

ورأيٌ ينشأُ من عقلٍ كاملٍ وعلمٍ باهر، وتأييدٍ من الله تعالى ظاهرٍ، وهو الاستنباط المعهود والرأيُ المحمود.

وقال[٣] الإمامُ أبو منصورٍ الماتُرِيديُّ رحمه الله: أَنكر بعضُ السَّلَف ثبوتَ هذا الخبر، فقد ثبت من الأئمةِ تفسيرُ القرآن والقولُ فيه، وللناس حاجةٌ إلى معرفته، والذين أقرُّوا بصحته اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم:

التفسيرُ بالرأي: هو أن يَحملَه المرء على ما يراه بقلبه[٤]، دون الفحصِ عنه بالعَرْض[٥] على الدليل الذي أُذِنَ له في الحكمِ به في عامَّةِ أمور الدِّين.

قال: وقيل: هذا الوعيدُ في حقِّ مَن يَقطعُ القولَ بصحةِ[٦] ما أدَّاه إليه اجتهادُه، وقد يبدو له فيرجعُ، فأمَّا مَن قال: يَحتمِل هذا، ويقول[٧]: إن كان خطأً فمنِّي، وإن كان صواباً فمن الله تعالى، فهذا لا بأس به.

---

(١) في هامش (ف): «الحسبان بالكسر هو الظن، والحسبان بالضم من الحساب»، وقد ضبطت الكلمة فيها بكسر الحاء.

(٢) في (أ): «المردود».

(٣) في (أ): «قال».

(٤) في هامش (ر): «بعقله».

(٥) في (ر) و(ف): «بالغوص».

(٦) في (أ): «القول بصحته على».

(٧) في (ف): «فيقول».

قال: وقيل: هو أن يَجعل رأيَه عياراً[(١)] لِـمَا جاء في القرآن يبني عليه مذهبَه.

قال رضي الله عنه: وهو كحَمْلِ المعتزلة النظرَ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] على انتظار الكرامة دون الرُّؤية، وحملِهم الإضلالَ المذكورَ من الله تعالى على التسمية دون الإيجاد.

قال: وقيل: هو في المتشابهِ الذي ليس للناسِ[(٢)] حاجةٌ إلى معرفةِ ما فيه.

قال: وقيل: النهيُ عن التفسيرِ دون التأويل، وبينهما فرقٌ:

فالتفسير: هو الإخبارُ عن شأنِ مَن نزل فيه، وعن سببِ نزوله، وذلك علمُ مَن شهد ذلك، فهو يقول فيه بالعلم، وغيرُه بالرأي.

والتأويل: هو تبيين ما يحتمِلُه اللفظ من المعاني، وقد جعَل الله القرآنَ أصلاً لجميع ما تقع به البلوى من النوازل إلى قيام الساعة.

قال: وجميع[(٣)] ما جاء عن الأئمَّة وبنى الفقهاءُ عليه فهو تأويلٌ لا تفسير.

قال: والتفسير: تبيينُ حقيقة ذلك، والتأويلُ: تبيينُ المقصود منه، فإنه في اللغة: صرفُ الكلام إلى ما يَؤُول إليه.

قال: والتفسير يكون ذا وجهٍ، والتأويلُ ذو[(٤)] وجوه.

وهذا كلُّه مختصَرُ كلام الإمام أبي منصورٍ رحمه الله.

---

(١) في (ر): «معياراً». وجاء في هامش (ف): «قوله: عياراً، العيار الذي يقاس به غيره ويستوي»

(٢) في (ف): «بالناس».

(٣) في (أ): «وقال جميع».

(٤) في (ر): «ذا».

قال[١] **الإمام نجمُ الدِّين رحمه الله**: ونذكر مثالاً واحداً لهما، قالوا في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩]: هما الأوسُ والخزرج.

وفي قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦]: هم فارسُ و[٢]أهلُ اليمامة.

وفي قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٠٤]: هو الأخنسُ بن شَرِيقٍ.

وفي قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٠٧]: هو صهيبٌ.

فهذا ونحوُه من التفسير، ولا يُتكلَّم فيه إلا بالسَّماع.

وقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] قال بعضهم: أي: شبَّاناً[٣] وشيوخاً.

وقال آخرون: أي: فقراءَ وأغنياءَ.

وقال قومٌ: أي: عزاباً ومتأهِّلين.

وقال جماعةٌ: أي: أَصحَّاءَ ومَرضَى.

وقالت طائفة: أي: نِشَاطاً وغير نِشَاط.

فهذا من التأويل، وكلُّه جائزٌ مقبول، ولا بأسَ بالقول به بما وافَقَ الأصول، ولم يخالِف المعقول.

قال رضي الله عنه[٤]:

---

(١) في (ر): «وقال».

(٢) في (أ): «أو».

(٣) في (ر): «شباباً».

(٤) «رضي الله عنه» من (أ).

الكلام في قولنا قبل قراءة القرآن العظيم:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال أهل المعرفة: هذه الكلمةُ وسيلةُ المتقرِّبين[١]، واعتصامُ الخائفين، وعُتْبَى[٢] المجرمين، ورُجعَى الهاربين، ومباسطةُ المحبِّين، وهو امتثالٌ لقول[٣] ربِّ العالمين: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

ونزولُها كان عند إلقاءِ الشيطان في تلاوةِ النبيِّ ﷺ ما[٤] قصَّ الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] وسيأتيكم بيانه إن شاء الله تعالى في موضعه، وبالله العصمة والتوفيق.

ومعنى أعوذ: أَلْتَجِئ، وقيل: أستَعْصِم، وقيل: أستَجِير، وقيل: أستعينُ، وقيل: أستغيثُ.

وفارسيتُه: (مي اندخشم ويناه مي خواهم، ونكاه داشت مي خواهم، وامان مي خواهم، وقاري مي خواهم، وفرياد مي خواهم)[٥].

والعَوذُ والعيَاذُ مصدرانِ: كاللَّوذِ واللِّياذِ، والصَّوم والصيام.

وقيل: هو الاستجارةُ بذي مَنَعةٍ.

---

(١) في (أ): «المقربين».

(٢) في (ر): «وعقبى».

(٣) في (أ) و(ف): «قول».

(٤) في (ف): «كما».

(٥) في هامش (ف): «تعريب الفارسية: قوله إلى: فرياد مي خواهم، تفسير لما قبله من الأقوال في تفسير أعوذ على الترتيب».

وقيل: هو الاستعانة[1] عن خضوعٍ.

وقيل: هو مأخوذٌ من العُوَّذ ـ بضمِّ العين وتشديدِ الواو ـ: وهو كلُّ نبتٍ في أصلِ شجرة يَتستَّر بها، قال الشَّاعر:

خَليلـيَّ خُلْصانَـيَّ لـم يُبْـقِ حبُّهـا ... مـن القلـبِ إلا عُـوَّذاً سـينالُها[2]

فعلى هذا: العَوْذُ: هو التستُّرُ بسِتر الله الجميل، والتبوُّءُ في ظلِّ حمايته الظَّليل.

وقيل: هو من العوَّذ بهذه الصيغة، وهو اللحمُ الذي لَصِقَ بالعظم، يقال: أطيبُ اللَّحم عوَّذُه، فعلى هذا: العَوْذُ: هو الانقطاعُ عن غيرِ الله تعالى، والاتِّصالُ بالله تعالى.

وقولُ القائل: أعوذ، إخبارٌ عن فِعله، وهو في التقدير: سؤالُ الله تعالى من فضله؛ أي: أعِذْني يا ربّ، كما يقول القائل: أستغفرُ الله؛ أي: اغفرْ لي يا ربّ، وهو احترامٌ واستعظام، لا انبساطٌ واجترام[3]، ولولا سَبْقُ الأمر به لم يتيسَّر الإقدام[4].

ثم هذا الأمرُ عند بعض الناس يقتضي وجوبَ الاستعاذة بعد الفراغِ من القراءة، فإنَّ الفاء للتعقيب، وعند عامَّة الناس[5] هو قبلَ القراءة، ومعنى قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: فإذا أردتَ قراءةَ القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]،

---

(١) في (ف): «الاستغاثة».

(٢) البيت للكميت كما في «التاج» (مادة: عوذ)، ودون نسبة في «الصحاح» (مادة: عوذ)، و«مجمل اللغة» (ص: ٦٣٦)، و«المخصص» لابن سيده (٣/ ١٢٦).

(٣) في (ف): «لا انبساط اجترام»، وفي (ر): «وانبساط واجترام».

(٤) في (ر): «لم تتسير الأقدام».

(٥) في هامش (أ) و(ر): «المسلمين».

وهذا إضمارٌ(١) ثابتٌ بالبديهة، فإنَّ الاستعاذة للتحرُّز عن وسوسةِ الشيطان عند قراءةِ القرآن، وذلك بالتقديم لا بالتأخير، وهذا شائعٌ(٢) في اللغة، قال الشاعر:

إذا طحَنْتِ فابْدَئِي بالمَيْمَنَةْ(٣)

وذلك مقدَّمٌ لا مؤخَّر.

وقال بعض أهل الإلحاد: إنكم رَوَيتُم عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الشيطان ليَهربُ من البيت الذي يُقرأ فيه القرآن» (٤) فأيُّ حاجةٍ إلى الاستعاذة منه(٥)؟

قلنا: عنه أجوبةٌ:

أحدها: أنَّا تُعُبِّدْنا به فلا عُدولَ عنه بمثلِ هذا.

والثاني: أن هذا الوعدَ في حقِّ مَن قرأه وعَمِلَ به، فقد قال ﷺ: «إذا لم يَنْهَكَ القرآنُ فلستَ بقارئ»(٦)، وفي العمل به خللٌ، فلم يَثِقْ بنيله(٧)، فلا يُستغنى عن سؤاله.

---

(١) في (ر): «إخبار».

(٢) في (ر): «وهذا سائغ»، وفي (ف): «وهو سائغ».

(٣) لم أقف عليه.

(٤) رواه مسلم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إنَّ الشيطانَ يَنْفِرُ من البيتِ الذي تُقرأُ فيه سورةُ البقرةِ».

(٥) «منه» من (أ).

(٦) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٤٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وسنده ضعيف كما قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٢٣). ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٣٣) من طريق نافع أبي سهيل عن النبي ﷺ، وهو مرسل، ونافع هذا هو ابن مالك بن أبي عامر الأصبحي. ورواه أبو عبيد أيضا في «فضائل القرآن» (ص: ١٣٤) عن الحسن بن علي قوله.

(٧) في (أ): «فلا يبق»، وفي (ر): «فلا تثق بنيله».

والثالث: أن الشيطان يجتهد[١] في أن يَصرفه عن هذه العزيمة، فيدفعُه[٢] بالاستعاذة، وأسعى ما يكون الشيطانُ في إفسادِ حالِ الإنسان عند قَصْدِه مكالمةَ الرحمن، فيَجتهِد[٣] في دفعِ شرِّه بالاستعاذة الآن.

والرابع: أن الغرض به ما قال جعفرٌ الصادقُ رضي الله عنه: التعوُّذ تطهيرُ الفم عن الكذبِ والغيبة والبهتان؛ تعظيماً لقراءة القرآن، إذ[٤] هو الاستئذانُ لمكالمة الله تعالى بالقرآن.

وقالوا أيضاً: إذا عُذْتُم بالله من الشيطان الرجيم عند قراءةِ القرآن، فلِمَ وقوعُ الخطأ والنسيان[٥]، والابتلاءِ بالعصيان؟

وقلنا: حفظُ اللهِ عند العياذِ باللهِ موعودٌ على التقوى والتذكُّرِ والإبصار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فمَن أخَلَّ بهذه الشروط لم يَنَلْ هذا[٦] الموعود.

ومثالُ مَن استعاذ بالله من الشيطان، ثم اتَّبعه إذا دعاه إلى العصيان: مثالُ التاجر يَخرج إلى السفر بمالٍ خطيرٍ كثيرٍ، ويلتجئُ في حفظه بخفيرٍ حقير[٧]، ثم يَستجيشُ[٨] دهاةَ السُّرَّاق من أقاصي الآفاق.

---

(١) في (ر): «يجهد».

(٢) في (ر): «فندفعه».

(٣) في (ر): «فنجتهد».

(٤) في (أ): «و».

(٥) في (ف): «بالنسيان».

(٦) في (ر): «لم ينل ما هو».

(٧) في (أ): «بحقير»، بدل: «بخفير حقير».

(٨) في (ر): «يتجيش».

ألا ترى أن الذين وفَوا بالشروط نالُوا ما نالُوا[١] بما قالوا:

قال نوحٌ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ [هود: ٤٧].

وقال موسى عليه السلام: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

وقال يوسفُ عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾[٢] [يوسف: ٢٣].

وقالت امرأةُ عمرانَ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وقالت مريم: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ [مريم: ١٨].

وقال إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار على ما ورد في الأخبار: أعوذ بالله الذي[٣] خلَقني فهداني، مِن شرِّ مَن عصاه فآذاني.

وقال نبيُّنا محمدٌ ﷺ: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

وقال: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ السورةَ، وقال: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ السورةَ.

وقال ليلة المعراج: «أعوذُ بعفْوِكَ مِن عُقوبَتِكَ، وأعوذُ برضاكَ مِن سَخَطِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ»[٤].

فنال نوحٌ عليه السلام السلامةَ، وموسى الكرامةَ، ويوسفُ العِصمةَ، وامرأةُ عمرانَ الإعاذةَ، ومريمُ البشارةَ، وإبراهيمُ الخُلّةَ، والمصطفى الشفاعةَ.

---

(١) «ما نالوا» من (ف).

(٢) «أحسن مثواي» من (ر).

(٣) في (ف): «أعوذ بالذي».

(٤) رواه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقالوا أيضاً: في الاستعاذة من الشيطان إظهارُ الخوف من غيرِ الله تعالى، وهو يُخِلُّ بالعبودية!

وقلنا: اتخاذُ العدوِّ عدوًّا تحقيقٌ للمحبَّة، والفِرارُ من غيرِ الله إلى اللهِ تتميمٌ للعبودية، والامتثالُ لأمر الله تقديمٌ للطاعة، والخوفُ ممن لا يخافُ اللهَ إظهارٌ للمسكَنة، والالتجاءُ بالله تأكيدٌ للمباسَطة.

وقيل: التعوُّذ للتبعُّد والتوحُّش، وهي كلمةُ استيحاشٍ عند بعضهم، والتبعُّدُ من المبعَّد لا يكون لخوفه، بل يكونُ وفاقاً لمن بعَّده؛ ألا تَرى أن الإنسان يتباعَدُ عمَّن[1] بعَّده السلطان، لا خوفاً من ذلك الإنسان، بل وفاقاً للسلطان على ما كان.

كأنه يقول: أي إبليسُ الذي بَعُدْتَ من القُربة والرضا فابعُدْ عنا بعيداً[2].

ألا تَرى أن السامريَّ لمَّا بعَّده[3] الله تعالى من رحمته، أمَره موسى أن يدوم على قوله: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧] في جميع مدته، يُبعد الناسَ بذلك عن صحبته.

وقيل: هي للتبرِّي من[4] الحول والقوة؛ كأنه يقول: هلك الشيطانُ بالنظرِ إلى أصله وفِعله، وأنا أتبرأُ إلى الله تعالى مِن مِثله.

وقيل: هو الاستعاذة بالله من حالِ إبليس ومآلِه، لا عن كيدِه وإزلاله وإضلاله.

---

(١) في (ر): «ممن».

(٢) في (أ) و(ف): «أردحمت وقريب دور مارا ان تودو دورا دورا»، مع بعض اختلاف في الرسم بينهما. وجاء في هامش (ف): «تعريبه: يا إبليس الذي بعدت من القربة والرحمة فابعد عنا بعداً بعيداً».

(٣) في (ر): «أبعده».

(٤) في (ف): «عن».

وقيل: هو تملُّقٌ، واللهُ تعالى يحبُّ المتملِّقين، وكما أن الأب يحبُّ من ولده أن يتملَّق به، فاللهُ تعالى يحبُّ من عبده أن يتملَّق به.

وقيل: مَثَلُ العبد إذا خطر بباله حالُ إبليس فعاذ منه بالله كمثَلِ صَيدٍ قصدَه سبُعٌ ففرَّ إلى الحرم فدخله فأمِن[1]، فرجع السَّبُع خاسراً.

وكمَثَل عبدٍ هارب من مولاه، فتلقَّاه[2] لصٌّ فاتكٌ[3]، فهرب منه إلى مولاه فآواه، فبقي اللصُّ قاصراً، فالعبدُ[4] إذا عاذ بالله من الشيطان الرجيم خَسَأ الشيطانُ خاسراً.

وقولنا: (بالله) الباءُ صلة؛ وهي لمعانٍ، وهاهنا للإلصاق: وهو: وصلُ الفعل اللازم بالاسم الذي يقع الفعلُ عليه.

و(الله) اسم الله الأعظم، وتفسيره: القادرُ على الاختراع.

وقيل: هو المستحِقُّ لأوصاف العُلُوِّ.

وقيل: هو مَن له الخلقُ والأمر.

وقيل: هو المعبود.

وقيل: هو المستحِقُّ للعبادة.

واختُلف في أنه مشتقٌّ أو غيرُ مشتقٍّ؛ قال الخليل بن أحمد من أهل اللُّغة، والزجَّاجُ من أهل النَّحو، والحسينُ بن الفضل البَجَليُّ من أهل التفسير، ومحمد بن

---

(١) في (ف): «كمثل رجل رأى سبعاً فأخذ السلاح واحترز به عنه».

(٢) في (أ): «تلقاه».

(٣) في (ر): «قاتل».

(٤) في (ر): «خاسراً والعبد»، وفي (ف): «قاصراً والعبد».

الحسن من أئمةِ الفقه، والشافعيُّ من أهل الحديث، وجماعةٌ: هو غيرُ مشتقٍّ، وهو اسمٌ تفرَّد اللهُ تعالى به، فهو اسمٌ(١) له خاصٌّ، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥](٢).

جاء في التفسير أن معناه: هل تعرفُ أحداً تسمَّى(٣) الله؟!

وقال آخرون: هو مشتقٌّ، ثم منهم(٤) مَن قال: اشتقاقُه من وَلِهَ يَوْلَهُ وَلَهاً: إذا فَزِع ولَجَأ، قال الشاعر:

بَرَزْنا لنَرْدَى والقواضِبُ ركَّعٌ ... وقد صيِّرت رأسُ الأسنَّةِ سُجَّدا(٥)

وَلِهْتُ إليكم في بلايا تَنوبُني ... فأَلْفَيْتُكم فيها كريماً ممجَّدا(٦)

فمعناه: أن الخَلْق يلجَؤون به ويَفزعون إليه في حوائجهم.

---

(١) بعدها في (ر): «الله».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٩٦)، وعزا هذا القولَ للخليل وجماعة لم يسمهم، وخالفه غيره فنسب إلى الخليل القول بالاشتقاق، منهم الزجاجي في «اشتقاق أسماء الله» (ص: ٢٦)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٦٣)، والقرطبي في «تفسيره» (١/ ١٥٧)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (١/ ٣٩)، والسمين الحلبي في «عمدة الحفاظ» (١/ ١٠٧). ونقل الزجاج في «معاني القرآن» (٥/ ١٥٢) عن سيبويه أنه قال: سألت الخليل عن هذا الاسم فقال: الأصل فيه إله، فأدخلت الألف واللام بدلًا من الهمزة، وقال مرة أخرى: الأصل لَاه، وأدْخِلَتِ الألف واللام لازِمة.

(٣) في (أ): «سمي».

(٤) في (ر) و(ف): «ومنهم».

(٥) هذا البيت ليس في (أ) و(ف). والقواضب جمع القَضِيب: وهو السيف اللطيف الدقيق.

(٦) في (ر) و(ف): «كراماً ممجدا»، وذكر هذا البيت الخازن في «تفسيره» (١/ ١٧)، وفيه: «كرائم محتد».

ومنهم مَن جعلَه من الوَلَه الذي هو التَّحيُّر، والوالهُ: الحيرانُ لفَقْدِ الولد ونحوِه.

والولهُ: شدَّة الشوقِ أيضاً، قال الشاعر:

ولِهَتْ نفسيَ الطَّروبُ إليكمْ ولهاً حالَ دون[١] طعمِ الطَّعامِ[٢]

ومعنى الاسم: أن الخلق متحيِّرون في عظمته، وَالِهُونَ من شوقٍ[٣] لرؤيته؛ فعلى هذا[٤] أصلُ الاسم: وِلاه، أُبدلت الواوُ همزةً كما قالوا: وِشاح وإشاح، فقيل: إله، ثم دخلتْه الألفُ واللام فقيل: الإله، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً فقيل: الله.

ومنهم مَن جعل الاسم من أَلِهَ يَأْلَهُ؛ أي: دام وثبَت، يقال: أَلِهَ بالمكان؛ أي: دام وأقام، قال الشاعر:

أَلِهْنا بدارٍ ما[٥] تَبِينُ رسومُها كأنَّ بقاياها وشامٌ على اليدِ[٦]

ومعنى الاسم: أنه القديمُ الأزليُّ الدائم الأبديُّ.

ومنهم مَن جعله مِن أَلَهَ يَأْلَهُ[٧] إلاهةً؛ أي: عَبَد، وفي قراءة بعضهم:

---

(١) في (ر): «ذوق».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٩٨).

(٣) في (ر): «الشوق».

(٤) في (أ): «هذين».

(٥) في (ر): «لا».

(٦) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٩٨).

(٧) بفتح اللام في الماضي والمضارع. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: أله). وباقي الاشتقاقات بكسر =

(ويَـذَرَكَ وإلَاهَتَـكَ)[١]؛ أي: وعبادتَـك، قـال[٢] الشـاعر:

وأَلَـــهْ إلهـــكَ واحـــداً متفـــرِّدا[٣]

وتألَّه يتألَّه؛ أي: تعبَّد، قال الشاعر:

للهِ درُّ الـغـانـيـــاتِ الـمُـــدَّهِ[٤] سبَّحْنَ واسْـتَرْجَعْنَ مِـن تَأَلُّهِـي[٥]

ومعنى الاسم: أنه يحقُّ له العبادة.

ومنهم مَن جعَله مِن قولهم: أَلِهَ إلى فلانٍ[٦]؛ أي: رَجَع إليه واعتمَد عليه، قال الشاعر:

أَلِـــهْتُ إليهـــا والرَّكائـــبُ وُقَّـــفُ[٧]

= اللام في الماضي وفتحها في المضارع. انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٩) بتحقيقنا.

(١) رواها أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١/ ١٢٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهي في «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٤٥).

(٢) في (أ): «وقال».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١٠/ ٦٤٦)، وعجز البيت فيه:

ســـاد الملـــوك بعـــزةٍ وتَمجُّـــدا

(٤) في (ر): «المدهي»، والمثبت من باقي النسخ والمصادر.

(٥) في (أ) و(ف): (تأله). والمثبت من (ر) والمصادر. والرجز لرؤبة، كما في «العين» للخليل (٤/ ٣٢)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٢١)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاجي (ص: ٢٦)، و«الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٦)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٢٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ٩٦)، و«النكت والعيون» للماوردي (١/ ٥١)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (١/ ٦٣).

(٦) في (ر): «أله فلان إليه».

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٩٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ٥٠)، و«اللسان» و«التاج» (مادة: أله). ولم أقف على قائله ولا تمامه.

ومعنى الاسم: أنَّ رجوع الخلق إليه وتوكُّلَهم عليه.

ومنهم مَن جعله مِن الألَهِ الذي هو التحيُّرُ، قال الشاعر:

وبيداءِ تيهٍ تألَهُ العينُ وَسْطَها مخفَّقةٍ[١] غَبْراءَ صَرْماءَ سَمَلَقِ[٢]

ومعناه: ما قُلنا في الوَلَه.

ومنهم مَن جعَله مِن قولهم: أَلِهْتُ إليه؛ أي: سكَنْتُ إليه، قال الشاعر:

أَلِهْتُ إليها والحوادثُ جمَّةٌ[٣]

ومعنى الاسمِ: أنَّ قلوب الخلقِ تسكنُ بذِكره، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ومنهم مَن جعَله من أَلِهَ؛ إذا[٤]: ارتَفَع[٥]، والعربُ تسمِّي الشمسَ: إلاهة؛ لرفعتها، قال الشاعر:

---

(١) في (أ) و(ف): «مخلقة»، وفي (ر): «بحلقة»، والصواب المثبت.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر: «النكت في القرآن» لأبي الحسن علي بن فضال القيرواني (ص: ١٨٩)، و«إعراب القرآن» لأبي القاسم الأصبهاني (ص: ٨).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٩٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ٥٠)، و«اللسان» و«التاج» (مادة: أله). ولم أقف على قائله ولا تمامه كشبيهه المتقدم.

(٤) في (ر) و(ف): «أي».

(٥) كذا جعل المؤلف هذا المعنى من باب (أله) في الاشتقاق، وذكره غيره من باب: (لاهَ يَلِيهُ). انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٢٦)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١/ ٣٩)، و«المجيد في إعراب القرآن المجيد» للسفاقسي (١/ ٣٠)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (١/ ٢٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل (١/ ١٣٨)، و«القاموس» (مادة: لاه)، و«روح المعاني» (١/ ٢٢٢).

تَرَوَّحْنا مِنَ الدَّهْناءِ أرضاً وأَعْجَلْنا الإلَاهةَ أنْ تَؤُوبا[١]

ومعنى الاسمِ: أنه العَلِيُّ العظيم.

فعلى هذه الوجوهَ: (إلهٌ) فِعالٌ على أصلِ الكلمةِ من غيرِ إبدال همزةٍ عن واوٍ، ثم حُذفت الهمزةُ مع الألف واللام لِمَا مرّ.

ومنهم مَن جعَله من لاهَ يَلُوه؛ أي: عَلَا، ومعناه[٢]: العَلِيُّ العالي المتعالي.

ومنهم مَن جعَله من لاهَ يَلُوهُ ولاهَ يَلِيهُ؛ أي: احتجَبَ، قال الشَّاعر:

لاحَتْ تُوافق عينَ الناسِ رؤيتها ونحنُ نِلْنا المُنَى لَمَّا أَتَيْناها

لاهَتْ فما عُرِفَتْ يوماً بخارجةٍ يا ليتَها خَرَجتْ حتَّى رَأَيْناها[٣]

ومعناه: أنَّه حَجَب أبصارَ أهل الدنيا عن رؤيته[٤]، ووَعَد المؤمنين لقاءَه وهُم في جَنَّته.

فعلى[٥] هذين الوجهين: قولُنا: الله، هو على الأصلِ من غير حذفٍ، وقد وَرد أيضاً بهذه الصيغة فيما ليس في أوَّله ألفٌ ولام، قال الشاعر:

---

(١) البيت لبنت عتيبة بن الحارث اليربوعي. انظر: «الجيم» لأبي عمرو الشيباني (٣/ ٢٢٥)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٣٦٩)، ودون نسبة في «البارع في اللغة» لأبي علي القالي (ص: ١١٠)، و«المحتسب» لابن جني (٢/ ١٢٣)، و«الصحاح» (مادة: أله)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ٩٨). وصدر البيت من (ر) وليس في (أ) و(ف)، ووقع في ألفاظه اختلاف في المصادر.

(٢) بعدها في (أ) و(ر): «أنه».

(٣) في (ف): «عرفناها». والمثبت من (أ) و(ر) والمصادر، وقد ورد البيت دون نسبة في «تفسير الثعلبي» (١/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٥)، و«حاشية الشهاب على البيضاوي» (١/ ٥٦). أما البيت الأول فلم أجده، ولم يرد في (أ) و(ف).

(٤) في (ف): «ومعناه أنه محتجب حجب عن أبصار أهل الدنيا»، وصحح في الهامش إلى المثبت.

(٥) في (ف): «وعلى».

يَسمعُها لاهُه الكُبَارُ[١]

وقال آخَرُ في النداء:

لاهمَّ إنَّ جُرهماً عبادُكَ الناسُ طَرْفٌ وهُمُ تِلادُكَ[٢]

فهذه عشرةُ أوجُهٍ في الاشتقاق.

وبقي وجهٌ لطيف غريب:

قيل: كان أصلُه هاءَ الكناية، وذلك أنهم أشاروا إليه بما وُضع له[٣] في نفوسِهم من دلالة الفطرة، إذ لم يَعلموا له اسماً مسموعاً، ثم أدخلوا عليه لامَ المُلك فصار: له، يَعْنون: له الخَلْقُ والأمرُ، ثم مدُّوا بها أصواتهم تعظيماً فقالوا: لاه، ثم وصلُوه بالألف واللّام للتَّفخيم فصار: الله.

ومن النَّحْويين مَن قال: أُدخلت الألفُ واللام فيه بدلاً من الهمزة المحذوفة

---

(١) البيت للأعشى ميمون بن قيس، وهو في «ديوانه» (ص: ٢٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ٩٦)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٢/ ٢٣٤)، وصدره:

كحلفة من أبي رياح

الحلفة: المرة من الحَلِف، و(الكبار) بضم الكاف صيغة مبالغة الكبير بمعنى العظيم، وهو صفة (لاهه). وأبو رياح اسمه: حصن بن عمرو بن بدر، رجل من ضبيعة، وروي بدل (يسمعها): يشهدها. قاله البغدادي.

(٢) البيت لعمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي، كما في «شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري (ص: ٢٥٥)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٢٤) وفيه: عامر، بدل: عمرو. والطُّرف: المستحدث من المال، وهو عكس التلاد.

(٣) «له» من (أ).

منه(١)، فلَزِمتَا الكلمةَ لزومَ تلك الهمزة، ولهذا لم تسقطَا عند النداء: يا أَللهُ(٢)، كما سقطتَا من(٣) غيرِه من الأسماء: يا رحمنُ يا رحيمُ، ونحوِه.

وعن كعبِ الأحبار قال: كان داودُ عليه السلام أَلِهاً أَلُوهاً. أي: مُوْلَعاً(٤) بمقالِه في كلِّ أحواله: إلهي إلهي.

وقال جعفرٌ الصادقُ في هذا الاسم: أَبرزَه اللهُ تعالى من غَيبه إلى قولِه، ومِن قولِه إلى قلمه، ومِن قلمه إلى لَوحه، ومن لَوحه إلى وحيه، ومن وحيه إلى أنبيائه، سكينةً ووقاراً لقلوب أوليائه.

وقولُنا: (من الشيطان) كلمةُ (مِن) في اللُّغة لأشياء، وهاهنا تكونُ لأحدِ معانٍ ثلاثةٍ:

إمَّا للابتداء: كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وإمَّا للانتقال: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

وإمَّا للتعديَة: فإن وقوعَ هذا الفعل على الاسم المذكور بعده مختصٌّ بهذه الكلمة لغةً.

وتحقيقُ المعنى الأولِ والثاني: أن العَوْذ يبدأ(٥) بالانفصال من الشيطان ويَتمُّ بالاتصال بالله، وهو انتقالٌ من غيرِ الله إلى الله.

---

(١) أي: بدلاً من الهمزة المحذوفة في (إله)، انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٩٦)، وقد ذكره عقب قوله: «يسمعها لاهه الكبار».

(٢) في (أ): «عند النداء به».

(٣) في (ف): «عند».

(٤) في (ر): «مولهاً».

(٥) في (ف): «يبتدأ».

والشيطان هو إبليسُ، وفي اشتقاقِهِ عشرةُ أقاويلَ:

أحدها: أنه من الشُّطونِ وهو البُعْدُ، قال الشاعرُ:

فأَضْحتْ بعدَما وَصَلتْ[(١)] بدارٍ ... شَطُونٍ لا تُعادُ ولا تَعودُ[(٢)]

ومعناهُ: الـمُبْعَدُ مِن الرحمة.

والثاني: أنه من قولهم: شاط يَشِيطُ؛ أي: هلك، قال الأعشى:

قد نَطْعَنُ العَيرَ في مَكْنونِ فائلِهِ ... وقد يَشِيطُ على أرماحِنا البَطَلُ[(٣)]

ومعناه: الهالِكُ في الدَّارينِ.

والثالثُ: أنه من قولهم: شيَّط الشيءَ؛ أي[(٤)]: أَحْرقهُ، واسْتَشاطَ غضباً؛ أي: احْتَرقَ، ومعناه: المحرَق[(٥)] في الدنيا بنارِ الفُرقة، وغداً بنارِ الحرقةِ والعقوبة.

والرابعُ: أنه من قولهم: فرسٌ شَطونٌ؛ أي: جَمُوح رَمُوح، ومعناه: العَصِيُّ الأَبِيُّ.

والخامس: أنه من الشَّطَن: وهو الحبلُ الطويل المديد، ومعناه: المتمادي في الطُّغيان، الممتدُّ إلى العصيان.

---

(١) في (ف): «اتصلت».

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في «ديوانه» (ص: ٣٤).

(٣) انظر: «ديوان الأعشى» ميمون بن قيس (ص: ١١٣)، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة (٢/ ١٠٢٠)، و«الفاخر» للمفضل بن سلمة (ص: ٢١)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٥٦). قال ابن قتيبة: الفائلان عرقان عن يمين الذنب وشماله... والفارس الحاذق يتعمد بالطعن في الخُربة وهي نقرة في الورك فيها لحم ولا عظم فيها تنفذ إلى الجوف، يقول: إنا بصراء بموضع الطعن.

(٤) في (ر): «إذا».

(٥) في (أ): «المحرقة»، وفي (ف): «المحترق».

والسادس: أنه من قولهم: فرسٌ شيطانٌ؛ أي: مَرِحٌ[1] نشيط، ومعناه[2]: المتكبِّر المترفِّع.

والسابع: أن الشيطان هو العاتي المتمرِّدُ من كلِّ جنس، ولذلك تسمَّى الحية شيطاناً، قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]؛ أي: الحيات، وقال جرير:

أيامَ يَدْعونَني الشيطانَ مِن غَزَلي ... وهنَّ يَهْوَيْنَني إذ كُنْتُ شيطاناً[3]

والثامن: أنه من قولهم: شيَّطَ اللحمَ؛ أي: دخَّنه ـ من الدخان[4] ـ ولم يُنْضجه، ومعناه: أنه مفسدُ كلِّ شيء، وما به صلاحُ شيء.

والتاسع: أنه من قولهم: فرسٌ مِشْياطٌ؛ أي: ممتلئٌ سِمَناً، ومعناه: أنه ممتلئٌ خُبثاً ونُكراً، وشرًّا ومَكراً.

والعاشر: أنه من قولهم: شاط؛ أي: بَطَل، ومعناه: أنه الباطلُ عملُه الخائبُ أملُه.

وإذا جُعل اشتقاقُه من الشُّطونِ والشَّطَنِ فهو فَيْعالٌ، وإذا جعلْتَه من الشَّيط والتَّشييط والمشياط[5] فهو فَعْلانٌ.

والأصحُّ الأولُ؛ لأن الشاعر أخرجَه على لفظِ الفاعل بالنون، فقال:

---

(١) في (ر): «مرج».

(٢) في (أ): «فمعناه»، في هامش (ف): «فمعنى».

(٣) انظر: «ديوان جرير» بشرح محمد بن حبيب (١/ ١٦٥).

(٤) «من الدخان» من (ر).

(٥) في (أ): «والشياطة».

أَيُّمـا شـاطـنٍ عـصـاهُ عـكَـاه ورَمَاه[١] فـي القيـدِ والأغـلال[٢]

وقولنا: (الرجيم) قال الكسائيُّ: هو المشتوم[٣]، من قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١]؛ أي: شتَمْناك[٤].

وقيل: هو الـمُهلَكُ بأقبحِ وجهٍ، مأخوذٌ من الرَّجم بالحجارة لأنه أقبحُ القِتْلات.

وقيل: هو من الرَّجم وهو الرميُ، قال الله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]؛ أي: رمياً.

ثم هو فعيلٌ بمعنى الفاعلِ عند بعضهم، ومعناه: أنه رامي بني آدمَ بالدَّوَاهي والبلايا، وبمعنى المفعول عند آخَرين، ومعناه: أنه مَرْميٌّ من السماوات بإلقاءِ الملائكة حين لُعن.

وقيل: إنه المرميُّ بشُهُبِ السماء إذا قصَدها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

ثم هذه صفةٌ مذمومةٌ للشيطان، وله في القرآن أسماءٌ مشؤومةٌ وصفاتٌ مذمومة؛ وهي: إبليسُ، والشيطانُ، والغَرورُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، والوسواسُ، والخنَّاسُ.

والكافرُ: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

---

(١) في (أ) و(ر) و(ف): «ورمى»، والمثبت من هوامش النسخ الثلاث.

(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في «ديوانه» (ص: ٤٤٥)، و«اللسان» (مادة: شطن). وهو في وصف نبي الله سليمان عليه السلام. عكاه: شده في الحديد.

(٣) في (أ): «المشؤوم». والمثبت من (ر) و(ف)، وهو الصواب. انظر: «تفسير الطبري» (١/ ١١٠)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٥٧).

(٤) «أي شتمناك» سقط من (أ) و(ف).

والصاغر: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

والمارد: ﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ [الصافات: ٧].

والـمَرِيد ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ [النساء: ١١٧].

والطائف: ﴿طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والفاتن: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والملعون: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص: ٧٨].

والمذمومُ والمذؤوم والمدحور: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ [الأعراف: ١٨].

والمقذوف: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗا﴾ [الصافات: ٨ ـ ٩].

والكَفُور: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٧].

والخَذُول: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٩].

والعَصِيُّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤].

والعدوُّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

والمُضِلُّ: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: ١٥].

ومن صفاته وأفعاله: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ [الحجر: ٣٣]، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦] ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [يوسف: ٤٢]، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾

[الحج: ٥٢]، ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الإسراء:٥٣]، ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [المجادلة:١٩]، ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٥]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١]، ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الأنعام: ٧١]، ﴿مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ الآية [النساء: ١١٨]، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

ثم أَجْمَعُ الأسماءِ لـمَخازيهِ(١) ومساوئه هو الرَّجيم؛ فإنه(٢) لو جُعل بمعنى الراجِمِ كان جامعاً لجميع ما يقعُ منه من الجنايات، ولو جُعل بمعنى المرجومِ كان شاملاً لجميعِ ما يقعُ عليه من العقوبات؛ فلذلك ذُكر في الاستعاذةِ منه هذا الاسمُ دون غيرِه من الأسماءِ والصفات.

ثم هذه الاستعاذةُ أوجَهُ الاستعاذات، وللناس فيها اختياراتٌ ورَدَتْ(٣) بها رواياتٌ:

---

(١) في (ف): «بمخازيه».

(٢) في (ف): «لأنه» وفي هامشها: «فإنه».

(٣) في (أ) و(ف): «ووردت».

رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقولُ: «أعوذُ بعفوِ الله العظيمِ من عذابهِ الأليمِ، ومن هَمَزاتِ الشياطينِ، إن الله[١] هو السميع العليم»[٢].

ورُوي عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقولُ: أعوذُ باللهِ الواجدِ[٣] الماجدِ من كلِّ عدوٍّ حاسدٍ، ومن كلِّ شيطانٍ ماردٍ، إن الله هو السميعُ العليم.

وعن عمرَ الفاروقِ[٤] رضي الله تعالى عنه أنه كان يقولُ: أعوذ بالله الـمُعين من الشيطان اللَّعين إلى يومِ الدِّين[٥].

وعن عثمانَ ذي النُّورَينِ[٦] رضي الله تعالى عنه أنه كان يقولُ: أعوذ بالله من الشيطان والكفرِ والطغيان، وهو المنعِم المستَعان.

وعن عليٍّ المرتَضَى[٧] رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: أعوذ باللهِ العظيم ووجهِه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم[٨].

وكان الحسنُ والحسينُ ـ رضي الله عنهما ـ وأبو ذرٍّ وأسامةُ وعمارٌ رضي الله تعالى عنهم يقولون: أعوذُ باللهِ العظيم من الشيطان الرجيم[٩].

---

(١) في (أ): «إنه».

(٢) لم أجده مسنداً.

(٣) في (أ): «الواحد».

(٤) في (أ): «وعن عمر بن الخطاب»، و«الفاروق» ليست في (ر).

(٥) في (أ): «القيامة».

(٦) «ذي النورين» ليس في (أ) و(ر).

(٧) «المرتضى» ليس في (أ) و(ر).

(٨) رواه أبو داود (٤٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً، وحسنه النووي في «الأذكار» (٩٤).

(٩) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٣٨٣) من حديث عمار رضي الله عنه مرفوعاً.

وكان محمد ابن الحنَفيَّة رضي الله تعالى عنه يقولُ: أعوذُ بالله القويِّ من الشيطان الغَوِيّ.

وكان ابنُ مسعودٍ رضي الله تعالى عنه يقولُ: أعوذُ بالله الجبَّار المتكبِّر من الشيطان المستكْبِرِ، إن الله هو السميعُ العليم[١].

ومن القرَّاءِ السبعة مَن يقول: أعوذُ باللهِ السَّميعِ العليم من الشيطان الرجيم[٢].

ومنهم مَن يقول: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميعُ العليم.

ومنهم مَن يقول: أعوذُ بالله العظيم من الشيطان الرجيم.

ومنهم مَن يَجمع بين العظيم والسميع والعليم.

ومنهم مَن يقول: أستعيذُ بالله.

ومنهم مَن يقول: نَستعيذُ بالله.

والمختارُ هو قولُ الجمهور: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم.

قال نجمُ الدِّين[٣]: ولي فيه حديثٌ مسلسلٌ ينتهي إلى عاصمٍ، عن زِرٍّ، عن ابنِ مسعودٍ رضي الله تعالى عنه، عن النبيِّ ﷺ، عن جبريل، عن ميكائيل، عن إسرافيل، أنه أخذه من اللوح المحفوظ هكذا[٤].

---

(١) لم أجده، وكذا ما ورد هنا من الأخبار مما لم نذكر له تخريجاً.

(٢) وروى هذه الصيغة في الاستعاذة أبو داود (٧٧٥) و(٧٨٥) من حديثي أبي سعيد وعائشة، والترمذي (٢٩٢٢) من حديث معقل بن يسار.

(٣) في (ر) و(ف): «قال يعني المصنف».

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤١) مسلسلاً، وعنه تلميذه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٨٣ ـ ٨٤)، وفي آخره: فلقد قرأت على عاصم فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لي: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلقد قرأت على زر بن حبيش فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لي: قل أعوذ بالله من =

ثم التعوُّذُ به افتتاحُ قراءةِ القرآن، وبالمعوِّذتَين خَتْمُ سُورِ القرآن، فيُرجَى بذلك حفظُ ما بينَهما.

وفي أخذِ الميثاقِ خاطَبَ اللهُ تعالى العبدَ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وعند النَّزْع يخاطبُه بقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآية [الفجر: ٢٧]، فيُرجَى بذلك عفوُ ما بينَهما.

والنبيُّ ﷺ يقول في حقِّ هذه الأمَّةِ: «أنا قائدُها، وعيسى سائقُها»[١]، فيُرجَى بذلك نجاةُ ما بينَهما.

ويلي[٢] التعوُّذَ التَّسميةُ، وهي: (**بسم الله الرحمن الرحيم**).

وانتظامُ هذه بذلك: أنَّ التعوُّذ بالله هو التحفُّظ بذِكْر اللهِ، ولذلك ورد الخبرُ باستحباب هذا التعوُّذ: «أَعوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ[٣]»[٤]، ومنها هذه الأسماءُ الثلاثةُ العظيمة.

= الشيطان الرجيم، فلقد قرأت على عبد الله بن مسعود فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لي: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلقد قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم، فقال لي: «يا ابن أم عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبرائيل عن القلم عن اللوح المحفوظ».

قلت: وقد ورد جواز الاستعاذة بلفظ: (أعوذ بالله السميع العليم) في حديث كل من أبي سعيد وعائشة ومعقل بن يسار رضي الله عنهم، وقد تقدم تخريجها قريباً.

(١) لم أجده.

(٢) في (ف): «وتلو».

(٣) في (ف): «التامة».

(٤) قطعة من حديث رواه مسلم (٢٧٠٨) عن خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها، و(٢٧٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيل: الجامع بينهما كأنَّه[١] يقول في التقدير: أعوذُ باللهِ وأنا موسومٌ بسِمَةِ اللهِ، وهي فِطْرَةُ اللهِ، وصِبغةُ اللهِ، وهما: التكوينُ والكونُ، والتلوينُ واللون[٢]، قائمان بالمخلوق، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عنهما. أفريدن مي حكونه ومي جكونه، وأفرينش مرده باحكونه وبرحكونه.

وجامعٌ آخَرُ بينهما: ما[٣] قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: إجلالُ القرآن: أعوذُ بالله مِن الشيطانِ الرجيمِ، ومفتاحُ القرآن: بسم الله الرحمنِ الرحيمِ[٤].

وقال النبيُّ ﷺ: «مفتاح القرآن التسمية»[٥].

ورُوي أنَّ أوَّل ما جَرى به القلمُ في اللوح المحفوظ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وأنَّه أوَّل ما نزل[٦] على آدم، وأنَّه أمانُ أهلِ السماواتِ والأرضينَ، وأنَّه كلمةُ جوازٍ مِن اللهِ تعالى، وأنَّه خاتمُ اللهِ لعبادِه الموحِّدين.

وروي عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ المُعلِّم إذا قال للصبيِّ: قل: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، فقال الصبيُّ: بسمِ اللهِ الرحمنِ

---

(١) في (أ): «أنه».

(٢) في (ف) و(أ): «وهما التكوين والتلوين والكون واللون».

(٣) «ما» من (أ).

(٤) لم أجده.

(٥) لم أجده بهذا اللفظ، لكن روى الطبراني في «الأوسط» (٦٢٥) عن بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «بأي شيء تستفتح صلاتك وقراءتك» قلت: ببسم الله الرحمن الرحيم، قال: «هي هي». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٠٩): رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق وهو ضعيف لسوء حفظه وفيه من لم أعرفهم.

(٦) في (أ): «أنزل».

الرحيـم، كَتـب اللهُ تعالى براءةً للصبيِّ، وبـراءةً لأبويه، وبراءةً للمُعلِّـم مِن النار»[١].

وعن جابرٍ رضي اللهُ عنه قال: لمَّا نزلت: بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم، هَربَ الغيمُ إلى المشرِق، وسكنت الرياحُ، وهاجَ البحرُ، وأَصْغت البهائمُ آذانها، ورُجمت الشياطينُ مِن السماء، وحَلف اللهُ عزَّ وعلا بعزَّته لا يُسمَّى اسمُه على شيءٍ إلَّا شَفاه، ولا يُسمَّى اسمُه على شيءٍ إلَّا باركَ عليه، ومَن قرأ: بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، دخل الجنَّة[٢].

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه[٣]: مَن أراد أن ينجيَه اللهُ مِن الزَّبانية التسعةَ عَشَر فليقرأ: بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، فإنَّها تسعةَ عَشَر حرفاً، ليجعلَ[٤] اللهُ تعالى بكلِّ حرفٍ منها جُنَّةً[٥] له مِن كلِّ واحدٍ منهم[٦].

وقال بعضُ أهلِ المعرفة: التسميةُ كلمةٌ قدسيَّةٌ مِن كنزِ الهداية، وخلعةٌ ربوبيَّةٌ مِن خِلَع الولاية، ووصلةٌ قريبةٌ لأهلِ العناية، ورحمةٌ خاصةٌ[٧] لأصحابِ الجناية.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٩١)، وابن الجوزي في «التحقيق في أحاديث الخلاف» (١٥٧٨)، قال ابن الجوزي: وهذا الحديث لا يجوز الاحتجاج بِهِ؛ لأَنَّهُ من عمل أَحمد بن عبد الله الهَرَوِيّ، وهو الجويباري، وكان كذاباً يضعُ الحديث. وقال ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٢٥٣٠): هذا الحديث موضوعٌ.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٩١).

(٣) في (أ): «وعن ابن مسعود».

(٤) في (ر): «يجعل»، وفي (ف): «فيجعل»، والمثبت من (أ) والمصادر.

(٥) في هامش (ف): «الجُنَّة: الوقاية كالحصن المنيع».

(٦) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٩١)، وابن مردويه في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (١/ ٢٦)، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١/ ١٤٣).

(٧) في (أ) و(ر): «خاصية».

وقولـه: بسـم الله الرحمن الرحيـم: الباءُ حـرفُ تضمينٍ وإلصـاقٍ، ولها وجوهٌ خمسة:

أحدها: أنَّه متَّصلٌ بما تقدَّم: أعوذ بالله؛ أي: أعوذُ بسمِ اللهِ.

والثاني: أنَّه يتَّصل(١) بأمرٍ مُضمَرٍ أو إخبارٍ مُضمَرٍ؛ الأمر: اِبْدَأ، للواحد، و: ابدؤوا، للجمع، والإخبار: أَبْدَأُ أنا، أَوْ: نَبْدَأُ نحن، والإخبارُ أَولى؛ ليُوافق ما قبله: أعوذُ وأبدأُ.

والثالث: أنَّ معناه: أَتيمَّن وأتبرَّك وأستعينُ وأستثبتُ وأستغيثُ بسمِ الله.

والرابع: بسم الله كان ما كان ويكون ما يكون.

ويحكى(٢) عن جعفرٍ الصادقِ أنَّه قال: أودعَ اللهُ تعالى علومَ كلِّ الكتبِ القرآنَ، وأودعَ علومَ القرآنِ الفاتحةَ، وأودعَ علومَ الفاتحة التسميةَ، وأودعَ علومَ التسميةِ الباءَ؛ أي: بي كان ما كان ويكون ما يكون.

وقيل: كَشْفُه: بإلهيَّتِه عرفه العارفون، وبعطفِه ارتزقَ العالِـمون، وبرحمتِه نَجا المذنبون.

وقيل: كَشْفُه: بالله سَلِمت قلوبُ أولياءِ اللهِ عمَّا ليس فيه رضَى الله، وبالرَّحمن سَعَت نفوسُ عبادِ الله في خدمةِ الله، وبالرَّحيم تخلَّصت أرواحُ أصفياءِ اللهِ عمَّا يُوجِب سخطَ اللهِ.

والخامس: أنَّه خبرُ مبتدأ مُضمَرٍ؛ أي: هذا بسمِ اللهِ، كقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا﴾ [النور: ١]؛ أي: هذه سورة، ﴿كِتَبٌ أَنزَلْنَهُ﴾ [ص: ٢٩]؛ أي: هذا كتاب.

---

(١) في (ف): «متصل».

(٢) في (أ): «وحكي».

ثم اللَّطيفةُ في أنَّ هذه الوجوهَ التي بيَّنَّا إضمارَها لم تُظهَر، وبذِكْر تلك الكلمات لم تبدأ[1]: أن تكون البدايةُ بسم الله، فلا يكون افتتاحُ كلام[2] القارئ بذِكْر فِعلِ نفسِه، بل بذِكْر اسمِ ربِّه كما بدأ رسولُ الله ﷺ حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] لا كما قال موسى صلوات الله عليه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء: ٦٢]، فلا يُستفتحُ بأَحسنَ مِن اسم الله[3] كلامٌ، ولا يُستنجَح بأعظمَ مِن فضله مرامٌ، تبارك اللهُ ذو الجلال والإكرام.

وقيل: معناه: بقوَّة اسمِ اللهِ قدرتُ أنْ بَدَأتُ، وهو معنى[4] قولِنا: لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيم.

وقال أبو بكرٍ الورَّاق: بَدَأَ اللهُ تعالى كتابَه بذِكْرين ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كأنَّه قال: الأشياء به وجودُها وله ملكُها.

ثم إنَّما طُوِّلت هذه الباءُ دون سائرِ الباءات؛ لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنَّه عليه الصلاة والسلام أَمَرَ بذلك فيما رُوي لنا بإسنادٍ عن مكحولٍ الشاميِّ قال: قال معاوية: كنتُ أكتبُ بين يدَي رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «يا معاويةُ، أَلِقِ الدواةَ، وحرِّف القلمَ، وانْصِبِ الباء، وفرِّقِ السينَ، ولا تُعوِّر الميمَ، وحسِّن اللهَ، ومدَّ الرَّحمنَ، وجوِّد الرحيمَ»[5].

---

(١) في (ر): «نبدأ».

(٢) في (أ): «بكلام»، وليست في (ف).

(٣) في (أ): «من اسمه».

(٤) في (ف): «بمعنى».

(٥) رواه السمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» (ص: ١٧٠)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥/ ٣٩٤)، ومكحول لم يسمع من معاوية، كما في «مراسيل ابن أبي حاتم» (ص: ١٦٦).

قوله: (أَلِقِ الدَّواةَ) بفتح الهمزة وكسر اللام أمر من ألاقَ الدواة: إذا جعل لها لِيقةً وأصلح لها =

والثاني: ما قاله القُتَبي[١]: أنَّهم لم يَرَوا[٢] أنْ يَفتتحوا كتابَ اللهِ إلَّا بحرفٍ مفخَّم معظَّم[٣].

والثالث: أنَّهم لمَّا[٤] أَسقطوا الألفَ مِن الاسمِ، فردُّوا طولَ الألفِ على الباءِ؛ ليكون دلالةً على سقوطِ الألفِ منه؛ وإنَّما أَسقطوها هاهنا؛ لكثرة دَورها على الألسنة، وفي الكتابة طلباً للخفَّة، وفي قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، لم يوجد هذا، فلم يحذف الألف ولم تطوَّل الباء.

ثم إنَّما كُسرت الباءُ مع أنَّها حرفٌ واحد، والحروف المفردةُ مفتوحةٌ ـ كالتاء والفاءِ والكاف واللام والواو ـ لثلاثةِ أوجُهٍ:

= مدادها؛ أي: استمرَّ على تعميرِها في وقتٍ قليلًا قليلًا، ومنه قولُ عليٍّ بن هلالٍ المعروفِ بابنِ البوَّابِ في قصيدته في صناعة الكتاب:

وألِقْ دواتَكَ بالمِدادِ مُعمِّرًا ... بالخلِّ أو بالحِصْرِمِ المعصودِ

(وحرّف القلم) بتشديد الراء المكسورة: أمرٌ من التحريف؛ أي: اجعل طرف شقه الأيمن أزيَدَ من الطرف الآخر قليلاً لأنه أسرع في الكتابة وأبدع في اللطافة.

(وفرّق السّين)؛ أي: أسنانها (ولا تعوِّر الميم)؛ أي: لا تطمسها بل بيِّنْ وسطها، وهو بتشديد الواو بعد العين المهملة. انظر: «شرح الشفا» للملا علي القاري (١/ ٧٢٧)، وفيه: (وأقم الباء)؛ أي: طولها.

(١) في (ر): «القتيبي».

(٢) في (ف) و(أ): «يريدوا».

(٣) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٩٢)، وعزاه للقيسي.

(٤) «لما» من (ف).

أحدهـا: أنَّ البـاءَ حـرفٌ ممـالٌ في الاسـمِ، فإنَّـك تَقرأ[١] البـاءَ علـى الإمالة، وهـي دليـلُ[٢] الكسـرةِ، وليـس كذلك الـكافُ والـلامُ والـواوُ؛ لأنَّهـا لا تُمال، ولا يَلـزم عليهـا التـاءُ أنَّهـا[٣] تُمـال ومـع ذلـك تُفتَح فـي قولـك: تَـاللهِ؛ لأنَّها بـدلُ واوِ القَسَـم، والـواو مفتوحـةٌ فأُلحقَ البدلُ بهـا، وبخلافِ[٤] الفـاءِ فإنَّهـا[٥] ممالةٌ، وهي مفتوحـةٌ فـي قولـك: فَـاللهِ؛ لأنَّهـا[٦] لو كُسـرت فقيل: فِـاللهِ، اشـتَبهت بـ: فـي اللهِ، ففُتحـت؛ ليزولَ الاشـتباهُ.

والثاني: قولُ سيبويه: أنَّها لا عَمَلَ لها إلَّا الكسرُ، فكُسرت لذلك، بخلافِ الكافِ؛ لأنَّها إذا كانت للخطابِ لم تكن كاسرةً، وكذلك التاء، وأمَّا اللامُ فكثيرٌ مِن اللاماتِ ليست بكاسرةٍ، وكذا الواوُ والفاءُ.

والثالـث: قـول المبـرِّد: أنَّ أصلهـا اليـاء، فإنَّـك[٧] تقـول: بَيَّيْـتُ؛ أي: كتبـت اليـاء[٨]، ولا كذلـك سـائرُ الحـروف، فـإذا ردَدْتَهـا إلـى اليـاءِ كسـرْتَها؛ لأنَّ اليـاءَ أخـتُ الكسـرة.

---

(١) في (ف) و(أ): «تقول».

(٢) في (ر): «دلالة».

(٣) في (ف): «ولا يلزم عليه التاء لأنها».

(٤) في (ف): «بخلاف».

(٥) في (أ) و(ر): «أنها».

(٦) في (ف): «فإنها».

(٧) في (ر): «لأنك».

(٨) في (ر): «الباء». والصواب المثبت. انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ٩٢)، ولفظه: (.. ألا ترى أنك إذا أخبرت عن نفسك فإنك قلت: بييت، فرددتها إلى الياء والياء أخت الكسرة...).

وبعد الباء ﴿اسم﴾ وفيه أربع لغات: (اِسمٌ) بكسر الألف، و(اُسمٌ) بضمِّها، و(سِمٌ) بكسر السين، و(سُمٌ) بضمِّها، قال الشاعر:

واللهُ سمَّاك سُماً مباركاً آثركَ اللهُ بِهِ إيثارَكا[١]

وقال آخَر:

سُبحانَ مَن في كلِّ سورةٍ سِمُهْ قد أُنزِلت على طريقٍ نعلمُهْ[٢]

وقال آخَر:

وعامُنا أَعْجَبنا مُقدَّمُهْ يُدعَى أبا السَّمْحِ وقِرضابٌ سُمُهْ[٣]

واشتقاقُه مِن: سَمَا يَسْمُو سُمُوًّا، وسَمَى يَسْمِي سُمِيًّا؛ أي: عَلَا، فقولهم: (اُسْمٌ) بالضَّمِّ؛ بُنِيَ على صيغةِ الأمرِ مِن الواويِّ منه، وقولهم: (اِسْمٌ) بالكسر؛ بُنِيَ على صيغةِ الأمرِ مِن اليائيِّ[٤] منه، كقولهم: (أَمْسِ) على صيغةِ الأمر، مِن: أمسَى يُمْسي[٥].

---

(١) الرجز في «إصلاح المنطق» (ص: ١٣٤)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٥٣). قال ابن السكيت: أنشدني القناني. فنسبه العيني في «المقاصد النحوية» (١/ ٢٠٤) إلى أبي خالد القناني.

(٢) الرجز أورده أبو البركات الأنباري في «الإنصاف» (١/ ١٥ ـ ١٦)، وابن منظور في «لسان العرب» (مادة: سما).

(٣) انظر: «إصلاح المنطق» (ص: ١٣٤)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٥٤)، و«تهذيب اللغة» (٩/ ٢٨٧). قرضبَ الرجلُ: إذا أكل شيئاً يابساً.

(٤) في (أ): «الثاني».

(٥) قوله: (أَمْسِ على صيغةِ الأمر، مِن: أمسَى يُمْسي) كذا في النسخ، وفيه نظر لأنه قياس للثلاثي على الرباعي، ولا وجه له هنا، ولعل الصواب: (اِمس من مَسَى يَـمْسي)؛ أي: من الثلاثي، يقال: مَسَى يَمْسِي مَسْياً: إذا ساءَ خُلُقُه بعد حُسْن. ومَسَى يَمْسي مسياً وأَمْسى ومَسَّى كلُّه: إذا وعَدَك بأمرٍ ثم أَبْطَأَ عنك. انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٨٢).

والأسماء المبنيَّة على صيغةِ الفعلِ كثيرةٌ، كقولهم: يَشكر ويَزيد وتَغلب ويَعمل، ومعنى الاسمِ مِن هذا المأخذِ: أنَّ المسمَّى يَعلُو بتسميتِه، وذاكرُ اللهِ تَعلُو درجتُه بذِكْرِ اللهِ ومِدْحتِه.

ومَن قال: إنَّ اشتقاقَه مِن وَسَمَ يَسِمُ، فقد أخطأ؛ لأنَّ الفعلَ منه: سَمَّى يُسمِّي، وتَسَمَّى يَتَسمَّى، وجمعُ الاسمِ: الأَسماءُ والأَسامي، وتصغيره: السُّمَيُّ، وحرفُ العلَّةِ في آخِره، ولو كان مِن الوَسمِ لم يكن كذلك. والألف في أوله مُدرَجةٌ تذوبُ عند الوَصْلِ؛ لأنَّها أُدخِلت في أوَّله زائدةً بعد حذفِ آخرِه تخفيفاً، والزوائدُ الضروريةُ كذلك، كما في الابْنِ والابْنَةِ والاثْنَين[1]، وألفاتِ الأمرِ مِن الأفعالِ الثُّلاثيَّة والأفعالِ المُتشعِّبة.

ثم تكلَّموا في إدخال كلمة (اسم) هاهنا:

قال أبو عبيدةَ: هو صلةٌ وزيادةٌ، ومعناه: بالله، كما في قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]؛ أي: يُذكَر هو، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨]؛ أي: تباركَ ربُّك، كما قال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال لبيد[2]:

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عَليكُما ... ومَن يَبْكِ حَولاً كامِلاً فقد اعْتَذَرْ[3]

---

(١) في (أ): «والابنين».

(٢) انظر: «ديوان لبيد» (ص: ٥١).

(٣) في هامش (ف): أوله:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وما أنا إلا من ربيعة أو مضر

وقالوا: في القرآن أربعُ كلماتٍ هي[١] صلاتٌ؛ وهي: الاسمُ، والوجهُ، وكادَ، وطَفِقَ:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وتكلَّموا في معنى الزيادة: قال الأخفشُ: هو للتبرُّك، ولو قيل: بالله، لظنُّوه قَسَماً، فأُزيلَ الاشتباهُ بذِكْر هذه الزيادة.

وقال قطربٌ: إنَّه لإجلالِ ذكرِ[٢] اللهِ؛ ليقعَ به الفرقُ بين ذِكْره وبين ذِكْر خَلْقه في مثلِ قولهم: تبرَّكتُ بفلانٍ[٣].

وأكثرُهم على أنَّ الكلمةَ مقصودةٌ غيرُ زائدة، ومعناه البدايةُ بذِكْر أسامِيْه التي سمَّى نفسَه بها والتبرُّكِ بها، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وفيه شيئان: الثناءُ على اللهِ بها، واستنجاحُ الحوائجِ بذِكْرها.

فأمَّا[٤] الأوَّل: فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهي تسعةٌ وتسعونَ اسماً متفرِّقةً في القرآن، وسمَّى المؤمنينَ بأساميَ حسنةٍ في القرآن، كما في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات [المؤمنون: ١]، ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الآية [التوبة: ١١٢]، ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥]، ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ الآيات [المعارج: ٢٢ ـ ٢٣]، وقد قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) في (ف) و(أ): «هن».

(٢) في (ر): «اسم». والمثبت من (أ) و(ف)، وهو الموافق لما في «النكت والعيون» (١/ ٤٧).

(٣) في (ر): «اسم». والمثبت من (أ) و(ف)، وهو الموافق لما في «النكت والعيون» (١/ ٤٧).

(٤) في (ف): «أما».

وقال عليه السلام: «مَن أحبَّ شيئاً أَكثرَ مِن[١] ذِكْره»[٢]، والله تعالى أحبَّك فأَكثرَ ذِكْرَك وعدَّ أسماءَك الحَسَنة، وأنتَ تحبُّه فادْعُهُ بأسمائه الحسنى.

وقد أَمَرَ اللهُ تعالى بذِكْر اسمِه على الإطلاق: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، ثم خصَّ الزمانَ بقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]، والمكانَ فقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ الآيةَ [النور: ٣٦]، والمحلَّ فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وأَثبت به الحِلَّ فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وحرَّم ما لا[٣] يُذكَر اسمُ اللهِ عليه فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومَن خُتم له باسمِ اللهِ ماتَ سعيداً، ومَن وُضعَ في قبرِه فقيل: باسمِ الله وعلى ملَّةِ رسولِ الله؛ لُقِّنَ الجوابَ ولقيَ الثوابَ، ومَن أُعطيَ كتابَه في القيامة وأُريد به الخيرُ، أُلهمَ أنْ يقول: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ.

وفي الخبر: أنَّ عبداً يُؤتَى كتابَه فيقول: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، فيَنْشرُه فإذا هو أبيضُ لا شيءَ فيه، فيُقالُ له: كان مملوءاً سيئاتٍ فمُحيَ ببركةِ التسميةِ، وإذا مرَّ على الصراطِ وأُريدَ به الخيرُ أُلهمَ أنْ يقول: بسم الله الرحمن الرحيم[٤].

وفي الخبر: أنَّ المؤمنينَ إذا وَضعوا أقدامَهم على الصِّراط يقولون: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، فيمرُّون عليها وثيابُهم نَديَّةٌ مِن العَرَق.

---

(١) «من» ليست في (ف).

(٢) رواه أبو نعيم والديلمي كما في «المقاصد الحسنة» (ص: ٦١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، وانظر: «ضعيف الجامع».

(٣) في (ف): «لم».

(٤) في (أ) و(ف): «أن يقول هذا».

وأمَّا استنجاحُ الحوائجِ فقد قال عليٌّ رضي الله عنه: كلمةُ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ[١] مُسهِّلةٌ للوعور، مُجنِّبةٌ للشرور، شفاءٌ[٢] لِمَا في الصدور، أمانٌ يومَ النُّشور.

وأمَّا اسمُه[٣] (الله) مرَّ الكلامُ فيه[٤] في التعوُّذ.

وقولُه[٥]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هما اسمانِ مشتقَّانِ مِن الرَّحمة، ورحمةُ اللهِ هي إرادتُه الخيرَ بأهلِه.

وقيل: هي إعطاءُ اللهِ العبدَ ما لا يَستحقُّه مِن المثوبةِ، ودفعُ ما يَستوجبه مِن العقوبة.

وقيل: هي تركُ عقوبةِ مَن يستحقُّ العقوبةَ.

وقيل: هي المِنَّة على المحتاجِ.

وقيل: هي العطفُ.

وكثُرت أقاويلُ السلفِ والخَلَف في تفسيرهما:

روى أبو سعيد الخُدريُّ رضي الله تعالى عنه أنَّ عيسى عليه السلام قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ رحمنُ الدنيا، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ رحيمُ الآخرة[٦].

---

(١) «الرحمن الرحيم» ليس في (أ) و(ف).

(٢) في (ف): «وشفاء».

(٣) في (أ): «وقوله»، بدل: «وأما اسمه».

(٤) في (ف): «عليه».

(٥) في (ف): «وأما اسماه».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٢٦)، وفيه: «الرحمن: رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم: رحيم الآخرة». ورواه أيضاً ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٠٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٥)، وقال ابن عدي: حديث باطل. وقال ابن الجوزي: موضوع. وفيه: إسماعيل بن يحيى =

ويرجع إلى ذلك قولُ مجاهد: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بأهلِ الدنيا، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأهلِ الآخرة[١].

وقولُ يحيى بنِ مُعاذٍ الرازيِّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بمصالحِ معاشهم، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمصالحِ معادهم[٢].

وقول بكرِ بنِ عبد الله المزنيِّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بنِعَم[٣] الدنيا، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بنعيم الآخرة[٤].

وقول الحارث بنِ أَسَد: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ برحمةِ النفوس، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ برحمةِ القلوب[٥].

وقال أبو بكر الورَّاق: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالنَّعماءِ، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالآلاءِ؛ فالنَّعماءُ ما أَعطى وحَبَا، والآلاءُ ما صَرَف وزَوَى[٦].

= التيمي، قال عنه الأزدي كما في «ميزان الاعتدال» (١/ ٢٤٥): ركن من أركان الكذب.

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٩٩).

(٢) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠١). ويحيى بن معاذ الرازي من كبار المشايخ، له كلام جيد ومواعظ مشهورة، توفي بنيسابور سنة (٢٥٨هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ١٥).

(٣) في (ر) و(ف): «بنعيم».

(٤) في (ف) و(أ): «بنعم الدين». وبكر بن عبد الله هو أبو عبد الله المزني البصري أحد الأعلام، يذكر مع الحسن وابن سيرين، حدث عن المغيرة بن شعبة وابن عباس وابن عمر وأنس بن مالك وعدة. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٣٢).

(٥) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠٠). والحارث بن أسد هو أبو عبدالله البغدادي المحاسبي صاحب التصانيف الزهدية، كبير القدر، وقد دخل في شيء يسير من الكلام فنقم عليه، توفي سنة (٢٤٣هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١١٠).

(٦) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠٠).

وقال محمد بنُ عليٍّ الترمذيُّ[1]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالإنقاذِ مِن النيران، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالإدخالِ إلى[2] الجِنان.

وقال السَّريُّ بنُ مُغَلِّس[3]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بكشفِ الكروب، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بغفرانِ الذنوب.

وقال عبد الله بنُ الجرَّاح[4]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بتبيينِ الطريق، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالعصمةِ والتوفيق.

وقال ابنُ عباس: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: العاطف على البَرِّ والفاجرِ بالرِّزق، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالمؤمنينَ خاصَّة[5].

وقال مقاتل بنُ سليمان: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: العطوف على كلِّ عباده بفضله، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: الرفيق بأهلِ طاعته؛ إذ لم يكلفهم ما لا يُطيقون، وأَوجبَ لهم مِن الرحمةِ ما لا يستحقُّون.

وقال خارجةُ بنُ مصعبٍ[6]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بكلِّ خَلْقه، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأوليائه.

---

(١) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي صاحب «نوادر الأصول»، المتوفى نحو (٣٢٠هـ). ووقع في مطبوع «تفسير الثعلبي» (١/ ١٠٠): المزيدي.

(٢) في (ف): «في».

(٣) الزاهد المعروف، أبو الحسن البغدادي السقطي خال الجنيد وتلميذ معروف الكرخي، توفي سنة (٢٥٧) وكلامه أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠١).

(٤) لعله عبد الله بن الجراح بن سعيد التميمي، أبو محمد القُهُسْتاني نزيل نيسابور، من رجال «التهذيب»، وكلامه أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠١).

(٥) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٢) بنحوه.

(٦) خارجةُ بنُ مُصْعب بن خارجة أبو الحَجَّاج الضُّبَعيُّ السَّرخسيُّ، عالِمُ أهل خُراسانَ على لِينٍ فيه، توفي سنة (١٦٨). انظر: «تاريخ الإسلام» (٤/ ٢٤٨).

وقال السَّريُّ بنُ مُغَلِّس أيضاً: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: العاطفُ على عباده؛ يَرزقهم مِن حيث لا يَحتسبون، ويَدفع عنهم مِن حيث لا يَعلمون، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالمؤمنينَ يَغفرُ لهم ما يُذنبون.

وقال الضحاك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بأهلِ السماوات حين أَسكنهم السماواتِ، وطوَّقهم الطاعاتِ، وأكرمهم بقُربه، وائتَمنهم على وَحْيه، وجنَّبهم الآفاتِ، وقَطَع[1] عنهم الشهواتِ، وأَنطق ألسنتهم بأنواعِ التَّسبيح، وأبعدهم عن الشبهات[2]، وكَساهُم ملابسَ النُّور، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأهلِ الأرض حينَ أَرسل إليهم الرُّسلَ، وأَنزل عليهم الكتبَ، وأَعذر إليهم، فإنَّه بيَّن لهم ما يَنفعهم وما يَضرُّهم وصَرَف البلايا عنهم[3].

وقال ابنُ المبارك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: الذي إذا سُئلَ أَعطى، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: الذي إذا لم يُسأل غَضِبَ[4].

وقال بسَّام بنُ عبد الله العراقيُّ[5]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بأهلِ طاعته؛ حين قَبِلَ منهم الطاعاتِ وإن كنَّ غيرَ صافيات، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأهلِ معصيته؛ إذا تابوا مَحَا عنهم السيئاتِ وأَبدلها حسناتٍ.

---

(١) في (ف): «ووضع».

(٢) قوله: «وأبعدهم عن الشبهات» من (ر).

(٣) أورده بنحوه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٩٩ ـ ١٠٠).

(٤) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠٠).

(٥) بسام بن عبد الله الصيرفي أبو الحسن الكوفي، روى عن زيد بن علي بن الحسين وأخيه أبي جعفر الباقر وجعفر الصادق وعطاء وعكرمة،وغيرهم، وعنه ابن المبارك ووكيع وأبو نعيم وغيرهم، من رجال «التهذيب».

وقال مطرٌ الورَّاقُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بغفرانِ السيئات، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بقَبولِ الطاعات(١).

وقال أبو بكر الورَّاق: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بمَن جَحَده، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمَن وحَّده(٢).

وقيل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بمَن كَفَره، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمَن شَكَره.

وقيل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالفِطْرة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالدَّعوة.

وروى الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمانِ رقيقانِ(٣)؛ أحدهما أرقُّ مِن الآخر(٤).

قال الحسين بنُ الفَضْل البَجَليُّ: هذا وَهَمٌ مِن الرَّاوي؛ لأنَّ الرِّقَّة ليست مِن صفات اللهِ تعالى ـ وتفسيرها: الشفقةُ الناشئةُ مِن رقَّة القلب ـ وإنَّما هما رفيقانِ، والرِّفق مِن صفاتِ اللهِ تعالى، قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ رفيقٌ، ويحبُّ الرِّفق، ويُعطي على الرِّفق ما لا يُعطي على العنف»(٥).

وكثيرٌ مِن العلماء صحَّحوا روايةَ القاف، وفسَّروا الرِّقَّة باللطف وكمالِ العطف، مجازاً مأخوذاً مِن رقَّة قلوب العباد على أحبَّتهم، وهو كمالُ عطفِهم ورحمتِهم.

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠١).

(٢) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠١)، وزاد: والرَّحْمن بمن كفر والرَّحيم بمن شكر، والرَّحْمن بمن قال ندًّا والرَّحيم بمن قال فرداً.

(٣) في (ف): «رفيقان»، والصواب المثبت كما سيأتي بيانه.

(٤) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٢) من طريق محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس موقوفاً. ومحمد بن مروان هو السدي الصغير، وهو كذاب، والكلبي متروك. وقال ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٣٥٩): لا يثبت هذا الحديث؛ لأنه من رواية الكلبي، وهو متروك.

(٥) رواه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها. وانظر كلام الحسين بن الفضل في «الأسماء والصفات» عقب الخبر رقم (٨٣).

واختلفوا بعد ذلك في المراد بهذا الحديثِ على أربعة أقاويلَ:

فقال بعضهم: معناه: أنَّ أحدَ الاسمَيْن أدلُّ على زيادةِ لطفٍ، لا يُفهَم ذلك مِن الاسمِ الآخَر.

وقالوا: لا يُعرَف[1] ذلك الاسمُ على التعيين؛ لوجودِ الإبهامِ وعدمِ التبيين.

وقال سعيد بنُ جبير: هو الرَّحمن؛ لأنَّه يعمُّ الكافرَ والمؤمنَ جميعاً، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال وكيع بنُ الجراح: هو الرَّحيم؛ لأنَّه يَشمل المؤمنَ في الدنيا والآخرةِ؛ أمَّا[2] في الدنيا فظاهرٌ، وأمَّا في الآخرة فغفرانُ ذنوبهم وإدخالُهم[3] الجنَّة، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

وقال قائلون: معناه: أنَّ كلَّ واحدٍ منهما أرقُّ مِن الآخَر؛ على معنى: أنَّ في كلِّ واحدٍ مِن الاسمين معنًى يُفهَم منه ما لا يُفهَم ذلك مِن الآخَر، بحيث لا يمكن تفضيلُ أحدِهما على الآخَر، وذلك فيما حكينا مِن الأقاويل.

وقال ثعلب: الرَّحمنُ أمدحُ مِن الرحيم، والرَّحيم أرقُّ مِن الرحمن.

وقال جعفر بنُ محمد الصادق: الرَّحمنُ خاصٌّ في التسمية عامٌّ في الفعل، والرَّحيم عامٌّ في التسمية خاصٌّ في الفعل[4].

---

(١) في (ف): «نعرف».

(٢) في (ف): «فأما».

(٣) في (ف) و(أ): «فغفران ذنوبه وإدخاله».

(٤) أورده البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥) عن عبد الرحمن بن يحيى.

وخصوصُ الرَّحمنِ في التسمية أنَّه لا يَتسمَّى به أحدٌ غيرُه، وعمومُه في الفعل أنَّه يَرحمُ البَرَّ والفاجرَ، وعمومُ الرحيمِ في التسمية أنَّه يجوز أن يَتسمَّى به غيرُه، قال الله تعالى في حقِّ نبيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال في حقِّ أصحابه[١]: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وخصوصُه في الفعل أنَّه يَرحمُ المؤمنَ دون الكافرِ.

وقال أبو عبيدة: الرحمنُ ذو الرحمة، كالعَطْشان هو ذو[٢] العَطَش، والرَّيَّان هو ذو الرّيِّ، والرَّحيمُ هو الراحم، كالقَديرِ هو القادر، والعَليمِ هو العالِم، فالأوَّل إثباتُ صفةٍ، والثاني إثباتُ فعلٍ[٣].

وقيل: الرحمنُ على وزن فَعْلان[٤]، وهو مبالغةٌ في الصفة، فإنَّ الغضبانَ هو الممتلئُ غضباً، والسكرانُ هو الممتلئُ سُكْراً، والرَّحيمُ هو الدائمُ الرحمة، والرَّاحمُ هو الذي وُجدت منه الرحمةُ.

وقيل: الرَّحمنُ: مَن له الرحمةُ، كالغَضبان: مَن له الغضبُ، والرَّحيمُ: مَن يَرحمُ، كالسَّميع: مَن يَسمع.

ثم معنى الجمعِ بين الاسمينِ مع أنَّهما مِن صفةٍ واحدةٍ وجوهٌ أربعةٌ:

---

(١) في (ف): «الصحابة».

(٢) في (أ): «هو ذا» وفي (ر): «ذو» دون «هو».

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢١)، ولفظه: «الرّحمن» مجازه ذو الرحمة، و «الرّحيم» مجازه الراحم، وقد يقدّرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد، وذلك لاتّساع الكلام عندهم، وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونديم.

(٤) في (أ): «الفعلان».

أحدهـا: الإشـباع، كقولـه تعالـى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى﴾ [الزخرف: ٨٠]، والرَّحمـنُ والرَّحيـمُ كالنَّدمـان والنَّديـم، واللَّهفـان واللَّهيـف، والجمعُ بينهمـا كالجمـع بيـن قولهـم: جـادٌّ مُجِـدٌّ.

والثاني: قولُ ثعلب: أنَّ الرَّحمن عبرانيُّ الأصل، فقُرنَ به الرَّحيمُ الذي هو مفهومُ العرب[١].

والثالث: أنَّ معنى الاسمين مختلفٌ كما مرَّ مِن الأقوال[٢]، فلم يَكن تكراراً.

والرابع: أنَّه بَدَأَ باسم الله وهو دلالةُ الهَيبة، فذَكَر بعده اسمين مشتقَّين مِن الرحمة، يبشِّرهم أنَّه يُوصِل إلى عباده آثارَ رحمتِه أكثر ممَّا يُوصِل إليهم آثارَ رهبته[٣].

ثم معنى تقديمِ اسمِ الرَّحمن على الرَّحيمِ: أنَّه اسمٌ خاصٌّ لله تعالى، فقدِّم على الرَّحيم الذي قد يُسمَّى به غيرُه، ولأنَّ الرَّحمن أبلغُ في المدح، فكان أَولى بالسَّبق، ولأنَّ معناه: الرازقُ، ومعنى الرَّحيم: الغافرُ، وأَثَر ذلك أسبق[٤] وصولاً إلى العبد[٥]، فسَبَق في الذِّكْر.

ومعنى البداية في التسمية[٦] باسمِ الله، ثم بالرَّحمن، ثم بالرَّحيمِ: أنَّ الناسَ عند مبعثِ رسولِ الله ﷺ كانوا فِرَقاً ثلاثة:

مشركي العرب: وكانوا يَعرفون اسمَ الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

(١) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (١/ ٥٥ ـ ٥٦).

(٢) في (أ) و(ف): «الأقاويل».

(٣) في (أ) و(ف): «هيبته».

(٤) في (أ): «أشق».

(٥) في (أ): «العباد».

(٦) بعدها في (ف): «بسم الله الرحمن الرحيم».

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وما كانوا يَعرفون الرَّحمن، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

واليهودَ: كانوا يَعرفون اسمَ الرَّحمن، قال عبد الله بنُ سلَام لمَّا أَسلَمَ: يا رسولَ الله، لا أَرى في كتابكم ذِكْرَ الرَّحمن، فنَزَل قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠][(١)].

والنصارى: كانوا يَعرفون اسمَ الرَّحيم.

فوقعت البدايةُ في خطابِ القومِ بذِكْر هذه الأسماءِ الثلاثة؛ لمعرفة المخاطَبين بها.

ولأنَّ كلَّ عبدٍ له ثلاثةُ أشياءَ: قلبٌ، ونفسٌ، وروحٌ؛ فعلى القلبِ بهذه التسمية سِمَةُ المعرفةِ والإيمان، وعلى النَّفْسِ سِمَةُ الرزقِ والإحسان، وعلى الروح سِمَةُ العفوِ والغفران.

ولأنَّ (اللهَ) اسمٌ ممتنعُ اللفظِ والمعنى، والرَّحمن ممتنعُ اللفظِ مُطلَقُ المعنى، والرَّحيم مُطلَق اللفظ والمعنى، فكان البدايةُ باسمِ الله أَولى ثم بالرَّحمن ثم بالرَّحيم.

ولأنَّ أحوالَ العبدِ ثلاثةٌ: سابقتُه وحالتُه وخاتمتُه، فرُتِّبُ هذه الأسماءِ الثلاثةِ يُعلِمك أنَّه[(٢)] اللهُ الذي أَصلح سابقتَك، والرَّحمنُ الذي هيَّأ حالتَك، والرَّحيمُ الذي يُحْسِن عاقبتَك، اللهُ الذي خَلَقك، والرَّحمن الذي رَزَقك، والرَّحيمُ الذي يَغفرُ لك.

وقالوا: للهِ تعالى ثلاثةُ آلافِ اسمٍ؛ ألفٌ عرَفها الملائكةُ لا غير، وألفٌ عرفها

---

(١) انظر: «تفسير أبي الليث» (٢/ ٣٣٣) عن الكلبي بنحوه.

(٢) في (ف): «أن».

الأنبياء لا غير، وثلاثُ مئةٍ في التوراة، وثلاثُ مئةٍ في الإنجيل، وثلاثُ مئةٍ في الزَّبور، وتسعةٌ وتسعونَ في القرآن، وواحدٌ استأثَرَ اللهُ به.

ثم معنى هذه الثلاثةِ آلافِ اسمٍ[1] في هذه الأسماءِ الثلاثةِ، فمَن عَلِمها وقالَها فكأنَّما ذَكَر اللهَ بكلِّ أسمائه.

وفي القرآن تسعةٌ وتسعونَ اسماً، فإذا جُعلت أثلاثاً[2] فكلُّ ثلثٍ ثلاثةٌ وثلاثونَ، والأمَّة ثلاثةُ أصنافٍ: سابقون، ومقتصدون، وظالمون، فثلاثةٌ وثلاثونَ على[3] نصيبِ السابقين، ومثلُها على نصيبِ المقتصدين، ومثلُها على نصيبِ الظالمين. وهذه الأسماءُ الثلاثةُ تتضمَّن معانيَ الجميع؛ (اللهُ) يتضمَّن معانيَ ثلاثةٍ وثلاثين اسماً، و(الرَّحمن) كذلك، و(الرَّحيم) كذلك.

وجُمعت هذه الأسامي[4] في التسمية وضُمِّنت معانيَ الجملة: (أي سابقان الله بنم بيدار باشيد، أي مقتصدان رحمن منم هشيار ياشيد، أي ظالمان رحيم منم بنوه بركار باشيد، ظالم سيار والمقتصد دوار والسابق طيار[5]، وكلهم أنت الظالمُ نفسَك، والمقتصِدُ قلبُك، والسابقُ سرُّك، نفس لمحراب دونده آست دل در ملكوت كرديده أست هفردر رير عرس مريده آست الله رحمن رحيم هر سه وأنوار ريده أست).

قال الشيخ نجم الدين رضي الله عنه: وكان شيخُنا الإمامُ الأستاذُ الخطيبُ أبو

---

(١) «اسم»: من (ف).

(٢) في (أ) و(ف): «على الأثلاث».

(٣) «على» ليست في (أ).

(٤) في (ف): «الأسماء».

(٥) في (ف): «طبد».

محمد إسماعيلُ بنُ محمد النوحيُّ النسفيُّ[١] ـ رحمهُ اللهُ ورضيَ عنه ـ روَى لنا عن بعضِ أولادِ عليٍّ رضي الله عنه: أنَّ اللهَ تعالى لمَّا خلقَ القلمَ قال له: اكتُب بسمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحيم، فلمَّا سمع اسمَ[٢] (اللهِ) وَلِهَ القلمُ وانشقَّ نصفين، فوضعَ رأسَه على اللوحِ كذلك مشقوقاً ألفَ عامٍ حتى رَحِمه الرَّبُّ تعالى، فأَسمعه الاسمينِ: الرَّحمنِ والرَّحيم[٣]، فالْتَأَمَ أحدُ الشِّقَّين بسماعِ أحدِ الاسمين، والْتَأَمَ الشِّقُّ الآخَرُ بسماعِ الاسمِ الآخَرِ.

وقالوا في حذفِ الألفِ مِن (بسم): هي سقطةُ حَيْرة، وفيها نقطةُ فِكْرة؛ أي: حارَ القلمُ فحذفَ الألفَ في الكتابة، فصارت هذه السَّقطةُ نُقطةَ فِكرة لأهل الكتابة.

وقالوا: أَوجدَ اللهُ الأشياءَ بإلهيَّته، وأَمسكها برحمتِه، فما مِن نعمةٍ على الأوَّلين ولا على الآخِرين، ولا في الدنيا ولا في الآخرة، إلَّا برحمتِه، كان[٤] غفرانُ آدمَ وحوَّاء برحمتِه، قال تعالى خبراً[٥] عنهما: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وكذا في حقِّ نوحٍ عليه السلام فإنَّه قال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وكذا في حقِّ موسى وهارون

---

(١) هو إسماعيل بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن نوح، كتب الحديث بسمرقند، وجلس فيها للعامة كثيراً، وخطب على منبر سمرقند، سمع أبا العباس جعفر بن محمد بن المعتز المستغفري الحافظ، توفي سنة (٤٨١هـ) بسمرقند، وعاش تسعاً وخمسين سنة. انظر: «الأنساب» للسمعاني (٥/ ٥٣١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٣/ ٥١).

(٢) في (أ): «فبسماع اسم»، وفي (ف): «فبسماع اسمه».

(٣) في (ف): «الرحمن الرحيم».

(٤) في (ر): «وكان».

(٥) في (ر): «مخبراً».

عليهما السلام إخباراً[1] عنهما: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وكانت نجاة الأنبياء والمؤمنين برحمته.

وقال في حقِّ نوحٍ عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وقال في حقِّ هودٍ عليه السلام: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨].

وقال في حقِّ صالحٍ عليه السلام: ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦].

وقال في حقِّ شعيبٍ عليه السلام: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٤].

وكان الوحيُ إلى نبيِّنا محمَّد ﷺ برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وكان بَعثُه كذلك رحمةً[2]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وكان لِيْنُهُ مع أمَّته برحمتِه، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان حِفظُه عن إضلالِ المنافقين برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) في (أ): «خبراً» وفي (ف): «فإنه قال خبراً».

(٢) «رحمة»: من (ر).

وإمطارُ السَّحاب علينا وإنباتُ الأرزاق بها برحمتِه، قال تعالى: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وتزيينُ العالَم في الرَّبيع لنا برحمتِه، قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠].

ومنافعُ الليلِ والنهارِ لنا برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣].

وسَدُّ يأجوجَ ومأجوجَ ودَفْعُ ضررِهم عنَّا برحمتِه: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

وتوسيعُ الرِّزقِ علينا برحمتِه، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

وإعطاءُ الخِصْب لنا[1] برحمتِه، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

ودوامُ العافيةِ لنا برحمتِه، قال تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر: ٩٨].

والأُلفةُ بين الزوجينِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وإرسالُ الرسلِ إلينا برحمتِه، قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وإنزالُ القرآنِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

---

(١) «لنا»: من (ف).

وإعطاءُ الإيمانِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨].

والعصمةُ مِن الهوى والبِدْعةِ والتَّثبُّتُ على السُّنَّة والجماعة برحمته، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨].

وصلاحُ العبدِ وورعُه برحمته، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ومخالفةُ الهوى والنفسِ[١] برحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

ومخالفةُ الشيطانِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

والتوبةُ بعد الوقوعِ في المخالفةِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

وكلُّ شيءٍ نَناله بسعة رحمتِه[٢]، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والخصوصُ مِن هذا العمومِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٤].

ومِن أهلِ الخصوصِ المحسنون، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

---

(١) في (أ): «هوى النفس».

(٢) في (ر): «نناله برحمته».

والمطيعـون أطاعوا الله برحمته، قال تعالـى(١): ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [التوبة: ٧١].

والمتَّقون اتَّقَوا اللهَ برحمتِه(٢)، قال تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

والمجاهـدون مفضَّلـون علـى القاعديـنَ برحمتِـه(٣)، قـال تعالـى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾ [النسـاء: ٩٥ ـ ٩٦].

وجوازُ العفوِ عن القاتلِ وأَخذِ الدِّيَةِ بالصُّلحِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وإمهالُ مَن يُؤذي(٤) المسلمينَ بلسانِه عن المؤاخَذةِ في الحالِ(٥) برحمتِه، قال تـعـالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

وإمهالُ الكفَّار برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ الآية [الكهف: ٥٨].

فـلا ينبغـي للعبـدِ أنْ يقنـطَ مِـن رحمـة الله(٦)، قـال تعالـى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣] فالكافـرُ هـو الذي يَيأسُ مِـن رحمته، قال تعالـى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن

---

(١) قوله: «والمطيعون أطاعوا الله برحمته قال تعالى» ليس في (أ)، وفي (ف): «والمطيعون قال».

(٢) قوله: «اتقوا الله برحمته» ليس في (أ) و(ف).

(٣) قوله: «مفضَّلون على القاعدينَ برحمتِه» ليس في (أ) و(ف).

(٤) في (ر) و(أ): «وأمان مؤذي».

(٥) في (ف): «المؤاخذة للحال».

(٦) في (أ): «من رحمته».

رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣] والمؤمنُ راجي رحمتِه، قال تعالى: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] وقد ضلَّ مَن قنطَ مِن رحمتِه(١)، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ويختصُّ المؤمنَ يومَ القيامةِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

والجمعُ يومَ القيامة برحمتِه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٤].

ومغفرةُ الذنوبِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وشفاعةُ النبيِّ ﷺ للأمَّة برحمته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وصرفُ العقوبةِ برحمتِه، قال تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦].

ودخولُ الجنَّة برحمتِه، قال تعالى: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

وإعطاءُ الشهواتِ فيها برحمتِه، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢].

والبِشارةُ برحمتِه، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١].

والسلامُ والرؤيةُ برحمتِه، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

---

(١) في (أ): «رحمة ربه».

ثم التسميةُ عند مالكٍ آيةٌ مِن رأسِ كلِّ سورةٍ، وعند الشافعيِّ آيةٌ مِن رأسِ[١] الفاتحة، وعن محمد بنِ الحسن: أنَّها آيةٌ أُنزلت للفَصْل بين السُّورِ.

وظاهرُ مذهبِ أصحابِنا أنَّها ذِكْرٌ تُبدأ به القراءةُ تيمُّناً وليست بآيةٍ، وفي سورة النمل هي ما دونَ آيةٍ.

وقالوا: اللطف في أنها ليست[٢] بآيةٍ تامَّةٍ في القرآن، أن لا يكون[٣] الجُنُبُ والحائضُ والنُّفساءُ ممنوعِين عنها[٤] عند كلِّ أمرٍ ذي بالٍ، كالشهادتَيْن لم يُجمعا في القرآنِ في موضعٍ واحدٍ لئلَّا تتمَّ آية، وربَّما يُحتَضَر الجُنُبُ ونحوُه، فلا يُمكنه التكلُّمُ بهما عند ختمِ عمرِه.

وباللهِ التوفيقُ وعليه توكُّلي، وهو حسبي ونِعْمَ الوكيلُ، وصلى الله على سيِّدنا محمدٍ وصحبِهِ أجمعين، والحمدُ لله ربِّ العالمين، تمَّ القولُ على البسملة.

❊ ❊ ❊

---

(١) «رأس»: من (أ) و(ف).

(٢) في (ف): «وقالوا ليست»، وفي (ر): «بل هي دون آية، وليست»، بدل: «وقالوا اللطف في أنها ليست».

(٣) في (ر): «إذ لو كانت آيةً لكان»، بدل: «أن لا يكون».

(٤) في (أ) وهامش (ف): «عنه» وفي (ف): «منها».

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

سُورَةُ الفَاتِحَة[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي[2]

(٢) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وانتظامُ قولِه تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بالتسميَة ما مرَّ: أنَّ الأشياءَ وجودُها باللهِ وله ملكُها.

وله وجهٌ آخَر: بَدَأتُ بسمِ اللهِ بعونِ اللهِ، فالحمدُ لله.

ووجهٌ آخَرُ: بسمِ اللهِ الموصوفِ بالرحمةِ، وهي أجلُّ نعمة، فله الحمدُ على نِعَمه جملة.

ثم هذه السُّورة ثماني آياتٍ في قول الحسنِ البصريِّ رحمه الله، وستُّ آياتٍ في قول الحسين الجُعفيِّ[3]، وسبعُ آياتٍ في قولِ الجمهور مِن أهل العلم؛ فالحسنُ عدَّ التسمية و﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آيتين، وتَركهما الجعفيُّ، والباقون اتَّفقوا على أنَّها سبعُ آياتٍ.

---

(١) في (ر): «سورة فاتحة الكتاب»، وفي (ف): «تفسير سورة الفاتحة».

(٢) قوله: «وبه ثقتي» من (ر).

(٣) هو حسين بن علي بن الوليد، أبو عبد الله وأبو محمد الجعفي مولاهم، الكوفي الحافظ المقرئ الزاهد، توفي سنة (٢٠٣هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٩٧). وذكر قوله القرطبي في «تفسيره» (١/ ١٧٦) وقال: وهذا شاذ، وذكر القول بأنها ثماني آيات عن عمرو بن عبيد المعتزلي، وتعقبه أيضا بقوله: هذا شاذ.

لكنَّ أصحابَنا ـ رحمهم الله ـ عَدُّوا ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آيةً، وقالوا: ليست التسميةُ مِن الفاتحة، والشافعيُّ ـ رحمه الله ـ جَعَلها مِن الفاتحة، ولم يَجعل ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آيةً.

وهي خمسٌ وعشرونَ كلمةً، ومئةٌ وثلاثةٌ وعشرونَ حرفاً: اثنان وعشرونَ أَلِفاً، وثلاثُ باءات، وثلاثُ تاءات، وثلاثُ حاءات، وأربعُ دالات، وذالٌ واحدةٌ، وسبعَ[1] عشرةَ لاماً، وثلاثُ كافاتٍ، وغينانِ، وستُّ راءاتٍ، وسينانِ، وصادانِ، وضادانِ، وطاءانِ، وستُّ عَيناتٍ، وقافٌ واحدةٌ، واثنا عشر ميماً، وعشرُ نونات، وأربعُ واواتٍ، وأربعُ هاءات، ولامُ ألفٍ واحدةٌ، وثلاثَ عَشرةَ ياءً.

فمِن الحروفِ المعجمة فيها اثنانِ وعشرون، وأعوامُ النبيِّ ﷺ بعد الوحي اثنانِ وعشرون، وهذه السورةُ مشتملةٌ على جميعِ معاني ما أوحَى اللهُ تعالى إليه فيها، وليست فيها سبعة أحرف: الثاءُ والجيمُ والخاءُ والزايُ والشينُ والظاءُ والفاءُ[2].

وفي بعضِ الآثار: أنَّ الحكمةَ فيها: أنَّ الثاءَ مِن الثبور، والجيمَ مِن الجحيم، والخاءَ مِن الخوف، والزايَ مِن الزَّقُّوم، والشينَ مِن الشَّقاوة، والظاءَ مِن الظُّلْمة، والفاءَ مِن الفراق، ومُعتَقِدُ هذه السُّورةِ وقارئُها على التعظيمِ والحرمة آمِنٌ مِن هذه الأشياء السَّبعة.

ثم هذه السُّورة التي آياتُها سبعٌ تشتمِل على أعدادٍ مِن الواحدِ إلى السبع: هي سُورةٌ واحدةٌ، وهي نصفان، وفي نزولها ثلاثةُ أقوالٍ[3]، وأقسامُها أربعةٌ، وأسماءُ الله

---

(١) في (ر): «وست».

(٢) في هامش (ف): «سواقط الفاتحة سبعة: يجمعها قولك: فجش تظخز».

(٣) في (ف) و(أ): «أقاويل».

تعالى فيها خمسةٌ، والأشياءُ التي يُظهِر العبدُ فيها مِن نفسِه[١] ستَّةٌ، وأَساميها سبعةٌ.

أَمَّا الأول: فهذه السورةُ واحدةٌ، وإلهُنا واحدٌ، وهذه الأمَّةُ أمَّةٌ واحدةٌ، ورسولُ الله ﷺ يَعظُنا بواحدةٍ، وما خَلْقكم ولا بَعْثكم[٢] إلَّا كنفسٍ واحدةٍ، وآياتُها ظاهرةٌ.

وأمَّا قولنا: نصفان؛ فنصفها ثناءٌ، ونصفها دعاءٌ، وذلك فيما روي عن أبي هريرة[٣] رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يقول اللهُ تعالى: قَسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفَيْن؛ فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال اللهُ تعالى: حَمِدني عبدي، وإذا قال العبدُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال اللهُ تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال العبدُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال اللهُ تعالى: مجَّدني عبدي، وإذا قال العبدُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال اللهُ تعالى: هذا بيني وبين عبدي نصفان، وإذا قال العبدُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال اللهُ تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[٤].

(جون بنده همه سورة أول خواند خداي عز وجل سورة كويد نبده مَنْ مَنْ انم كه تومي كويني وجون همه أخواين سورة خواند خداي عز وجل كويد نبده مَنْ مَنْ دهم كه تومي خُوِي)[٥].

---

(١) في (أ): «من نفسه فيها».

(٢) في (ف): «وما خلقنا ولا بعثنا» بدل من «وما خلقكم ولا بعثكم».

(٣) في (أ): «فيما روى أبو هريرة».

(٤) رواه مسلم (٣٩٥).

(٥) هذا الكلام الفارسي من (ف)، وفي (أ) بعضه، وسقط من (ر)، وجاء في هامش (ف): «تعريب الفارسية: إذا قرأ العبدُ هذه السورةَ النصف الأول يقول الله تعالى: أنا الذي تقرؤه وتعتقده، والنصف الآخر يقول الله تعالى: يا عبدي أعطيك ما تشتهي».

وأمَّا قولنا: في نزولها ثلاثةُ أقاويل:

فقد قال عليٌّ وابنُ عباس وأُبَيُّ بنُ كعبٍ ومقاتل وقتادةُ والضحَّاك بنُ مزاحمٍ ومحمد ابنُ الحنفية وأبو العالية والرَّبيع بنُ أنس وعَمرو بنُ شُرَحْبيل وعطاءٌ الخراسانيُّ وعليُّ بنُ الحسين بنِ واقد وجماعة: إنَّها مكيَّةٌ، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧] وهي الفاتحة، وهي في سورة الحِجْر وهي مكيَّةٌ.

وروى الواحديُّ ـ وهو عليُّ بنُ أحمد المفسِّر ـ في «تفسيره» بإسناده عن أبي مَيْسَرةَ قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا بَرَزَ سمعَ منادياً يُناديه[1]: يا محمَّد، فإذا سمعَ الصَّوتَ انطلق هارباً، فقال له وَرَقة بنُ نَوفل: إذا سمعتَ النداءَ فاثْبُت حتى تسمعَ ما يقولُ لك، قال[2]: فلمَّا برز سمعَ النداء[3]: يا محمَّد، قال: لبَّيكَ، قال: قُلْ: أَشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأَشهدُ أنَّ محمداً رسول الله[4]، ثم قال: قُلْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ حتى فَرَغَ مِن فاتحة الكتاب[5].

---

(١) في (ر): «ينادي».

(٢) «قال»: ليست في (أ) و(ف).

(٣) في (أ): «سمع كذا».

(٤) في (أ) و(ر): «عبده ورسوله»، والمثبت من (ف)، واللفظان في المصادر.

(٥) في (أ): «فاتحة القرآن» وفي (ر): «الفاتحة». وفي هامش (ف): «حتى فرغ من فاتحة القرآن». وهذا الخبر رواه الواحدي في «الوسيط» (١/ ٧١)، ورواه أيضاً في «أسباب النزول» (ص: ١٩) واللفظ منه، ورواه بنحوه مطولاً ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٥٥). وقال ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٢٢٤): وهو مرسل ورجاله ثقات، فإن ثبت حمل على أن ذلك كان بعد قصة غار حراء، ولعله كان بعد فترة الوحي، والعلم عند الله تعالى.

وقد ذكر هذا الخبر في هامش النسخة الخطية من «روح المعاني» (١/ ١٧٠) بتحقيقنا، وأتبع =

فدلَّ الحديثُ[١] على أنَّ الفاتحةَ مكيَّةٌ، وأنَّها أوَّلُ ما أُنزل، وأنَّ التسمية ليست بآيةٍ منها.

وقال مجاهدٌ وحده: هي مدنيَّةٌ[٢].

وقالوا: هذه هفوةٌ منه، ولا يُظَنُّ أنَّ النبيَّ ﷺ مَكَثَ بمكَّة ثلاثَ عشرةَ سنةً يُصلِّي فيها بغير فاتحةِ الكتاب، هذا ممَّا لا تَقبله العقول.

وقال جماعةٌ ـ وفيه تلفيقٌ بين هذين القولَين ـ: هي مكيَّة مدنيَّة؛ أي: نزلت بمكَّة مرَّةً وبالمدينة مرَّةً؛ تفضيلاً لهذه السُّورة على غيرها، ولهذا سمِّيت مثانيَ؛ لتثنية نزولها.

وأمَّا قولنا: وأقسامُها أربعةٌ[٣]: فهي ذِكْر اللهِ تعالى فيها بأسمائه الحسنى، وفيه إظهارُ العبدِ مِن نفسه العبادةَ والاستعانةَ، ومدحُ الموافقين، وذمُّ المخالفين.

وأمَّا قولنا: أسماءُ الله تعالى فيها خمسةٌ: فهي: اللهُ والرَّبُّ والرَّحمنُ والرَّحيمُ والمالكُ.

وأمَّا قولنا: الأشياءُ التي يُظهِر العبدُ فيها مِن نفسِه ستَّةٌ: فهي: إخلاصُ العبادة،

= بالقول: ولولا صحة الأخبار على غير هذا النحو كان هذا الخبر أقوى دليل على مكيتها، فافهم.

(١) «الحديث» من (أ).

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٣٩). وفي قول المؤلف: «وحده» نظر، فقد نقل ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٦٥) القول بذلك عن الزهري وعطاء بن يسار وسوادة بن زياد وعبد الله بن عبيد بن عمير، لكن المشهور بالقول به مجاهد، قال السيوطي في «الإتقان» (١/ ٤٦): اشتهر عن مجاهد القول بأنها مدنية، أخرجه الفريابي في «تفسيره» وأبو عبيد في «الفضائل» بسند صحيح عنه، قال الحسين بن الفضل: هذه هفوة من مجاهد لأن العلماء على خلاف قوله.

(٣) في (ف): «على أربعة».

وسؤالُ المعونة، واستدامةُ الهداية، وموافقةُ أهلِ الرسالة، ومخالفةُ أهلِ اليهوديَّة والنصرانيَّة، ومفارقةُ أهلِ البِدْعة والضلالة.

وأمَّا قولنا: أساميها سبعةٌ: فهي: الفاتحةُ، وأمُّ الكتاب، والسَّبعُ المثاني، وسورةُ الحمد، وأساسُ القرآن، وسورةُ الشفاء، وسورةُ الصَّلاة:

أمَّا[1] **الفاتحة**: فلأنَّ الافتتاحَ هو الابتداءُ، وبها يُبتدأ كتابةُ المصاحف، وبها يُفتتح قراءةُ القرآن في الصلاة، وبها افتُتح الوحيُ إلى النبيِّ ﷺ على ما روِّينا، وكذا كُتب في اللوح المحفوظ، ولأنَّها فاتحةُ أبوابِ الفتوحِ في الدنيا، وفاتحةُ أبوابِ الجِنانِ في العقبى، ولأنَّ الفتحَ هو النَّصر[2]، والاستفتاحَ الاستنصارُ، ولقارئِ هذه السُّورةِ الظَّفَر والنُّصرة والاستنصار.

وأمَّا أمُّ الكتاب: فالأمُّ هي الأصل، والوالدة أمُّ الوَلَد؛ أي: أصلُه، ومكَّةُ أمُّ القرى؛ أي: أصلُ سائرِ البِقاع؛ لأنَّها أوَّل ما خُلقت، ومنها دُحيت البلادُ، واللوحُ المحفوظُ أمُّ الكتابِ، وهو أصلٌ كُتب فيه الكائناتُ إلى يوم القيامة، وهذه السُّورةُ أمُّ الكتاب، وأمُّ القرآن، وهي أصلُ المذكوراتِ في سائرِ السُّور والمشتمِلةُ عليها:

فإنَّ جميعَ ما ذُكر في القرآن مِن التحميد والتمجيدِ والتسبيح والتقديسِ والتهليلِ والتكبير والذِّكرِ والثناء والشُّكرِ والدعاءِ، فهو تحت كلمة: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾.

وجميعَ ما ذُكر فيه مِن أسماءِ اللهِ تعالى الحسنى وصفاتِه العُلَا، وما ذُكِر مِن ربوبيتِه وإلهيتِه ووحدانيتِه وفَرْدانيته، فهو تحتَ كلمة: ﴿لِلَّهِ رَبِّ﴾.

---

(١) في (أ): «فأما».

(٢) في (أ): «هي النصرة».

وجميعَ ما فيه مِن ذِكْر السماءِ والأرضِ، والإنسِ والجنِّ، والنَّبيين[١] والمرسلينَ، والمؤمنينَ والكافرينَ، والملائكةِ[٢] المقرَّبين، وأهلِ الملكوتِ أجمعينَ، والجنِّ والشياطين، وطيورِ الهواءِ، وحيواناتِ الماءِ، ووحوشِ الصَّحراء، وحشراتِ الأرضِ، وذِكْر سائرِ المخلوقاتِ والموجوداتِ والمكوَّناتِ والمُحْدَثات، فهو تحت كلمة: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وجميعَ ما فيه مِن ذِكْر الترزيقِ والإنعام، والتربيةِ والإكرام، والإنظارِ والإمهال، والإحسانِ والإجمال، فهو تحت كلمة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

وجميعَ ما فيه مِن ذِكْر عفوِ الإجرام، ومحوِ الآثام، وغفرانِ العصيان، والتجاوزِ عن الطغيان، وإعتاق العصاة، والرحمةِ على الجُناة، فهو تحت كلمة: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

وجميعَ ما فيه مِن ذِكْر القيامةِ، وأسمائِها وصفاتِها، ومواقِفها ومقاماتِها، وعقباتِها وعقوباتِها، وشدائدِها وصعوباتِها، وأفزاعِها وأهوالِها، وحسابِها وسؤالِها، واختلافِ أحوالِها، والنارِ ودَرَكاتها، والجنَّةِ ودرجاتِها، والصِّراطِ وخَطَره، واللَّهب وشررِه، فهو تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وجميعَ ما فيه مِن ذِكْر الطاعةِ والخدمةِ، والعملِ والعبادةِ، والخضوعِ والخشوعِ، والقيامِ والركوعِ، والسجودِ والقعودِ، والصلاةِ والزكاة، والصيامِ والقيامِ، والحجِّ والغزوِ، والائتمارِ والانْزِجارِ، فهو تحت قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وجميعَ ما فيه مِن سؤالِ المعونةِ، وطلبِ النُّصرة، والتماسِ التوفيقِ والعصمةِ،

---

(١) «والنبيين» ليست في (أ).

(٢) من هنا وقع سقط في (ف) بمقدار صحيفة، وينتهي عند قوله الآتي: «وجميع ما فيه مِن ذِكْر المشركين والكافرينَ» وسنبين ذلك في موضعه.

وإرادةِ اللُّطـف، وابتغـاءِ الفَضْـل، ورجاءِ الكفايـة، وأملِ الحماية، فهـو تحت قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وجميعَ ما فيه مِن سؤالِ الهدايةِ، وخوفِ الخاتمة، واغتنامِ المعرفة، ومدحِ الإسـلام والشريعة، وبيانِ السُّنَّة والجماعة، فـهـو تحت قـوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

وجميعَ ما فيه مِن ذِكْر الأنبياءِ والأولياء، والملائكةِ والأصفياء، والصديقينَ والشهداء، والعُبَّاد والزُّهَّاد والأتقياء، فهو تحت قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

وجميعَ ما فيه مِن ذِكْر المشركين والكافرينَ[1]، واليهودِ والنَّصارى والصَّابئين، والمجوسِ والوَثنيين، والضالِّين[2] والمُبتَدِعين، فهو تحت قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وقيل: إنَّما سُمِّيت بذلك لأنَّها تَجمعُ أقسامَ كلِّ القرآن؛ فإنَّ أقسامَ القرآنِ كلَّها هذا الأمرُ والنَّهيُ، والوَعدُ والوَعيد، والقَصَصُ والأَمثال، والنَّاسخُ والمَنْسوخ، وهذه السُّورة تشتمل[3] على ذلك كلِّه:

فـإنَّ قولَـه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: معناه: قولوا: الحمـدُ لله، وهذا أمـرٌ بالحمد، ونهيٌ عن تركه.

وقولَه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: قَصَصٌ عن إيجادِ الخَلْق[4] أجمعينَ.

---

(١) هنا ينتهي السقط الذي في (ف).

(٢) في (أ): «والمجوس والثنويين الضالين».

(٣) في (أ): «مشتملة».

(٤) في (أ): «إلحاقه الخلائق» وفي (ف): «إيجاد الخلائق».

وقولَه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه وعدٌ ووعيدٌ وتنبيهٌ[(١)].

وتسميَةَ الدِّين صراطاً مَثَلٌ.

وقولَه: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾: هم هذه الأمَّة، وشريعتُهم ناسخةٌ.

وقولَه: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: هم اليهود والنصارى، وشريعتُهم منسوخةٌ.

وقيل: معنى أمِّ الكتاب: أنَّ الأمَّ هي الرَّايةُ يَنصبها العسكرُ؛ قال البَعِيثُ:

أُمُّنا مَعْقلٌ إليه الْتجاءُ الـ ... قومِ في البأسِ حين حَرِّ القتال[(٢)]

فأمُّ الكتابِ إليها مَفزعُ البشر؛ كالرَّاية إليها مَفزعُ العسكر.

وقيل: الأمُّ: الإمامُ؛ فالسورةُ إمامُ أهلِ الإسلام، وأمُّ القرى مقصدُ الأَنام، وجهنَّم قيل لها: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ [القارعة: ٩]؛ لأنَّ الكافرَ له إليها المرجعُ والمقام، والدِّماغُ أمُّ الرأس وللرأسِ به القيام؛ فأمُّ القرآنِ تقوم بهذه[(٣)] المعاني العظام.

وأمَّا السَّبْعُ المثاني: فهي السبعُ الآياتِ، وتُثَنَّى قراءتُها في كُلِّ صلاة.

وقيل: هي مِن الثناء، وفيها أَثنيةٌ على[(٤)] اللهِ تعالى.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: سُمِّيت مثانيَ لأنَّ اللهَ تعالى استثناها لهذه الأمَّة وذَخرها لهم فلم يُعطها غيرَهم[(٥)].

---

(١) «وتنبيهٌ»: ليست في (أ).

(٢) لم أجده.

(٣) في (ف) و(أ): «بها هذه».

(٤) في (ف): «تثنية على»، وكلمة «على» ليست في (أ).

(٥) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٢٢)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١١٨).

وقيل: لأنَّها نزلت مرَّتين؛ مرةً بمكَّة ومرَّةً بالمدينة، شيَّعها[١] سبعون ألفَ مَلَكٍ[٢].

وقيل: لأنَّ أهلَ السماء يُصلُّون بها، وأهلَ الأرضِ كذلك.

وقيل: لأنَّ نصفَها ثناءُ الرَّبِّ تعالى ونصفَها سؤالُ العبدِ.

وقيل: لأنَّها اشتملت على حقَّين: حقِّ اللهِ تعالى وحقِّ العبد.

وقيل: لأنَّها تتضمَّن معانيَ علم[٣] المثاني؛ ذِكْرِ الربوبيَّة والعبوديَّة، والخالِقِ والمَخلوق، والعَمل والتوفيق، والهدى والضلال، والوليِّ والعدوّ.

وقيل: تتضمَّن[٤] كلماتٍ مثانيَ في معنًى واحدٍ؛ ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، الصراط صراط، عليهم عليهم، غير[٦] المغضوب عليهم ولا الضالِّين[٧].

---

(١) في (أ): «يشيعها».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٥٠)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩١)، والخازن في «تفسيره» (٣/ ٦٢)، جميعهم عن الحسين بن الفضل ولم يذكروا له سنداً، ووقع في (ف) و(أ): «سبع مئة ألف ملك»، والمثبت من المصادر.

(٣) في (أ) و(ف): «على».

(٤) بعدها في (ر): «معاني».

(٥) في (ر): «الله ورب العالمين»، وفي (ف): «الله رب العالمين».

(٦) بعدها في (ف) و(ر): «ولا».

(٧) جاءت العبارة في (أ) هكذا: «وقيل: تتضمَّن معانيَ كلمات مثاني في معنى واحد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين».

وقيل: سُمِّيت بذلك[1]؛ لأنَّ أسماءَ اللهِ جلَّ جلالُه وصفاتِه على قسمين:

قسمٌ يدلُّ على العَظَمة والجبروت والكِبرياء والسلطان.

وقسمٌ يدلُّ على الرحمة وَالرأفة واللُّطفِ والعطف والإحسان.

وقد اشتمل ذِكْرُ اللهِ تعالى والرَّحمنِ والرَّحيمِ على القسمَين.

والحمدُ على قسمين[2]: حمدٌ على ذاته وصفاته، وحمدٌ على آلائه ونعمائه، وقد اشتملَ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الوجهين.

والعالَمُ يتنوَّع نوعين: عَالم الفَناء، وعَالَم البقاء[3]، وقد اشتمل قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على النوعين.

والرحمةُ على ضَربين: رحمةٌ في الدنيا، ورحمةٌ في الآخرة، أو يقال: رحمةٌ عامةٌ ورحمةٌ خاصةٌ، وكذلك ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يعمُّ[4] الضَّربين.

والدِّين: الجزاء، وهو على شيئين: على الطاعة بالثواب، وعلى المعصية بالعقاب، ودلَّ قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على الشيئين.

والطاعةُ نوعان[5]: عبادةٌ وعبوديةٌ[6]، ودلَّ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على النوعين[7].

---

(١) في (أ) و(ف): «بها».

(٢) في (أ) و(ف): «وجهين».

(٣) في (ف): «عالم للبقاء وعالم للفناء».

(٤) في (أ): «ودل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على»، بدل: «وكذلك ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يعم».

(٥) في (ف): «صنفان».

(٦) في (أ): «وعبودة».

(٧) في (ف) و(أ): «الصنفين».

والاستعانةُ تكون على أمرَيْن: على تحصيل الخير، وعلى تَرْك الشَّرِّ، ودلَّ قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الأمرَيْن.

والفِرَق الضالَّة فرقتان[١]: جَبْرِيَّةٌ وقَدَرِيَّةٌ، ودلَّ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على ردِّ الفرقتَيْن.

والهدى: بيانٌ وإرشادٌ، ودلَّ قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ على الوصفين.

والمهديُّون قومان: الأنبياءُ، والأولياءُ، ودلَّ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ على القومَيْن.

والمخالفونَ حِزبان: كفارٌ ومُبتدِعون، ودلَّ قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ على الحزبين.

وبالفارسية: (نامش مثاني أزيهر دويه معاني حمد دونه صفات سذا وبر آلاء ونعماء، وعالم ذو عالم فناء وعالم بقاء، وآثر رحمت ذو بدنيا وبعقبا ومراد وبدونا وبرجفا وعبادت ذو يشيده وبيدا واستعانت برد ومراداه أمر وتحمل قضاء وهدايت ذو ثبات وابتداء وصراط دو راه سعداه وراه أشقياء وأشقياء دو يهود ونصارى)[٢].

وقال رسولُ اللهِ ﷺ[٣] لأُبَيِّ بنِ كعب: «إنِّي لأرجو أنْ لا تخرجَ مِن بابِ

---

(١) في (أ): «فرقة».

(٢) الكلام الفارسي من (أ) و(ف) على اختلاف في الرسم، والمثبت من (ف)، وفي هامشها: «تعريب: سميت مثاني لتثنية المعاني فيها: الحمد اثنان على صفاته العلى وعلى النعم والآلاء، والعالم اثنان: عالم الفناء وعالم البقاء، وأثر رحمته اثنان: في الدنيا وفي العقبى، وجزاؤه اثنان: الثواب والعقاب، العبادة اثنان: في سر وإعلان، والاستعانة نوعان: على أداء الأداء واحتمال مر القضاء، والهداية نوعان: ثبات وابتداء، والصراط اثنان: للسعداء والأشقياء، والأشقياء نوعان: اليهود والنصارى».

(٣) في هامش (ف): «فقال النبي عليه الصلاة والسلام».

المسجدِ حتى تَعلم سورةً ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآنِ مثلُها»، قال أُبَيٌّ: فجعلتُ أُبطئ في المشي رجاءَ ذلك، ثم قلتُ: يا رسولَ الله! السورةَ التي[1] وعَدْتني، قال: «كيف تقرأ إذا افتتحتَ الصَّلاةَ»، فقرأتُ عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فقال النبيُّ ﷺ: «هي هذه السورة؛ وهي السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذي أُعطيتُ»[2].

ورُوي: أنَّ عيراً قَدمت مِن الشام لأَبي جهلٍ بمالٍ عظيمٍ، وهي سَبْع فرقٍ، ورسولُ الله ﷺ وأصحابه يَنظرون إليها، وأكثرُ الصحابة بهم جوعٌ وعريٌ، فخطر ببالِ النبيِّ ﷺ شيءٌ لحاجة أصحابه[3]، فنزلَ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾؛ أي: مكانَ سبعِ قوافلَ لأبي جهلٍ، ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾؛ أي: هذا أبو جهلٍ لا يَنظرُ إلى ما أعطيناكَ مع جلالةِ هذه العطيَّةِ، فلمَ تَنظر إلى ما أَعطيناه[4] وهو متاعُ الدنيا الدنيَّة؟ وعَلِمَ اللهُ تعالى أنَّ تمنِّيَه لم يكن لنفسِه بل لأصحابه، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ وأَمَره بما يزيدُ نفعُه على نفعِ المال، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٧ ـ ٨٨]، فإنَّ تواضعَك أطيبُ لقلوبهم مِن ظَفَرهم بمحبوبِهم.

وأمَّا سورةُ الحمد: فلأنَّها[5] افتُتحت بالحمد، وفيها أمرٌ بالحمد، وتعليمُ كيفيَّةِ

---

(١) في (ر): «الذي»، بدل: «السورة التي».

(٢) رواه بهذا اللفظ مالك في «الموطأ» (١/ ٨٣)، وهذه القصة شبيهة بقصة أبي سعيد بن المعلى عند البخاري (٤٤٧٤)، وانظر ما جاء في الجمع بينهما في «فتح الباري» (٨/ ١٥٧).

(٣) في (ر): «لأصحابه»، بدل: «لحاجة أصحابه».

(٤) في (ف) و(أ): «أعطيته».

(٥) بعدها في (أ): «لما».

الحمد، وبيانُ أنَّ اللهَ تعالى مستحقُّ الحمد، وبدايةُ القرآن بالحمد، وخَتْمُ كلام أهلِ الجنَّة بالحمد.

والحمدُ المذكور في القرآن على سبعةٍ في الدنيا، وعلى سبعةٍ في العقبى:

أمَّا التي في الدنيا:

فالحمد على الدِّين والهداية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٣].

وعلى البيان والدلالة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

وعلى الوحي والرسالة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

وعلى المصالح والنِّعمة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١].

وعلى النُّقصان والزيادة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

وعلى إهلاكِ ظَلَمة الأمَّة: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وعلى حِفْظ العالَم والمملكَة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦].

وأمّا في الآخرة:

فإنَّ أهلَ القبور إذا بُعثوا وبقُوا قياماً في القبر ثلاثَ مئةِ سنةٍ قد أَلجمهم العَرَق، ثم دُعوا إلى الحساب حَمدوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ: ١].

والثاني: إذا فَرغوا مِن الحساب حمدوا، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

والثالث: إذا مُيِّز عند الطريقين أهلُ السَّعادة من أهلِ الشقاوة حمدوا، فقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

والرابع: إذا مرُّوا على الصِّراط ووجدوا رائحةَ الجنَّة ونَظروا إليها، قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

والخامس: إذا دخلوا الجنَّة قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤].

والسادس: إذا صَعدوا على الدَّرجات فأَمِنوا[١] الحَزَن قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

والسابع: إذا رأَوا[٢] ربَّهم عزَّ وجلَّ بغيرِ كيفٍ حمدوا، قال الله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وأمَّا أساسُ القرآن: فقد رويَ: أنَّ رجلاً أَتَى الشعبيَّ فشكا إليه وَجَعَ الخاصرةِ، فقال: عليك بأساسِ القرآن، قال: وما أساسُ القرآن؟ قال: فاتحةُ الكتاب، سمعتُ عبدَ الله بنَ عباس رضي الله عنهما غيرَ مرَّةٍ يقول: إنَّ لكلِّ شيءٍ أساساً؛ فأساسُ الدنيا مكَّةُ؛ لأنَّ[٣] منها دُحِيت الأرضُ، وأساسُ السماوات غريبٌ وهي السماءُ السابعةُ العليا، وأساسُ الأرض عجيبٌ[٤] وهي الأرضُ السابعةُ السفلى، وأساسُ الجِنان جنَّةُ عَدْنٍ وهي سُرَّةُ[٥] الجِنان، عليها أُسِّست الجِنانُ، وأساسُ النار[٦] جهنَّم وهي

(١) في (ف) و(أ): «وأمنوا».

(٢) في (ر): «نظروا».

(٣) في (أ): «لأنها».

(٤) كما في «تفسير القرطبي» طبعة التركي.

(٥) في (أ): «سورة»، وفي (ر) و(ف): «سور»، والمثبت من المصادر.

(٦) في (ر): «النيران».

الدَّرَكةُ السابعةُ السفلى؛ عليها أُسِّست الدَّرَكات، وأساسُ الخَلْقِ آدمُ عليه السلام، وأساسُ الأنبياءِ نوحٌ، وأساسُ بني إسرائيل يعقوبُ عليه السلام، وأساسُ الكتبِ القرآنُ، وأساسُ القرآنِ فاتحةُ الكتاب[١]، وأساسُ الفاتحةِ بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، فإذا اعتَلَلتَ أو اشتكَيتَ فعليكَ بالأساسِ تشفى بإذنِ اللهِ تعالى[٢].

وأمَّا[٣] سورةُ الشفاء: فلهذا قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ في سورةِ الفاتحة[٤] سبعين شفاءً» [٥].

وروى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «فاتحةُ الكتاب شفاءٌ مِن كلِّ سُمٍّ»[٦]، وفي روايةٍ: «شفاءٌ[٧] مِن كلِّ داءٍ إلَّا السَّامَ» [٨] وهو الموتُ.

وحديثُ قراءةِ النبيِّ ﷺ الفاتحةَ على مقطوعِ اليد وبُرء يده مشهورٌ[٩].

---

(١) في (أ): «الفاتحة».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢٨)، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١/ ١٧٤).

(٣) في (أ) و(ف): «فأما».

(٤) في (أ): «فاتحة الكتاب».

(٥) لم أجده.

(٦) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٧٨ ـ تفسير) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً، وإسناده ضعيف جدًّا. وانظر ما رواه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٧) «شفاء»: من (أ).

(٨) رواه الدارمي في «سننه» (٣٣٧٠) عن عبد الملك بن عمير عن النبي صلى الله على وسلم مرسلًا. ورواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢٩) بإسناد منقطع أيضاً. وليس فيهما: إلا السام.

(٩) في (ر): «وبرئه مشهور». ولم أجده.

وحديثُ قراءة جماعةٍ مِن الصحابة على مجنونٍ هذه السورةَ وإفاقتِه مأثورٌ[١]، وهِبَةُ قومِه لهم غنماً كثيرةً معروفٌ[٢].

وأمّا[٣] **سورةُ الصلاة**: فلقولِ النبيِّ ﷺ: «يقولُ الله تعالى: قَسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين» وقد روَيناه.

وتسميتُها صلاةً لوجوهٍ:

أحدها: أنَّ الصلاةَ هي القراءةُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فمعنى قوله: «قسمتُ الصلاةَ»؛ أي: قراءةَ هذه السورة.

والثاني: أنَّ الصلاةَ هي الثناءُ، قال اللهُ تعالى: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وهي الدُّعاءُ أيضاً، قال اللهُ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وهذه السورة ثناءٌ ودعاءٌ.

والثالث: أنَّ كمالَ الصلاةِ وجَمَالَها بهذه السورة، فسُمِّيت هذه السورةُ صلاةً؛ فإنَّها كلَّها هي تعظيمٌ لها[٤].

وفي فَضْل هذه السورةِ أحاديثُ كثيرةٌ:

منها: قوله ﷺ: «هذه السورةُ لو كانت في التوراة لَمَا تهوَّد قومُ موسى، ولو

---

(١) «مأثورٌ»: سقط من (أ) و(ف).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٩٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢٩) من حديث عم خارجة بن الصلت، وإسناده حسن. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٠٩٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصة أخرى، ورواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد في قصة اللديغ بنحو قصة المجنون.

(٣) في (ر): «وأما قول تسميتها».

(٤) في (أ): «كأنها هي كلها تعظيماً لها»، وفي (ف): «كأنها كلها هي تعظيماً لها».

كانت في الإنجيل لما تنصَّر قوم عيسى، ولو كانت في الزَّبور لما مُسخَ قومُ داود، وأيُّما مسلمٍ قَرَأها أعطاهُ اللهُ جلَّ جلاله مِن الأجر كأنَّما قَرأَ القرآنَ كلَّه، وكأنَّما تصدَّق على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ»(١).

ثـم هذه السـورة سـبعُ آيـاتٍ، وأبـوابُ جهنَّـم سـبعةٌ، مَن قرأهـا أُغلقـتْ عنه أبوابُهـا السـبعةُ، وكلُّ بـابٍ منهـا عَرْضُه كعَرْض السـماءِ والأرض سـبعَ مـرَّاتٍ(٢)، وبسـاطُ هـذا البنـاء الأرضـونَ السـبعُ، وأهلُهـا بنـو آدم وتاراتُهـم(٣) سـبعٌ؛ أي(٤): خُلِقـوا مِـن سـلالةٍ مِن طيـنٍ، ثم مـن(٥) نُطفـةٍ، ثم عَلَقـةٍ، ثم مُضغـةٍ، ثم عظـامٍ، ثم لحـمٍ، ثم يُنشَـأ خلقـاً آخَـرَ، وإذا وُلد الإنسـانُ فهو طفلٌ، ثـم صبيٌّ، ثـم مراهقٌ، ثم بالـغٌ، ثـم شـابٌّ، ثـم كهلٌ، ثم شـيخٌ.

ورِزْقه في هذه الأحوال مِن سبعٍ: قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٤ ـ ٢٨].

وهـو مأمـورٌ أنْ يقـولَ كلمـاتِ الشـهادة، وهـي سـبعٌ: لا إلـهَ إلَّا اللهُ محمـدٌ رسـول الله، وهـي إقـرارٌ بربوبيَّـةِ مَـن(٦) أَوجد الأشـياءَ وأَخبـر عن وجودِها بسـبعةِ أحـرفٍ: كُـن، فيَكون.

---

(١) لم أجده.

(٢) في (أ) و(ف): «كعرض السماء والسماوات سبع».

(٣) في (أ): «وماراتهم»، وفي (ف): «وحالاتهم».

(٤) «أي» زيادة من (ف).

(٥) في (ر): «هي» وسقطت من (ف).

(٦) في (ف): «بربوبيته» بدل من «بربوبية من».

وجعلَ مُضيَّ عمرِهم في[١] سبعةِ أيَّامٍ وهي أيَّام الجمعة، وجعل مدَّة أيام الدنيا سبعةَ آلافِ سنةٍ[٢].

فمَن قَرأ معتقِداً معظِّماً هذه الآياتِ السبعَ، أَعتق جوارحَه السبعَ عن عقوباتِ الدَّرَكات السبعِ، وأُعطي حسناتٍ مِلءَ السماواتِ السبعِ والأرضينَ السبعِ، ووصلت بركتُه إلى أهلِ الأقاليمِ السبعةِ، وبُوركَ له في أرزاقِه السبعةِ[٣]، وحُفظَ في أحوالِه السبعِ، وثبَّته[٤] اللهُ تعالى على كلماتِه السبعِ، ووصلَ إلى السعادةِ الأبديَّة عند مضيِّ هذه الأدوارِ السبعةِ، وأَمِنَ مِن الأخطارِ السبعةِ، وهي بالفارسية: (خطر عافيب كه بر كفر بود بأمر مسلماني، وخطر كوركه نوراني بود با ظالماني، وخطر سؤال كه جواب صواب كفتن تواني بان تواني، وخطر بعد كه رويت بالسياهي نود نا نار حشاني، وخطر حساب كه سلامت نابي نادر مالي، وخطر وزن أعمال كه بكه طاعات يا سكي موديا يا كو لك، وخطر دوراه كه جهنمي سوى يا حباني جون ابن آيات نا تعظيم برخواني خونشتر وأرين أخطاء تفصيل ورحمت ولي برهاني)[٥].

---

(١) في (ف) و(أ): «على».

(٢) لا صحة لهذا التقدير ولا لأمثاله في عمر الأرض، ولا دليل على شيء منه.

(٣) في (ف): «السبع».

(٤) في (أ) و(ف): «ويثبته».

(٥) في هامش (ف): «تعريبه: الأخطار السبعة: أولها: خطر العاقبة؛ على الإيمان يُختم أمره أم على الكفر، والثانية: خطر القبر، فكونها مظلمة أو منورة، والثالثة: خطر جواب مُنكَر ونَكير وسؤال منكر ونكير؛ يُجيب صواباً أم خطأ، ورابعها: خطر البعث؛ بأن يبيضَّ وجهه أم يسودَّ، وخامسها: خطر الحساب؛ ليسلم منه أو يتعلَّل، وسادسها: خطر الميزان؛ كفة طاعاته ثقيلة أو خفيفة، وسابعها: خطر الطريقين؛ يُساق إلى جهنَّم أو يُهدى إلى الجنة، فإذا قَرأ القرآنَ ـ أي: السبع الآيات ـ بتعظيمٍ واعتقادٍ، خلَّص نفسَه مِن هذه الأخطار بفَضْل الله ورحمته».

وقالوا: خيارُ المسلمين سبعةُ أصنافٍ: الحامدونَ، والراجون، والخائفونَ، والمخلِصون، والمتوكِّلونَ، والمستقيمون، والعارفونَ.

وفي هذه السورة نصيبٌ لكلِّهم؛ فقولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على نصيبِ الحامدين، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على نصيبِ الراجين[1]، وقولُه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على نصيبِ الخائفين، وقولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على نصيبِ المُخلِصين، وقولُه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على نصيبِ المتوكِّلين، وقولُه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ على نصيبِ المستقيمين. وبقيَّةُ السورة على نصيبِ العارفين.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما؛ أي: الشُّكر للهِ بما صَنَعَ إلى خَلْقه[2].

وفي روايةٍ قال: أي: الشكرُ لله الذي[3] جادَ على العبادِ بسوابغ النِّعم ومواهبِ القِسَم.

وقال أُبيُّ بنُ كعبٍ: أي: الشكرُ للهِ على الأشياءِ كلِّها.

وقال مجاهد: أي: الشكرُ للهِ على جميع نَعْمائه ديناً ودُنيَا.

وقال عطاء: أي: على نعمائه ظاهرةً وباطنةً.

وقال أبو عبيدةَ: الحمد لله؛ أي: الثناءُ لله.

---

(١) في (ر): «الراحمين».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١/ ٣٥٨)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٣٦).

(٣) قوله: «وفي رواية قال أي الشكر لله الذي»، كذا العبارة في (أ)، ووقع بدلاً منها في (ر): «أيضاً أي»، وفي (ف): «وفي رواية قال أي الشكر لله بما صنع إلى خلقه أيضاً أي الذي».

وقال ابنُ الأنباري: الحمدُ مقلوبُ المدح(١).

وقيل: الحمدُ: الثناءُ بالجميل والاعترافُ للمُنعِم.

وقيل: الحمدُ معرفةُ الإحسانِ ونشرُه.

والكلامُ الجامعُ فيه: أنَّ الحمدَ يُذكَر لمعانٍ أربعةٍ:

أحدها: الثناءُ بالأفعالِ الحسنةِ، يقال: حَمدتُه على فعلِ كذا، فمعنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هذا؛ أي: الثناءُ عليه في كلِّ ما فعلَ؛ أماتَ أو أحيى، أَفقر أو أَغنى، أَعزَّ أو أَذلَّ، أَكثَرَ أو أقلَّ، أَبلى أو ابتلى، أَبهج أو أَشجنَ(٢)، وكذا غيرُه(٣)، فإنَّ جميعَ ما يفعله عدلٌ وحكمةٌ وعاقبتُه حميدةٌ.

والثاني: الحمدُ بمعنى الشكر، يقال: حَمدتُه على إنعامِه، فمعنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هذا؛ أي: الشكرُ للهِ على نِعَمه التي لا تُحصى ومِنَنه التي لا تُنسى، فقد قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] فكلُّ النِّعَم منه، فقد قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

والثالث: الحمدُ بمعنى الرضى، يقال: حمدتُ سيرةَ فلانٍ ومذهبَه، فمعنى الحمدِ على هذا؛ أي: رضيتُ بحُكمه وقضيَّته وتقديرِه وقسمتِه، فلا اعتراضَ على فِعْله، ولا إعراضَ عن حُكمه، وكيف(٤) وقد قال: «مَن لم يرضَ بقضائي،

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٠٨).

(٢) في (ر): «أو أشجى». والشجن والشجى: الحزن.

(٣) في (ر) و(ف): «وكذا يجب»، والمثبت من (أ) ولعل معناه: وكذا غير ما ذكر.

(٤) «وكيف»: سقط من (أ)، وفي (ف): «كيف».

ولـم يَصبـر على بلائي، ولـم يَشـكر علـى(١) نعمائـي، فليَطلب ربًّا سـوائي»(٢).

والرابـع: الحمـدُ بمعنى المدحِ بالصِّفات الحسـنى، يقال: حَمـدتُ فلاناً على فَضْلـه وعلمِـه، ووقـاره وحلمِـه، وجُـودِه وسـماحتِه، وبأسِـه وشـجاعتِه، ومعنـى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ علـى هـذا؛ أي: المـدحُ للهِ علـى صفاتـه الحسـنى، فهـو اللهُ الرَّحمنُ الرَّحيـمُ، العلـيُّ العظيـمُ، العزيـزُ الحكيـمُ، القديرُ القديـمُ، الغنـيُّ الكريمُ، السَّـتَّارُ الحليـمُ.. إلـى تمامِ أسـمائِه الحسـنى.

والألفُ واللامُ في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لاستغراقِ الجنس، فيصيرُ على مجموعِ المعاني الأربعةِ كأنَّ العبدَ يقول: أُثني على اللهِ بكلِّ أفعاله فهي جميلةٌ، والشُّكر(٣) له على كلِّ نَعمائه فهي جزيلةٌ، وأرضَى بكلِّ أقضيته فهي حميدةٌ، وأَحمدُه بكلِّ صفاته فهي جليلةٌ.

(سنا خداي راسزدكه جرهه كند حكمت آست شكر ورا واجب شودكه أروى في سما ونعمة آست رضا بقائي ناي ور آست اي نا ورا مالي)(٤).

---

(١) «على»: زيادة من (أ).

(٢) رواه ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٢٧). وقال العراقي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٠٥٨): إسناده ضعيف.

(٣) في (أ): «وأشكر».

(٤) في هامش (ف): «تعريبه: الثناء يستحقه الله تعالى لأن جميع أفعال محكمة وفيها حكمة له بالغة، والشكر له واجب لأن النعم التي لا تحصى منه بدت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فهو المنعم لا غير، فالشكر له مطلقاً، والرضا بقضائه لازم؛ لنفاذ مشيئته على العموم، والمدح ينبغي أن يكون له لا لغيره لأن صفاته جميعها لا تعبر بالمدح والحمد، فمَن لازَمَ على ثنائه يجازيه الله تعالى بالثناء عليه، ومن واظب على الثناء يتجدد له العطاء، ومن رضي منه مطلقاً رضي الله عنه، ومن استقام في محبته يجده على قدر محبته ومعرفته بلا كيف».

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: احتمَل أن يكون اللهُ تعالى حَمدَ نفسَه ليُعلِمَ الخَلْقَ استحقاقَه[١] الحمدَ بذاتِه فيَحمدوه، ويحتمِل أن يكون على إضمارِ الأمرِ؛ أي: قولوا: الحمدُ للهِ، وهو أمرٌ بتوجيه الشُّكر إليه؛ لأنَّ النِّعَم منه، وذلك يتضمَّن الأمرَ أيضاً بكلِّ المُمكن مِن الطَّاعات، على ما روي عن النبيِّ ﷺ: أنَّه صلَّى حتى تورَّمت قَدماهُ، فقيل له: قد غَفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّم مِن ذنبك وما تأخَّر؟! قال: «أَفَلا أكونَ عبداً شكوراً»[٢]، فصيَّر أنواعَ الطاعات شكراً له[٣].

وتكلَّموا في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنَّه على الأمرِ به، أو على الإخبارِ، أو على الابتداءِ:

قال بعضهم: هو على الأمرِ؛ أي: قولوا: الحمدُ لله، وإضمارُ القولِ ثابتٌ في كثيرٍ مِن الآيات؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ أي: قالا ربَّنا.

وقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الزمر: ٧٣]؛ أي: يقولون: سلامٌ عليكم.

وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ أي: يقال لهم: أَكَفرتم بعد إيمانِكم.

ويدلُّ على هذا الإضمارِ قولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولا بدَّ هاهنا مِن إضمارِ: قولوا.

---

(١) في (ر): «استحقاق».

(٢) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» لأبي منصور الماتريدي (١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

وقد أُظهر ذلك في قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١]، وهذا تعليمٌ مِن الله عزَّ وعلا لعباده كيفيةَ حمدِه وثنائِه.

وقال بعضُهم: هو على الإخبارِ؛ ومعناه: أنَّ حمدَ جميعِ الحامدين ومدحَ جميعِ المادحين وشكرَ جميعِ الشاكرين وذِكْرَ جميعِ الذاكرين للهِ عزَّ وجلَّ، وبالفارسية: (حمد خداي داما نداي راشيد وخداي راسد ها وجن وردل نشود).

وذلك لأنَّ المُنعِم هو اللهُ تعالى، فالشكر له، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ومَن أنعمَ عليكَ مِن خَلْقه فبتوفيقِه وعونِه، وأمَّا الابتداءُ فحمدٌ[1] مِن الله تعالى لنفسِه لأنه يحبُّ الحمد.

قال النبيُّ ﷺ: «لا أحدَ أحبُّ للمدح مِن الله تعالى؛ فلذلك مَدَح نفسَه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾»[2].

وقال أصحابُ المعاني: حَمدَ اللهُ تعالى نفسَه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، واستَحمَدَ مِن خَلْقه فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٥٩]، ونزَّه نفسَه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [المؤمنون: ٩١] واستَنْزه مِن خَلْقه فقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وشَهِدَ بوحدانيتِه فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] واستَشْهَد مِن خَلْقه فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١]، وأَظهر بذلك محبَّتَه الحمدَ[3] والتنزيهَ والشهادةَ.

ولأنَّه لمَّا خَلَقَ الخلقَ وربَّاهم، وفهَّمهم وهداهم، وجبَ عليهم شكرُه بذلك

---

(١) في (أ): «بحمد».

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٣٧) عن الأسود بن سريع، وإسناده منقطع. ورواه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «ليس أحدٌ أَحبَّ إليه المدحُ من اللهِ من أَجْلِ ذلك مَدحَ نَفْسَه».

(٣) في (ف): «للحمد».

وبسائر نِعَمه، وعَلِمَ عجزَهم عن شكرِه على الكمال، أتمَّ الإفضال؛ بأنْ حمدَ نفسَه بنفسِه، وناب عنهم في شُكره بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وهذا كما يصلِّي على النبيِّ ﷺ بسؤالنا عنَّا: اللَّهمَّ صلِّ على محمَّدٍ، مع أنَّه أَمَرَنا بالصلاةِ عليه؛ لعَجْزنا[1] عن الصلاةِ على ما يستحقُّه.

وهذا كما يُخاطِب الملوكَ المنازِعينَ له في ملكِه بعد فناءِ خَلْقه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ تقريعاً لهم، ويَعلم أنَّ أولياءَه لو كانوا أحياءً لأَجابوا، فينوبُ عنهم بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

ولأنَّه أَظهر لخَلْقه[2] أنَّ الحمدَ الذي هو له على الكمالِ، هو الحمدُ الذي حمدَ به نفسَه لا حَمْدُهم إيَّاه، فإنَّهم مُحدَثون عاجزون؛ لم يكونوا فكانوا، ولا يكونون بعد أنْ كانوا، فكيف يكون حمدهم كفاءً لحقِّه[3]؟

ولأنَّ حمدَهم معلولٌ؛ فإنَّهم[4] يَطلبون به[5] إدامةَ الموجود ووجودَ المفقود، فلا يَخلُصُ[6] لهم[7]، واللهُ تعالى حمدَ نفسَه في الأَزَل، وهو حقٌّ، وحمدُه حقٌّ، وأَمَرَ عبادَه أن يَحمدوه؛ ليصير حمدُهم الحادثُ المَجازيُّ[8] بالحمد الأزليِّ الحقيقيِّ صالحاً مرضيًّا مقبولاً.

---

(١) في (ف): «مع عجزنا».

(٢) في (أ) و(ف): «للخلق».

(٣) في (أ): «كفاة كفه»، وفي (ف): «كفؤا لحقه».

(٤) في (ر): «لأنهم».

(٥) في (ف): «منه».

(٦) في (ر) و(ف): «مخلص».

(٧) في (أ) و(ر): «له».

(٨) في (أ): «المحاذي».

وهـذا كما شَـهدَ بوحدانيَّته في الأَزَل وأَمَرَ عبادَه بأن يَشـهدوا لـه بالوحدانيَّة، وجعـل شـهادتَهم الحادثـةَ الموقَّتـةَ بشـهادته الأزليَّـةِ الدائمـةِ صالحـةً مرضيَّـةً مقبولـةً، ووَعَدهـم عليهـا ثـوابَ الأَبَـد مـع أنَّهـا منهـم موقَّتـةٌ؛ لأنَّهـا شـهادةٌ لله بمـا شـهد هو بها[1] لنفسـه، وهـي أزليَّةٌ دائمـةٌ على الأَبَـد، فلذلك وَعَدهـم عليها ثـوابَ الأبدِ.

وعلى الوجوه الثلاثة؛ لا وجهَ لامتناعِكَ عن الحمد بحالٍ، فإنَّه إنْ حُمل على الأمر فعليكَ الائتمارُ، وإن حُمل على الإخبار عن استحقاقه الحمدَ فعليكَ الدَّوامُ عليه والاستكثار، وإنْ حُمل على الابتداء ـ وهو حمدُه[2] نفسَه ـ فلا وجهَ للمخالفةِ والاستكبارِ[3].

وكيف[4] تُخْلي ساعةً مِن عُمرك عن حمدِه وشكرِه، ولا تَخلو لحظةٌ عن إنعامِه وبرِّه؟!

فإن قيل: لم حَمد اللهُ تعالى نفسَه، ومِثْلُه في الخَلْق غيرُ محمودٍ؟

فجوابه ما قاله[5] الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: له وجهان:

أحدهما: أنه استحقَّ الحمدَ بذاتِه لا بأحدٍ، فيكونُ[6] في ذلك تعريفُ الخَلْق ما

---

(١) في (ر): «لله لما شهِده وبها»، وفي (ف): «الله بما شهد هو بها».

(٢) في (ر): «حمد».

(٣) في (ر) و(ف): «والاستنكار».

(٤) في (ف): «فكيف».

(٥) في (أ): «ما قاله الشيخ»، وفي (ر): «ما قال».

(٦) في (أ): «يكون». وفي «التأويلات»: «ليكون».

يُزلفُهم لديه، ليُثنوا(١) عليه بما أَثنى هو(٢) على نفسِه، وغيرُه إنَّما يكون له ذلك بالله تعالى، فعليه توجيهُ الحمدِ إليه لا إلى نفسِه.

والثاني: أنَّ اللهَ تعالى حقيقٌ لذلك؛ إذ لا عيبَ يمسُّه ولا آفةَ تَحلُّ به فيَدخلَ نقصانٌ في ذلك، ولا هو مأمورٌ بشيءٍ، والعبدُ لا يَخلو عن عيوبٍ وآفاتٍ، ويُمدح بالائتمار، ويُذمُّ بالترك، ويتمكَّن به(٣) فيه النقصانُ، وحُقَّ لمثلِه الفَزَعُ إلى اللهِ تعالى ليتغمَّده برحمته.

وعلى ذلك: التكبُّرُ يُحمَد به اللهُ تعالى ولا يُحمَد به غيرُه؛ إذ ليس للعبد معنًى يَستقيم لذلك تكبُّره(٤)، إذ هم جميعاً أكفاءُ مِن طريق الخِلْقة والمحنة(٥)، وما أَدرك واحدٌ منهم مِن فضيلةٍ أو رِفعةٍ، فبالله(٦) أَدركه لا بنفسِه، فعليه تنزيهُ الرَّبِّ تعالى، والفَزَعُ إليه بالشُّكر، لا بالتكبُّر على أمثاله، واللهُ ـ تعالى ـ عن هذا الوصف مُتعالٍ(٧).

وتكلَّموا في الفَرْق بين الحمدِ والشُّكرِ(٨):

---

(١) في (ر): «فيثنوا».

(٢) «هو»: ليست في (ر).

(٣) «به»: ليست في (ر). وعبارة «التأويلات»: (وفي ذلك تمكن النقصان).

(٤) في (أ) و(ف): «يستقيم لذلك بكثرة». وعبارة «التأويلات»: (يستقيم معه تكبره).

(٥) عبارة «التأويلات»: (من طريق المحبة والخلق)، ولعل لفظ (المحنة) الوارد في النسخ قد تحرف عن لفظ (المحبة).

(٦) في (ر): «فمن الله وبالله»، بدل: «فبالله».

(٧) انظر: «تأويلات أهل السنة» لأبي منصور الماتريدي (١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

(٨) انظر الأقوال في ذلك في: «معاني القرآن» للنحاس (١/ ٥٧) وما بعدها، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٠٨) وما بعدها.

فقيل: الحمدُ بالقولِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١] والشُّكرُ بالعملِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

وقيل: الحمدُ باللسان، والشكرُ بالجَنان، وتحقيقُ الشكر بالأركان.

وقيل: الحمدُ لله(١) على وجودِه، والشُّكرُ له على جُودِه.

وقيل: الحمدُ: الثناءُ عليه بما(٢) هو به، والشكرُ: الثناءُ عليه لِمَا(٣) هو منه.

وقيل: الحمدُ على الجلالِ والجمالِ، والشكرُ على الإنعامِ والإفضال.

وقيل: الحمدُ على ما حَبَا وهو النعماء، والشكرُ على ما زَوَى وهو الآلاء.

وقيل: الحمدُ على النِّعم الظاهرة، والشكرُ على النعم الباطنة.

وقيل: الحمدُ ابتداءً، والشكرُ جزاءً.

وقيل: الحمدُ بصفاتِه الحسنى، والشكرُ بصنائِعه الكُبرى.

وقيل: الحمدُ مقلوبُ المدح، والشكرُ مقلوبُ الكَشْر، وهو انفتاحُ الشَّفتَيْن بالضَّحك حتى تبدوَ الأسنانُ، فالشكرُ(٤) انكشافُ الغطاءِ عن القلب حتى يعرفَ المنَّة مِن المنَّان.

وقيل: الحمدُ هو الثناءُ بعموم النِّعمة، والشكرُ هو الثناءُ بخصوص النِّعمة.

وقيل: الحمدُ أخصُّ مِن الشكرِ لفظاً وأعمُّ معنًى، والشكرُ أعمُّ منه لفظاً وأخصُّ معنًى، فإنَّك تقول: الحمدُ لله، ولا تقول: الحمدُ لفلانٍ، فهذا خصوصُ

---

(١) «لله»: ليس في (أ) و(ف).

(٢) في (ر): «مما».

(٣) في (أ): «بما».

(٤) في (أ) و(ف): «والشكر».

اللفظ، وتقول: الشكرُ للهِ والشكرُ لفلانٍ، فهذا عمومُ اللفظ، ثم الحمدُ يُوضَع موضعَ الشكرِ، فيقالُ: حَمدتُه على صفاتِه الجليلة، وحَمدتُه أيضاً على صنائعِه الجزيلةِ، والشكرُ لا يُوضَع موضعَ الحمدِ، فيقالُ: شكرتُ له على آلائِه ونعمائِه، ولا يقالُ: شكرتُ له على علائه وكبريائه، فكان كلُّ شكرٍ حمداً، ولم يكن كلُّ حمدٍ شكراً.

وبالفارسية: (الحمد لله استايش همه استانيد كان وراي منتهي، والشكر لله ساس همه دارند كان ورابد همة منتهي)(١).

وقال قتادةُ: إنَّ الله تعالى افتتحَ بالحمدِ(٢) حين خَلَقَ السماواتِ والأرضَ، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وختمَ بالحمد فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥](٣)، فجعل ابتداءَ العالَم وانتهاءَه بالحمد.

ثم قراءةُ العامَّة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الابتداء، واللامُ بالكسر على الأصل.

وقرأ هارونُ بنُ موسى العَتكيُّ الأعورُ ورؤبةُ بنُ العجَّاج بنصبِ الدَّالِ على المصدر(٤)، وهو على الأَمْرِ بطريقِ الإغراء.

وقرأ الحسنُ البصريُّ رحمه الله: (الحمدِ لله) بخفض الدَّالِ(٥)؛ إتباعاً لكسرة اللام.

---

(١) في هامش (ف): «تعريبه: مدح جميع المُدَّاح له وشكر جميع الشاكرين له على مننه».

(٢) في النسخ: «الحمد»، والمثبت من هامش (ف). ولفظ الخبر: (فُتح أول الخلق بالحمد لله..).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧٣).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩)، ونسبها لرؤبة.

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩)، وزاد نسبتها لرؤبة، و«المحتسب» (١/ ٣٧)، وزاد نسبتها لزيد بن علي.

وقرأ إبراهيم بنُ أبي عَبْلة الشاميُّ برفع الدَّال وضمِّ اللام إتباعاً للدَّال(١).

ويجوز في الوقف على «الحمد لله» القَصْرُ؛ وهو حذفُ الأَلِف التي بينَ اللَّامين والهاء، قال الشاعر:

أقبَلَ سَيْلٌ جاءَ مِن أَمْرِ اللهْ … يَحْرِدُ حَرْدَ الجنَّة المُغِلَّهْ(٢)

وإثباتُ الألف أصحُّ وأفصحُ.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أي: سيِّدِ العالَمين(٣).

وهو كقوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: سيِّدِك.

وقيل: معناه: المالك، كما يقال: ربُّ الدار؛ أي: مالكُها.

وقال النبيُّ ﷺ لرجلٍ: «أربُّ إبلٍ أنت أم ربُّ مالٍ وغنمٍ»، قال: من كلٍّ آتانيَ اللهُ تعالى(٤).

وقيل: هو المُصلِح المدبِّر، ومنه: ربَّةُ البيت، ومنه: الرَّبَّانيُّون؛ وهم

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩)، و«المحتسب» (١/ ٣٧).

(٢) البيت بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٧٦)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٦)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٧٤)، و«لسان العرب» (مادة: حرد غلل وأله). وعزاه ابن السيد في «شرح الكامل» لقطرب كما ذكر البغدادي في «خزانة الأدب» (١٠/ ٣٨٦)، وقال البكري في «شرح أمالي القالي» (١/ ٣١): قال أبو حاتم: هذا البيت مصنوع، صنعه من لا أحسن الله ذكرَه. يعني: قطرباً. ومعنى: حَرَد حردَ الجنَّة: قصد قصدها، وأغلَّت الضيعة: أعطت الغلة.

(٣) أورده السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤١)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٥٩).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٢٢٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٤١٦)، من حديث مالك بن نضلة الجشمي رضي الله عنه.

العلماءُ المصلحون أمورَ الناس بعلمهم، والمُدبِّرون لأمورهم، قال[١] الشاعر:

كانوا كسالئةٍ حَمْقاءَ إذ حَقَنَتْ سِلاءها[٢] في أديمٍ غيرِ مَرْبُوبِ[٣]

أي: غير مُصلَحٍ.

وقيل: هو مربِّي الخَلْق، ومنه قولُه: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾، وقولُه: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: ١٨].

وقد رَبَّه يَرُبُّهُ، ورَبَّاه يُرَبِّيه، فمنهم مَن يقول: رَبَّاه أصله: رَبَّبَه، جُعلت إحدى الباءات ياءً، كما في قوله: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾، أصله: تمطَّطَ؛ أي: تمدَّد، ومنهم مَن يقول: هو فَعَّله من رَبَا يربو؛ أي: ازداد، فالتربية: إثباتُ الزِّيادة في المُربَّى.

وقال الحسين بن الفضل البَجَليُّ: الرَّبُّ: الثابتُ الدائم، من قولهم: ربَّ بالمكان وأربَّ؛ أي: أقام، وكذلك لَبَّ وأَلَبَّ.

قال عليه السلام: «أعوذ بالله من فقرٍ مُرِبٍّ ـ ورُوي: مُلِبٍّ ـ وضَرَعٍ إلى غير محبٍّ»[٤].

---

(١) في (ف): «وقال».

(٢) في هامش (ف): «سلأت السمن؛ أي: عملته سِلاء بالكسر، شبه القوم في عبارتهم بهذه المرأة».

(٣) البيت للفرزدق، انظر: «ديوانه» (ص: ٢٦)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٤٢). سلأ السمن يسلؤه: طبخه وعالجه فأذاب زبده، والسِّلاء بكسر السين: السمن، وحقَن اللبن في الوَطب، والماء في السقاء: حبسه فيه وعبأه. ورَبَّ نحي السمن يَرُبه: دهنه بالرُّب، وأديم مربوب: قد أصلح بالرُّب، وهو دبسُ كل ثمرة، وكانوا يدهنون أديم النحي بالرب حتى يمتنوه ويصلحوه، فتطيب رائحته، ويمنع السمن أن يرشح من غير أن يفسد طعمه أو ريحه، وإذا لم يفعلوا ذلك بالنحي فسد السمن. يقول: فعلوا فعل هذه الحمقاء، ففسد ما جهدوا في تدبيره وعمله. من حاشية الطبري لأحمد شاكر.

(٤) الجزء الأول من الحديث أورده بلا إسناد ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ٤٥٢)، والخطابي في =

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: التوجيه[1] إلى المالك أقربُ منه إلى السيد، إذ يستقيمُ أنْ يقال: ربُّ السماوات والأرض، ومالكُ السماوات والأرض، ولا يستقيم: سيدُ السماوات والأرض، ولا يقال: هو سيدُه، إلا في بني آدم خاصةً[2].

فالله تعالى ربُّ العالمين؛ أي: مالك الخلائق أجمعين، له المُلك والمِلك والخَلْقُ والأمر، وهو سيدُهم؛ أي: مالكُهم الواجبُ عليهم طاعته، وسيدُ العبد مالكُه، وعليه طاعتُه.

ولا يقال: سيدُ الدار؛ لأنه لا يمكن تحقيقُ معنى وجوب[3] الطاعة فيها.

وهو مصلِح أمورهم، ومهيِّئُ معاشهم ومَعادهم، أصلح قلوبَ المؤمنين بالمعرفة، وألسنتَهم بالشهادة، وأنفسَهم بالخِدْمة، وأصلح طاعاتِهم على كثرة تقصيرهم فيها بالقَبُول، وأصلح معاصيَهم على كثرتها بالعَفْو، قال الله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١].

وهو مُربِّي الظواهر بالنعمة، وهي النفوس، ومُربِّي البواطن بالرحمة، وهي القلوب.

= «شأن الدعاء» (١٢٦)، باللفظين: (مرب) و(ملب). وأورده أبو القاسم الأصبهاني في «محاضرات الأدباء» (٢/ ٤٨٦) من قول قيس بن سعد بلفظ: اللهم إني أعوذ بك من فقر مكبٍّ، وضروع إلى غير محبٍّ.

(١) بعدها في (ر): «منه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠). وجاء في هامش (أ): «ويردُّه الحديث المشهور المذكور في فضل آية الكرسي، فانظر إلى الكشاف وإليه».

(٣) في (ف): «لأنه لا يمكن وجوب تحقيق».

والرَّبُّ على الإطلاق لله تعالى على الخصوص، ويُطلَق[١] على المخلوق بالإضافة، فيقال: ربُّ الدار.

وعن أبي الدرداء وابن عباسٍ رضي الله تعالى عنهما أنهما قالا: هو اسمُ الله الأعظمُ[٢].

وقالوا[٣]: دلالةُ ذلك: أنَّ كلَّ اسمٍ قلبتَه بطلَ معناه إلا الربُّ؛ فإنَّ مقلوبَه البرُّ، وهو اسمُ الله الأعظم[٤] أيضاً.

وأشار إليه الخَضرُ عليه السَّلام في المسجد الحرام في حكايةٍ، فإنه قال: اسمُ الله الأعظمُ هو ما دعا به كلُّ نبيٍّ وكلُّ وليٍّ وكلُّ عدوٍّ.

وأشار إلى دعوات الأنبياء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ [نوح: ٥]، ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١]، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ الآية [نوح: ٢٨]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١]، ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤]، ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١]، ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥]، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ

---

(١) في (أ): «وينطلق».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٣٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٦٠).

(٣) في (أ) و(ف): «وقيل».

(٤) «الأعظم» ليس في (ف).

﴿نِعۡمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]، ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ [الأنبياء: ٨٩]، ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾ إلى آخر السورة.

وقالت الصحابةُ الأربعةُ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقالت الأعداء: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا﴾[1]، ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾، ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾.

ثم إن الله جلَّ جلالُه أضاف هذا الاسمَ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على العموم، فقال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثم خصَّ السماوات والأرض وما بينهما فقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥]، ثم خصَّ السماء والأرض فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الذاريات: ٢٣]، ثم خصَّ المشارقَ والمغاربَ فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، ثم خصَّ المشرقين والمغربين فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، ثم خصَّ المشرقَ والمغربَ فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨]، ثم خصَّ من الأرض[2] بيتَه فقال: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ [قريش: ٣].

وأضاف هذا الاسمَ أيضاً إلى كلِّ الناس فقال: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم خصَّ رسولَه فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٢]، ثم[3] خصَّ أمَّتَه أيضاً فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) «فارجعنا» ليست في (أ) و(ف).

(٢) في (ر): «من الأرضين»، وفي (ف): «في الأرض».

(٣) في (أ) و(ف): «و».

وأما قوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فقد قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في رواية الكلبيِّ: هم كلُّ ذي روحٍ يدبُّ على وجه الأرض[١]؛ لأنهم هم الذين يقبَلون التربية.

وروى سعيد بن جُبيرٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هم الجنُّ والإنسُ[٢]، من قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال قتادةُ: هم الجنُّ والإنسُ والملائكةُ والشياطينُ، وهم المخاطبون[٣].

وقال الحسن البصري رحمه الله: هم الخلائق أجمعون[٤].

وقال الحسين بن الفضل البَجَليُّ: هُمُ الإنسُ، من قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥][٥].

وقال جعفر بن محمدٍ الصَّادقُ: هم أهل الجنة والنار[٦].

وقال مُقاتل بن سليمان: لو فسَّرتُ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لاحتجتُ إلى ألفِ مجلَّدٍ، كلُّ مجلدٍ[٧] ألفُ ورقةٍ[٨].

وقال أبو حذيفةَ: العالَمون ستةٌ: الملائكة عالمٌ، والإنس عالمٌ، والجنُّ من

---

(١) أورده السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤١). والكلبي متروك.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٤٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٤٦) بلفظ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: كلُّ صنف عالَم.

(٤) في (ف) تقديم وتأخير مع القول الذي يليه.

(٥) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١١١).

(٦) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١١٢).

(٧) في (أ): «ألف جلد كل جلد».

(٨) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١١٢).

بني الجانِّ وذُرِّيتِه عالمٌ، والشيطان إبليس وذريتُه عالمٌ، والبهائمُ والدَّوابُّ ودوابُّ البحر[١] عالمٌ، والطيور عالمٌ، والله ربُّهم خالقُهم ورازقُهم.

وقال عطاء بن أبي رَبَاح: العالَمون عشرةُ أصنافٍ: الملائكة، والبَشَر، والجنُّ، والشياطين، والوحوش، والسِّباع، والهوامُّ، والبهائم، ودوابُّ البحر، والطيور.

وقال وَهْبٌ: هم ثمانيةَ عشرَ ألفَ عالَمٍ؛ عالَمُ الدنيا واحدٌ[٢] منها، وما العمرانُ في الخرابِ إلا كفسطاطٍ في البحر[٣].

وقال الضحَّاك: هم ثلاثُ مئة وستون عالَماً: ثلاثُ مئةٍ منهم حفاةٌ عراةٌ لا يعرفون خالقَهم، وهم حشوُ جهنم، وستون عالَماً يلبسُون الثياب مرَّ بهم ذو القرنين وكلَّمَهم[٤].

وقال سعيد بن جبير: هم ألف عالَمٍ: ستُّ مئةٍ في البحر، وأربع مئةٍ على وجه الأرض.

وقال عليُّ بن الحسين بن واقِدٍ: العالَمون ألفُ أُمَّة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال مقاتل بن حيَّان: العالَمون ثمانونَ ألفَ عالَم: أربعون ألفاً في البرِّ، وأربعون ألفاً في البحر[٥].

---

(١) «ودواب البحر» زيادة من (ف).

(٢) في (أ) و(ف): «الدنيا عالم»، بدل: «عالم الدنيا واحد».

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٧٠).

(٤) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١١٢).

(٥) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١١٢).

وقال كعبُ الأحبار: لا يحصُر عددَ[1] العالَمين أحدٌ من الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١][2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن الله تعالى خلق الخَلْق حين خلقهم وهم أربعةُ أصنافٍ: الملائكةُ، والشياطينُ، والجنُّ، والإنس، ثم جعل هؤلاء عشرةَ أجزاءٍ: فتسعةٌ[3] منهم الملائكة، وجزءٌ واحدٌ[4] الشياطينُ والجنُّ والإنس، ثم جعل هؤلاء الثلاثَ عشرةَ أجزاءً: فتسعةٌ منهم الشياطين، وجزءٌ واحدٌ الإنسُ والجنُّ، ثم جعل الإنسَ والجنَّ عشرةَ أجزاءٍ: فتسعةٌ منهم الجنُّ، وجزءٌ واحدٌ الإنسُ[5]، ثم جعل الإنسَ مئةً وخمسةً وعشرين جزءاً:

فجعل منهم مئةَ جزءٍ في بلاد الهند، فمنهم ساطوخ: وهم أناسٌ رؤوسُهم مثلُ رؤوس الكلاب، ومالوخ[6]: وهم أناسٌ أعينُهم في صدورهم[7]، وماسوخ[8]: وهم أناسٌ آذانُهم[9] مثلُ آذان الفيلة، ومالوق: وهم أناسٌ لا

---

(١) «عدد» ليس في (أ).

(٢) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١١٢).

(٣) في (أ): «تسعة».

(٤) في (أ): «وجزء منهم».

(٥) إلى هنا أورده الزمخشري في «ربيع الأبرار» (١/ ٣٣٤) بلا إسناد عن أبي هريرة مرفوعاً. وروى نحوه الحاكم في «المستدرك» (٨٥٠٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما موقوفاً.

(٦) في (أ): «ومالوح».

(٧) في (أ): «على صدورهم»، وفي هامشها: «رؤوسهم»، وعليها علامة التصحيح.

(٨) في (أ): «وماسوح».

(٩) في هامش (أ): «رؤوسهم»، وعليها علامة التصحيح.

تطاوعهم أرجلُهم حين يمشون، يُسمَّون دوال باي[(١)]، ومصيرُهم[(٢)] كلُّهم إلى النار.

وجعل اثني عشرَ جزءاً في بلاد الروم: النسطوريَّة، والملكانيَّة، والإسرائيليَّة، ومصيرُهم جميعاً إلى النار.

وجعل ستةَ أجزاءٍ منهم في المشرِق: يأجوجُ ومأجوجُ، وتُركُ خاقانَ، وتُرك خَلج[(٣)]، وتُرك خَزَرَ، وتُرك خرخيرَ، وكلُّهم من أهل النار.

وجعل ستةَ أجزاءٍ منهم في المغرب: الزِّنجُ، والزِّطُّ، والحبشةُ، والنُّوبةُ، والبَربرُ، وسائر كفار العرب[(٤)]، ومصيرُهم إلى النار.

وبقي من الإنس من أهل التوحيد جزءٌ واحدٌ، فجَزَّأهم ثلاثةً وسبعين جزءاً؛ اثنان وسبعون على خطرٍ، وهم أهل البدع والضَّلال[(٥)]، وفرقةٌ ناجيةٌ وهم أهل السنة والجماعة، وحسابُهم على الله تعالى، يغفر لمَن يشاء ويعذب مَن يشاء.

فهذا تفسير ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

والعالَمون في القرآن على عشرةِ أوجهٍ[(٦)]:

---

(١) في (أ): «ياي».

(٢) في (ف): «ومصير».

(٣) في (ر): «علج»، والصواب المثبت. وخَلْج ـ بفتح أوله، وتسكين ثانيه، وآخره جيم ـ: موضع قرب غزنة من نواحي زابلستان. انظر: «معجم البلدان».

(٤) في (ف): «المغرب».

(٥) في (أ): «والضلالات».

(٦) في (أ): «على وجوه عشرة».

أحدها: الإنس والجنُّ، قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والثاني: الناس، قال الله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

والثالث: مَن كان بعد نوحٍ إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

والرابع: مَن كان في زمن موسى من بني إسرائيل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

والخامس: مَن كان في زمن لوطٍ، قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

والسَّادس: الغُرباء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠].

والسَّابع: أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ إلى قوله: ﴿غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

والثامن: المؤمنون، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والتاسع: المنافقون، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

والعاشر: كل المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أضافَ نفسَه إلى كلِّ المخلوقات مِلْكاً ومُلْكاً، وأضاف هذا الاسمَ إلينا لُطْفاً وعَطْفاً، قال الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [يونس: ٣٢].

ففي الأول: تعظيمُ نفسه، وفي الثاني: تعظيمُ أحبابه[١]، كأنه قال: ما أعظمني! والعالَمون لي، وما أعظمكم أحبائي[٢]! وأنا لكم.

ثم العالَمُ جمعٌ لا واحدَ له من لفظه؛ كالأنام والرَّهط والجيش، وهو مأخوذٌ من العَلَم والعلامة، وهو على وزن (فاعَل) بالفتح؛ كالخاتَم والطابَع، والخاتَم: ما يُختَم به، والطابَع: ما يُطبع به، فالعالَم: هو ما يُعلم به؛ أي: يُستدلُّ به على الصَّانع.

فوجودُ المخلوقات دليلٌ على وجود الخالق وإيجاده، وحدوثُها دليلٌ على قِدَمه، وبقاؤها على هيئةٍ دليلٌ على وحدانيَّته، ووجودُها على هيئةٍ مخصوصةٍ مع جواز غيرها دليلٌ على إرادته، وانتظامُها واتساقُها[٣] دليلٌ على علمه وحكمته.

وإجابةُ دعاء[٤] الدَّاعين دليلٌ على سمعه وإجابته.

وعجزُ الخلائق عن[٥] ردِّ قضائه دليلٌ على جلاله وعظمته.

ونقضُ العزائم وفسخُ الهِمَم دليلٌ على إرادته ومشيئته.

وحرمانُ المجتهدين دليلٌ على قبضه وقدرته، وسعةُ العاجزين عن الكسب دليلٌ على بَسْطه ومِنَّته.

وإمهالُ المفترِين على الله تعالى دليلٌ على حِلْمه ورحمته.

---

(١) في (ف): «أحبائه».

(٢) في (أ): «أحبابي».

(٣) في (ر) و(ف): «وانقسامها».

(٤) في (أ): «دعوات».

(٥) في (أ): «الخلق عن»، وفي (ر): «الخلائق في».

وافتقارُ الخَلْق دليلٌ على غُنْيته، وعجزُهم دليلٌ على قدرته، وضعفُهم دليلٌ على قوَّته، وانقيادُهم دليلٌ على قهره ومَلَكته[١].

ثم إضافةُ الربِّ إلى العالَمين بيانٌ أنه ربُّ الجميع، ليس كأربابِ الأشياء المخصوصة، وإيضاحٌ أنه مستحقٌّ حمدَ الكلِّ؛ إذ هو خالقُهم ومُرَبِّيهم ومالكهم، وليس وجود ربوبيَّته بوجودهم، فقد كان ربَّ العالمين قبل أن يكونوا، ويكون ربَّ العالمين بعد أن يَبِيدوا.

وقد كان[٢] خالقاً قبل وجود المخلوقات، صانعاً قبل وجود المصنوعات، قادراً قبل وجود المقدورات، قاهراً قبل وجود المقهورات، رازقاً قبل وجود المرزوقين، راحماً قبل وجود المرحومين، مذكوراً قبل وجود الذَّاكرين، مشكوراً قبل وجود الشَّاكرين، محموداً قبل وجود الحامدين، معبوداً قبل وجود العابدين، مجيباً قبل دعوات السَّائلين، غنيًّا قبل وجود السماوات والأرضين، ملكاً قبل وجود المملكة والمملوكين، باقياً[٣] بعد فناء الخَلْق أجمعين، يقول الله جلَّ جلالُه بعد موت كلِّ الخَلْق: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، ويقول: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، سبحان الله هو العزيز الغفار.

ثم قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قراءةُ العامة بخفض الباء على النعت، وقراءةُ[٤] زيد بن عليٍّ بنصبها على المدح أو على النداء[٥]، وقرأ شقيقُ بن سلمة بالرفع على الابتداء[٦].

---

(١) في (أ) و(ف): «ومملكته»، وفي هامش (ف): «ملكته».

(٢) في (أ): «وكان» بدل: «وقد كان».

(٣) في (ر): «مالكا».

(٤) في (أ): «على الوصف وقرأ».

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٠٩).

(٦) ذكرها العكبري في «الإملاء» (ص: ٥) دون نسبة.

وكذا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على هذه الوجوه[١].

* * *

(٣) - ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: مرَّ تفسيرُهما في التسمية.

فإن قالوا: لِمَ كرَّرَهما مع أنه[٢] في التسمية ذكَرهما؟

قُلنا: عنه أجوبةٌ خمسةٌ:

أحدها: ليُعلم أنَّ التسميةَ ليست من الفاتحة، ولو كانت منها لَمَا أعادهما؛ لخُلُوِّ الإعادة عن الإفادة.

والثاني: أنه ندبَ العباد إلى كثرة الذِّكر، فإن مِن علامة حبِّ الله حبَّ ذكره، وفي الحديث: «مَن أحبَّ شيئاً أكثرَ من[٣] ذكرِه»[٤].

والثالث: أنه ذكر أنه ربُّ العالمين، فبيَّن أنَّ ربَّ العالَمين هو الرحمن[٥] الذي يرزقهم في الدنيا، الرحيمُ الذي يغفر لهم في العُقبى، ولذلك ذكر بعدَه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

---

(١) الجمهور على خفضهما، ونصبهما زيد وأبو العالية وابن السميفع وعيسى بن عمر، ورفعهما أبو رزين العقيلي والربيع بن خثيم وأبو عمران الجوني. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١/ ٥٧).

(٢) في (أ): «أن».

(٣) «من» ليست في (ر).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٥٣٤) عن رابعة. ورواه ـ كما في «المقاصد الحسنة» (ص: ٦١٩) ـ أبو نعيم ثم الديلمي من حديث مقاتل بن حيان عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة به مرفوعاً.

(٥) في (ر): «الرحمن الرحيم».

الرابع: أنه ذكر الحمدَ، وبالحمد تُنال الرحمةُ، فإنَّ أولَ مَن حمد الله تعالى من البشر آدم، عطس فقال: الحمد لله، وأجيب للحال: يرحمك ربُّك، ولذلك خلقتُك، فعلَّم خَلْقَه الحمدَ، وبيَّنَ أنهم ينالون[1] رحمتَه بالحمد.

والخامس: أن قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ترهيبٌ، وقولَه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ترغيبٌ، فجمع بين الرَّغبة والرَّهبة؛ ليكون ذلك أعونَ للناس على طاعته، وأمنعَ من معصيته.

ونَزيد في الفائدة هاهنا بذكر[2] مقالاتٍ لم نذكرها في التسمية في تفسير الاسمين:

قال الإمامُ أبو منصورٍ عبدُ الكريم بنُ هوازنَ القشيريُّ[3]: الرحمنُ بما رَوَّح، والرحيم بما لَوَّح، فالترويحُ بالمَبارِّ، والتَّلويح بالأنوار.

الرحمن بكشف تجلِّيه، والرحيم بلُطْف تولِّيه.

الرحمن بما يُوفِّق، والرحيم بما يُحقِّق، فالتوفيق للمعاملات، والتحقيق للمواصلات، فالمعاملات للقاصدين، والمواصلات للواجدين.

الرحمن بما يصنع، والرحيم بما يدفع، فالصُّنع بجميل الرِّعاية، والدَّفع بحُسن العِناية[4].

***

(١) في (أ): «يسألون».

(٢) في (أ): «ونذكر هاهنا»، بدل: «هاهنا بذكر».

(٣) في (ر) و(ف): «الإمام القشيري عبد الكريم بن هوازن»، والمثبت من (أ) وهامش (ف).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٧).

(٤) ـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: قُرئ هذا على سبعة أوجهٍ:

﴿مالكِ﴾ بالألف وخفض الكاف.

و﴿مَلِكِ﴾ بغير الألف بكسر اللام وخفض الكاف[١].

و(مَلْكِ) بتسكين اللام وخفض الكاف، فهذه ثلاثة أوجهٍ[٢] على النعت.

و(مالكَ) بالألف ونصبِ الكاف.

و(ملِكَ) بكسر اللام ونصْبِ الكاف، وهذان على النداء.

و(مَلَكَ) بفتح الميم واللام ونصب الكاف على الفعل الماضي، و(يومَ الدِّين) بالنصب على المفعول.

و(مالكُ يومِ الدِّين) بالألف ورفعِ الكاف[٣].

و(مالكْ) بالألف وتسكين الكاف[٤].

فأما ﴿مَٰلِكِ﴾ بالألف وخفض الكاف؛ فقد رُوي ذلك عن النبي ﷺ، وعن

---

(١) قرأ عاصم والكسائي: ﴿مَٰلِكِ﴾، وباقي السبعة: ﴿مَلِكِ﴾. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ١٠٤)، و«التيسير في القراءات السبع» للداني (ص: ١٨).

(٢) في (أ): «وهي»، وفي (ف): «وجوه».

(٣) انظر هذه القراءات ومن قرأ بها وزيادة عليها في «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٩)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١١٢ ـ ١١٤)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٦٨)، و«البحر المحيط» (١/ ٥٩).

(٤) «ومالك بالألف وتسكين الكاف» من (ر)، ولم أجدها، مع أن المؤلف أشار في أول كلامه إلى سبعة، وهذه زائدة عليها.

الخلفاء الراشدين الأربعة، وعن جماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم، والتابعين، وهو اختيار عاصم والكسائي والأعمش وجماعةٍ[١].

وأما ﴿مَلِكِ﴾ بكسر اللام وخفض الكاف؛ فعن النبي ﷺ في روايةٍ، وعن عثمان، وعن عليٍّ، وزيد بن ثابتٍ[٢]، وابن عمر، وأبي الدَّرداء، وهو اختيار نافع وابن كثيرٍ وأبي عمرو وحمزة وابن عامرٍ.

وأما (مَلْكِ) بسكون اللام وخفض الكاف؛ فعن أبي عمرو، رواه[٣] عبدُ الوارث بن سعيدٍ.

وأما (مَالِكَ) بنصب الكاف؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، وعمر بن عبد العزيز، والأعمش.

وأما (مَلِكَ) بغير ألفٍ ونصبِ الكاف[٤]؛ فعن أبي حيوةَ شُريح[٥] بن يزيد[٦].

---

(١) «وجماعةٍ» ليس في (أ). وانظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ١٠٤)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١١٢).

(٢) في (أ): «ويزيد بن عاصم». والصواب المثبت. انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١١٢ ـ ١١٤)، و«البحر المحيط» (١/ ٥٩).

(٣) في (ر) و(ف): «ورواه»، والصواب المثبت، فهذه القراءة رواها عبد الوارث عن أبي عمرو في غير السبعة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٩)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١١٤)، و«البحر المحيط» (١/ ٥٩).

(٤) في (أ) و(ف): «والنصب».

(٥) في جميع النسخ: «وشريح»، والصواب المثبت.

(٦) في (أ): «زيد». والصواب المثبت. انظر: «التقريب» لابن حجر، وانظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٩).

وأما (مَلَكَ) على صيغة الفعل الماضي؛ فعن يحيى بن يَعْمَرَ[١].

وأما (مالكُ) بالرفع؛ فعن بعض أهل الشام، ثم عن يحيى بن يَعْمَرَ[٢].

وأما[٣] (مالك) بإضجاعٍ بليغٍ؛ هو قراءة أهل البصرة[٤].

وعن أيوب السَّخْتِيانيِّ بإشمام[٥].

وتكلَّم المتأخرون في أَولى هذه القراءات، فقيل: أَولاها ﴿مَٰلِكِ﴾ بالألف؛ لأن فيه زيادةَ حرفٍ، وبه زيادةُ ثوابٍ.

يُحكى عن أبي عبد الله الثلجيِّ[٦] أنه قال: كان من عادتي قراءة ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١١٤)، وعزاها أيضاً: للحسن وأبي حمزة وأبي حنيفة. وانظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٩)، وعزاها لأنس بن مالك.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١١٤)، وفيه: (وهي قراءة عزير العقيلي). وقال أبو حيان: ونسبها صاحب «اللوامح» إلى أبي روح عون بن أبي شداد العقيلي ساكن البصرة. فلعل (عزير) محرف عن (عون).

(٣) «وأما» ليس في (أ) و(ف).

(٤) «هو قراءة أهل البصرة» ليس في (أ) و(ف). وانظر: «تفسير الثعلبي» (ص: ١١٤)، وفيه: (روي ذلك عن يحيى بن يعمر)، وكذا في «البحر» وزاد أبو حيان نسبتها لأيوب السختياني.

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (ص: ١١٤)، وفيه: (وعن أيوب السختياني بين الإمالة والتفخيم)، وذكرها أبو حيان عن قتيبة بن مهران عن الكسائي.

(٦) في (أ) و(ر): «البلخي»، وفي (ف): «البجلي». والصواب المثبت، فقد ذكر القصة أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤٢)، وإسماعيل حقي في «روح البيان» (١/ ١٠) فقالا: عن أبي عبد الله محمد بن شجاع الثلجي، وتحرفت (الثلجي) عند أبي الليث إلى: (البلخي)، والثلجي هذا ذكره ابن النديم في «الفهرست» (ص: ٢٩١) فقال: أبو عبد الله محمد بن شجاع الثلجي مبرز على نظرائه من أهل زمانه، وكان فقيهاً ورعاً وثباتاً على آرائه، وهو الذي فتق فقه أبي حنيفة =

ٱلدِّينِ﴾، فذكر لي بعضُ الأدباء أن ﴿مَلِكِ﴾ أبلغُ في المدح وأكثرُ في الثواب، فتركتُ عادتي، فكنت(١) أقرأ ﴿مَلِكِ يوْم الدِّين﴾ حتى رأيت في المنام أن قائلاً قال لي: لم نقصْتَ من حسناتك عشراً، أما سمعتَ قول النبيِّ ﷺ: «من قرأ القرآن كُتب له بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ، ومُحيت عنه عشرُ سيئاتٍ، ورُفعت له عشر درجاتٍ»(٢)، فانتبهْتُ، فلم أترك عادتي حتى رأيتُ ثانياً في المنام أنه قيل لي: لِمَ لا تترك هذه العادة؟ أمَا سمعتَ قول النبيِّ ﷺ: «اقرؤوا القرآن فَخْماً مُفخَّماً»؛ أي: عظيماً مُعظَّماً، فأتيتُ قُطْرُباً وسألتُه عن الفرق بين (المالك) و(الملِك)، فقال: الملِك الذي يملك شيئا من الدنيا(٣)، والمالك الذي يملك الملوك.

وقيل: لا ترجيح بزيادة حرفٍ، فقد اختلفت(٤) الصَّحابةُ رضوان الله عليهم في (فَرِهِين) و(فارِهين)، و(حَمِئةً) و(حامِئةً)، و(نَخِرةً) و(ناخِرةً)، فلم يحتجَّ أحدهم

= واحتج له... وكان من الواقفة على القراءة إلا أنه يرى رأي أهل العدل والتوحيد. قلت: وذكره ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٩١) واتهمه بوضع الحديث.

(١) في (أ): «وكنت».

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه حفص بن عمر بن حكيم، قال ابن عدي: مجهول. وروى الترمذي (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود وصححه: «مَن قَرَأَ حَرْفاً من كتابِ اللهِ فله به حَسَنَةٌ، والحَسَنَةُ بعَشْرِ أمثالِها؛ لا أقولُ: الـم حَرْفٌ، ولكِنْ ألفٌ حَرفٌ، ولامٌ حَرفٌ، وميمٌ حَرفٌ».

(٣) في (ر): «الذي يملك الأشياء في الدنيا»، والمثبت من (أ) و(ف)، وهو الموافق لما في «روح البيان»، أما أبو الليث فلفظه: (فأما مَلِك فهو ملك من الملوك، وأما مالك فهو مالك الملوك). وفيه بعدها قوله: (فرجعت إلى قراءة الكسائي).

(٤) في (أ): «اختلف».

على صاحبه بزيادة الحرف، وإنما رجَّحوا بزيادة المعنى، فبنا[١] أن ننظر أيهما أبلغُ في المعنى.

قال أبو عبيدةَ والأصمعيُّ وأبو حاتم والأخفش: (مالك) أبلغ، فإنه يقال: مالكُ كلِّ شيءٍ، ولا يقال: ملك كلِّ شيءٍ، وإنما يقال: ملكُ الناس.

ولأنه يُضاف إلى الفعل والذات، يقال: مالكُ العبد، ومالكُ التصرُّف.

ولأنه لا يقال: مالكُ الشيء، إلا وهو يملكُه، وقد يكون مَلِكَ[٢] شيءٍ وهو لا يملكه، يقال: فلانٌ ملكُ العرب، وملكُ العجم، وملك الهند، وملك الروم، وملك الترك.

ولأن (المالك) من المِلْك، و(الـمَلِك) من الـمُلْكِ، والمالك يدلُّ عليهما، يقال: مالكُ المُلْك، ومالكُ المِلْك، والـمَلِك لا يدل عليهما، يقال: مَلِكُ المُلك، ولا يقال: مَلكُ المِلْك.

ولأنه أضاف إلى ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وذكر في آيةٍ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [الانفطار: ١٩]، فنفى الـمِلك عن الخلق، فثبت ذلك لله تعالى.

وقال أبو عبيدةَ[٣] وعاصمٌ الجحدريُّ والمبرِّد وأبو عمرٍو والزجَّاج وجماعة: (مَلِك) أبلغ وأوفق للقرآن، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، وقال عزَّ وعلا: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال في صفة يوم القيامة: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ

(١) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب: (فلنا)، أو نحو ذلك.

(٢) في (أ) زيادة: «كل».

(٣) قوله: «أبو عبيدة» تكرر في القولين، ولعل أحدهما: (أبو عبيد)، فكثيراً ما يحصل الخلط بينهما لتشابه الاسمين، والمعاصرة حيث إنَّ أبا عبيد تلميذ أبي عبيدة.

﴿ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦]، وقال جلَّ جلالُه: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١]، وقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ [التغابن: ١].

ولأن المالكَ قد لا يكون مَلِكاً، ولا يكون مَلِكٌ إلا و(١)يكون مالكاً، ولأن المالكَ لا يُذكر إلا مُضافاً، يقال: مالك كذا، والملِكُ يذكر غيرَ مضافٍ، يقال: هو الملِك، ومدحُ الذات بما هو اسمُه من غيرِ إضافةٍ أبلغُ من مدحه بالإضافة إلى غيره(٢).

ومأخَذُ الاسم في اللغة من قولهم: مَلَكتُ العجينَ، ومَلَكتُ بالطَّعن اليمين، وأمْلَكتُ بين الزَّوجين، وحاصله: الشَّدُّ والرَّبط والشِّدَّة والقوة، فمعنى الاسم في الحقيقة لله، فله القوةُ الكاملة، والولاية النافذة، والتصرُّف الماضي، والحكم الجاري، وهو(٣) للعباد مُجازي، فللّهِ المِلك والمُلك والملكوت، والعزة والجبروت، وهو الحيُّ الذي لا يموت.

ومَن مَلَك من العباد(٤)؛ فلِمُلكه بدايةٌ ونهايةٌ، وحدٌّ وغايةٌ، وهو على البعض لا على الكلِّ، وعلى الجسم لا على العَرَض، وعلى النَّفْس لا على النَّفَس، وعلى الظاهر لا على الباطن، وعلى الحاضر لا على الغائب، وعلى الحيِّ لا على الميت.

ومُلك الله تعالى بلا(٥) بدايةٍ ولا نهاية، ولا حَدٍّ ولا غاية، وعلى الكلِّ، وعلى

(١) في (أ) و(ف): «وأن».

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ٢١٦).

(٣) في (ر): «فهو».

(٤) في (ف): «عباد الله».

(٥) في (أ): «لا».

النفوس والأنفاس، وعلى الظواهر والبواطن، وعلى الفِطْرات والفِكْرات، والهيئات والمُهِمَّات[١]، وهو المَلِك الذي لم يَزلْ ولا يَزال[٢]، كلُّ مُلكٍ زائلٌ إلا مُلْكَه، وكلُّ مِلْكٍ باطلٌ إلا مِلكَه، ليس لمُلكه زوالٌ، ولا لمِلْكه انتقالٌ.

وقال الإمام أبو منصُور الماتريديُّ رحمة الله عليه: في الآية دلالةُ وصف الربِّ بمُلكِ ما ليس بموجودٍ[٣] وقتَ الوصف بمُلكه، وهو يوم القيامة.

ثبت أنَّ الله تعالى بجميع ما يستحقُّ الوصفَ به، يستحقُّه بنفسه لا بغيره، ولذلك قلنا نحن: هو الله خالقٌ لم يزل، ورحيمٌ لم يزل، وجوادٌ لم يزل، وسميعٌ لم يزل، وإنْ كان ما عليه وَقْعُ ذلك لم يكن، وكذلك نقول: هو ربُّ كلِّ شيءٍ وإلهُ كلِّ شيءٍ في الأزل وإنْ كانت الأشياء حادثةً، كما قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، وإنْ كان اليومُ بعدُ[٤] غيرَ حادث[٥].

ثم قولُه: (مالكَ يومِ الدِّين) كما قُرئ بالنصب، فقد قرأ زيد بن عليٍّ: (رَبَّ العالمين، الرَّحمَنَ الرَّحِيمَ﴾ بالنصب[٦]، وهذا[٧] على المدح، أو على النداء، وقراءةُ العامَّة بالخفض على النَّعت، وقرأ شقيقُ بنُ سلمة بالرفع على الابتداء[٨].

---

(١) في (أ): «وعلى الحضرات والفكرات والحياة والممات».

(٢) في (أ) زيادة: «ولم يزل ولا يزال».

(٣) في (ر) و(ف): «لموجود».

(٤) في (أ): «يعد».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٦٢).

(٦) «بالنصب» ليس في (ف). وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١/ ٥٥).

(٧) في (أ): «وهو».

(٨) تقدمت قراءته قريباً.

وقولُه تعالى: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إنما أضاف المُلْكَ والمِلْك إلى يومِ الدين على الخصوص؛ لأنه قد أعطى الخلق اليومَ مُلكاً ومِلكاً، والمُلَّاكُ يبخلون في مِلْكهم، والملوك يجورُون في مُلكهم، فإذا كان يوم الدِّين نُزع المِلك عن(١) كلِّ مالكٍ، والمُلك عن كلِّ مَلِكٍ، فيبقى المِلك والمُلك له على الخصوص، فلا يبقى بُخلٌ ولا جَورٌ، بل يجود في مِلكه، ويعدلُ في مُلكه، وهو وعدٌ ووعيدٌ، يقول للأولياء: أنا المَلك والمالك، أُعزُّكم بمُلكي، وأغنيكم بمِلكي، فلا يمنعُني مانعٌ، ويقول للأعداء: أنا المَلك والمالك، علمتُ ما عامَلْتُموني به، وأقدِرُ على مكافأتكم، فلا فِرار لكم عني، ولا يَدفع العذابَ عنكم دافع.

وفي تفسير ﴿ٱلدِّينِ﴾ أقاويلُ سبعةٌ:

قال ابن عباس وابن مسعودٍ والحسن البصري والسُّدِّي ومقاتل: هو الحساب، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ أي: الحساب المستقيم(٢)، واللهُ تعالى يحاسبُ العبادَ يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦].

وقال مجاهدٌ والضحاك وقتادة: هو الجزاء(٣)، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦]؛ أي: غير مَجْزِيِّين(٤)، وقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾

---

(١) في (ر): «من».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢/ ١٦٩)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١١٥)، و«تفسير البغوي» (١/ ٥٣).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٥٧)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١١٥)، و«تفسير البغوي» (١/ ٥٣).

(٤) في (أ): «مجرمين».

[النور: ٢٥]؛ أي: جزاءَهم، والله تعالى يجزي العباد يومئذٍ بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧].

وقال جماعةٌ: هو القضاء، كما في قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ أي: قضائه، والله تعالى يقضي بين خلقه يومئذٍ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال محمد بن كعبٍ القُرظي: هو التوحيد(١)، كما في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، والعزُّ والكرامةُ يومئذٍ لأهل التوحيد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الحديد: ١٢].

وقيل: الدِّين: الطاعة(٢)، قال زهير:

لَئِن حَلَلْتَ بوادٍ(٣) في بني أَسَدِ ... في دِينِ عمرٍو وحالَتْ بيننا فَدَكُ(٤)

أي: هذا(٥) يومٌ لا ينفع فيه إلا الطاعة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال الحسين بن الفضل البَجَلي رحمه الله: هو الخضوع؛ قال النبيُّ

---

(١) أورده البغوي في «تفسيره» (١/ ٥٣) بلفظ: مَلكُ يومٍ لا ينفع فيه إلا الدين.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١١٦).

(٣) في «ديوان زهير بن أبي سلمى»: «بجوٍّ».

(٤) انظر: «ديوان زهير بن أبي سلمى» (بشرح ثعلب) (ص: ١٨٣)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٧١)، و«البحر المحيط» (١/ ٦٣). قال الشارح: جوّ: واد، ودين عمرو: طاعته، وعمرو هو عمرو بن هند.

(٥) في (أ): «هو».

ﷺ لأبي طالب: «إني أدعُوكَ إلى كلمةٍ لو قُلْتَها دانتْ لك العرب»(١)؛ أي: خضعَت.

ويومُ القيامة: يومُ خضوع الخلق، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، وقال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨].

وقال يمانُ بن رئابٍ: هو القهر والغلبة جميعاً(٢)، تقول العربُ: دِنْتُه فدَان؛ أي: قَهرْتُه فخضع(٣).

وقال الأعشى فيهما جميعاً:

هو دان الرِّبَابَ إذ كَرهوا الدِّيـ ـنَ دِرَاكاً بغزوةٍ وصِيَالِ(٤)

ويومُ القيامة: يومُ قهر الجبارين وقصْمِ القهَّارين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الآيات [إبراهيم: ٤٢].

وقال الفرَّاء: هو العادة(٥)، قال المثقَّبُ العَبْدي:

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) «جميعاً»: سقط من (أ)، «والغلبة» سقط من (ف).

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (١/ ٥٣).

(٤) انظر: «ديوانه» (ص: ١١)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٣٠٠)، و«القطع والائتناف» للنحاس (ص: ١٣٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٦٣).

وجاء في هامش (ف): «قال في الصحاح: الرِّباب بالكسر: خمس قبائل تجمعوا فصاروا يداً واحدة وهم ضبة وثور وعكل وتيم وعدي، وإنما سموا بذلك لأنهم غمسوا أيديهم في رب وتحالفوا عليه، وقال الأصمعي: سموا به لأنهم ترببوا؛ أي: تجمعوا، والنسبة إليهم: رُبى ـ بالضم ـ؛ لأن الواحد منهم ربة». وقد وقع في العبارة طمس في بعض الكلمات فاستدركناها من «الصحاح».

(٥) في (أ): «العبادة».

تقـولُ إذا دَرَأْتُ لهـا وَضِيني أهـذا دِينُـه أبـداً ودِيـني

أكلَّ الدَّهـرِ حِـلٌّ وارتـحـالٌ أمَـا يُبْقِـي عَلَـيَّ ولا يَقِينـي[١]

ويـومُ القيامـة يومٌ يُبعث فيـه كلُّ أحد على عادتـه، فالكافر المنكِـرُ يُبعث على إنـكاره[٢]، يقـول الله تعالـى خبـراً عنهـم أنهـم يقولـون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٣] [الانعام: ٢٣].

***

(٥) ـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ﴾؛ أي: قولوا: ﴿إِيَّاكَ﴾، ولا بد من هذا الإضمارِ إنْ حُمل قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الابتداء أو على الإخبار، وإن حُمل على الأمر وأُضمر: (قولوا: الحمد لله) هناك، كان هذا عطفاً على ذاك من غيرِ إضمارٍ ثانٍ.

و﴿إِيَّاكَ﴾ فيها كلامٌ من جهة القراءة واللغة والإعراب والمعنى:

أمـا القراءة: فقراءة العامة بكسْـر الألف وتشـديد الياء، وقراءةُ الفضل الرَّقَاشـيِّ

---

(١) انظر: «المفضليات» (ص: ٢٩٢)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨)، و«طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٦٣)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٧١)، و«غريب القرآن» لابن عزيز (ص: ٢٢٦)، و«إعراب ثلاثين سورة» لابن خالويه (ص: ٢٥). الوضين: حزام الرحل، ودرأْتُ وَضِينَ البعيرِ: إذا بَسَطْتَه على الأَرض ثم أَبْرَكْته عليه لتَشُدَّه به. وأراد: لو قدرتْ ناقتي أن تتكلم لقالت هذا الكلام، وأشار بقوله: (هذا) إلى ما استمرت به عادته معها.

(٢) في (أ): «عادته».

(٣) زيد في (ر): «﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾».

بفتـح الألف وتشـديد الياء[١]، وقـراءةُ عُبيد بن عميرٍ: (آيـاك)[٢] بمدِّ الألف وتخفيف الياء[٣].

وقراءةُ عَمرِو بن فائدٍ: (إِيَاك) بكسرِ الأَلِف وتخفيفِ الياء[٤].

قال ابن مجاهد: ما أدري ما هي ويشبه أن تكون خطأً أو لغةً.

قـال رضـي الله عنـه[٥]: ووجهُ الغلـط أنهم قالوا: إيَـاةُ[٦] الشـمس عينُها، فكأنه يقول: شمسَـكَ نعبُـد، واعتقاده كفـرٌ، والقراءة بـه خطأٌ، وهي للصلاة مُفسِـدةٌ.

ووجـهُ اللغـة: أن تخفيـف المشـدَّد أيضـاً مسـموعٌ كمـا فـي قولـه: (ربَّمـا)

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩)، و«المحتسب» (١/ ٣٩). والفضل الرقاشي هو الفضل بن عيسى بن أبان، أبو عيسى البصري الواعظ، قال عنه ابن معين كما في «الميزان»: كان قاصًّا رجل سوء.

(٢) «إياك» ليست في (ر).

(٣) لم أجدها.

(٤) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٢٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩)، و«المحتسب» (١/ ٤٠)، و«الإبانة عن معاني القراءات» لمكي بن أبي طالب (ص: ١٢١)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٢٥)، و«البحر المحيط» (١/ ٦٩). قال مكي: (وقد كره ذلك بعض المتأخرين لموافقة لفظه لفظ إيا الشمس، وهو ضياؤها). وقوله: «وقراءةُ عَمرِو بن فائدٍ: إِيَاك، بكسرِ الأَلِف وتخفيفِ الياء) سقط من (ف). وعمرو بن فائد هو أبو علي الأسواري البصري، ذكره ابن الجزري في «طبقات القراء» (١/ ٦٠٢) وذكر له هذه القراءة، وقال عنه ابن حجر في «اللسان»: قدري معتزلي توفي بعد المئتين.

(٥) في (أ): «قال نجم الدين رحمه الله».

(٦) بعدها في (ف): «حق».

و(ربَما)، وقد قرئ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحجر: ٢] بهما جميعاً[١].

قالوا: ويجوز: (هَيَّاك) بالهاء بدلاً عن الهمزة[٢]، كما في قولهم: هيهات وأيهات.

وأمَّا اللغة: فقد قيل: أصله (إِوْيَاك)، وهي من قولهم: آوى إليه وآواه[٣]، فكأنه يقول: إليك أنقطِعُ بالعبادة والاستعانة، وهذه الكلمة ضميرٌ مكنيٌّ لا يكون إلا في موضع نصبٍ، ولا يضاف إلا إلى كنايةٍ، وقد وردت إضافتُها إلى الصريح شاذًّا: إذا بلغ الرَّجل الستِّين فإيَّاه وإيَّا الشَّوابِّ[٤].

وقال الشاعر:

دَعْنــي وإيَّــا خالــدٍ فلأَقْطَعنَّ عُــرَى نِيَاطــهِ[٥]

وفي[٦] الكلام الشائع، وفي آياتِ القرآنِ الإضافةُ إلى الكناية: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ [سبأ: ٢٤] ﴿مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧].

---

(١) قرأ نافع وعاصم بالتخفيف وباقي السبعة بالتشديد. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٣٦).

(٢) أي: بإبدال الهمزة المكسورة هاء مكسورة، والمفتوحة هاء مفتوحة. ونسبت لأبي السوار الغنوي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٢٥)، و«البحر المحيط» (١/ ٦٩).

(٣) في (أ): «آوى إليه آواه»، وفي (ف): «آوى وآواه».

(٤) انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ٢٧٩)، وقد ذكر سيبويه عن الخليل أنه سمع أعرابيًّا يقولها.

(٥) البيت لمحمد بن عيينة بن المهلب بن أبي صفرة، من قصيدة في هجاء ابن عمه خالد بن يزيد. انظر: «الأغاني» (٢٠/ ٢٤)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١١٧).

(٦) في (ر) و(ف): «وقال في».

ولا يؤتَى بها إلا مقدَّمةً على الفعل، ولا تؤخَّر إلا بفاصلٍ بالاستثناء أو العطف أو تكرارِ الكناية بها[١]: ما عنيت إلا إياك، ذكرتك وإياه، أدعوك[٢] إياك.

وأمَّا الإعراب: فقد قال الخليل بنُ أحمد: (إيَّا) سُلَّمٌ للشأن[٣]، والكافُ نصبٌ؛ أي: هي كنايةٌ مقدَّمةٌ، ولو أخَّرْتَ قلتَ: نعبدُك، فإذا قدَّمْتَ لم يمكِن التلفُّظُ[٤] بحرفٍ واحدٍ، فزادوا (إيَّا) سُلَّماً للشأن[٥] ليُتمكَّنَ منه، أو لأن الكافَ وحدها إذا تقدَّمت شابهتْ كاف التشبيه، فأزالوا الاشتباه بهذا.

وقال الفرَّاء: إنما نُصب لوقوع[٦] الفعل عليه، والكافُ[٧] خُفض بالإضافة، وبيانُه: أن هذا بمنزلةِ قولك: نَفْسَكَ نعبُد.

وأما المعنى: ففي زيادة هذه الكلمة معنىً بليغٌ، فإنك لو[٨] قلتَ: نعبدُك ونستعينك، وإن كان أَوجزَ لك، لكن[٩] في هذا النظم فوائدُ زوائدُ: موافقةُ رؤوس الآي، ونفيُ العبادة والاستعانة عن غيرِ الله تعالى، وأجلُّها: البدايةُ بذكر الله دون ذكرِ[١٠] نفسه، وهو نظرٌ من الله تعالى إلى العبادة لا من العبادة إلى الله تعالى.

---

(١) «بها»: ليست في (أ)، وفي (ف): «على».

(٢) في (ر): «ذكرت وأدعوك» بدل: «أدعوك».

(٣) في (ف): «للسان».

(٤) في (أ): «اللفظ».

(٥) في (ف): «للسان».

(٦) في (ف): «بوقوع».

(٧) بعدها في (ر): «إنما».

(٨) في (ر): «فكأنك إن»، وفي (ف): «فكأنك لو».

(٩) «لكن» سقط من (ف)، و«لك»: سقط من (أ).

(١٠) «ذكر» سقط من (ف).

وبهذا ظهر(١) علوُّ درجة نبيِّنا محمدٍ ﷺ على موسى ﷺ بقوله(٢): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال(٣) موسى صلوات الله عليه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء: ٦٢]، وهو معنىً لطيفٌ وعِلمٌ شريفٌ.

فإنْ قيل(٤): لمَ كرَّر ﴿إِيَّاكَ﴾ ولو اكتفى بالأول صحَّ؟

قلنا: لأن (إيا)(٥) في أول الكلام كالكافِ في آخره، ولو قال: نعبدُك ونستعينك، احتيج إلى تكرار الكاف، فكذلك(٦) (إيّا)، ولأن تكراره تحقيقٌ لكلِّ واحدٍ منهما مفرداً؛ أي: نعبدك لا غير ونستعين بك لا غير.

وقوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ﴾: فالعبادةُ في اللغة لمَعَانٍ:

أحدها: التذليل(٧) والقهر؛ قال تعالى: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ أي: ذلَّلتهم وقهَرتهم، ومنه قولهم: طريقٌ معبَّدٌ؛ أي: مذلَّلٌ بكثرةِ الوطء، قال الشاعر:

تُباري عِتَاقاً ناجياتٍ وأَتْبعَتْ　　　وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ معبَّد(٨)

---

(١) في (أ): «ولهذا ظهر»، وفي (ف): «وبهذا أظهر».

(٢) في (ر): «حيث قال»، بدل: «بقوله».

(٣) في (أ): «وقول».

(٤) في (ف) و(أ): «ولا يقال».

(٥) في (ر) و(ف): «إياك».

(٦) في (أ): «وكذا»، وفي (ف): «فكذا».

(٧) قوله: «التذليل» كذا في النسخ، ولعل الأولى: (التذلُّل)، كما في «الغريبين» للهروي (مادة: عبد)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٢٣)، وسيأتي إشارة لهذا في كلام المصنف. أما التذليل فهو معنى التعبيد كما في «النكت والعيون» للماوردي (٤/ ١٦٨).

(٨) البيت لطرفة من معلقته، وهو في «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لابن الأنباري =

وبعيرٌ معبَّدٌ؛ أي: مَطْليٌّ بالقَطِران، قال طَرَفةُ:

إلـى أنْ تَحامَتْني العشـيرةُ كلُّها وأُفْـرِدْتُ إفْرادَ البعيـرِ المعبَّدِ[1]

فالعبادةُ من التعبُّد، وهي التذلُّلُ لله تعالى.

والثاني: الإكرام والإعزاز، يقال: بعيرٌ معبَّدٌ؛ أي: مُكْرمٌ، قال حاتم:

تقولُ ألَا أَمْسِكْ عليك فإنَّـني أرى المالَ عندَ الباخِلين معبَّداً[2]

فالعابد[3] على هذا هو المكرَم بالإذن في الخدمة[4].

والثالث: الأَنَفة والاستنكاف؛ قال تعالى: (قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العَبِدين) [الزخرف: ٨١] على قراءةِ حذفِ الألف[5]، وقال الشاعر:

أولئـك آبائي فجئنـي بمثْلِـهم وأَعْبَدُ أنْ يُهْجَى كُليـبٌ بدارِمِ[6]

= (ص: ١٥٣)، و«شـرح المعلقات السـبع» للزوزني (ص: ٩٤). وجاء في هامش (ف): «أي سـابقت هـذه الناقـةُ نوقـاً كرامـاً حسـاناً مسـرعات، فأتبعـت وظيفـةَ يدِهـا وظيفة رجلهـا فوق طريـق مطوي بذلـك، والعتـاق جمـع عتيـق، والمور المعبـد: الطريـق المذلـل». والوظيف قـال الزوزنـي: ما بين الرسـغ إلـى الركبـة. وقـال ابن الأنبـاري: قولـه: (أتبعت وظيفـا وظيفا)، معنـاه: لم تتـكل يدها على رِجلهـا ولا رجلُها علـى يدها.

(١) البيت من معلقته. انظر: «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لابن الأنباري (ص: ١٩١)، و«شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص: ١٠٧).

(٢) انظر: «الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٣٥)، و«الزاهر» له (١/ ١٠٨)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٢٩٩). وذكره ابن سيده في «المخصص» (٢/ ٣٩٦) بلفظ: (تقول ألا تمسك عليك...).

(٣) في (ر): «فالعبد».

(٤) في (ر): «بالخدمة».

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٧)، و«المحتسب» (٢/ ٢٥٧).

(٦) نسب للفرزدق وليس في ديوانه، وورد في المصادر بألفاظ متقاربة لكن مع احتوائها جميعا على =

فالعابدُ على هذا هو الذي يأنَفُ من خدمةِ غير مولاه، ويستنكِف عن[1] التعلُّق بسواه، ولا يعبدُ ولا يستعينُ إلا إياه.

والرابع: التكليف بالأمر[2] والنهي، يقال: تعبَّده واستعبدَه: إذا كلَّفه أمرَه ونهيَه، قال الشاعر:

تَعَبَّدني نِمْرُ بنُ سعدٍ وقد أُرَى ... ونِمْرُ بنُ سعدٍ لي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ[3]

فالعبدُ هو المكلَّف أمرَ الله ونهيَه، والعابدُ هو المؤتمِر والمنتهِي[4].

وأما تفسيرُه: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: إياك نُوحِّد[5].

وقال[6] عكرمةُ: جميع ما ذُكر في القرآنِ من العبادة فالمرادُ بها التوحيدُ، وجميعُ ما ذُكر فيه من التسبيح فالمرادُ به الصَّلاةُ، وجميعُ ما ذُكر فيه من القُنوت فالمراد به الطاعةُ، وجميعُ ما ذُكر فيه من الأرائك فالمراد به السُّرُر[7] التي فوقها

= محل الشاهد. انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢١٨)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٤٥)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٢٩٩)، و«تهذيب اللغة» (٢/ ١٤١)، و«الصحاح» (مادة: عبد).

(١) في (ر): «من».

(٢) في (ف): «الأمر» بدل: «التكليف بالأمر».

(٣) أنشده ابن عباس لنافع بن الأزرق منسوبا لتبَّعٍ كما روى السيوطي في «الإتقان» (٢/ ١٠١)، والطستي كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٧٤)، وهو دون نسبة في «العين» للخليل (١/ ١٠١)، و«الصحاح» (مادة: عبد)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٢٥).

(٤) في (أ): «المؤتمر المنتهي».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٥٩).

(٦) في (ف): «قال».

(٧) في (ف): «فهي السرر»، وفي (أ): «فهي السور»، بدل: «فالمراد به السرر».

الكِلَّة(١)، وجميعُ ما ذُكر فيه من الكأس فهو القدَح مع الشراب، وجميعُ ما ذكر فيه من الرياح فهي رياحُ الرحمة، وجميعُ ما ذُكر فيه من الرِّيح فهي ريحُ العقوبة.

وقال سفيانُ بن عُيينة وجماعةٌ: معناه: لك(٢) نخشعُ ونخضعُ؛ أي(٣): بالطاعة.

وقال الحسن البصريُّ: معناه: إياك نُطيع.

وروَى الضحَّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن جبريل صلواتُ الله عليه قال للنبيِّ ﷺ: قل يا محمد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: إياك نؤمِّلُ ونرجو ربَّنا لا غيرَك(٤).

وهذا وجهٌ لو ثبتَ روايتُه لم يُحتَجْ إلى تأويلٍ سواه(٥).

وعن الضحَّاك قال: معناه: إياك نرجو ونخافُ، وهو أهلٌ لذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

وقال تعالى في مدحِ الأنبياء صلواتُ الله وسلامُه عليهم: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا

---

(١) في (ر): «الحلة». والكِلة: ستر رقيق مثقَّب يتوقَّى به من البعوض وغيره، جمعها: كِلَل. انظر: «المعجم الوسيط» (مادة: كلل).

(٢) في (ر): «إليك».

(٣) «أي»: من (أ) و(ف).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٥٩). وفي إسناده بشر بن عمارة الخثعمي الكوفي، وهو ضعيف، قال البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٨٠): تعرف وتنكر. وقال النسائي في «الضعفاء» (ص: ٦): ضعيف. وقال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ١٨٩): كان يخطىء حتى خرج عن حد الاحتجاج به إذا انفرد، ولم يكن يعلم الحديث ولا صناعته. وذكر ابن كثير عند تفسير الاستعاذة في أول «تفسيره» أن هذا الإسناد فيه ضعف وانقطاع، والمراد بالانقطاع أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٥) ولم يثبت، لما تقدم.

﴿وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال في حقِّ القانت: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وأَمَر فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال بعض أهل المعرفة: العبادةُ شَغْلُ كُلِّكَ به، وهو: شَغْلُ القلبِ بمعرفته، وشَغْلُ الروحِ بمشاهَدته، وشَغْلُ النَّفْس بخدمته، وشَغْلُ اللسان بمِدْحته.

وقيل: العبادَةُ: إجلالُ الربِّ وإذلالُ النفس.

وقيل: هي الرِّضا بالقضاء، والصَّبرُ على البلاء، والشكرُ على النَّعْماء.

وقيل[1]: تصديقُ الله تعالى فيما أَخبر، والانقيادُ له فيما قدَّر، والطاعةُ له فيما نَهَى وأَمر، والثقةُ بما رغَّب وحذَّر.

ثم قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ من العبادة ومن العُبودة.

(عبادات تواست بندكي كردن وعبودت بنده بودن، عبادت موقت است وإن كردن طاعت وست عبودت بمو بد است وإن ماندن معصيت است واست كفتني عبادت استهمه أوردن نونوي عبودت حوس بودن مردتن مال نفارت وسرقة وثواب أي بيش أز ثواب)[2].

روَى أبو أُمامةَ الباهِليُّ رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «درهمٌ واحدٌ

---

(١) بعدها في (أ): «هو».

(٢) في هامش (ف): «تعريبه: العبادة: القيام بواجب الخدمة والطاعة، والعبودية: صيرورته عبداً لا ملك ولا قدرة له، وقيل: العبادة موقتة وهو الطاعة في أوقات معينة مقدرة، والعبودة مؤبدة وهو ترك العصيان أبداً، وقيل: العبادة الصدق في الكلام والعبودة عدم التكلم بالكذب أصلا وتركُ جميع أعوانه، وقيل: العبادة فعل ما يرضى الله عنه والعبودة الرضى بما فعل الله تعالى، وقيل: العبادة إعطاء المال بطريق الزكاة والصدقة، والعبودة: الفرح بما أخذ منه من المال بطريق التعدي والظلم والنهب والسرقة، وثواب هذا أعظم من ثواب ذلك».

يأخذه السُّلطان ظلماً واعتداءً خيرٌ من أن يتصدَّق بثلاثِ مئة ألفِ درهم»[(١)].

وصاحبُ العبادة عابدٌ[(٢)]، وجمعُه: عُبَّاد، وصاحب العُبودة عبدٌ وجمعُه: عِبَاد، وقد مدح الله تعالى الملائكةَ والنبيِّين والمؤمنين بهما، فقال في حقِّ الملائكة في صفَة العبادة: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقال في صفة العبودة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقال في عبادة الأنبياء: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقال في عبودتهم[(٣)]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠] ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ [ص: ٤٥] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ [ص: ١٧] ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠] ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [النجم: ١٠]، ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن: ١٩].

وقال في حقِّ المؤمنين في صفة العبادة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال في صفة العبودة: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

فمِن العبادة: الصَّلاةُ بلا غَفلةٍ، والصومُ بلا غِيبةٍ، والصَّدقةُ بلا مِنَّةٍ، والحجُّ بلا إراءةٍ، والغزوُ بلا سمعةٍ، والعِتقُ بلا أذيَّةٍ، والذِّكرُ بلا ملالةٍ، وسائرُ الطاعات بلا آفةٍ.

---

(١) لم أجده.

(٢) في (ف): «عَبْدٌ».

(٣) في (أ): «عبادتهم».

ومن العبودة: الرِّضا بلا خُصومةٍ، والصبرُ بلا شكايةٍ، واليقينُ بلا شبهةٍ، والشهود بلا غَيبةٍ، والإقبال بلا رجعةٍ، والاتصال بلا قطيعةٍ.

وقيل: حقيقةُ العُبودةِ: تركُ الدعوى، واحتمالُ الأذى، وحبُّ المولى.

وقيل: هي أن لا يكونَ عندك للدنيا خطرٌ(١)، ولا للكونَين في قلبك أثر.

وقيل: هي حفظُ الحدود، والوفاءُ بالعهود، والرضا بالموجود، وتركُ طلَبِ المفقود.

وقال شقيقٌ: هي تركُ الدنيا لأهلها، وطلبُ الآخرة بحقِّها، وأنْ تجعلَ هواك تحت قضاءِ الله تعالى ورضاهُ، والاستعدادُ للموت والقيامة.

وقيل: علامتُها: أن لا يزيدَ في رِفعتك إلا زدتَ في التواضع، ولا يزيدَ في مالكَ إلا زدتَ في السَّخاوة، ولا يزيدَ في عمرك إلا زدتَ في الطاعة.

وقيل: هي رؤيةُ المنَّةِ، وجهدُ الخدمةِ، وخوفُ الخاتمة.

فالأول: للخليل حيث قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الآيات [الشعراء: ٧٨].

والثاني: للحبيب حيث قام حتى تورَّمتْ قدَماهُ.

والثالث: ليوسف الصديق حيث قال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

ثم العبادةُ أمرٌ خلَق اللهُ الجنَّ والإنس ليأمرهم بها، فقال(٢): ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأَمر بها الناسَ على العموم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) في (أ): «حظ».

(٢) في (أ): «قال»، وكلمة «بها» ليست في (ف).

﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وخصَّ بها الأنبياءَ فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وخصَّ من بينهم موسى فقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤].

وقال في حقِّ الأمم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال في قصةِ كلِّ نبيٍّ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وقال في بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال في حقِّ قوم عيسى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦].

وقال في حقِّ هذه الأمة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وخصَّ به المصطفى فقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]، وأمره أن يقول ذلك باللسان أيضاً فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤]، وأمرنا به أيضاً أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أي: نطلبُ العونَ ونسألُه، فإنَّ سينَ الاستفعالِ للطَّلب والسؤال.

وقال بعضُ أهل المعرفة: هي طلبُ العين؛ أي: نسألُك أن تجعلَنا نعبدُك كأننا

نُعاينُكَ، فقد ثبتَ في الحديثِ أنَّ الإحسان: «أنْ تعبدَ الله كأنك تَراهُ فإنْ لم تكن تراه فإنه يَراك»[١].

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: معناه: وإياك نستعينُ على عبادتِك.

وقال السُّدِّيُّ: معناه: وإياك نستعينُ على ما لا طاقة لنا به.

وقال الحسن رحمه الله: وإياك نستعينُ على الشيطان الذي يمنعُنا عمَّا خلَقْتنا[٢] له من عبادتك.

وقال ابن عُيينةَ: وإياك نستعينُ على محاربةِ الشيطان الذي يمنعُنا عن[٣] عبادتك.

وقال مقاتل بن سليمان: أي: بك نستعين في أمورنا على ما يُصْلحنا في دِيننا ودُنيانا.

والجامعُ للأقاويل: نسألُكَ أن تُعِيننا على أداءِ الحقوق، وإقامةِ الفروض، وتحمُّلِ المكاره، وطلبِ المصالح.

فإن قالوا: المعونةُ إنما تُطلب قبل العمل، فهلَّا قال: ﴿إياك نستعين﴾ قبل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

فجوابُه من وجوهٍ:

أحدها: أن الواو لمطلَقِ الجمع لا للترتيبِ، فمعناه: أنه يأتي بهما ولا يتركُهما[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (أ): «وإياك نستعين على ما خُلِقنا».

(٣) في (ف): «من».

(٤) في (ر): «يأتي بها ولا يتركها».

وآخَرُ[١]: أنَّ معناه: إياك نوحِّدُ وإياك نستعينُ على الثبات على التوحيد.

وآخَرُ: أن معناه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على أداء الطاعات بعد التوحيد.

وآخَرُ: أن معناه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في الحال، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على ذلك في الاستقبال[٢].

وآخَرُ: أن معناه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بظواهرنا فهي التي في وُسعِنا، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على حفظ بواطنِنا فأنت الذي تقلِّبها كيف تشاء.

وآخَرُ: أن معناه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على الرجاء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الخوف.

وآخَرُ: أن معناه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على الشكر، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الصبر.

وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك خلقْتَنا، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنك هدَيْتنا[٣].

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ[٤]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فاقْبَلْ عبادتنا وإنْ كانت غيرَ صافيةٍ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فأَعِنَّا وإنْ كنَّا غيرَ مستحقِّين للإعانة.

وقال أبو الحسن القَنَّاد[٥] رحمه الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك الصانعُ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن المصنوعَ لا غنًى به[٦] عن الصانع.

---

(١) في (ر): «ووجهٌ آخر».

(٢) في (ف): «في المستقبل» بدل: «على ذلك في الاستقبال». وجاء في هامشها ما يوافق المثبت.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١١٨).

(٤) هو الترمذي صاحب «نوادر الأصول».

(٥) في (ر): «الحسين القناد» وفي (ف): «الحسن القتاد». والمثبت من (أ)، والذي في «تفسير الثعلبي» (١/ ١١٨): (وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبا الحسن علي بن عبد الرحمن الفران وقد سئل عن الآية فقال..) وذكره.

(٦) في (ر): «له»، والمثبت موافق لما عند الثعلبي.

وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنَّا عبيدٌ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لأنك كريمٌ مَجيد.

وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنك المعبود بالحقيقة ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على لُزوم هذه الطريقة.

وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وهذا تذلُّلٌ في الظَّاهر ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على أن تَعلَم قلوبُنا أنه تَعزُّزٌ في الحقيقة والباطن، وقد[1] قال قائلُهم:

وإذا تذلَّلتِ الرِّقابُ تقرُّباً ... منَّا إليكَ فعِزُّها في ذُلِّها[2]

وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بقطع العلائق والأعراض[3]﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على الثبات على هذا الحال فإنه بك لا بنا.

وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بالإخلاص ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على المكاشفة لأسرارنا.

وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بأمرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ عليها بفضلك.

وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بالدعاء[4]﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أن تُسقطَ عنا الدعاوي وتردَّنا إلى رياض الحقائق.

وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بالتوفيق ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على شكر ما وفَّقتنا من عبادتك.

ثم الجمعُ بين الكلمتين للافتخار والافتقار، فقوله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ افتخارٌ بكونه

---

(١) «وقد»: ليست في (أ).

(٢) البيت لأبي إسحاق الصابي كما في «يتيمة الدهر» (٢/ ٣٢٥)، ودون نسبة في «لطائف الإشارات» (١/ ١٣).

(٣) في (ف): «والأعواض»، وفي (أ): «والأعواص».

(٤) في (أ): «بالدعاوي».

عبداً له عابداً له، وقولُه تعالى: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ افتقارٌ إلى معونتِهِ، واحتياجٌ إلى توفيقِه وعِصمته، كأنه[1] يقول: (بناز وسر يرادكه بيده مني، وبنو روسو فر وداركه مي معونت من برهيج مني)[2].

وقالوا: هما لتعليمِ بذل المجهودِ، وتلقينِ سؤالِ العطاءِ والجُود.

ثم تحقيقُ هذين اللفظينِ من العبد: أن لا يَخدمَ غيرَ الله، ولا يسألَ غيرَ الله، بعدما أظهرَ هذا من نفسِه أنه إياه يَعبدُ وإياه يستعين.

وقد حُكي عن سفيان الثوريِّ: أنه أَمَّ قوماً في صلاة المغرب، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرَّ مغشياً عليه، فلما أفاق قيل له في ذلك، فقال: خفتُ أن يُقالَ لي: فلمَ تَذهبُ إلى أبوابِ الأطبَّاء والسَّلاطين؟

ثم في مجموعِ الكلمتين تحقيقُ مذهب أهل السُّنة والجماعة، وهو إثباتُ الفعل من العبدِ والتوفيقِ من الله تعالى، وفيه ردٌّ على[3] الجبريَّة والمعتزلةِ[4]:

فالجبريةُ يَنْفون الفعلَ من العبد، وقولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يردُّ عليهم ذلك.

والمعتزلةُ لا يَرون التوفيقَ من الله[5]، وقولُه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يردُّ ذلك عليهم.

---

(١) في (ر): «وكأنه».

(٢) في هامش (ف): «تعريبه: كأنه يقول: افتخر وترفع... وافتخر واخفض فعبادتك بغير معونتي لست بشيء ينفع».

(٣) «على» من (ف).

(٤) في (ف): «والقدرية».

(٥) في (ف): «ربهم».

وأهلُ السنَّة والجماعةِ يقولون: من العبد الفعلُ واختيار الفعل، ومن الله تعالى خلقُ ذلك الفعلِ ومشيئةُ ذلك الفعلِ، والآيةُ تدلُّ على ذلك كلِّه.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: قولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو على إضمارِ الأمر؛ أي: قلْ هذا، ثم لم يَجعلْ له أن يستثنيَ في[1] القول به،بل أَلزمه القولَ به، فيجب أن لا يستثنيَ في التوحيد، فإن مَن استثنَى فيه عن[2] شكٍّ يُستثنَى، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال النبيُّ ﷺ: «أفضلُ الأعمال إيمانٌ لا شكَّ فيه»[3].

قال: وقولُه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه إبطالُ قولِ المعتزلة؛ لأن الاستعانة لا تصحُّ على قولهم؛ لأن تلك المعونةَ على أداء ما كلِّف قد[4] أُعطيَ العبد ذلك، إذ على قولهم لا يجوزُ أن يكون مكلَّفاً وقد بقيَ شيءٌ مما به أداءُ ما كلِّف به عند الله، وطلبُ ما أُعطيَ كتمانُ العطية، وهو كفرانٌ، فيصير كأنَّ الله تعالى أَمر[5] أن يَكفرَ نعمَه ويكتمَها[6] ويطلبها منه تعنُّتاً، وظنُّ مِثله بالله كفرٌ.

ثم لا يخلو من أنْ يكون عند الله تعالى ما يطلب فلمْ يُعْط التمامَ إذاً، أو

---

(١) في (ر): «من»، والمثبت موافق لما في «التأويلات».

(٢) في (ف) و(أ): «فعن»، وفي (ر): «فمن»، والمثبت من «التأويلات».

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٥١١)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ر): «إذ قد»، والمثبت موافق لما في مطبوع «التأويلات»، ولعل صوابها: (وقد).

(٥) في (ر): «أمره»، والمثبت موافق لما في «التأويلات».

(٦) في (ر): «ويكفرها»، والمثبت موافق لما في «التأويلات».

ليس عنده فيكونُ طلبه استهزاءً به، إذ مَن طلَب إلى آخرَ ما يَعلم أنه ليس عنده فهو هازئٌ به.

ولأن الذي يطلب إمَّا أن يكونَ لله أن لا يُعطيَه مع التكليف، فيَبْطُل قولهم؛ إذ[١] لا يجوز أن يكلِّف وعنده ما به الصلاحُ في الدِّين فلا يعطي، أو ليس له أنْ لا يعطيَ، فكأنه قال: اللهم لا تَجُرْ، ومَن هذا علمُه بربِّه فالإسلامُ أولى به[٢].

ثم قولُه[٣]: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وإنْ أُضمر فيه الأمرُ بالقول في أولِ السورة كذلك، فإنَّ الأول مغايَبةٌ وهذا مخاطَبةٌ، وكذلك قوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾، فكيف جمع بينهما؟

وجوابه: أنه سائغٌ[٤] في كلام العرب، ووارِدٌ في القرآن:

قال الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾ [الإنسان: ٢٢].

وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ﴾ [مريم: ٦٨]، ثم قال: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠] ثم قال: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وهذا كلُّه مغايَبةٌ ثم مخاطَبةٌ.

---

(١) في النسخ: «أنه»، والمثبت من «التأويلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥)، وفي نقل المؤلف شيء من الاختصار والتصرف.

(٣) في (ر): «وقوله»، بدل: «ثم قوله».

(٤) في (ف): «شائع».

وقـد وردت المغايَـةُ بعـد المخاطبة أيضـاً قال تعالـى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ﴾ [يونـس: ٢٢].

وقال النابغة:

يـا دارَ ميَّـةَ بالـعـلــياءِ فـالـسَّـنــدِ أَقْوَتْ وطـالَ عليهـا سـالفُ الأبَـدِ[١]

رجَع في هذا من المخاطَبة إلى المغايَبة.

وقال آخرُ ورجَع عن المغايَبة[٢] إلى المخاطَبة:

يـا ويـحَ نفسـي كان جِـدَّةُ خـالـدٍ وبــيـاضُ وجهِـكَ للتُّـرابِ الأَعْفـرِ[٣]

ثم اللطيفةُ فيه هاهنا: أن المحبَّ إذا ابتدأ عاتَبَ وإذا انبسَط خاطَبَ.

ومنهم مَن جعَل ابتداءَ هذه المخاطبة من قوله عزَّ وجلَّ: (مالِكَ يومِ الدِّين) على قراءةِ مَن نصَب الكافَ على النداء، ومَن قرأ: (ربَّ العالَمين) على النصبِ جعَل الابتداءَ من ذلك، ومَن جعلَهما نصباً على المدح أو على القطع كان على المغايَبة بناءً على افتتاحِ السُّورة.

وقولُه عليه السلام في حديث القِسمة: «هذا بيني وبينَ عَبْدي نصفَين»[٤]، أشار الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله إلى معنيَين فيه:

---

(١) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص: ٣٠).

(٢) في (ر): «من الغائبة».

(٣) البيت لأبي كبير الهذلي. انظر: «ديوان الهذليين» (٢/ ١٠١)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٥٦)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢٣)، و«المستقصى» للزمخشري (١/ ٦٧). والشاهد فيه قوله: وبياض وجهك، وكان حقه: وبياض وجهه. وتسمية المؤلف لما هنا بالمخاطبة والمغايبة قد سماها غيره: الالتفات. انظر: «الكشاف» (١/ ١٣)، و«البحر» (١/ ٧٣).

(٤) قطعة من حديث رواه مسلم (٣٩٥) عن أبي هريرة رضي الله، وتقدم بتمامه.

أحدُهما: أن يكون كلُّ واحدٍ منهما بين الله وعبدِه، العبادةُ من العبدِ وهي للهِ تعالى، والاستعانةُ فعلُ العبد وهي طلبُه من الله تعالى.

والثاني: أن العبادةَ من العبد لله تعالى، والمعونةَ من الله تعالى للعبد، وهذا أظهرُ؛ لأنه قال في بقية السورة: «هذا لعَبْدي ولعَبْدي ما سَأل»(١) لمَّا كان نفعُ الهدايةِ للعبد جعَله للعبد، فكذلك نَفْعُ المعونة(٢).

ثم دلَّت هذه القسمةُ على أنَّ التسميةَ ليست من الفاتحة، فإنه جعَل السورةَ نصفين، ثم جعل هذه الآيةَ المتوسطةَ نصفين، وقَبْلَها ثلاثُ آياتٍ بدون التسمية، فتصيرُ مع نصفِ هذه الآية نصفَ السورة، ونصفُ هذه الآية مع الثلاثِ الآيات التي بعدها نصف السورة، وهي سبعُ آياتٍ.

وأنه لم يَعدَّ البسملة(٣) في تقسيمها، بل بدأ بقوله: «فإذا قال العبد: الحمد لله، قال الله تعالى: حَمِدني عبدي» (٤).

وهذا قولُ قرَّاء المدينة والبَصرة وفقهاءِ الكوفة، وعلى ذلك دلَّتِ الأخبارُ وآثار الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

***

(٦) ـ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾: انتظامه بما قبله: أن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إظهارُ

---

(١) قطعة من الحديث السابق.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٦٥)، وفي نقل المؤلف شيء من التصرف.

(٣) في (أ): «التسمية».

(٤) قطعة من الحديث السابق.

التوحيد[1] من نفسه، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلبُ العونِ من ربه، وقوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ سؤالُ الثباتِ على دِينه، وهو تحقيقُ عبادته واستعانتِه.

وفي تفسير الكلمة أقاويلُ:

أحدها ـ وهو المجمَع على صحته ـ: قول عليٍّ وأبيٍّ رضي الله عنهما: ﴿ٱهْدِنَا﴾؛ أي: ثبِّتْنا على هذا الصراط المستقيم[2]، وهذا كما يقالُ للرجل: كُلْ، وهو يأكل، و: اقرأْ، وهو يقرأ؛ أي: دُمْ على ذلك واثْبُتْ عليه، وهو نظيرُ قول إبراهيمَ وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وهو[3] دعاءُ استدامةٍ واستثباتٍ، وبذلك خاطَب اللهُ جلَّ جلالُه المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

والثاني: قول مقاتل والسدِّي: ﴿ٱهْدِنَا﴾؛ أي: أَرْشِدْنا، وهو طلبُ إعطاءِ الرُّشدِ[4] في كلِّ ساعةٍ إلى الطريق المستقيم كيلا يَزيغَ عنه لحظةً؛ فعلاً ولا قولاً ولا نيةً، وكذا قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: معناه: أرشِدْنا إلى الطاعات[5].

والثالث: قولُ بعضِ المفسِّرين: إنه طلبُ الزيادة المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، قيل[6]: وهو اليقينُ والنور؛ أي: زدنا اليقينَ الصائب والنورَ الثاقبَ حتى نزدادَ كلَّ يومٍ استبصاراً، وعلى الدِّين الحقِّ ثباتاً وقراراً.

---

(١) في (ر): «للتوحيد».

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٣) عن علي، و«تفسير البغوي» (١/ ٥٤) عن علي وأبي.

(٣) في (أ) و(ف): «هو».

(٤) في (ف): «طلب الإعطاء للرشد».

(٥) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٣)، و«تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٦٦).

(٦) «قيل» زيادة من (ف).

والرابع: قولُ بعضهم: معناه: وفِّقْنا، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ أي: لا يوفِّقُهم، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ أي: لنوفِّقَنَّهم لسلوكِ سبُلنا، وقال الشاعر:

فلا تَعْجَلنِّي هَدَاكَ المَلِيكُ ... فإنَّ لكلِّ مَقامٍ مَقالاً[١]

والخامس: قولُ بعضِهم: معناه: قدِّمْنا إلى[٢] طريق الجنة؛ قال تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]؛ أي: قدِّموهم، وهو من قولهم: أقبلَتْ هَوَادي الخيل؛ أي: متقدِّماتُها[٣]، وهوادي الجبال: وجوهُها وأعناقُها، وهادِيَةُ الإجْلِ[٤]: العَنْزُ المتقدِّمةُ عليها.

وأصل الكلمة: الإمالةُ، وأغلبُ استعمالها في الإرشادِ والدِّلالة، يقال: هداه كذا، ولكذا، وإلى كذا، وثلاثتُها في القرآن: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والدلالةُ إمالةٌ، وهِدَاءُ[٥] العروس إلى زوجها ـ وهو زفافُها ـ كذلك، وإهداءُ

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٣)، و«المقتضب» (٣/ ٢٢٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٦٦)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ١٠٤)، و«الانتصار للقرآن» للباقلاني (٢/ ٦٣٨)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٠٧)، ولفظهم عدا الطبري: (تحنن علي هداك...)، وعزاه أبو عبيدة وجماعة للحطيئة.

(٢) في (ف) و(أ): «في».

(٣) في (ف): «مقدماتها».

(٤) في هامش (أ): «الإجل هو قطيع البقر والظباء».

(٥) في (أ): «وإهداء». وكلاهما صواب، قال الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٣٣٩): وأهديت العروس إلى زوجها وهديْتُها. والأخفش فصَّل فقال في «معاني القرآن» (١/ ٣٢٥): وبنو تميم يقولون: هَدَيْت العروسَ إلى زَوْجِها، جعلوه في معنى: دَلَلْتُها، وقيس تقول: أَهْدَيْتُها، جعلوها بمنزلة الهدية.

الهديَّة إلى الصَّدِيق كذلك، وإهداءُ[1] الهَدْيِ إلى الحرم كذلك، وتهادَى القومُ في المشي: إذا[2] تمايَلوا، وخرج فلانٌ يُهادَى بين اثنينِ من ذلك، والهادي: العنقُ والعصا والسائقُ[3] من ذلك أيضاً.

والهديُ المذكور في القرآن وإن ذُكِرت وجوهُه زائدةً على العشرة فحاصلُه شيئان:

أحدهما: البيان، كما في قوله عز وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧].

والثاني: خلقُ فعلِ الاهتداء في العبد، كما في قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وقد يجيءُ ثالثٌ وهو الإثباتُ على الاهتداء، وهو عين الثاني لأنه يجدِّده فيه.

فعلى[4] هذا قولُه: ﴿اهْدِنَا﴾ ليس هو سؤالَ البيانِ فإنه سابقٌ، ولا ابتداءِ الإيجاد فإنه قد أعطاه، لكنه سؤالُ التثبيت وهو تجديدُه فيه ساعةً بعد ساعةٍ.

فأمَّا وجوهُه المذكورةُ في القرآن: فقد ذُكر للبيان، وذُكر لخَلْق فعل الاهتداء، وقد تلَوْنا الآيتين.

وللتثبيت: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وللدَّعوة: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وللدِّلالة: ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

---

(١) في (ر): «وأهدى»، والمعنى واحد.

(٢) في (أ): «أي».

(٣) في (أ) و(ف): «والسابق».

(٤) في (أ): «وعلى».

وللإصلاح: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

وللإلهام: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]؛ أي: خلق الذَّكر والأنثى فألهمَهُما كيف يأتيها وتأتيه.

وللدِّين: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولليقين: ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣].

وللتَّوحيد: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢].

وللرُّسل والكتب: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ [البقرة: ٣٨].

ولأمر محمدٍ ﷺ خاصةً: ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وللقرآن خاصَّةً: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وللتوراة خاصَّةً: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى﴾ [الإسراء: ٢].

وذُكر الاهتداءُ في القرآن لوجوهٍ:

لمعرفة طرُق الدنيا: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وللاسترجاع: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وللاستنان بسَنَنِ الماضين: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

ولسلوك مذهب السنَّة والجماعة: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ولبعض أهلِ التحقيق[1] في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ كلماتٌ مليحةٌ وهو الإمامُ القشيريُّ قال:

---

(١) في (أ): «ولبعض أهل المحققين»، وفي (ر): «ولبعض المحققين».

﴿ ٱهْدِنَا﴾؛ أي: مِلْ بنا إليك، واجعَلْ إقبالَنا عليك، وكنْ عليك دليلَنا، ويسِّر إليك سبيلَنا.

اقطعْ أسرارَنا عن شهود الأغيار، ولوِّح في قلوبنا طوالعَ الأنوار، وأفرِدْ قُصودنا إليك عن دنسِ الآثار، ورقِّنا عن منازل الاستدلالِ إلى ساحات القُرب والوصال، وحُلْ بيننا وبين مساكَنةِ الأمثال والأشكال بما تكاشِفُنا به من شهودِ الجمال والجلال.

أزِلْ عنا ظلماتِ أحوالنا لنستضيءَ بنور بأنوارِ قدسك، وارفع عنا ظلَّ(١) جهدنا لنستبصِرَ بنجوم جُودك.

احفَظْنا عن(٢) النَّزَغات والوساوس، والخطَرات والهواجس، كيلا يستهويَنا آفةٌ من فشلٍ أو هوادة، أو طبعٍ أو عادة، أو كسلٍ أو ضعفِ إرادة، أو طمعِ مالٍ واستزادة(٣).

قال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: قالت المعتزلة: المراد بالهداية(٤) هاهنا البيانُ، فإنهم لا يَرون من الله عز وجل خلقَ فعلِ الاهتداء، ولو كان كما قالوا فهم(٥) والمغضوبُ عليهم والضالُّون في ذلك سواءٌ؛ لأنه قد بيّن للكلِّ(٦).

ثم في هذه الكلمةِ فوائدُ:

---

(١) في (ر): «ظلة» وفي (ف): «ظلمة»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٢) في (ف): «واحفظنا من».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٤٩ ـ ٥٠).

(٤) في (ر) و(ف): «المراد من هذه الآية».

(٥) في مطبوع «التأويلات»: «فهو»، فإن لم يكن تحريفا يكون الضمير عائداً على القائل: ﴿ ٱهْدِنَا﴾ باعتبار اعتقاده أن المعنى من ذلك البيان، والمؤدى واحد لمن تأمل.

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٦٦).

منها: أنَّ الله تعالى أمر عباده بهذا السؤالِ لأنه أهمُّ حوائجهم، وهو الذي سأله الأنبياءُ عليهم السلام والأولياءُ، قال[١] يوسفُ صلوات الله عليه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[٢] [يوسف: ١٠١]، وقال سحرةُ فرعونَ عليه لعائنُ الله: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وما ينبغي أن يُعتمد على ظاهرِ الحال، فقد يتغيَّر في المآل، واعتَبِرْ بإبليس وبرصيصا، وبلعامَ[٣] وثعلبة.

ومنها: أنه علَّم كيفيَّةَ الدعاء، وهو البدايةُ بالثناء، وقد قال عليه الصلاةُ والسلام: «مَن بدأ بالدُّعاء قبل الثَّناء فهو قَمِنٌ أنْ لا يُستجابَ له»[٤].

ومنها: أنه أَمر بهذا الدعاءِ، ولو لم يُرِدْ به[٥] الإجابةَ لَمَا أَمر به، وقد حقَّق ذلك فيما روِّينا: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[٦]، وهذا إثباتُ المباسَطةِ، وهو دليلُ حقيقةِ المحبة، وما رُوي: أن المصلِّيَ يناجي ربَّه[٧]، فقد قيل: هو في هذا، وفي إثباتِ هذه المناجاةِ إثباتُ المحبةِ والقربةِ والخصوصيَّة، فلا مناجاةَ إلا من أهل المحبة، وإلا بَعدَ نيلِ القُربة، وإلا عند ظهورِ الخصوصيَّة.

ومنها: أنَّ قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا﴾ على الجمعِ يكون لنفسه ولعامة المسلمين،

---

(١) في (ف): «فقال».

(٢) زاد في (أ): «﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾».

(٣) في (ف) و(أ): «وبلعم».

(٤) لم أجده، وروى ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٧١) عن إبراهيم التيمي قال: كان يقال: إذا بدأ الرجل بالثناء قبل الدعاء فقد وجب، وإذا بدأ بالدعاء قبل الثناء كان على رجاء.

(٥) «به» من (ف).

(٦) قطعة من حديث رواه مسلم (٣٩٥)، وتقدم.

(٧) قطعة من حديث رواه البخاري (٥٣١) من حديث أنس رضي الله عنه.

وهو إثباتُ محلِّ الشفاعةِ له، ويقول في آخِر الصلاة: واغفر[١] للمؤمنين والمؤمنات، فيشفع لهم في طلب المغفرة، ويقول: ﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، فيشفع لهم في سؤالِ مصالحِ الدنيا والآخرة، وفي القيام يقول: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ وهذا[٢] سؤالٌ لنفسه ولهم الثباتَ على الإيمان والمعرفةِ، وأنه أعظم الشفاعة، ولمَّا ثَبتت الشفاعة لكلِّ مؤمنٍ في حقِّ كلِّ أهلِ الإيمان، فما ظنُّك بشفاعة النبيِّ ﷺ في حقِّ أهل العصيان؟

وقوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: فقد قرأ نافع وأهلُ العراق والعامَّةُ بالصَّاد، وقرأ ابنُ عباس رضي الله عنهما بالسّين، وبه قرأ بعضُ القرَّاء وهو ابن كثير[٣]، وقرأ حمزة بإشمام الزاي قليلاً[٤].

فالصَّادُ لغةُ قريشٍ، والسّينُ لغةُ بني قيسٍ، والزايُ لغةُ بني عُذْرةَ.

والصّراط هو السبيل، وقيل: هو الطريق السَّوِيُّ، وقيل: هو الطريق الواضح.

وقيل: هو لغةُ الروم.

وقال أبو عبيدةَ: ليس في القرآن غيرُ اللغةِ العربية.

وقيل: لمَّا تكلَّمت العرب به صارت عربيةً أيضاً.

---

(١) في (ف): «صلاته اغفر».

(٢) في (أ): «وهو».

(٣) في (ر) و(ف): «وبه قرأ ابن كثير». وهي قراءة ابن كثير في رواية قنبل من السبعة، وقراءة يعقوب في رواية رويس من العشرة. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ١٠٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨)، و«النشر» لابن الجزري (١/ ٢٧١).

(٤) هي قراءة حمزة في رواية خلف حيث وقعت، وخلَّاد في الموضع الأول من الفاتحة. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ١٠٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨).

وقيل: هو من الاسْتراط وهو الابتلاعُ، سمي به لأنه يبتلِعُ سالكيه.

وقيل: إن المسترَط هو[١] ممرُّ الطعام، والطريقَ ممرُّ الأنام، وصارت السينُ صاداً لمطابقةِ الطاء، وكذا الضعيف يَقْوَى باتصاله بالأقوياء.

واختُلف في المرادِ به هاهنا:

فقال ابنُ عباسٍ وجابرٌ وابنُ الحنفيةِ والضحاكُ ومقاتلٌ وابن جُريجٍ: هو الإسلام[٢]، قال تعالى خبراً عن إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]؛ أي: لأضلَّنهم عن دين الإسلام[٣]، وقال لنبيه[٤] محمدٍ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

وقال عليٌّ وابن مسعودٍ رضي الله عنهما: هو كتاب الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣][٥].

وقال الحسن البصريُّ وأبو العالية الرِّيَاحيُّ رحمهما اللهُ: هو طريقُ النبيِّ ﷺ، وصاحبيه أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما[٦].

قال الله تعالى في حقِّ النبيِّ ﷺ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

---

(١) «هو»: ليس في (أ) و(ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٣ ـ ١٧٥) عن جابر وابن الحنفية، وعن ابن عباس وابن مسعود من طريق السدي، وعن ابن عباس من طريق الضحاك وابن جريج.

(٣) في (ف) و(أ): «عن دينك».

(٤) في (ر): «وقال في حق نبيه».

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٣).

(٦) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٥).

وقال في حقِّ أصحابه(١): ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ ـ ٢٠].

وعن بكرِ بنِ عبد الله المزنيِّ قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام فسألتُه عن الصراط المستقيم فقال: سُنَّتي وسُنَّةُ الخلفاءِ الراشدين من بعدي(٢).

وقال أبو سليمانَ الدَّارَانيُّ: هو طريق العبودية التي ذكرها قبله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وقال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وقال السُّدِّيُّ: هو طريقُ الجنة، فالطريقُ طريقان: طريقُ الجحيم قال تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وطريق الجنة قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ثم إنما سمِّي الدِّين صراطاً لأن مَن كان له مقصودٌ أو مطلَبٌ(٣) فإنما يصل إليه بعد قطعِ الطريق وسلوكِ(٤) سواءِ السبيل، واللهُ تعالى متعالٍ(٥) عن الأمكنةِ، لكنَّ العبد الطالب صاحبُ المكان، فلا بد له من قطعِ المسافات، ومسِّ الآفات، وتحمُّلِ الـمَخافات، ليُكرَم بالوصولِ والموافاة.

وقيل لبعض الكُبراء: ما الطريقُ إلى الله تعالى؟ فقال: عَطْفتينِ(٦) وقد وصلتَ: تدورُ مرةً فتنبذُ الدنيا وراء ظهرك، وتدورُ ثانيةً فتنبذُ العُقْبى وراء ظهرك، وقد وصلت.

---

(١) في (أ): «الصحابة».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٠).

(٣) في (ر): «أو مطلب مقصد»، وفي (أ) و(ف): «أو مقصد».

(٤) في (ف): «وسلوكه».

(٥) في (ر) و(ف): «يتعالى».

(٦) في (ر): «خطوتين».

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: أي: المستوي، يقال: أقامه فاستقام، كما يقال: أوسَعَه فاستَوْسَع، وأَرْخاه فاستَرْخَى، واللازمُ يجيءُ من ثلاثةِ أبوابٍ: من الانْفِعال كالانْقِطاع، ومن الافْتِعال كالاخْتِلاط، ومن الاستِفْعال كالاستِرْسال.

ثم وصفُ الطريقِ به له معنيان:

أحدهما: أنه مستوٍ بنفسه غيرُ مُعْوَجٍّ.

والثاني: أن سالكه مستقيمٌ فيه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾؛ أي: يُبصَرُ فيه، وكقولك: نهرٌ جارٍ؛ أي: الماءُ جارٍ فيه، ونظيرُه في القرآن: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]؛ أي: عَزَموا فيه، وقولُه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]؛ أي: ما ربحوا فيها، وقولُه تعالى: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢].

وقال بعضُ أهل التفسير: هو المستوي الذي لا يميلُ بسالكه إلى خطأ.

وقال بعضُهم: هو الذي يُفضي بسالكه إلى الجنة.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: هو القائمُ؛ أي: الثابتُ بالبراهين، الذي لا يزيلُه شيءٌ، ولا يَنقُض حُججَه كيدٌ[1].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: هو ما عليه من الكتاب والسنَّة دليل، وليس للبدعةِ إليه سبيل.

وقال أيضاً: هو ما دَرَجَ عليه سَلَفُ الأمَّة، ونطَق بصوابه دلائلُ العِبرة.

وقال أيضاً: هو ما شَهد بصحَّته دلائلُ التوحيد، ونبَّه عليه شواهدُ التَّحقيق[2].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٦٧). وفي (ر): «حجته».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٠).

قال نجمُ الدِّين[١] رضي الله تعالى عنه: وأنا أقول:

هو ما ليس عليه ظلامُ النُّكرةِ ولا غبارُ البِدعة.

هو ما لا يَضلُّ سالكُه ولا يهتدِي تاركُه.

هو ما لا يُخاف فيه قطعُ الطريق، ويُمدُّ سالكُه ببَذْرقةِ[٢] العصمة والتوفيق.

هو ما يُسهِّل إلى المقصِد، والمقصودُ وصولُ قُصَّاده، واللهُ تعالى بمِرْصاده.

***

(٧) ـ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ ﴾: هو بدلٌ عن قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، وهو كالتفسير له، والبدلُ يَتبعُ المبدَلَ في إعرابه[٣]؛ لأنه هو: إمَّا عيناً وإما اتِّصالاً[٤]، وهو كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣] فأُتبعَ الخفضُ الخفضَ، وهاهنا أُتبع النصبُ النصبَ، وهذا كقوله:

---

(١) «نجم الدين»: ليس في (أ).

(٢) في (ف): «بدرقة». والبدرقة قال في «التاج» (مادة: بذرق): بالذالِ المُعْجَمة والمُهمَلة، وقال ابْن بَرِّي: هِيَ الخفارة، وقالَ الهَروي في (فصل عصم) من كتابِه «الغريبين»: إن البَذْرقَة يُقال لها: عصمةٌ؛ أَي: يعتصْم بها، وقال ابن خَالَوَيه: ليست البَذْرَقَة عَرَبيةً، وإنما هِيَ فارسية، فعربتها العرب، يُقال: بَعَث السُّلطانُ بَذْرَقَة مع القافِلَةِ، بالذَّالِ معجَمَةً.

قلتُ (القائل الزبيدي): وأصل هذه الكلمة مُرَكبة من: بُد وَرَاه، والمعنى: الطَّريقُ الرديء، فعرَّبوا الهاء بالقافِ، وأَعجموا الذَّال. والمبذرِق: الخفير، نَقله الصَّاغَانِي.

قلت: وينتج أن المراد بها هنا: العون والمدد، وما في معناهما.

(٣) في (أ): «الإعراب».

(٤) «إما عيناً وإما اتصالًا»: سقط من (أ) و(ف).

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥]، وقولـهِ تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ١ ـ ٢].

هذا كلُّه عند الخليلِ يسمَّى: البدَلَ، وعند الأخفشِ يسمَّى: عطفَ البيان، وعند الكسائيِّ يسمَّى: الإتْباعَ، وعند الفرَّاء يسمَّى: المترجِم[١].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ هو جمعُ الذي، وهو اسمٌ موصولٌ لا يَتمُّ إلا بصِلَته[٢] ولا يُذكر بدونها، وتأنيثُه: التي، وتثنيةُ الذي: اللَّذَان، وتثنيةُ التي: اللَّتان، وجمعُ الذي: الذينَ، وجمعُ التي: اللَّاتي واللَّوَاتي واللَّائي.

وقولُه تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: مَنَنْتَ عليهم، والاسم منه: النِّعمة بالكسر، وبالفتح: التنَعُّم، وبالضمِّ: المسرَّة.

واختُلفَ في هؤلاء المنعَم عليهم: مَن هم؟ وفي هذا الإنعامِ الذي عليهم: ما هو؟

قال مجاهدٌ وأبو رَوْق[٣]: هم النبيُّون، ودليلُه قولُه في سورة مريمَ بعد ذِكر الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية [مريم: ٥٨].

---

(١) ورد هذا في مواضع من «معاني القرآن» للفراء، منها قوله فيه (١/ ١٦٨) في الشعر المشهور (لمية موحشاً طلل): وقد يجوز رفعه (أي: موحشاً) على أن تجعله كالاسم يكون الطلل ترجمةً عنه، كما تقول: عندي خراسانيةٌ جاريةٌ...، وقوله (٢/ ١٥٩) عند تفسير قول تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾: ولو جعلتَ (الحُسْنى) رفعًا وقد رفعت الجزاءَ ونوَّنت فيه كانَ وجهًا، ولم يقرأ بِهِ أحد، فتكونُ كقراءة مسروق: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدّنيا بزينةٍ الكواكبِ) فخفَض (الكواكب) ترجمة عَن الزينة.

(٢) في (أ): «بصلة».

(٣) «وأبو روق» ليس في (ف). وأبو روق ـ بفتح الراء وسكون الواو ـ هو عطية بن الحارث الهمداني الكوفي صاحب التفسير، انظر: «التقريب».

وقال ابنُ كيسانَ: هم الأنبياءُ والصِّدِّيقون.

وقال الحسنُ وعبدُ الرحمن بنُ زيدٍ: هم الأنبياءُ وأتباعُهم[١].

وقال مقاتلٌ: هم الأنبياءُ والصدِّيقونَ والشُّهداءُ والصالحون[٢].

وقال السدِّيُّ: هم الأنبياءُ والمؤمنون.

وهذه الأقاويلُ الأربعةُ كلُّها[٣] متقاربةٌ، ودليلُها كلُّها قولُه تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: هم أصحابُ موسى ـ صلواتُ اللهِ عليه ـ قبلَ أن يغيِّروا نعمةَ الله عليهم[٤]، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال الضحَّاك وابنُ جُريجٍ ووَكيعٌ: هم المؤمنون[٥]، ودليلُه قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سعيدُ بن المسيِّب: هم جميعُ مَن أنعم الله عليهم بالهدى والطاعةِ؛ لِمَا مَرَّ[٦].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٨) عن ابن زيد بلفظ: (هم النبي ﷺ ومن معه).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد عليهم: الملائكة.

(٣) «كلها» ليس في (ف).

(٤) في (ف): «قبل أن يغير الله نعمه عليهم». والخبر ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢٢) بلفظ: هم قوم موسى وعيسى من قبل أن يغيّروا نعم الله عليهم.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٨) عن وكيع، وعن ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) «لما مر»: من (أ).

وقال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَرِيُّ: هم الذين أنعم الله عليهم بالسُّنَّة[١]، وذلك دليلُ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

وقال محمدُ بن عليٍّ: هم الذين أَنعم الله عليهم بشكرِ ما أَنعم عليهم، وذلك لأنَّ النعمة إنما تبقَى لـمَن شَكَر لا لـمَن كَفَر، فإذا زالتْ فكأنَّها لم تكن.

وقال عليُّ بن الحسين بن واقِدٍ: هم الذين أنَعم الله عليهم بالشكر على السَّرَّاء والصبرِ على الضَّرَّاء[٢]؛ لأنَّ الشكر لا يَتمُّ إلا بالصبر.

وقال الحسنُ رحمه الله: هم الصحابةُ الأربعةُ، ودليلُه ما تلَوْنا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ الآية، وهي نَزَلت فيهم.

وقال الإمامُ القُشيريُّ رحمه الله: هم الذين أَنعَم الله عليهم بالهدايةِ إلى الصِّراط المستقيم؛ لأنها هي المذكورةُ قبله، وهم الأنبياءُ والأصفياء[٣].

وقال الحسينُ بن الفَضل: هم الذين أتمَّ الله عليهم النعمةَ وخَتَم لهم بالموت[٤] على الإسلام؛ لأنه هو النعمةُ بالحقيقة.

هذه أقاويل المفسرين، وفيه أقاويلُ للمحقِّقين:

قال جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ رضي الله عنه: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالعلم بكَ والفهمِ عنك[٥].

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢١) بلفظ: (طريق السنَّة والجماعة لأن البدعة لا تكون مستقيمة).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢٢) وتحرف في مطبوعه: «واقد» إلى: (داود).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥١).

(٤) في (ف): «بختمهم»، وفي (أ): «بجمهم»، بدل: «وختم لهم بالموت».

(٥) ذكره السلمي في «تفسيره» (١/ ٤٣).

وقال محمدُ بن عليٍّ الترمذيُّ: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[(١)] زمَمْت[(٢)] جوارحَهم بالهيبة عند الخدمة.

وقال أبو العباس بنُ عطاءٍ: هم طبقاتٌ، فالعارفون أَنعَم الله عليهم بالمعرفة، والأولياءُ أَنعم عليهم بالصدق والرضا واليقين والصَّفوة، والأبرارُ أَنعم الله عليهم بالحلم والرأفة، والمريدون أَنعم الله عليهم بحلاوة الطاعة، والمؤمنون أَنعم عليهم بالاستقامة[(٣)].

وقال أبو عثمان الحِيْريُّ: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بأنْ عرَّفْتَهم مهالكَ الصراط، ومكائدَ الشيطان، وخيانةَ النفس[(٤)].

وقال محمدُ بن الفضلِ رحمه الله: [﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لقبولِ ما افترَضْتَ عليهم.

وقال أبو الحسن الورَّاق]: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالإعانةِ على الاستقامةِ[(٥)] في طريق مناجاتك.

وقال بعضُ البغداديين: صراطَ مَن أَغْنَيتَه[(٦)] عن النظرِ إلى النعمة بدوامِ التنعُّم بقُربك ومؤانَستك.

وقيل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالنظر إلى جريان ما جرى عليهم في الأزل، فلم يَشْغلْهم كشفُ ذلك عن الشُّغل بك.

---

(١) «أنعمت عليهم» ليس من (ف).

(٢) في (ر): «رممت»، والمثبت من (أ) و(ف)، وهو الموافق لما في «تفسير السلمي» (١/ ٤٣).

(٣) ذكره بنحوه السلمي في «تفسيره» (١/ ٤١).

(٤) ذكره السلمي في «تفسيره» (١/ ٤٢).

(٥) في النسخ: «الاستعانة»، والمثبت من «تفسير السلمي».

(٦) في (أ): «أفنيته»، ومثله في «تفسير السلمي».

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالإيمان والهداية والتوفيق والرعاية والمراقبة والكلاءة.

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بفناء حظوظهم وقيامهم معك بحسن الأدب.

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بمشاهدة المنعِم دون النعمة.

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بإزالةِ ظلماتِ الأكوان عن سرائرهم، وطهَّرتَ أرواحهم بنورِ قُدسك، فشاهدوك بهمَمِهم ولم يشاهدوا معك سواك.

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بعبادتك على المشاهدة حتى عبدوك كأنهم يَرونك.

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن أَذِنْتَ لهم في سؤالكَ ومُناجاتك[1].

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالوصولِ، فلم يَقِفوا في الطريق.

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالقيام بحقوقِك دون التَّعريج على استِجْلاب حظوظهم، وهو قول القشيري.

وقال أيضاً: صراطَ مَن طهَّرْتَهم عن[2] آثارهم حتى وصلوا إليك بك.

وقال أيضاً: أي: حَفِظْتَ عليهم آثارَ الشَّريعة عند غَلَبات وارادات[3] الحقيقة حتى لم يخرجوا عن حدِّ العلم، ولم يخلُّوا بشيءٍ من أحكامِ الشرع[4].

وقيل: أي: أهَّلْتَهم لإنعامك وأصلَحْتَهم لإكرامك.

وقيل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ في البداية بالعناية، وفي الحال بالهداية، وفي النهاية بالحماية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وهذا

---

(١) انظر هذه الأقوال جميعاً في «تفسير السلمي» (١/ ٤٢ ـ ٤٤)، وما تقدم بين معكوفتين منه.

(٢) في (ر): «ظهرتهم من»، وكذا هي في نسخة من «اللطائف».

(٣) في (أ): «غلباته وإراداته». وفي «اللطائف»: (غلبات بَوَادِه).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥١).

في البداية، وقال تعالى: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وهذا في الحال، وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ وهذا في النهاية.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: وعلى قول المعتزلة ليس لله تعالى على أحدٍ من المؤمنين نعمةٌ ليست على المغضوب عليهم ولا الضالين؛ إذ لا نعمةَ من الله تعالى على أحدٍ إلا الأصلحُ[1] في الدِّين والبيانُ للسبيل الـمَرْضيِّ، وتلك قد[2] كانت على جميعِ الكفرة، فبَطَل على قولهم الثُّنيا[3]، وبالله العصمةُ[4].

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: فكلمةُ (غير) تجيءُ على ثلاثة أوجهٍ:

بمعنى: المُغايِر، وفارسيَّتُه: (جز)، قال تعالى: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ [الإسراء: ٧٣].

وبمعنى: (لا)، وفارسيَّته: (ني)، قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣]؛ أي: لا باغياً ولا عادياً.

وبمعنى: (إلا)، وفارسيته: (مكر)، قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]؛ أي: إلا[5].

ويجوزُ صرفُها هاهنا إلى هذه الوجوه:

فإنْ حُمِلتْ على الأول فمعناها: ثبِّتْنا على طريقِ[6] الذين أَتممْتَ النعمة عليهم، المغايرين للمغضوبِ عليهم.

---

(١) في (ر): «الإصلاح»، وفي (ف): «للأصلح»، والمثبت من (أ)، وهو الموافق لما في «التأويلات».

(٢) في (ر): «وتلك نعمة»، والمثبت من (أ) و(ف)، وهو الموافق لما في «التأويلات».

(٣) في (ر): «الثناء»، وفي (ف): «التثنا»، والمثبت من (أ)، وهو الموافق لما في «التأويلات».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٥١). وفيه: (والله الموافق) بدل: «وبالله العصمة».

(٥) «أي: إلا»: سقط من (أ) و(ف).

(٦) بعدها في (ر): «صراط».

وإنْ حُملتْ على الثاني فمعناها: على طريقِ المنعَم عليهم لا المغضوبِ عليهم.

وإنْ حُملتْ على الثالث فمعناها: إلا المغضوبَ عليهم.

وهذا على قراءة الخفض[(١)]، وقد روَى الخليلُ بن أحمدَ عن ابن كثيرٍ أنه قرأ بالنصب[(٢)]، وللنصب وجوهٌ:

أحدها: الاستثناءُ، وللاستثناء وجهان:

أحدهما: حقيقةُ الاستثناء على تفسيرِ ابن عباسٍ رضي الله عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أنهم بنو إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]، ويكون هذا سؤالَ التثبيتِ على طريق[(٣)] أهلِ الكتاب الذين آمنوا بكلِّ الأنبياء وبكلِّ الكتبِ، واستثناءِ اليهودِ والنصارى منهم الذين آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ.

والثاني: أن يكون استثناءً منقطعاً بمعنى: لا؛ أي: نسألك طريقَ[(٤)] الأولياء لا طريق الأعداء.

ووجهٌ آخرُ للنصب: أنه على الحال.

وقال الكسائيُّ: هو على القطع.

---

(١) في (أ) و(ف): «النصب».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩)، و«البحر المحيط» (١/ ٨٧). والمشهور عن ابن كثير أنه قرأ كالجمهور بالجر.

(٣) في (أ): «طرائق».

(٤) في (ف): «منقطعاً بمعنى: لا نسألك إلا طريق».

وقيل: هو على المدح، وتقديره: لا مغضوباً عليهم.

وقراءةُ الخفض ـ وهي[1] قراءةُ العامَّةِ ـ لِمَا أنه نعتُ ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وذلك مخفوضٌ بالإضافة.

ويجوز في اللغة الرفعُ على الاستئناف، بمعنى: وهم غيرُ المغضوبِ عليهم، ولم يَقرأْ به أحدٌ، فلا يُقرأُ به.

فأما المغضوبُ عليهم: فالغضبُ هو نقيضُ الرضا.

وقيل: هو إرادةُ الانتقام.

وقيل: هو تحقيقُ الوعيد.

وقيل: هو الأخذُ الأليمُ، والبطشُ الشديد.

وقيل: هو هتكُ الأستار والتعذيبُ بالنار.

ثم الغضبُ فعلٌ لا يَتعدَّى إلا بصلةٍ، وهي على وجوهٍ، ويجيء منه[2] المفعولُ به موصولاً بهذه الصلة، ثُم التثنيةُ والجمع والتأنيث يدخلُ على الصلة لا الموصولِ؛ لأن هذه الزياداتِ تدخل بعد التمامِ، وتمامُه بصِلته.

فيقال: رجلٌ مغضوبٌ عليه، و: امرأةٌ مغضوبٌ عليها، و: رجلان مغضوبٌ عليهما[3]، و: امرأتان مغضوبٌ عليهما، و: رجالٌ مغضوبٌ عليهم، و: نساءٌ مغضوبٌ عليهنَّ.

وفي ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ سبعُ قراءاتٍ:

---

(١) في (أ): «هي».

(٢) «منه»: ليست في (ف).

(٣) «مغضوبٌ عليهما»: زيادة من (أ).

بكسـر[١] الهاءِ وتسـكينِ الميـم، وهي قراءةُ أهـلِ المدينة[٢] والبصـرةِ والكوفة والشام[٣].

وبضمِّ الهاءِ وتسكينِ الميم، وهي قراءة الأعمش[٤].

وبكسر الهاء وضمِّ الميم مع الواو، وهي قراءةُ ابن كثير[٥].

وبضمِّ الهاء والميم مع الواو، وهي قراءة عيسى بن عمر.

وبكسر الميم مع الياء قراءةُ الحسن.

وباختلاس ضمة الهاء وإسكان الميم روايةُ عبد الوهَّاب عن أبي عمرو[٦].

---

(١) في (ر) و(ف): «كسر».

(٢) في (ر): «وهي قراءة الأعمش وأهل المدينة»، وفي (ف): «وهي قراءة المدينة».

(٣) وهي قراءة الجمهور عدا من سيأتي تخصيصهم. انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٩).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٢) عن الأعمش. وهي قراءة حمزة من السبعة، ويعقوب من العشرة. انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٩)، و«النشر» (١/ ٢٧٢).

(٥) هـي قـراءة ابـن كثير وقالون بخـلاف عنه، وقرأ بها من العشـرة أبو جعفـر. انظر: «التيسـير» للداني (ص: ١٩)، و«النشر» (١/ ٢٧٣).

(٦) كذا ذكر المؤلف هذه القراءة باختلاس ضمة الهاء وإسكان الميم، والذي ذكره الثعلبي فيها: بكسر الهاء وضم الميم مضمومة مختلسة. انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٢)، ومثله في «البحر» (١/ ٨١) عن الخفاف عن أبي عمرو، لكن لم يذكر الاختلاس. ووقع في مطبوع الثعلبي بدل (عبد الوهاب): (عبد الله)، وهو خطأ، فهو: عبد الوهاب بن عطاء بن مسلم، أبو نصر الخفاف العجلي البصري ثم البغدادي، ثقة مشهور، روى القراءة عن أبي عمرو، وعن إسماعيل بن مسلم عن ابن كثير، وعن أبان بن يزيد عن عاصم، توفي ببغداد سنة (٢٠٤هـ)، وقيل: سنة ست أو سبع. انظر: «طبقات القراء» لابن الجزري (١/ ٤٧٩).

بكسر[١] الهاء والميم بغير ياءٍ قراءة عمرو بن فائدٍ[٢].

فأما المرادُ بالمغضوب عليهم[٣] في هذه الآية: فقد روى عَديٌّ بن حاتم الطائيُّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: أنَّهم هم اليهودُ، والضالُّون هم النصارى[٤].

وكذا قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما[٥]، واستَشهدَ بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠][٦]، وذلك أنهم ﴿كانوا من قبلُ يَستفتِحون على الذين كفَروا﴾ [البقرة: ٨٩]؛ أي: يستنصِرون على كفار العربِ بمحمدٍ ﷺ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] لأنهم[٧] كانوا يَرْجون أن يكون محمد من ولد إسحاق وهو أبوهم، فلمَّا بُعث محمدٌ ﷺ وهو من ولد إسماعيلَ كفروا به حسداً وبغياً[٨] ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]؛ أي: انقلَبوا بسَخَطٍ على سَخَطٍ، ولعنةٍ على لعنةٍ، الأولُ بكفرهم بعيسى، والثاني بكفرهم بمحمدٍ عليهما السلام.

وكذا فسَّر الضحَّاك ومقاتلٌ والسدِّيُّ وعطاءٌ وابن جُرَيجٍ وابن كَيْسانَ، وفيه كلامٌ كثيرٌ نذكُره[٩] بعد ذكرِ الضالِّين.

---

(١) قبلها في (ر): «الحسن».

(٢) انظر هذه القراءات في: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩)، و«المحتسب» (١/ ٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٢)، و«البحر المحيط» (١/ ٨١).

(٣) في (أ) و(ف): «فأما المراد بهم».

(٤) رواه الترمذي (٢٩٥٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٨٨ ـ ١٨٩ و١٩٦)

(٦) الذي استشهد بها هو الطبري في «تفسيره» (١/ ١٨٩)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ١٧٧).

(٧) في (ر) و(ف): «وأنهم».

(٨) في (أ): «وتعنتاً».

(٩) في (أ): «يذكر».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: قيل: (لا)[١] صلةٌ مؤكِّدةٌ، ومعناه: غيرِ المغضوبِ عليهم والضالِّين، لكن زيدتْ (لا) لئلَّا يُظنَّ أنه معطوفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

وقيل: هو بمعنى (غير) الذي تقدَّم، كأنه قال: غيرِ المغضوبِ عليهم وغيرِ الضالِّين، وإنما جاز أن يُعطف بـ(لا) على (غير) لأنهما جميعاً للنفي فتَنَاسَبَا، يقال: هذا غيرُ عاقلٍ وغيرُ عالمٍ، و: هذا غيرُ عاقلٍ ولا عالمٍ، و: هذا لا عاقلٌ ولا عالمٌ.

وقيل: كلمة (لا) لفائدةٍ زائدةٍ، فإن قولك: ما جاءني زيدٌ وعمرٌو، ينفي مجيئَهما جميعاً[٢]. وقولُكَ: ما جاءني زيدٌ ولا عَمرٌو، ينفي مجيئهما جميعاً[٣] وتَفْرِقةً، وهذا أبلغُ في النفي، فكذلك في سؤال التثبيت على طريقِ المنعَم عليهم، والعصمةِ عن طريقِ الضالِّين والمغضوبِ عليهم.

وأما قولُه تعالى: ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالضَّلَالُ نقيضُ الرُّشد، وهو في القرآن لمعانٍ:

للغيِّ[٤] **والكفر**: قال الله تعالى خبراً عن إبليس لعائنُ الله عليه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩].

وللزَّلل[٥]: قال تعالى: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣].

وللخَسَار: قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥].

---

(١) في النسخ الثلاث: «ولا»، والصواب المثبت.

(٢) في (أ): «جمعاً».

(٣) في (أ): «جمعاً».

(٤) في (ر): «الضلال بمعنى الغي».

(٥) في (أ): «وللتزلل».

وللخطأ: قال تعالى خبراً عن إخوةِ يوسف صلوات الله عليهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

وللبطلان: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١].

وللجهالة: قال تعالى خَبَراً عن موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

وللنسيان: قال الله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وللتَّلاشي: قال تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠].

وفي هذه الآيةِ هو ضلالُ الكفر؛ لأنه مقابَلٌ بالإيمان المذكورِ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ثم[1] هو كفرٌ مخصوصٌ؛ لأنهم معطوفون على المغضوب عليهم، فالظاهرُ أنهم غيرهم، وقد قلنا: إنه رُوي أنهم النصارى.

ثم الغضبُ والضلال وردا جميعاً في القرآن لجميع الكفار على العموم، ولليهود والنصارى جميعاً على الخصوص:

قال الله تعالى في حقِّ جميع الكفار: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧].

وقال في حقِّ اليهود: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال في حقِّ النصارى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ

---

(١) «ثم»: من (أ).

كَثِيرًا ﴾ إلى أن قال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ٨٠].

وإنما خصَّ اليهود بالغضب في هذه الآية والنصارى بالضلال؛ لأن وعيد الغضب فوق الوصف بالضلال؛ لأن الغضب هو إرادة الانتقام لا محالةَ، واليهودُ أحقُّ[1] بذلك؛ لغايةِ قبحِ كفرهم، وبلوغِهم الغايةَ في التمرُّد والمعاندة، فقد قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: هو بخيل، وقالوا: إن الله تعالى خلَق السماوات والأرض في ستة أيامٍ فلَغِبَ[2] فاستراح يوم السبت، وكانوا يعادُون جبريل صلوات الله عليه وسلامُه، وكانوا يقتلون النبيين بغيرِ الحق، وقصدوا قتلَ عيسى صلوات الله عليه، وقالوا: قد قتلناه، وقالوا على مريم ﴿بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦] وحَرَّفُوا التوراة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] فاستحَقُّوا بذلك كلِّه الغضب.

وأما الضلالُ فهو الميلُ عن الطريق المستقيم، والنصارى قد عدَلوا عنه بعد غايةِ التبيين، فقد دعاهم موسى وعيسى ومحمدٌ عليهم الصلاة والسلام بالتوراة والإنجيل والفرقان، فهم في غايةِ الضلالة بعد وقوع البيان على الكمال، ولأنهم في غاية العمَى والتَّمادي في التَّردِّي بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقولِهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وذلك لأنهم[3] رأوه بدعائه يُصِحُّ المرضى ويُحيي الموتى وكذا وكذا، وذاك شيءٌ أعطاه الله عزَّ وعلا معجزةً له، واللهُ تعالى هو الـمُوْجِدُ والـمُظْهِر لذلك، فجعلوه من عندِ عيسى نفسِه، واتَّخذوه

---

(١) في (ف): «ألحقوا».

(٢) في (ر): «فتعبَ». وفي هامش (أ): «اللغوب الإعياء».

(٣) في (أ): «أنهم».

إلهاً وأشرَكوا به، مع ما رأوه يأكلُ ويشرب، ويجيءُ ويذهب، ويستريحُ ويتعب، ولم يكن لهم من الفطنةِ ما يعلمون أن المضطرَّ المغلوبَ المقهورَ المربوب لا يكون إلهاً، فيَرجعوا إلى ما رجع إليه إبراهيم حيث قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] إلى أن قال: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

ولأن[١] المغضوبَ عليه لا ينال الرِّضى أبداً، فكذلك اليهود لا يُسلِمون أبداً[٢]، فأما الضالُّ فقد يهتدِي.

وقد رُوي أن عيسى صلوات الله عليه حين ينزل من السماء في آخِر الزمان يدعو النصارى إلى الإيمان بمحمدٍ فيؤمنون، وبعد الضلالِ يَهتدون.

وقال بعضُ المحقِّقين: المغضوبُ عليهم هم المعاندون من أهل الكتاب، والضالُّون هم المقلِّدون منهم، كما[٣] قال تعالى في حقِّ المعاندين منهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال في حق المقلِّدين منهم: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، وقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

---

(١) في (ر): «لأن».

(٢) فيه نظر، فلا يخلو الأمر من يهود أسلموا وحسن إسلامهم من لدن النبي ﷺ وحتى يومنا هذا، وهؤلاء وإن كانوا بجانب غيرهم من الملل الذين أسلموا قليل، لكن النظر في التعميم.

(٣) «كما»: من (أ).

﴿مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقال: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

ثم الغضبُ للمعاندين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ [الشورى: ١٦] والضلالُ صفةُ المقلِّدين قال: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ثم في مجموع الكلمتين كلامٌ كثيرٌ للسلف:

قال سهل بن عبد الله التُّسْتَريُّ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالبدعة ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن السنَّة.

وقيل: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: المكابرون، والضالون: المرتابون.

وقيل: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: المشركون، والضالون: المنافقون.

وقيل: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: أئمة الكفر، والضالون: أتباعُهم.

وقيل: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: الكافرون، والضالون: المبتدِعون.

وقيل: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: الموقَعون في مَهاوي الرَّدَى، والضالُّون: الحائدون(١) عن طريق الهدى باتباعِ الهوَى.

وعلى لسان أهلِ المعرفة:

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ برؤية الأفعال، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بطلبِ الأعواض على الأعمال.

وقيل: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ بتركِ حُسنِ الأدب في أوقاتِ القيام بخدمتك، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن رؤية منَّتك.

---

(١) في (أ): «الجائرون»، وفي (ر): «الحائرون».

وقيل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بالعُجب والمراءاة[١] ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ عن مراعاة السُّننِ في أركان العبادات.

وقيل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بأنْ وكَلْتَهم إلى أنفُسهم ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بتركِ اعتصامهم بك وتمسُّكِهم.

وقيل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: الذين صدَمَتْهم[٢] هواجِمُ[٣] الخذلان، وأدركتهم[٤] مصائبُ الحرمان، وكبستهم[٥] سَطْوةُ الردّ، وغلَبَتْهم صدمةُ الصدّ.

وقيل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بنسيانِ التوفيق والعصمة ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ عن شهود سوابق[٦] الاختيارِ والقِسمة.

وقيل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لتضييعِهم آداب الخدمة، وتضجيعهم[٧] في أداءِ شروط الطاعة.

وقيل: هم الذين تقطَّعوا[٨] في مفاوِز الحرمان، وتبدَّدت بهم الهمومُ في أوديةِ وجوهِ الحسبان.

---

(١) قوله: «بخدمتك، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ عن رؤية منَّتك، وقيل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بالعُجب والمراءاة» وقع بدلا منه في (ف): «للطاعات».

(٢) في (أ): «وقيل المغضوب عليهم الذين صدمتهم».

(٣) في (ر): «هواجر».

(٤) في (ر) و(ف): «ودركتهم».

(٥) في (ر): «وكستهم»، وفي (ف): «وكسبتهم».

(٦) في (أ): «سابق».

(٧) أي: تقصيرهم، قال في «القاموس» (مادة: ضجع): ضجَّع في الأمر تضجيعاً: قصَّر.

(٨) في (ر): «ينقطعون»، وفي (ف): «يقطعون».

وقيل: قولُه تعالى: ﴿اهدنا﴾؛ أي: ثبِّتنا على طريق الذين أنعمتَ عليهم بتوفيقِهم لحمدك[1]، ورؤيتِهم استحقاقَ الحمدِ لك دون غيرك، لا على طريق ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين استجازوا[2] حمدَ غيرك، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين إذا حَمِدوك شاهدوا فعلَهم في حمدك[3]، وغفلوا عن رؤية منَّتك في توفيقِهم لحمدك[4].

وقيل: أي: ثبِّتنا على طريق الذين أنعمتَ عليهم فقلتَ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، واعصِمْنا عن طريقِ المغضوب عليهم والضالِّين الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، فاجعَلْنا من أحبَّائك[5] الذين صحَّ لهم المعنى، ولا تجعَلْنا من أعدائك الذين قطَعَهم عنك كاذبُ الدَّعوى.

وقيل: أي: ثبِّتْنا على طريقِ الذين أنعمتَ عليهم فرضِيْتَ عنهم إذا رضُوا عنك بما كان عليهم منك، ولا تجعَلْنا من الذين[6] غضبْتَ عليهم إذا سَخِطوا عنك بما أصابهم من مكروهٍ سَبق به القضاءُ منك، ولا من الذين ضلُّوا عن الطريق، بأنْ قصَدوا في سلوكِ الطريقِ عينَ الطريق، وإنما أُمروا بسلوك الطريقِ للوصول[7] إلى مَن أمَرهم بسلوك هذا الطريق، فإذا نازَلوا الطريق فقد انقطَعوا عن الوصول، وحُجبوا عن الدخول، وليس كلُّ مَن وصَل دخل[8]، ولا كلُّ مَن دخَل قرُب، ولا

---

(١) في (أ): «بحمدك».

(٢) في (ف): «استخاروا».

(٣) في (أ) و(ر): «بحمدك».

(٤) «لحمدك»: سقط من (أ).

(٥) في (ر): «أحبابك».

(٦) في (أ) و(ف): «ممن».

(٧) في (ر): «الموصل».

(٨) في (ر) و(ف): «حصل».

كلُّ مَن قرُب بُرَّ، ولا كلُّ مَن بُرَّ خُصَّ، ولا كلُّ مَن خُصَّ بُقِّي[١]، فكم مِن مقرَّبٍ بُعِّدَ ومختصٍّ طُرِد.

ثم ذكر هاهنا الهدى والصِّراط، فأضاف[٢] الهدى إلى نفسِه في قولهِ جلَّ جلالُه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠] وأضافَهُ إلى العباد في قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وأضاف الصِّراط إلى نفسه في قولهِ عزَّ وعلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٣]، وأضافهُ إلى العباد في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وكذا قال في الدِّين: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] ثم قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وذلك[٣] لوجوهٍ:

أحدُها: أن ذلك كلَّه له[٤] شرعاً ولنا نفعاً، هو الذي شرَع ذلك وجعَل لنا نفعَ ذلك، ولأنها له ارتضاءً واختياراً ولنا سلوكاً وائتماراً، ولأنه أيضاً أضافه إلى نفسه قَطْعاً لعَجَب العبد ثم أضافها إلى العبد تسكيناً لقلبِ العبد، ولأنه أضافها إلى العبد تشريفاً له وتقريباً ثم أضافها إلى نفسه قطعاً لطمع إبليسَ عنه وتخييباً.

وهذا كما قيل: لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] قال اللَّعين[٥]: إنْ لم أقدِرْ على سلب عزَّةِ الله وعزَّةِ رسوله أسلُبُ عزةَ[٦]

---

(١) في (أ): «نقي».

(٢) في (ر) و(ف): «وأضاف».

(٣) في (ف): «وهذا».

(٤) في (ف): «لله».

(٥) في (أ): «الشيطان». وفي (ف): «الشيطان اللعين».

(٦) في (ف): «عز الله وعز رسوله أسلب عز» وفي (ر): «عن الله ورسوله أسلب عن».

المؤمنين، فقال الله جل جلاله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، فقطَع طمعه عن ذلك.

وقول القارئ: (آمين) بعد تمام السورة(١) فيه لغتان(٢):

(أَمِينَ) بالقصر، قال الشاعر:

تباعَدَ مِنِّي(٣) فُطْحُلٌ إذ لَقِيتُهُ ... أَمِينَ فزاد الله ما بيننا بُعداً(٤)

و(آمِينَ) بمدِّ الألف، قال الشاعر:

يا ربِّ لا تَسْلُبَنِّي حبَّها أبداً ... ويرحمُ اللهُ عبداً قال آميناً(٥)

و(آمين) بالإمالة لغةٌ، وهي قراءةٌ أيضاً(٦).

ولو قيل: (آمِّين) بالتشديد فهو خطأٌ في هذا الموضع، وذكر شمسُ الأئمَّة أبو محمدٍ عبدُ العزيز بنُ أحمدَ الحَلْوانيُّ رحمه الله(٧) وجهاً لهذا؛ تصحيحاً لكلام

---

(١) وليست من الفاتحة إجماعاً. انظر: «روح المعاني» (١/ ٣١٥)

(٢) في (ر) و(ف): «لغات».

(٣) في (أ): «عني».

(٤) البيت لجبير بن الأضبط كما في «المحرر الوجيز» (١/ ٨٠)، و«التاج» (مادة: فطحل)، وذكره دون نسبة ابن السكيت في «إصلاح المنطق» (ص: ١٧٩)، وابن الأنباري في «الزاهر» (١/ ٦٦)، والجوهري في «الصحاح» (مادة: أمن).

(٥) البيت لمجنون بني عامر، واسمه قيس بن مُعاذ المعروف بالملوّح كما في «التاج» (مادة: أمن)، وذكره دون نسبة ابن السكيت في «إصلاح المنطق» (ص: ١٧٩)، وابن الأنباري في «الزاهر» (١/ ٦٧)، والجوهري في «الصحاح» (مادة: أمن).

(٦) انظر: «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص: ٣١٦)، وفيه: روى ابن مهران: (آمين) بالإمالة وإن لم يكن من القراءات، وجوز فيها الفتح كالباقين.

(٧) من أهل بخارى، إمام أصحاب أبي حنيفة بها في وقته، توفي سنة ثمان أو تسع وأربعين وأربع مئة =

العامَّـة، وصيانـةً لصلاتهـم[1] عـن الفسـاد، أن معنـاه: ندعُـوكَ قاصديـنَ إجابتَك. فإن تفسـير الآمِّين بالتشـديد هـم القاصدون، قـال تعالـى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وعن جعفرِ بن محمدٍ الصَّادقِ أنه فسَّره بما يدل على أنه كان يشدِّده[2]، فإنه قال: أي: قاصِدِين نحوك وأنت أكرمُ مِن أن تخيِّبَ قاصِدَك[3].

وكذلك قال الحسينُ بن الفضل البَجَليُّ: معناه: قصَدْناك بهذا الدعاء فأَجِبْه لنا.

وفي[4] إعرابه وجوهٌ:

أفصحُها[5]: الفتحة، وهي القراءة الظاهرةُ، ووجهُه: أنه من الأدوات وهي مبنيةٌ، والأصل في[6] البناء السكونُ، وعند الْتِقاء الساكنَين يُضطرُّ إلى التحريك فيُفتح؛ لأن الفتحة أخفُّ الحركات كما في سوف وكيف وأين، وقد يسكَّن للوقف، وقد يُكسَر أيضاً لأن السَّاكن إذا حرِّك كُسر، وقد[7] قال الشاعر:

فـإنْ تُصِبْـكَ مـن الأيـام جائحـةٌ ... لم نَبْـكِ منـك علـى دُنيـا ولا دِيـنِ

= بكَشّ، وحمل إلى بخارى فدفن بها، ومن تصانيفه: «المبسوط»، والحلواني بفتح الحاء المهملة وسكون اللام نسبة إلى بيع الحلوى. انظر: «اللباب في تهذيب الأنساب» (ص: ٣٨٠)، و«الجواهر المضية» (ص: ٣١٨).

(١) في (ر): «للغتهم».

(٢) في (ر): «يشدد».

(٣) انظر: «تفسير السلمي» (١/ ٤٥)

(٤) في (ف): «ولنا في».

(٥) في (أ) و(ف): «أصحها».

(٦) في (أ) و(ف): «وأصل» بدل: «والأصل في».

(٧) «قد»: زيادة من (أ) و(ف).

ولا نقـــولُ إذا يومـــاً نُعيـــتَ لنـــا إلا بآميـــنِ ربَّ العـــرشِ آميـــنِ[١]

أي: لا نقول إلا: اللهمَّ استجِبْ لنا[٢].

وقد ذُكر فيه الرفعُ على النداء، على تأويلِ مَن جعَله اسماً لله تعالى، كأنه قال: يا آمينُ.

فأمَّا تفسيرُه:

ففيما رواه ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ: «ربِّ افعَلْ»[٣].

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: معناه: كذلك يكون[٤].

وقيل: أصلُه فارسيةٌ، ومعناه[٥]: مُهيمنٌ.

وقال مجاهدٌ: هو اسمٌ من أسماء الله تعالى[٦]، ومعناه: أنه آمنٌ من الزوال، ومأمونٌ من جَوره، ومؤتمَنٌ على كلِّ شيءٍ، ومهيمنٌ؛ أي: شهيدٌ.

---

(١) البيتان في «الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٦٦).

(٢) «أي: لا نقول إلا: اللهمَّ استجِبْ لنا» سقط من (أ) و(ف).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. وروي أيضا من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به، كما «تفسير ابن كثير»، وكلاهما لا يصح، فإن الكلبي وجويبر متروكان.

(٤) انظر: «الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٦٦)، و«تفسير أبي الليث» (١/ ٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٥).

(٥) في (ر): «معناه».

(٦) انظر: «الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٦٦)، و«تفسير أبي الليث» (١/ ٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٥).

وقال [عبدُ الرحمن بن] زيد بنِ أسلمَ: (آمين) كنزٌ من كنوز العرش لا يَعلمُ تأويلَه إلا اللهُ تعالى[١].

وأمَّا فتحُه على تفسيرِ مَن جعَله اسماً لله[٢] تعالى - ومِن حقِّه الرفعُ لأنه نداءٌ - فلأنه نداءُ نُدْبةٍ، وأصله: يا أميناه، وحُذفت الهاء والألف تخفيفاً فبقيتِ النونُ على الفتح.

ثم هي عند مجاهدٍ من السورة[٣]، وعند غيرِه ليست منها.

ورُوي أنَّ النبي ﷺ لمَّا قرأ الفاتحة قال له جبريل: قُلْ: آمين[٤].

وقال عليه السلام: «آمين خاتَمُ ربِّ العالَمِين على عباده المؤمنين»[٥].

وسمع عليه الصلاة والسلام رجلاً يدعو ليلاً، فقال له عليه الصلاة السلام: «اخْتِمْ بآمِينَ وأَبْشِرْ»[٦].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٥)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) في (أ) و(ف): «اسم الله».

(٣) ذكره الآلوسي في «روح المعاني» (١/ ٣١٥) وبالغ في رده، فقال: وما قيل: إنها من السورة عند مجاهد، فمما لا ينبغي أن يلتفت إليه، إذ هو في غاية البطلان، إذ لم يكتب في الإمام ولا في غيره من المصاحف أصلاً، حتى ذَكر غيرُ واحد أن مَن قال: إنَّ (آمين) من القرآن كفَر.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٩٦١) عن أبي ميسرة، وزاد: (فقال: آمين). وهو مرسل.

(٥) رواه الطبراني في «الدعاء» (٢١٩)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٤٤٠)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٣٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي إسناده مؤمَّل بن عبد الرحمن وأبو أمية إسماعيل بن يعلى، وهما ضعيفان، وقال ابن عدي في مؤمل: عامة أحاديثه غير محفوظة. وقد أورده ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٧٩) من قول علي رضي الله عنه بلفظ: آمين خاتم رب العالمين يختم بها دعاء عبده المؤمن، ومثله ذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٤٥) من قول كعب الأحبار.

(٦) رواه أبو داود (٩٣٨) من حديث أبي زهير النميري رضي الله عنه - واسمه: يحيى بن نفير -، وفيه أن =

وروَى ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما عنه ﷺ أنه قال: «الدَّاعي والمؤمِّنُ شريكان»(١)، يعني به قولَه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩].

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «إذا قال الإمامُ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فإن الإمام يقولُها والملائكةُ تقولُها، فمَن وافَقَ تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدَّم من ذَنْبه»(٢).

وفارسية التعوُّذِ والتسميةِ والفاتحة على بسطٍ يأتي على أكثرِ الأقاويل فيها: (هداي اند خسم وبناه من خواهم، ونكاه داشت متجواهم، دامان متجواهم، وناوي متجواهم، وفرياد مي خواهم بهداي كه معبود بحق الله واند خسر اده خلق أست واله كشده أهل شوق أست وقديم وأزك أست وعظيم وعلى أست وعقلها حيران أست در عظمت أو ود لها با أرام أست در مشاهدة أو ديدها محجوب أست در دينا أردويت أو أرديور يده ورايده ودرحوت وهلاكت مانده وبي ورمان لي درمان نا عدوان باطغيان مي كنم بنام خداي بخشنده بخشانيده هنده أمر زنده هانفد سانيده خواننده خواهنده فكويند سباس وستائش مرخد أي راسد دخن أخبار داري وسباس مرخد أي راجون ابتدا داري وجامع مربعاني حمد را ابن بود بنا مر خد أي رزكه تهمة تناها سن أست وشكر وراس همه يعميها لدى حدوتي عنتها أست

= النبي ﷺ قال في رجل كان يدعو ويلح في المسألة: «أَوْجَبَ إن خَتَم»، فقال رجل من القوم: بأي شيءٍ يَختِمُ؟ فقال: «بآمين، فإنه إن ختمَ بآمين فقد أَوْجَبَ» فانصرفَ الرجلُ الذي سأل النبي ﷺ فأتى الرجلَ فقال: اختِمْ يا فلان بآمين وأَبشِرْ.

(١) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٣٠٩٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال المناوي في «فيض القدير» (٣/ ٥٣٦): وفيه إسماعيل الشامي قال الذهبي: ممن يضع الحديث، وجويبر بن سعيد وقال الدارقطني وغيره: متروك.

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٢)، ومسلم (٤١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورضا بقضاوي بدحكم وبادشاتي وراست وستايشها همه وراكه صفات وي سري مدحت وتناست أفريد كار ومر دركا رهمه جهانيان أست ودره حيري بر ألوهيت وربوبيت ووحدانيت بر قدرت أو شان أست ورري دهنده بند كان أست كسانيده نوعا صيان أست بادشاه ورري وسخيزات كه درري حساب وجزا وحكم وقضا وكدامت موحدان وتواحت مطيعان وخضوع جباران وقهر قهاران وجحود كافران أست درانيم براخوانيم وتراخواهيم وبرثيات وتراباشيم وترابرشيم وإياك نستعين وياري ارتواخيم برتبات برايمان وكرار دقومان ومخالفت شيطان وكشيدن باركران ويسكان داس أشكار أونهان بدارها وأبدراه إيمان موافقت قومان ومتابعت أنبياء وناران وهمت نيكواكاران وتوفيق ده مارا بر طاعات وبيقر أي مار أبريقين وتعت وبنش فرشت ما راد دراه جنت ونكاه دار ما راين طريق سنت ودور دارمادا ارجهودان وترسايان وراندينان كم راهان وناكر وندكان وهو أداران وخدمت نا أرند كان ومن نابيند كان ودررفت راه يراه بسنده كنبد كان ودر كر دكار بكار بسنده كفعد كان آمين أي موا حوف فتاني ودر فعل توجور وجفاني ودرقول نو خلف وخطابي ودر علم توهيج حيدرا جفاني همنن دمكهحوا استيم كه خزتوا جانب كشده دعائي)[1].

---

(١) في هامش (ف): «تعريبه الحاصل من قوله: (وفارسيته التعوذ والتسمية والفاتحة): اطلب الهدى، واطلب الالتجاء والحفظ والأمان والصحبة، واطلب الغوث بالله المعبود بالحق رب العالمين، ومحير أهل الشوق القديم العظيم العلي، حارت العقلاء في عظمتك، والقلوبُ دهشة في مشاهدتك، محجوبةٌ في الدنيا عن رؤيتك، حتى بقوا في الحيرة وصارت بلا إذن متعدين طاغين، أرفع صوتي باسم الله الوهاب، المعطي الحي الواحد، كلهم ناطق بحمد الله، إن كنتَ بدعائك مبتدئا فعليك بالحمد، فإنه جامع المعاني لكل ثناء وشكر على كل نعمة حادثة، ونرضى بقضائه وحكمه وصفاته، خالق الخلائق، أهل الدنيا وكل موجود ينطق بوحدانيته وأنه قادر يعطي كل أحد رزقه المطيع والعاصي، القاهر الرازق بلا حساب، ويوم الجزاء لا حكم إلا لله، يكرم فيه الموحدون =

ثم من لطفِ الله جلَّ جلالُه أنْ أكرَمَنا بهذه السورةِ، وأتمَّ لطفَه علينا[(١)] بمحمدٍ رسولِهِ ﷺ نبيِّ الرحمة، فقال في أول هذه السورةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وقال في حقِّ محمدٍ[(٢)] نبيِّه ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

ثم قال هاهنا: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال في حقِّ رسوله: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)] [الأنبياء: ١٠٧].

ثم قال هاهنا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقال في حقِّ رسوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم قال هاهنا: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وقال في حقِّ رسوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ٣٣].

ثم قال هاهنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقال في حقِّ رسوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

ثم قال هاهنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقال في حقِّ رسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

= والمطيعون، ويخضع فيه الجبارون ويقهرون، نسألك الثبات على الحق والاستعانة على ثبات الإيمان ومخالفة الشيطان، ووفقنا لمتابعة الأنبياء، وألحقنا بالصالحين، وثبتنا على اليقين والتقوى والطريق، ونجنا من طريق اليهود والنصارى وأهل الضلالة، واحفظنا من الخوف وعلمنا، ولا يسمع الدعاء سواك».

(١) في (ر): «وأتم نعمته».

(٢) كلمة: «محمد» ليست من (ف).

(٣) في (ر): «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

ثم قال هاهنا: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقال في حق رسوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [يوسف: ٦].

ثم قال هاهنا: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقال في حق رسوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

ثم يقولُ قارئ السورةِ: آمين، وهو خاتمُ ربِّ العالمين، والمصطفى محمدٌ[١] خاتمُ النبيين، اللهم صلِّ عليه وسلم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين[٢]، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين.

* * *

---

(١) كلمة: «محمد» ليست في (ف).

(٢) «اللهم صلِّ عليه وسلم عليه وعلى سائرِ الأنبياء والمرسلين» من (ف).

سُورَةُ البَقَرَةِ

سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي أنزل الكتابَ بلا ريب، الرحمنِ الذي لَطَف بالمؤمنين المتَّقين بالغيب، الرحيمِ الذي مَنَّ على المقصِّرين بسَتر العيب.

وانتظام هذه السورة بالفاتحة من سبعةِ أوجهٍ: بواحدٍ واثنين وثلاثةٍ وأربعةٍ وخمسةٍ وستةٍ وسبعةٍ.

أما الواحدُ: فالفاتحة أمُّ الكتاب، وافتتاحُ هذه السورةِ بـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، ولأن الفاتحة أولُ سورةٍ أُنزلت بمكةَ والبقرةَ أولُ سورةٍ أنزلت بالمدينة.

وأما الاثنان: فإن الفاتحة قسمان: ثناءٌ ودعاءٌ، وهذه السورة أولُها ثناءٌ وآخرُها دعاءٌ، فإن: ﴿الٓمٓ﴾ فيها أقاويلُ كثيرةٌ:

منها: أنه اسم الله الأعظم.

ومنها: أن معناه: أنا الله اللطيف المجيد.

ومنها: أنا الله أعلم.

وذاك[1] ثناءٌ على الله، وآخِرُ السورةِ سؤالاتُ الحاجات من الله جلَّ جلاله.

وأما الثلاثةُ: فإن أولَ الفاتحة بيانُ ألوهية الله تعالى وربوبيَّته، ورحمتِهِ وملكه،

---

(١) في (ر) و(ف): «ومنها أن ذلك».

وفيه تعليمُ توحيدِ الله تعالى ومعرفتِه، ووسطَها إخبارُ العبد عن عبادتِهِ وعُبودته[١] واستعانتِهِ، وهو تعريفُ العبد سلوكَ طريق شريعتِهِ وحقيقته، وآخرَها سؤالُ الثبات على ذلك والعصمةِ من مخالفته، وفيه تلقينُ العبد الرجوعَ إلى الله تعالى في طلبِ مصالحِ دنياهُ وآخرتِهِ.

ومجموعُ هذه السُّورة أقسامُ هذه الصُّورة، فإنه ذكَر الإيمانَ في أوَّلها وأثنائها وآخرِها: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية [البقرة: ١٣٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥]، والآياتُ التي فيها بيانُ وحدانيَّته جلَّ جلالُه[٢]: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٥].

وذكر نفسَ العبادة في قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وتفاصيلَ العبادة: من الصلاةِ واستقبالِ القبلة فيها والخشوعِ فيها، والصومِ والزكاةِ وسائرِ الصَّدقات والنَّفقات، والحجِّ والعمرةِ والجهادِ والاعتكافِ والوصيةِ وإيتاءِ المالِ على حبِّه.

وتفاصيلَ العبودة[٣]: من التَّقوى والصبرِ والشكرِ واجتنابِ الخمر، والوفاءِ بالعهد وتركِ الحرام، والانقيادِ للأحكام من القصاصِ والطلاقِ والنكاحِ والمتعةِ والإنفاقِ والعِدَّةِ والرَّجعةِ والرَّضاعِ والإيلاءِ والحيضِ والولادةِ، والمبايعاتِ والمدايَناتِ والرُّهونِ والأماناتِ في تفاريقِ الآيات.

---

(١) في (ر) و(ف): «وعبوديته».

(٢) في (أ) و(ف): «وحدانية الله» بدل: «وحدانيته جل جلاله».

(٣) في (ر) و(ف): «العبودية».

وذكر الدَّعواتِ من آدم في أوَّلها ومن إبراهيمَ صلواتُ الله عليهما في وسطِها، ومن المؤمنين من سؤالِ الحُسنيين من بعدها، ومن المصطفى ﷺ ومن[١] الأمة في آخرها.

وأما الأربعةُ: فإن الفاتحة لمَّا أُنزلت أولَ شيءٍ وقرأها النبيُّ ﷺ وسمعَها الناس وفيها دعاءٌ إلى التوحيد وغيرِ ذلك مما قلنا، صار السامعون أربعةَ أصنافٍ:

صنفٌ: كانوا[٢] عبدةَ الأصنام[٣]، فآمَنوا به ظاهراً وباطناً.

وصنفٌ: كانوا أهلَ الكتاب ومؤمنين بالماضين من الرسل، فآمنوا به ظاهراً وباطناً أيضاً.

وصنفٌ: كفروا به وكذَّبوه ظاهراً وباطناً.

وصنفٌ: خافوا سيفَه فآمَنوا به ظاهراً وكفروا به باطناً.

فذكَرهم الله تعالى جميعاً في أول هذه السورة:

فإن قولَه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ الآيةَ في الصِّنف الأول.

وقولَه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ في الصِّنف الثاني.

وقولَه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٤] الآيتين في الصِّنف الثالث.

وقولَه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآياتِ في الصِّنف الرابع.

---

(١) «من»: ليست في (ف).

(٢) في (ف): «كان».

(٣) في (أ): «الأوثان».

(٤) في (ر): «﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ﴾».

وأمَّا الخمسة: فالأفعالُ المذكورةُ في الفاتحة خمسةٌ: الحمد والعبادة والاستعانة والاهتداء والضلالة:

فالحمد على النِّعم وفي هذه السورة تعديدُها، والعبادةُ على وجوهٍ وفي هذه السورة تفصيلُها، والاستعانةُ على أمورٍ وفي هذه السورة تبيينُها، وفي الاهتداء به مثوباتٌ وفي هذه السورة تقريرُها، والضلالُ عليه عقوباتٌ وفي هذه السورة تكريرُها(١).

وأما الستةُ: فالمذكورةُ في أولِ آيات الفاتحة: العالَمون، وأكثرُهم على أنه اسمٌ لأهل الحياة منهم دون الجماد؛ لجمعه بالياء والنون، وهم ستةٌ: الملائكةُ والجنُّ والإنسُ والشياطينُ والدوابُّ والطيور. كما حكَينا عن أبي حذيفة(٢)، وهم كلُّهم مذكورون في هذه السورة.

فأمَّا الملائكةُ: فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٨]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١]، ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأمَّا الجنُّ: فقد ذكر إبليس وذكر في آيةٍ أنه كان(٣) من الجنِّ.

وأمَّا الإنسُ: فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وكرَّر ذلك.

وأمَّا الشياطينُ: فقد قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) في (ف): «تكررها».

(٢) في (ر): «هريرة»، والمثبت من (أ) و(ف)، وهو الصواب وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٣) «كان»: ليس في (ف).

وأمَّا الدَّوابُّ: فهي كلُّ ما يَدبُّ على وجه الأرض من السباع والبهائم والهوَامِّ، وقد ذُكر فيه من السباعِ الخنزير، ومن البهائم البقرةُ والعجلُ وما استَيْسَر من الهدْي، ومن الهوامِّ الحيةُ وهو في قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] وكان فيهم الحيةُ، وأمَّا الطيورُ فقد ذُكر منها في قوله: ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأما السبعة: فالفاتحةُ سبعُ آياتٍ، وكلماتُ آياتها[(١)] مذكورةٌ في سورة البقرة:

فـ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

و(اللهُ) في آياتٍ.

و﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه ذكرُ يوم القيامة، وفي سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وهي آخرُ آيةٍ نزلت، وهي أبلغُ آيةٍ نزلت[(٢)] في ذكر يومِ القيامة.

و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ونحوِه.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ في قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقولُه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقولُه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقد أُريد به الأنبياء صلوات الله عليهم، وذُكر من الأنبياء في سورة البقرة: آدمُ،

---

(١) في (ر): «وكلماتها».

(٢) «نزلت»: زيادة من (أ).

وإبراهيمُ، وإسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ، والأسباطُ، وموسى، وهارونُ، وداودُ، وسليمانُ، وعيسى، وحِزقيلُ[١]، وأشموئيل[٢]، وعزيرٌ، صلوات الله عليهم.

وعلى العموم في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وفي قولِه: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقولُه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: ذُكر الغضب في قوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، والضلالُ في قولِه: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ثم هم اليهودُ والنصارى، وأكثر صدر السورة في ذكرهم، إلى أن قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٢٠].

ثم السورةُ تُدعَى سورةَ البقرة، ومِن الناس مَن قال: يقالُ: السورةُ التي يذكر فيها البقرةُ، ويُستقبَحُ إضافةُ السورة إلى البقرة، وكذا سورةُ النحل ونحوُها.

والصحيح: أنه لا حاجة إلى هذا التكلُّف، فإن المراد من هذه الإضافةِ هو ما قال: إنها ذُكرت فيها، وقد قال النبيُّ ﷺ: «سنامُ القرآنِ سورةُ البقرة»[٣]،

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] رواه الطبري عن وهب بن منبه وسيأتي.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ [البقرة: ٢٤٦] قال ابن كمال باشا في «تفسيره»: اختلفوا فيه، والأشهر الأظهر أنه أشمويل من نسل هارون عليه السلام.

(٣) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٨)، والطبراني في «الكبير» (٥٨٦٤). وفي إسناده خالد بن سعيد المدني، قال العقيلي: لا يتابع على حديثه، قال: وفي فضل سورة البقرة رواية أحسن من هذا الإسناد وأصلح بخلاف هذا اللفظ، وأما في تمثيل القرآن فليس فيه شيء يثبت.

وفـي ذلك أحاديـث كثيـرة[١]، فثبـت[٢] إطلاقُ هـذا الإطلاق.

ثم هذه السورة مدنيةٌ إلا آيةً منها نزلتْ يومَ النحر بمنًى في حِجَّةِ الوداع: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨١]، وهي آخرُ آيةٍ نزلت بمكة[٣]، وقد نزلت بمكةَ خمسٌ وثمانون سورةً أولُها سورة الفاتحة وآخرها ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

ونزل سائرُها بالمدينة، وهي تسعٌ وعشرون سورةً أولُها سورة البقرة وآخرُها سورة المائدة.

وحروفُ سورةِ البقرة[٤]: خمسٌ وعشرون ألفاً وستُّ مئةٍ وثمانيةٌ وخمسون[٥].

وكلماتُها: ستةُ آلافٍ ومئةٌ وستَّ عَشَرةَ كلمةً.

وآياتُهـا: مئتـان وأربـعٌ وثمانـون آيةً عنـد أهل الشـام، وخمسٌ عنـد أهل مكة

---

(١) «كثيرة»: من (أ). وقد روى البخاري (١٧٥٠)، ومسلم (١٢٩٦)، عن الأعمش، قال: سمعْتُ الحَجَّاجَ، يقولُ على المِنبَر: السُّورةُ التي يُذْكَرُ فيها البقرةُ، والسُّورةُ التي يُذْكَرُ فيها آلُ عمرانَ، والسُّورةُ التي يُذْكَرُ فيها النِّساءُ، قال: فذكَرْتُ ذلك لإبراهيم فقال: حَدَّثني عبدُ الرَّحمنِ بنُ يزيدَ أنَّه كان مع ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه حين رَمَى جَمْرةَ العقبةِ، فاستَبْطَنَ الواديَ حتى إذا حاذَى بالشَّجرةِ اعترَضها، فرَمَى بسَبْعِ حَصَيَاتٍ يُكبِّرُ مع كلِّ حصاةٍ ثُم قال: «مِن ها هنا والذي لا إلهَ غيرُه قام الذي أُنزلَت عليه سورةُ البقرةِ ﷺ». قال الآلوسي في «روح المعاني» (١/ ٣١٧): وهو معارِض لما روي من منع ذلك، وتعيُّنِ أن يقال: السورة التي يذكر فيها البقرة، وكذا في سور القرآن كله، ومن ثمة أجاز الجمهور ذلك من غير كراهة.

(٢) في (ف): «فيثبت».

(٣) «بمكة»: ليست في (ف).

(٤) في (أ): «هذه السورة».

(٥) بعدها في (ر) و(ف): «حرفاً»، و«وثمانيةٌ» سقط من (ف). وفي «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٤٠): وحروفُها خمسة وعشرونَ ألفا وخمس مئة حرف.

والمدينـةِ، وسـتٌّ عنـد أهـل الكوفـة، وسـبعٌ عنـد أهـل البصـرة؛ لاختلافهـم فـي مواضـعَ منهـا أنـه تمـامُ الآية أو وسـطُها.

وفي بعضِ الأخبار: أنها لو كَملتْ[1] ثلاثَ مئةِ آيةٍ لتكلَّمت.

ومعناه: أن السورة آتيةٌ على أكثر الأحكام والأصولِ العِظام، وبقيت عدَّةُ أحكام ذُكرت في غيرها، ولو كانت في هذه السورةِ لصرَّحت بجميع ما بالناس إليه حاجةٌ من علوم الدِّين.

وفي هذه السورة: خمسةَ عشرَ مَثَلاً، وخمسَ مئة حُكمٍ، وفيها أطولُ آيةٍ وهي آيةُ المدايَنة، وهي مئةٌ وثلاثون كلمةً، وفيها قريبٌ من عشرين حُكماً.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾[2]: وافتتاح[3] هذه السورة بالحروف المقطَّعة، وتسعٌ[4] وعشرون من سورِ القرآن مفتَتحةٌ بها.

وفي هذه الحروف ـ يعني: ﴿الٓمٓ﴾ ـ التي افتُتحت بها هذه السورةُ قريبٌ من ثلاثين قولاً:

قال أبو بكرٍ الصدِّيق رضي الله تعالى عنه: لله تعالى في كلِّ كتابٍ سرٌّ، وسرُّ الله عز وعلا في القرآن[5] هذه الحروف التي في أوائل السور[6].

وقال عمرُ رضي الله تعالى عنه: لكلِّ كتابٍ زينةٌ، وزينةُ القرآن حروفُ التَّهجِّي.

---

(١) في (ر): «لو تمت».

(٢) «قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾»: ليس في (أ).

(٣) في (ف): «افتتحت».

(٤) في (ر) و(ف): «وسبع»، والصواب المثبت.

(٥) «القرآن»: زيادة من (أ).

(٦) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٦)، و«البسيط» للواحدي (٢/ ١٣)، و«تفسير البغوي» (١/ ٥٩).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ لكلِّ كتابٍ صفوةً، وصفوةُ القرآن حروفُ التهجِّي[١].

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: هي من المكتوم الذي لا يفسَّرُ[٢].

وقال الضحَّاك رحمه الله: عجزتِ العلماء عن تفسير الحروف المقطَّعة.

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما في روايةٍ: ألِفٌ الله، لامٌ لطيفٌ، ميمٌ مجيدٌ[٣].

وفي روايةٍ: معناه: أنا الله أعلم، وفي[٤] ﴿الٓمٓصٓ﴾: أنا الله أَعْلَمُ وأَفْصِلُ، و﴿الٓر﴾: أنا الله أرى[٥].

وعنه في روايةٍ: ألفٌ: الله، لامٌ: جبريل، ميمٌ: محمد[٦]؛ أي: اللهُ أنزل جبريلَ على محمدٍ بالكتاب[٧].

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: إنها اسمُ الله الأعظم[٨].

وقال الحسن وسعيد بن جُبير: هذه الحروفُ إذا أُلِّفت ضرباً من التأليف كانت

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٦)، و«تفسير البغوي» (١/ ٥٩).

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٧) عن عمر وعثمان وابن مسعود.

(٣) قطعة من خبر رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٩) عن الربيع بن أنس، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣) من طريق الربيع عن أبي العالية.

(٤) «في»: ليست في (أ).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٥٦ ـ ٥٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ٥٩).

(٦) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٧)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٠). ولم ينسبه أبو الليث السمرقندي لقائل.

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٠).

(٨) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٦) عن ابن مسعود وابن عباس.

أسماءً لله تعالى وإنْ كنا لا نقف على تأليفها. وذلك لأن[١] قوله: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾ رؤوس ثلاث سورٍ، وإذا جُمعت صارت: الرحمن[٢]، وهو اسمٌ عظيمٌ[٣] من أسماء الله تعالى.

وقال قتادةُ: إنها أسماءُ القرآن[٤].

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيد بن أَسْلمَ: إنها أسماء السور[٥].

وقال مجاهد: إنها فواتحُ يَفتتحُ الله تعالى بها كتابه[٦].

وقال سعيد بن المسيِّب: إنها في ذكرِ الكوائنِ والفتن.

وقال أبو العالية: إنها في مدةِ قومٍ وآجالِ آخَرين[٧].

وقال الربيع بن أنسٍ: ما فيها من حرفٍ إلا وهو في ذكر آلائه ونَعْمائه[٨].

وقال جماعةٌ: الألفُ افتتاحُ اسمِ الإلهِ والأحدِ والأولِ والآخِرِ والأمين، واللامُ افتتاحُ اسمه اللطيفِ، والميمُ افتتاحُ اسمه الملكِ والمجيدِ والمنَّان.

---

(١) في (أ): «أن».

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٧) عن علي، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٦) عن سعيد بن جبير.

(٣) في (أ): «أعظم».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣).

(٧) قطعة من خبر رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٩) عن الربيع بن أنس، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣) من طريق الربيع عن أبي العالية. وتقدمت قريباً قطعة منه.

(٨) قطعة من الخبر السابق.

وقال محمد بن كعبٍ القُرَظيُّ: الألفُ آلاءُ اللهِ، واللامُ لُطفُه، والميمُ مَجْدُه[١].

وقال أبو فاختةَ: هذه الحروفُ أمهاتُ الكتاب[٢]، منها استُخرج هذا القرآن[٣]؛ أي: نُظِمَ وركِّب[٤]، وأُنزلتْ مقطَّعةً ليُعلَم أنها من الحروف المعجَمة التي نزلت[٥] على آدم عليه السلام مقطَّعة.

وقال عبد العزيز بن يحيى: معنى هذه الحروفِ: أنَّ الله تعالى ذكرها فقال: اسمعوها مقطَّعةً، حتى إذا[٦] وردتْ عليكم مؤلَّفةً كنتُم عرفتُموها قبل ذلك، وكذلك تُعلَّمُ الصبيانَ أولاً مقطَّعةً، فكأنَّ الله تعالى أسمعَهم مقطَّعةً مفردةً[٧] ليعرفوها إذا وردت عليهم مفرَّقةً، ثم أسمعهم مؤلَّفةً[٨].

وقال أبو رَوقٍ: إن الكفار لمَّا قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وتواصَوا بالإعراض عنه، أراد الله تعالى لِمَا أَحَبَّ من صلاحهم ونَفْعهم أن يُورد

---

(١) في (ف): «والميم محمد». وهو في «تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٩) بلفظ: (... والميم ملكه).

(٢) في (أ): «القرآن».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٩٣)، وهو في «تفسير الثعلبي» (٣/ ١١)، جميعهم عند تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].
وأبو فاختة اسمه: سعيد بن علاقة، مولى أم هانئ، روى عن علي رضي الله عنه، روى عنه ابنه. انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٣/ ٥٠٣).

(٤) «أي: نظم وركب»: سقط من (أ) و(ف).

(٥) في (أ): «أنزلت».

(٦) في (ف): «فإذا» بدل: «حتى إذا»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٧) في (أ): «معروفة»، وفي (ر) و(ف): «معرفة»، والمثبت من المصدر.

(٨) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٧).

عليهم ما لا يَعرفونه ليكونَ[١] ذلك سبباً لإسكاتهم[٢] واستماعهم لِمَا يَرِدُ عليهم من القرآن، فأنزل هذه الحروف وكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجِّبين: استمعوا[٣] إلى ما يجيء به محمدٌ، فإذا أصغَوا فاستمعوا[٤] هجَم عليهم القرآن[٥] فأَولجه مسامعَهم، فكان ذلك سبباً لاستماعهم[٦] وطريقاً لانتفاعهم[٧].

وقال الحسينُ بن الفضل: هي من المتشابهِ الذي لا يَعلم تأويلَه[٨] إلا اللهُ.

وقال عكرمةُ: هي أقسامٌ[٩].

وقال القُتَبيُّ[١٠]: يجوز أن يكون الله عزَّ وعلا أقسم بالحروفِ المقطعةِ كلِّها واقتصَر على ذكر بعضِها من ذكرِ جميعِها، كما يقولُ القائل: تعلَّمتُ أ[١١] ب ت ث، وهو يريد كلَّ الحروف، ويقول: قرأتُ الحمد، وهو يريد كلَّ السورة[١٢].

وعن أبي العاليةِ قال: هذه من الثمانيةِ والعشرين التي دارت عليها الألسُنُ كلُّها،

---

(١) في (أ): «فيكون».

(٢) في (ف): «لاستكانهم».

(٣) في (أ): «اسمعوا».

(٤) في (أ): «واستمعوا».

(٥) في (أ): «بالقرآن».

(٦) في (ر): «لإسماعهم».

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٧) بنحوه.

(٨) في (أ) و(ف): «لا يعلمه».

(٩) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٧).

(١٠) في (ر): «القتيبي»، وفي (ف) بياض.

(١١) في (ف): «ألف».

(١٢) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٨٣).

وليس فيها[١] حرفٌ إلا وهو مفتاحُ اسمٍ من أسماء الله تعالى، وفي آلائِهِ ونَعْمائه، وفي مدةِ قومٍ وآجالهم[٢].

وقيل: كلُّ حرفٍ مختصَرٌ عن كلمةٍ، وهو متعارفٌ في اللسان.

وأنشد الزَّجَّاج:

إنْ شئت أَشْرفْنا كلانا فدعَا ... اللهَ جهداً[٣] ربَّه فأَسمعا

بالخيرِ خيراتٍ وإن شرًّا فا ... ولا أريدُ الشرَّ إلا أنْ تا[٤]

أي: وإن شراً فشرٌّ، ولا أريد الشرَّ إلا أن تريدَ.

وأنشد قطربٌ:

جاريةٌ قد وعدَتْني أن تا ... تَدْهنُ رأسي أو تُفلِّي أو تا[٥]

---

(١) في (أ) و(ف): «منها».

(٢) قطعة من خبر رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٩) عن الربيع بن أنس، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣) من طريق الربيع عن أبي العالية. وتقدم مراراً في هذا المحل.

(٣) في (أ): «جهراً».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٦٣) وعزاهما لِلُقَيم بن سعد بن مالك، والثاني في «المحرر الوجيز» (١/ ٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٤٠)، ونسباه لزهير وليس في ديوانه. وهو دون نسبة في «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٣٢١). وقال الطيب بن عاشور في «التحرير والتنوير» (١/ ٢١١): هو من نوادر كلام العرب، ومما أخرج مخرج الألغاز والتمليح، وذلك لا يناسب مقام الكتاب المجيد.

(٥) عزاه المرزباني في «الموشح» (ص: ١٢)، وعنه الرضي في «شرح شافية ابن الحاجب» (٤/ ٢٦٦)، لحكيم بن معية التميمي نقلاً عن أبي عبيدة، وهو دون نسبة في «الخصائص» لابن جني (١/ ٢٩٢)، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» للجرجاني (ص: ٤٥٠)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٨)، و«ضرائر الشعر» لابن عصفور (ص: ١٨٦)، و«ارتشاف الضرب» لأبي حيان (٢/ ٨٢٥)، و«اللباب» لابن عادل (١/ ٢٥٨)، وصدره عند الجميع عدا «الارتشاف» و«اللباب»: =

أي: تمسح.

وأنشد سيبويه:

نادَوْهــم أنْ ألْجِمــوا أَلَا تــا قالوا جميعــاً كلُّهــم أَلَا فــا[١]

أي: ألا تركبون، فقالوا: ألا فاركبوا.

وقال آخرُ:

قلتُ لها قِفِي فقالت لي[٢] قاف لا تَحْسَبي أنَّا نَسِينا الإيجاف[٣]

أي: الإسراعَ في المشي[٤].

وقال المبرِّد: إنْ هذه الحروفَ احتجاجٌ من الله تعالى على الكفَّار؛ لأن النبيَّ

= قــد وعدَتْنــي أمّ عمــرٍو أن تــا

وجاء عند الثعلبي: (وأنشد قطرب في جارية: قد وعدتني أم عمرو...)، وأما عجزه ففي أكثر المصادر: (وتفليني وا)، وعند الثعلبي: (وتفليني تا)، وفي «اللباب» (وتفليني وتا). قال الثعلبي: أراد: أن تأتي وتمسح، وقال أبو حيان: أراد: أن تأتيني أو تمتنع.

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٨) وعنه نقل المؤلف، و«شرح شافية ابن الحاجب» (٤/ ٢٦٦)، و«ضرائر الشعر» لابن عصفور (ص: ١٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٤٠). قال الثعلبي: وأنشد سيبويه لغيلان..، فذكره، ولم أجده في «الكتاب».

(٢) في (ر): «قالت» بدل: «فقالت لي»، وكلاهما في المصادر، وجاء في بعضها: (فقالت) فقط، وجاء أيضا: (قلنا لها قفي لنا قالت)، وجاء غير ذلك.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٥)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢١٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٨). قال الثعلبي: أي: قف أنت. وقال الفراء: ذكرت القاف أرادت القاف من الوقوف؛ أي: إني واقفة. وقريب منه قول الزجاج: فنطق بقاف فقط، يريد قالت: أقف.

(٤) «أي: الإسراع في المشي»: سقط من (أ).

ﷺ لمَّا قال لهم: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود: ١٣] وعجزوا عنه، أنزل الله جلَّ جلالُه هذه الحروفَ؛ أي: إن القرآن من هذه الحروف التي هي لغاتُكم، فليس عجزُكم عن الإتيان بمثلِها إلا لأنه كلامُ الله تعالى لا مِثْلَ له.

وقيل: إذا جُعلت هذه الحروفُ كلمةً فهي ﴿الٓمٓ﴾؛ أي: ألم ترَ وألم تعلم[(١)] أنه ذلك الكتاب.

وقيل: كلُّ حرفٍ من هذه الثلاثةِ على ما يؤدِّي نُطقاً يُطلب من ظاهره معناه وضعاً: أَلِفَ هو على وزنِ عَلِمَ من الألفة، ومعناه: ألف[(٢)] الله محمداً، ولامَ على وزن نامَ من اللَّوم، ومعناه: لامَ الكفارُ نبيَّنا محمداً ﷺ[(٣)] على مخالفةِ الآباء، ومِيمَ على وزن بِيعَ من الـمُوْم وهو البِرسام[(٤)]، وهو المحيِّرُ المفسِدُ من الأسقام، ومعناه: بُهِتَ الكفارُ وأُرغِموا بظهور الحقِّ والهدى.

وقيل: ألفٌ: أنا، ولامٌ: لي، وميمٌ: منِّي[(٥)]. فكأنه سبحانه قال: أنا الله وأنا الـمَلِك[(٦)] وأنا الرزَّاق وأنا وأنا[(٧)]، ولي المُلكُ ولي المِلكُ[(٨)]، ولي الحكمُ ولي

---

(١) في (أ): «ألم تر ولم تعلم»، وفي (ف): «ألم تر ألم تعلم»، وفي هامش (ف): «ألم تروا ألم تعلموا».

(٢) ضبطت كلمة «ألف» في (ف) بتشديد اللام المفتوحة.

(٣) في (ر): «محمدٌ ﷺ»، وليست في (أ) و(ف)، والصواب المثبت.

(٤) في (ف): «وهي البرسام»، وفي هامش (أ): «البرسام ورم في الصدر، والبرسام ورم في الرأس».

(٥) في (أ): «ألف من أنا ولام من لي وميم من مني»، ومثله في (ر) لكن بدل «لي»: «إلي»، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٠)، وعزاه لأهل الإشارة.

(٦) في (ف): «وأنا لي المُلك وأنا الملك» بدل من «وأنا المُلك».

(٧) «وأنا»: زيادة من (أ) و(ف).

(٨) «ولي المِلك»: زيادة من (ف).

الأمرُ، ولي الحمدُ ولي المجدُ[١]، ومنِّي الإحسانُ ومنِّي الامتنانُ ومنِّي الغُفران ومنِّي ومنِّي.

وقيل: ألفٌ معناه: أَفْرِدْ نَفْسَك لي بإسقاطِ العلائق والأعراض، ولام[٢] معناه: ليِّن جوارحَك لعبادتي بلا ملالةٍ ولا إعراض، وميمٌ: محِّ رسومَك وصفاتِك بالأُنس بي والمشاهدةِ لي بلا تحكُّمٍ ولا اعتراض.

وقال بعضُ العراقيين: حيَّر عقولَ الخلق في ابتداءِ خطابه ـ وهو محلُّ الفهم ـ ليَعلموا أنه لا سبيلَ لأحدٍ إلى معرفةِ حقوقِ خطابه إلا بعِلمهم بالعجز عن معرفة خطابه[٣].

وقيل: هي رموزٌ سارَّ بها الأولياء، فالظواهرُ للعوَامِّ، والرموزُ والإشارات للخوَاصِّ، قال[٤] النبيُّ ﷺ: «لو تَعلمون ما أَعلمُ لضحِكْتُم قليلاً ولبَكَيْتُم كثيراً»[٥]؛ أي: من حقائقِ سِرِّ الحقِّ إليَّ.

وقال ﷺ: «أوتيتُ جوامعَ الكَلِمِ واخْتُصِرَ لي الكلامُ اختصاراً»[٦].

وقيل: هو تنبيهٌ للعبد أن ينتصب قائماً في الصلاة كالألف، ثم ينحني للركوع كاللام، ثم يجتمع في السجود كالميم.

---

(١) في (أ) و(ف): «ولي الحكم ولي ولي».

(٢) في (ر): «والأعواض واللام».

(٣) في هامش (ر): «إنما العجز عن طلب الإدراك إدراك، والنقوض (كذا) في طلب الإدراك إشراك»

(٤) في (ف): «وقال».

(٥) رواه البخاري (٦٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه الدارقطني في «سننه» (٤٢٧٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «واختصر لي الحديث..». وأوله متفق عليه، رواه البخاري (٧٢٧٣)، ومسلم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيل: بدأ السورة الكبرى بالألف، وجعله سابقاً؛ لِمَا فيه من معانٍ:

منها: الاستواءُ.

ومنها: الانتصابُ.

ومنها: الانقطاعُ عن سائر الحروف.

ومنها: التجرُّدُ عن النقط.

ومنها: الاستغناءُ عن الأمكنة، وهي[١] مخارجُ الحروف.

وفيه تنبيهٌ على أن العبد إذا أراد[٢] أن يصير سابقاً فلْيَستوِ ظاهراً وباطناً، ولْيَنتصِبْ لخدمة[٣] الله، ولْيَنقطِعْ عن الخلق، ولْيَتجرَّدْ عن الأغيار، ولْيَتبتَّلْ عن الأمكنة.

ثم إنما سكِّنت هذه الحروفُ ولم تُعربْ لأنها حروفُ هجاءٍ وليست بأسماءٍ، قال أبو النَّجم:

أقبلَتُ مِن عندِ زيادٍ كالخَرِفْ　　تَخُطُّ رجلاي بخطٍّ مختلِفْ

تكتِّبانِ في الطريقِ لامَ الِفْ[٤]

فإن جعلتَها أسماءً وعطفْتَ بعضَها على بعضٍ أَعْربْتَها.

وأنشد أبو عبيدةَ:

---

(١) في (ف): «ومنها».

(٢) في (أ) و(ف): «فإذا أراد العبد» بدل من «وفيه تنبيهٌ على أن العبد إذا أراد».

(٣) في (أ): «بخدمة».

(٤) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٨)، و«المقتضب» للمبرد (١/ ٢٣٧)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٨) وعنه نقل المؤلف.

إذا اجتَمَعوا على ألفٍ وواوٍ ... وياءٍ هاج[١] بينهم القتالُ[٢]

ثم للقرَّاء في هذه الحروفِ عند الوصلِ إدغامُ ميمِ اللَّام في ميمِ الميم، والمدُّ، وتثقيل الميم، ويجوز تركُ المدِّ وتركُ الإدغامِ وتركُ التثقيلِ، وعند الوقفِ يصيرُ كذلك ويجوزُ ذلك، والأحسن إخراجُ كلِّها في[٣] نَفَسٍ واحدٍ.

ومحلُّ ذلك من الإعراب عند بعضِهم: أن ﴿الٓمٓ﴾ ابتداءٌ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرُه، و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ صلةُ خبرِه، كقولك: زيدٌ ذلك الرجلُ لا شكَّ فيه.

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ابتداءٌ، وقوله: ﴿الٓمٓ﴾ خبرُه، وقد ذُكر مقدَّماً على الاسم كقولك: عالمٌ هذا الرجل.

وقيل: لا محلَّ لهذه الأحرف الثلاثةِ من الإعراب على وجه التعلُّق بما بعده، و﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأٌ، و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبره، و﴿الٓمٓ﴾ قسَمٌ، أو افتتاحٌ، أو اسمٌ للسورة، أو أمرٌ؛ أي: اسمعوا هذه الحروف مقطعةً[٤]، وهو تامٌّ بنَفْسه.

وأمَّا نزولُها: فقد رَوَى أبو صالحٍ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: أن رهطاً من اليهودِ لعنهم اللهُ منهم: كعبُ بن الأشرفِ، وحُيَيٌّ وجديٌّ ابنا أَخْطَبَ، وأبو لُبابَةَ، وكعب بن أَسيدٍ، ومالك بن الصَّيْف[٥]، دخلوا على رسول الله ﷺ فسألوه عن

---

(١) في (ف): «كان».

(٢) انظر: «المقتضب» للمبرد (١/ ٢٣٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٦١)، وعزاه ليزيد بن الحكم يهجو النحويين، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٣٨) وعنه نقل المؤلف.

(٣) في (ف): «من».

(٤) «أي: اسمعوا هذه الحروف مقطعةً»: ليس في (أ) و(ف).

(٥) في (ف): «الضيف». وفي هامش (أ): «مالك بن الصيف بالصاد المهملة في «عين المعالي» وفي «الكشاف».

﴿الٓمٓرۚ﴾ وقالوا: نَنْشُدُك اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو، أحقٌّ أنها أتتك من السماء؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم كذلك نزلت»، فقال حييٌّ: لئن كنتَ صادقاً إني أعلمُ أنَّ أُكلَ[١] هذه الأمة من السنين ما نزل عليك، ثم نظر حييٌّ إلى أصحابه فقال: كيف ندخلُ في دِين رجلٍ إنما منتهَى أُكلِ أمَّته إحدى وسبعون سنةً، فقال له عمر رضي الله عنه: وما يدريكَ أنها كذلك؟ قال: أخذتُها من حسابِ الجمَّل، فالألفُ واحدٌ، واللامُ ثلاثون، والميمُ أربعون، فضحك النبيُّ ﷺ، فقال حييٌّ: هل غيرُ هذا؟ قال[٢]: «نعم»، قال: وما هو؟ قال: «﴿الٓمٓصٓ﴾» قال حييُّ بن أخطبَ: هذه أكثرُ من الأولى، هذه مئةٌ وإحدى وستُّون سنةً ـ وقد تبيَّن لنا في هذه تفسيرُ الأُولى؛ لأنه قال: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فنحن المتَّقون الذين آمنَّا بالغيب قبل أن يكون[٣] ـ فهل غيرُ هذا؟ قال: «نعم ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]» قال حييٌّ: هذه أكثرُ من الأولى والثانيةِ، وقد أَحْكَمَ فيهنَّ وفصَّلَ، فنحن نشهدُ لئن كنتَ صادقاً ما مُلْكُ أمَّتكَ إلا[٤] إحدى وثلاثون ومئتا سنةٍ، فاتَّق الله ولا تقل إلا حقًّا، فهل غيرُ هذا؟ قال: «نعم ﴿الٓمٓرۚ﴾ ـ إلى قوله: ـ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»، قال: فنحن نشهدُ أنَّا من الذين لا يؤمنون، ولا ندري بأيِّ قولك نأخذُ، فقال أبو ياسر: أمَّا أنا فأَشهدُ بما أُنزل على أنبيائنا أنهم قد أَخبروا عن مُلك هذه الأمةِ ولم يوقِّتوا كم يكونُ، فإن[٥] كان محمدٌ صادقاً فيما يقولُ إني لأراه سيُجمع له هذا كلُّه.

---

(١) فوقها في (ف): «مدة»، ومثله في هامش (ر)، ويريد بأكل أمته: طول مدتهم. وفي بعض المصادر: (إني لأعلم أجل هذه الأمة...)، والمعنى واحد. وكلمة: «أن» ليست في (أ).

(٢) في (ف): «فقال النبي ﷺ».

(٣) في (ر): «نكون»، وفي هامشها: «أي: قبل أن نبعث».

(٤) في (ف): «صادقا فملك أمتك إلى».

(٥) في (أ): «وإن».

فقام اليهود وقالوا: أَشكَلَ علينا[١] أمرُك، فلا ندري أبالقليلِ نأخذُ أم بالكثير؟

فذلك قولُه تعالـى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧][٢]، فالمحكمـاتُ هـي[٣] الآيـاتُ التي في سـورة الأنعام: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلـى ثـلاثِ آيـاتٍ، وأما المتشـابهاتُ فـ﴿الٓمٓ﴾[٤] و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓر﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ حين يَحسُبون كم[٥] أُكلُ هـذه الأمـة، ومـا يَعلـم ذلـك إلا الله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ يعنـي: عبـد الله بـن سـلام، وثعلبـةَ بـنَ عمرو، وأسـدَ بن كعب، وأسـيد بن زيد، وسـلاماً، وهـم مؤمنو أهـلِ الكتـاب ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: قليلِه[٦] وكثيرِه.

فقـال لهـم حييٌّ: ويحَكـم، أمَـا[٧] تعرفـون الباطـلَ فيمـا يُخلَّـط عليكـم؟ فقالـوا: بل نعـرف الحقَّ، ثـم قالـوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا﴾ الآيـة[٨]، فجعل رسـولُ الله

---

(١) في (أ) و(ر): «وقالوا غلبنا».

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٢١)، والداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٣٣٠)، من طريق محمد بن إسحاق، قال: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رئاب. وهو في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٤٥). والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٣) في (أ) و(ف): «وهي»، وليس فيهما: «﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ فالمحكمات».

(٤) في (ف): «فألف لام ميم».

(٥) في (ف): «يحسبون ﴿الٓمٓ﴾».

(٦) في (أ): «بقليله».

(٧) في (ر): «إنما». وفي (ف): «إنكم».

(٨) في (أ): «﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾». وفي (ف): «﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ الآية».

ﷺ يضربُ الأمثال لليهود ليَعقلوا[١]، وكان الله تعالى طبعَ على قلوبهم فلم يَفْقَهوا[٢]، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

(٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: فـ﴿ذَٰلِكَ﴾[٣] ثلاثةُ أحرفٍ: ذا اسم[٤] إشارةٍ، واللام عمادٌ، والكاف خطابٌ.

وهذه الكلمة في القرآن على ثلاثة أوجهٍ:

إشارةٌ إلى الغائب، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وإشارةٌ إلى الحاضر، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

واسمٌ لمن لا يوصف بالغيبة والحضرة، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقد جاء في الشعرِ (ذلك) بمعنى: هذا[٥]، قال خُفَافُ بنُ نُدْبَةَ:

أقولُ له والرُّمحُ يَأْطُرُ مَتْنَه ... تأمَّلْ خفافًا إنَّني أنا ذلكا[٦]

---

(١) في (ر): «ليفعلوا».

(٢) في (أ): «يفهموا ذلك». وفي (ف): «يفقهوه».

(٣) في (أ): «ذلك».

(٤) «اسم»: ليس في (أ) و(ف).

(٥) في (أ) و(ف): «لهذا» بدل من «بمعنى هذا».

(٦) انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص: ١٣)، و«مجاز القرآن» (١/ ٢٩)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٣٤٢)

أي: هذا.

وفي هذه الآية يمكِنُ[١] تقريرُ الكلمة[٢] على الوجوهِ الثلاثة:

يجوز أن يكون اسماً للقرآن، وهو كلامُ الله جلَّ جلالُه، وهو قائمٌ بذاته تعالى[٣] لا يوصفُ بحضرةٍ ولا غيبةٍ[٤].

ويجوز أن يكون بمعنى: هذا، وهو قولُ مجاهدٍ ومقاتلِ بن حيَّان وابنِ جريجٍ والكسائيِّ والأخفشِ وأبي عبيدة[٥].

ويجوز أن يكون بمعنى الإشارة إلى غائبٍ، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: معناه: ذلك الكتابُ الذي أخبرتُكَ أنِّي أُوحيه إليك.

وقال عطاء بن السائبِ: ذلك الكتاب الذي وعدتُك يوم الميثاق.

وقال يمانُ بن رئابٍ: ذلك الكتاب الذي ذكرتُه في التوراة والإنجيل.

وقال الفرَّاء: هذا الكتاب الذي وعدتك.

وقال ابن كَيسانَ: أنزل الله تعالى قبل البقرة بضعَ عشرةَ سنةً سوراً كذَّب بها المشركون، ثم أنزل البقرة فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني: ما تقدَّمها[٦].

---

(١) في (أ): «يحكى».

(٢) بعدها في (ر): «عطفٌ».

(٣) في (ف): «بذات الله عز وجل».

(٤) في (ر) و(ف): «لا يوصف بالغيبة والحضرة».

(٥) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٨)، ورواه عن مجاهد وابن جريج الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٦) انظر هذه الأقوال جميعاً في «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤١).

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ أصله في اللغة: الجمعُ، وسمِّيتِ الكتيبةُ بها لاجتماعِها، يقال: كتبتُ البغلةَ: إذا جمعتَ بين شُفْرَيها بحَلْقةٍ، قال الشاعر:

لا تأمنَنَّ فَزاريًّا خَلَوْتَ بِهِ   على قَلُوصِكَ واكتُبْها بأسيارِ[(١)]

ومنه: الكُتْبَةُ، وهي الخُرْزَةُ، وجمعُها: الكُتَب.

والكتابُ بمعنى المكتوب، وهو في القرآن على عشرين وجهاً:

بمعنى: الفرض، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]؛ أي: فرضاً موقتاً.

وبمعنى: البرهان، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ [الصافات: ١٥٧]؛ أي: برهانِكم. قاله الكلبيُّ[(٢)].

وبمعنى: الأجل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]؛ أي: أجلٌ[(٣)].

وبمعنى: المقدار، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]؛ أي: مقدارٌ[(٤)].

وبمعنى: القضاء، قال الله جل وعلا: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

وبمعنى: مكاتبة العبد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

---

(١) البيت لسالم بن دارة واسم أبيه مسافع، وأمّه دارة من بني أسد، وسميت دارة لجمالها، شبِّهت بدارة القمر. انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ٣٨٩). وجاء في هامش (أ): «البعير بمنزلة الإنسان، والجمل بمنزلة الرجل، والناقة بمنزلة المرأة، والقلوص بمنزلة الجارية».

(٢) بعدها في (أ): «رحمه الله».

(٣) «أي: أجل»: ليس في (أ) و(ف).

(٤) «أي: مقدار»: ليس في (أ) و(ف).

وبمعنى: الرخصة والإباحة، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وبمعنى: اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الزخرف: ٤].

وبمعنى: التوراة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وبمعنى: الإنجيل، قال تعالى: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [مريم: ٣٠].

وبمعنى: التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وبمعنى: القرآن، قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩].

وبمعنى: صحيفةِ أعمالِ البشر، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

وبمعنى: ما كَتب اليهودُ من عندِ أنفسِهم وادَّعوا أنه كتابُ الله، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩].

وبمعنى: رسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس، قال تعالى إخباراً عنها(١): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩].

وبمعنى: ما كُتب في الزبور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وبمعنى: ما اقترحه الكفارُ على نبيِّنا عليه الصلاة والسلام إنزاله من السماء، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وبمعنى: وعد الرحمة، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

---

(١) «إخباراً عنها»: ليس في (أ) و(ف).

وبمعنى: إثبات الإيمان في قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبمعنى: الأرواح، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧].

وأما المراد بالكتاب هاهنا:

فقد قال سعيد بن جبير: هو اللوحُ المحفوظ.

وقال عكرمة: هو التوراةُ والإنجيل.

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما والضحَّاك وقتادة: هو القرآنُ[1].

وعليه الجمهورُ، وهو الأشهرُ والأظهرُ.

ثم إنما[2] سمِّي القرآن كتاباً لمعنى الجمع الذي دلَّ عليه مأخذُ الاسم من وجوهٍ:

أحدها: أنه جمَعَ الحروف حتى صارت كلمات، وجمع الكلماتِ حتى صارت آيات، وجمعَ الآياتِ حتى صارت سُوراً تامَّات، وجمعَ السورَ حتى صارت كتاباً مشتمِلاً على كرامات.

---

(١) انظر هذه الأقوال في «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤١). ولعل من قال: إن ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى: هذا، مراده أن ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ هنا بمعنى القرآن، وقد تقدم من قال بهذا، ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩) عن ابن عباس وابن جريج ومجاهد وعكرمة والسدي. أما القول بأن ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ هنا هو التوراة والإنجيل فقد ذكره الطبري (١/ ٢٣١) عرضاً دون عزو لقائل ولا رواية، بل قال: (وقد قال بعضهم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني به التوراة والإنجيل).

(٢) في (ر): «وإنما» بدل: «ثم إنما».

والثاني: أنه نظامٌ لصنوف الحِكَم، وقِوامٌ لأنواعِ الحُجج، قال النبيُّ ﷺ: «أُوتيتُ جوامعَ الكَلِم»[١].

والثالث: أنه جمعَ معانيَ جميع كتب الله المنزلةِ، قال النبيُّ ﷺ: «أوتيتُ السبعَ الطُّوَلَ[٢] مكان التوراة، والمئينَ مكان الزَّبور، والمثانيَ مكانَ الإنجيل، وفضِّلتُ بالمفصَّل»[٣].

والرابع: أنه يُجمعُ لأهله خيرُ الدارين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والخامس: أنه يُجمع بين أهله وبين النبيين والصِّديقين والشهداء والصالحين

---

(١) رواه البخاري (٧٢٧٣)، ومسلم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ر) و(ف): «الطوال»، وفي هامش (ف): «قوله: «أوتيت السبع الطوال» فالسبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال فالأنفال مع التوبة نزلا جميعاً في مغازي رسول الله ﷺ، فالطوال هي مضمومة الطاء مفتوحة الواو واحدها الطُوَل كالأول والأولى.
والمثاني فهو اسم لسبع سور تتلو السبع الطُّوَل أولها يونس وآخرها النحل وإنما سميت مثاني لأنها ثنيت الطُّوَل.
وأما المئون فهي سبع أولها سورة بني إسرائيل وآخرها المؤمنون، وسميت بذلك لأن كل سورة منها مئة وزيادة يسيرة أو نقصان يسير.
وأما المفصل بعد الحواميم من قصار السور إلى آخر القرآن، سميت مفصلاً لكثرة الفصولات فيها ببسم الله الرحمن الرحيم».

(٣) رواه الطيالسي في «مسنده» (١٠١٢)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٢٥)، والإمام أحمد في «المسند» (١٦٩٨٢)، من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه. وهو حديث حسن كما ذكر محققو «المسند»، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٦) وقال: رواه أحمد، وفيه عمران القطان، وثّقه ابن حبان وغيره، وضعَّفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات.

في الجنة، على ما رُوي عن[١] عليٍّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أُنزل القرآنُ على عشَرةٍ[٢]: بشيراً ونذيراً، وناسخاً ومنسوخاً، ومحْكَماً ومتشابهاً، وموعظةً ومثلاً، وحلالاً وحراماً، فمَن أَبْشرَ ببشيره وانْتَذرَ[٣] بنذيره، وعمِل بناسخه وآمَن بمنسوخه، واقتصَر على محكَمه وردَّ علمَ متشابهِه إلى عالِمه، واتَّعظ بعِظَتِه واعتبَر بمثَله، وأَحلَّ حلالَه وحرَّم حرامَه، فأولئك من المؤمنين حقًّا لهم الدرجاتُ العُلَى مع النبيِّين والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً، وهو وارِثي ووارثُ الأنبياءِ من[٤] قَبْلي، ولا يزالُ في ضمَان الله تعالى وكَنَفه، وحيثُما تُلي القرآن غشِيَتْه الرحمةُ ونزلت عليه السَّكينةُ، ويُحشر في زُمرتي وتحت لوائي»[٥].

والسادس: أنه يَجمع بين الحبيبِ والحبيبِ، فإنه كتابُ الحبيبِ إلى الحبيب، وخطابُ الحبيبِ مع الحبيب، وتذكرةُ[٦] الحبيبِ للحبيب، وقال النبيُّ ﷺ: «مَن قرأ القرآنَ فقد كلَّمَ اللهَ تعالى»[٧].

وقالوا: لمَّا أَنزل الله تعالى على موسى التوراةَ وهي ألفُ سورةٍ كلُّ سورةٍ ألفُ آيةٍ، قال موسى عليه السلام: يا ربِّ، ومَن يطيقُ قراءةَ هذا الكتابِ وحِفْظَه؟ فقال تعالى: إني أُنزل كتاباً أعظمَ مِن هذا، قال: على مَن يا رب؟ قال: على خاتم النبيِّين.

---

(١) «عن» من (ف).

(٢) بعدها في (ر): «أوصافٍ»، وليست في المصدر.

(٣) في (ف): «وأنذر»، والمثبت من (أ) و(ر)، وهو الموافق لما في المصدر، وفيه: «ابتشر» بدل «أبشر».

(٤) «من»: ليست في (أ) و(ف).

(٥) ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٠٣) الأصل الرَّابع والأربعون والمئتان.

(٦) في (ف): «وتذكر».

(٧) لم أجده.

قال: وكيف تقرؤه[1] أمتُه ولهم أعمارٌ قصيرةٌ؟ قال: إنِّي أيسِّره عليهم حتى تقرأ صبيانهم، قال: يا ربِّ وكيف تفعلُ؟ قال: إني أَنزلت من السماء إلى الأرض مئةَ كتابٍ[2] وثلاثةَ كتبٍ، خمسين على شيت عليه السلام، وثلاثين على إدريسَ عليه السلام، وعشرين على إبراهيمَ، والتوراةَ عليك، والزبورَ على داودَ، والإنجيلَ على عيسى، وذكرتُ الكائناتِ في هذه الكتب فأذكرُ جميعَ معاني هذه الكتب في كتابِ محمدٍ ﷺ، وأجمعُ ذلك كلَّه في مئةٍ وأربعَ عشرة سورةً، وأَجعلُ هذه السورَ في ثلاثين جزءاً، والأجزاءَ في سبعة أسباعٍ، ومعنى هذه الأسباعِ في سبعِ آياتِ الفاتحة، ثم معانيَها في سبعةِ أحرفٍ وهي: بسم الله، ثم ذلك كلَّه في الألِفِ من ﴿الٓمٓ﴾، ثم أفتتِح بها سورةَ البقرة فأقول: ﴿الٓمٓ﴾[3].

ولمَّا وَعد اللهُ تعالى ذلك في التوراةِ، وأنزله على محمدٍ عليه السلام، جَحدتِ اليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله ـ أن يكون هذا ذلك، فقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: هذا ذلك.

ثم سمَّاه هاهنا كتاباً، وله في القرآن مئةُ اسمٍ، وقد عدَّدْناها في صدرِ هذا الكتاب.

ومِن فضلِ الله علينا أنْ أعزَّنا بدِينه، وأكرمَنا بكتابه، وشرَّفنا بنبيِّه، وخصَّنا بتفضيله بأنْ ذكرَ في القرآن أسماءً سمَّى بها نفسَه وكتابَه ورسولَه وسمَّانا أيضاً بها، وهي أكثرُ من عشرين اسماً:

---

(١) في (أ) و(ر): «تقرأ».

(٢) «كتابٍ»: ليست في (أ) و(ف).

(٣) لم أجده. وما جاء في آخره من جعل المعاني القرآنية في الألف من ﴿الٓمٓ﴾ هو من عنديَّات أهل الشَّطح، ولعل الخبر كله من اختراعهم.

الحقُّ: قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]، وقال تعالى لكتابه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨] وقال تعالى لنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤].

والنُّورُ: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى لكتابه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وقال تعالى لنا: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

والعزيزُ: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١) [الحج: ٧٤]، وقال تعالى لكتابه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وقال تعالى لرسوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى لنا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والكريمُ: قال الله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وقال تعالى لكتابه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾(٢) [الحاقة: ٤٠]، وقال لنا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

والعظيمُ: قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى لكتابه: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى لنا: ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

---

(١) في (ف): «وإنه» بدل من «وإن الله».

(٢) بعدها في (ر): «﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾»، وهي نسخة كما في هامش (ف).

والشهيدُ: قال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال لكتابه: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى لنا: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

والمُبينُ: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقال تعالى لكتابه: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ٢]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]، وقال تعالى لنا: ﴿وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠].

وذو العُلى: قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال تعالى لكتابه: ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٧]، وقال لنا: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

والهادي: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى لكتابه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال لرسوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى لنا: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

والحاكمُ: قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٧]، وقال لكتابه: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال تعالى لنا: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥].

والحكمةُ: قال الله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ [القمر: ٥]، وقال تعالى لكتابه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى لنا: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والرحمةُ: قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى

لكتابه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً ﴾، وقال تعالى لنا: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

والأمرُ: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقال تعالى لكتابه: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ [الطلاق: ٥]، وقال تعالى لرسوله: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى لنا: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(١) [آل عمران: ١١٠].

والمنذرُ: قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، وقال تعالى لكتابه: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ٤]، وقال لرسوله: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(٢)، وقال تعالى لنا: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

والطاهرُ: قال تعالى: ﴿طه﴾ ﴿طسٓ﴾، وقال تعالى لكتابه: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس: ١٣]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال تعالى لنا: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والطيِّبُ: قال تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وقال تعالى لكتابه: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، وقال لنا: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٢].

والدَّاعي: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال لكتابه: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، وقال تعالى لنا: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

---

(١) بعدها في (أ) و(ف): «﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾».

(٢) قوله: «﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقال تعالى لرسوله ﷺ ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾»، وقع في (ر) بدلا منه: «﴿وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾، وقال لرسوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾».

والقائمُ: قال تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال تعالى لكتابه: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال لنا: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والصادقُ: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾(١) [النساء: ٨٧]، وقال تعالى لكتابه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى لنا: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧].

والخيرُ: قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٢) [المؤمنون: ٧٢]، وقال لكتابه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، وقال تعالى لنا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والأحسنُ: قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال تعالى لكتابه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى لنا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ [النساء: ١٢٥].

والمباركُ: قال تبارك وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وقال تعالى لكتابه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، وقال لنا: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: لا شكَّ فيه، والرَّيب: شكٌّ فيه خوفٌ، وهو أخصُّ من الشكِّ، فكلُّ ريبٍ شكٌّ وليس كلُّ شكٍّ ريباً. والرِّيبة: التُّهمةُ من ذلك، والمُريب: المتَّهم.

---

(١) في (أ): «﴿قِيلًا﴾».

(٢) في (أ) و(ف): «﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾».

وقال الزجَّاج: رابني فلانٌ: إذا علمتَ منه الرِّيبةَ، وأمرٌ رابني[١]؛ أي: أَوهمَني الرِّيبةَ، وأنشد:

أخـوكَ الـذي إنْ رِبْتَـه قـال إنَّما أَرَبْـتَ وإنْ عاتَبْتَـه لانَ جانِبُهْ[٢]

جعَل الأولَ للحقيقة والثاني للوهم.

و(لا) كلمةُ تبرئةٍ، وهي إذا دخلت اسماً واحداً بُني على الفتحة ولم ينوَّنْ؛ لأنهما يصيران كاسمٍ واحد بمنزلةِ خمسةَ عَشَرَ، فإنَّ قولك: لا رجلَ في الدار، هو جوابُ قولِ السائل[٣]: هل من رجلٍ في الدار؟ و(مِن) مع (رجلٍ) صارا[٤] شيئاً واحداً في السؤال، فصار هذان أيضاً شيئاً واحداً في الجواب.

و(مِن) لتعميم سؤالِ[٥] النفي؛ فإنه سؤالٌ عن الواحد وما زاد عليه، و(لا رجلَ) نفيُ الواحد وما فوقه[٦]، ولو قال: هل رجلٌ في الدار؟ فهذا سؤالٌ عن الواحد لا غير[٧]، وقولُك: ما في الدار رجلٌ، نفيٌ للواحد لا غير، ويجوز أن يكون فيه اثنانِ وأكثرَ، وهذا كشفُ ما ذكَره الزجاج وأجمله[٨].

---

(١) في (أ): «وأرابني» وفي (ف): «ورابني» بدل من «وأمر رابني».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٦٩)، والبيت للمتلمس أو لبشار بن برد كما في «اللسان» (مادة: راب).

(٣) في (أ) وهامش (ف): «القائل».

(٤) في (ف): «صار».

(٥) في (ف): «السؤال في».

(٦) في (ف): «وما زاد عليه».

(٧) في (أ): «واحد لا غير»، والعبارة وقع مكانها بياض في (ف).

(٨) في (أ) و(ف): «وأجمل». وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٦٩).

فإن ذكرتَ بعدَه اسمين ففيه أربعةُ أوجهٍ: رفعُهما وتنوينُهما، وفتحُهما بغيرِ تنوينٍ، ورفعُ أوَّلهما وتنوينُه مع فتحِ الآخِر بغيرِ تنوينٍ، وفتحُ أولهما بغيرِ تنوينٍ مع رفعِ الآخِر وتنوينه. ويُستوضَحُ[١] ذلك في قولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم معنى قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شكَّ في كونه ذلك الكتابَ الموعودَ.

وقيل: أي: لا شكَّ في كونه هدًى.

وقيل: أي: لا شكَّ في المذكورات فيه، فهي مبيَّنةٌ وغيرُ مبهَمةٍ[٢].

فإن قالوا: إن الكفارَ شكُّوا فيه فلم يُقِرُّوا بكتاب الله تعالى، والمبتدِعون من أهل القِبلة شكُّوا في معاني متشابهاتِه[٣] فأَجْرَوها على ظوَاهرها وضلُّوا بها، والعلماءُ شكُّوا في وجوهِهِ، فلم يَقطعوا القولَ على وجهٍ منها، والعوامُّ شكُّوا فيه فلم يفهموا معانيَه، فما معنى نفيِ الريب عنه؟

فله ثلاثةُ أجوبةٍ:

أحدها: أن هذا نفيُ الرَّيب عن الكتاب لا عن الناس، والكتابُ موصوفٌ بأنه لا يَتمكَّنُ فيه ريبٌ فهو حقٌّ صدقٌ مفهومٌ معلومٌ شكَّ الناسُ فيه أو لم يشكُّوا؛ كالصدقِ صدقٌ في نفسه وإن وصفَه الناس بالكذب، والكذبُ كذبٌ وإنْ وصفه الناس بالصدق، فكذا الكتابُ ليس مما يلحقُه ريبٌ أو يَتمكنُ فيه عيبٌ.

والثاني: أن هذا نفيُ الريب عن المقتبِسين منه[٤] بعد إمعانِ النظرِ وإجالةِ الفِكَرِ،

---

(١) في (ف): «وسنوضح».

(٢) في (ف): «مثبتة غير متهمة» بدل من «مبينة وغير مبهمة».

(٣) في (ر) و(ف): «متشابهه».

(٤) في (ر): «المقيس منه»، وفي (ف): «المقتبس».

فمَن تعلَّمه وتبحَّر فيه ونظر فيه منصِفاً غيرَ معاندٍ لم يجد فيه تناقضاً ولا تعارُضاً، بل وجده يصدِّقُ بعضُه بعضاً.

والثالث: أن هذا نهيٌ في المعنى وإن كان نفياً في الصفة[١]، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] فإن هذه الكلمات لو حُملت على ظاهر النَّفي توجَّهَ عليه هذا الإشكال؛ فإنَّا نجد مَن يَرفثُ فيه ويَفسقُ ويجادل، لكنها[٢] نهيٌ عن فعلِ ذلك في الحجِّ، فهذا مِثْلُه.

ونظيرُه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥] وقد أنكره الملحدون وشكَّ فيه المشركون، لكن وجوهه ثلاثةٌ:

أحدها: أنه لا شكَّ في وجوده وتحقُّقه في نفسه.

والثاني: أنه لا تجري أمورُه على الشكِّ والتلبيس.

والثالث: أنه نهيٌ عن الارتياب فيه؛ فإنه واقعٌ لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ قرئ بكسر الهاء وضمِّها وسكونها[٣]، وكلٌّ وجهٍ على وجهين: أمَّا الكسرُ فلِلْياء التي قبلَها، وأمَّا[٤] الضم فهي على الأصل؛ لأن أصل الكناية: هو، وأما التسكين فهو على[٥] الوقف.

---

(١) في (أ): «الصيغة».

(٢) في (أ) و(ف): «لكنه».

(٣) بالكسر قراءة الجمهور، وبالضم نسبت لمسلم بن جندب كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠)، وللزهري كما في «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٢٤)، أما السكون فأجازه النحاس في «إعراب القرآن» (١/ ٢٤)، ولعل المراد به رواية السوسي عن أبي عمرو: (فيه هدى) بالإدغام. انظر: «التيسير» للداني (ص: ٢٠).

(٤) «أما»: سقط من (ف).

(٥) في (ر) و(ف): «فعلى» بدل: «فهو على».

ثم الكسرةُ على وجهين: كسرةٌ غيرُ مشبعةٍ بالياء[١]؛ أي: لا ياءَ بعدها لفظاً؛ لأنه لا ياء بعدها[٢] كتابةً، وكسرةٌ مشبعةٌ بالياء[٣]؛ لأن هاء الكناية أصلُها: هو، بالواو، وجُعلت هذه الواوُ ياءً هاهنا للكسرة المتقدِّمة.

والضمةُ على وجهين أيضاً: مشبَعةٌ بالواو، وهي قراءةُ الزهري[٤] على أصلِ كلمة (هو)، وضمةٌ لا واو بعدها تخفيفاً[٥] وبناءً على الكناية.

والتسكينُ على وجهين: على الوقف لتمام الكلام، ثم الابتداءِ على معنى: هو هدًى، وإدغامٍ في رواية أبي حاتم عن أبي عمرو[٦].

وقوله تعالى: ﴿هُدًى﴾: قد مر الكلامُ في تفسيره ونظائره[٧] في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ثم هو يَصلُحُ مصدراً هاهنا كالتُّقى والسُّرى والدُّجى، ويَصلُح فاعلاً؛ فإن اسم المصدر يُطلق على الفاعلِ والمفعول لغةً، يقال: رجلٌ عدلٌ؛ أي: عادل، ورضيٌّ؛ أي: مَرْضيٌّ، وقد ورد في القرآن الهدى بمعنى: الهادي، قال تعالى خبراً عن موسى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]؛ أي: هادياً.

---

(١) «بالياء»: من (أ). وقد تقدم تخريج هذه القراءة.

(٢) «لفظاً؛ لأنه لا ياء بعدها»: سقط من (ف).

(٣) هي قراءة ابن كثير حالة الوصل، أما في الوقف فيقف بهاء ساكنة. انظر: «التيسير» للداني (ص: ٢٩).

(٤) نسبها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٨٤) لابن أبي إسحاق، أما الزهري فنسبت إليه قراءة الضم بغير واو كما تقدم قريباً.

(٥) في (ر): «تخففاً». وقد تقدم تخريج هذه القراءة.

(٦) وهي رواية السوسي عن أبي عمرو أنه قرأ: (فيه هدى) بالإدغام. انظر: «التيسير» للداني (ص: ٢٠).

(٧) في (ر): «تفسيرها ونظائره»، وفي (ف): «تفسيرها ونظائرها».

فإنْ جُعل مصدراً فعلى قوله: ﴿فِيهِ هُدًى﴾، وإن جُعل فاعلاً فعلى أن يُجعل تقديره: هو[١] هُدًى للمُتَّقِين؛ أي: هادٍ.

وأَمَّا إعرابُه: ففي[٢] الظاهرِ لا حركةَ للياء التي هي حرفُ الإعراب؛ فإنه اسمٌ مقصور وقد سقطت الياء بالتنوين.

وهـذه الصيغـةُ وردت في القـرآن في محلِّ النصب والرفـع والخفض، قال الله تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] هذا منصوبٌ، وقال: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] وهذا مرفوعٌ، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: ٥] وهذا مخفوضٌ.

وهاهنا قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: يَصلحُ أن يكون منصوباً ومرفوعاً، ولا يحتملُ الخفض لعدم الخافض، فأما النصب فعلى القطع، وللقطع وجوهٌ:

أحدها: من قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، فـ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ معرفةٌ و﴿هُدًى﴾ نكرةٌ.

والثاني: من قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾[٣]، وهو معرفةٌ أيضاً.

والثالث: من قوله: ﴿فِيهِ﴾ فهو معرفة أيضاً، ووصْفُ المعرفةِ بالنكرة لا يستقيم، فنُصب قطعاً كما في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، وقولِه تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ [النمل: ٥٢].

وقيل: هو نصبٌ على الحال؛ أي: لا رَيْبَ في كونه هُدًى.

وأما الرفع فلوجوهٍ:

---

(١) «هو»: من (أ).

(٢) في (أ): «فعلى».

(٣) في (ر) و(ف): «﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾».

أحدها: أنه خبرُ قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾.

والثاني: أنه خبرُ قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾.

والثالث: أنه خبرُ قوله: ﴿فِيهِ﴾.

والرابع: أنه خبر مبتدأ مضمر؛ أي: هو هُدًى.

ثم هاهنا أسئلةٌ ثلاثةٌ[1]:

أحدها: أنه لِمَ أضافَ الهدى إلى القرآن وهو من الله تعالى؟

والثاني: أنه لِمَ خصَّ هاهنا فقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وعمَّم[2] في موضعٍ آخر فقال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟

والثالث: أنه لِمَ خصَّ المتَّقين بالهدى وفيه هدَى الكل؟ وهل عُذِرَ غيرُ المتَّقين بهذا؟

أما جوابُ الأول: فإضافة الهدى إلى القرآن على وجه التسبيب[3] كما في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ [الشورى: ٥٢] مع قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ [القصص: ٥٦]، وكما في إضافة الإضلال إلى فرعون بقوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وإلى الأصنام بقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، واللهُ تعالى هو الذي يضلُّ مَن يشاء ويَهدي مَن يشاء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وأما جواب الثاني: فهو هدًى للناسِ كلِّهم بياناً، وهدًى للمتقين على الخصوص إرشاداً، وهو كقوله تعالى في حقِّ رسوله ﷺ على الخصوص:

---

(١) في (أ) و(ف): «ثلاثة أسولة».

(٢) في (أ): «وعم»، وفي (ر): «ويعم».

(٣) في (ر): «التسبب».

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يس: ١١]، مع ما قال فيه على العموم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، لكنْ أنذر الكلَّ تبليغاً، ونفع ذلك أهل الخشية تنبيهاً، فهذا مثلُه.

وأمَّا جواب[1] الثالث: فهو هدًى للمتقين؛ لأنهم هم المنتفِعون به، فكأنهم خُصُّوا بذلك، وكذلك[2] يقالُ في كلِّ مَن انتفع بشيءٍ على الخصوص دون غيره: إنه لك على الخصوص؛ أي: أنت المنتفِع به وحدك، وليس في أنَّ الناس لم يهتدوا به ما يُخرجه عن أن يكون هدًى، فالشمسُ شمسٌ وإنْ لم يرها الضرير، والعسلُ عسلٌ وإنه لم يجد طعمَه الممرور، والمسكُ مسكٌ وإن لم يدرِك طيبَ ريحه[3] المأنوف.

فالخيبةُ كلُّ الخيبة لمن عطِشَ والبحرُ زاخر، وبقي في الظُّلمة والبدرُ زاهر، وخبُثَ والطِّيبُ حاضر، وذوَى والروضُ ناضر.

والحسرةُ كلُّ الحسرة لمن عصَى وفسَق والقرآنُ ناهٍ له وآمر، وفارَقَ الرهبةَ والرغبةَ والوعدُ متواترٌ والوعيدُ متظاهر، ولذلك قال جلَّ جلاله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾: أصلُ هذه[4] الكلمة من الوقاية، وهي الحفظ، والتَّوقِّي: التحفُّظ، والاتِّقاء: الاحتفاظ؛ أي: الاحترازُ عن الآفَة، وعلى ذلك وقايةُ الرأس والثوب والكتاب، والاسم منه: التقوى.

---

(١) في (ف): «الجواب عن»، وفي هامشها: «وأما جواب الثالث».

(٢) في (أ): «به وكذلك»، وفي (ر): «بذلك ولذلك».

(٣) في (ف): «طيبه» بدل: «طيب ريحه».

(٤) «هذه»: سقط من (أ) و(ف).

وأصلـه: الوَقْـوَى، الـواوُ الأولـى أصليـةٌ، والثانيـةُ زائـدةٌ، واليـاءُ لامُ الفعل، ووزنـه: فَعْوَل.

ويقـال: هـي[١] علـى وزن فَعْلَى، فالـواو الثانيةُ[٢] علـى هذا لامُ الفعـل، والياء الأخيـرةُ زائدة.

والأوجَه هو الأولُ؛ لأن الكلمة يائيةٌ فلا تُجعل لامُها واواً، بخلافِ الشَّكوى والدعوى؛ فإنهما واويَّتان. وإنما صارت الواو الأولى ياءً بناءً على صيرورتها ياءً في قولك: اتَّقى يتَّقي؛ لأن أصله: اوْتَقَى، فصارت الواوُ ياءً لكسرةِ ما قبلَها كما في الميعاد والميزان[٣] والميراث، ثم جُعلت الياء تاءً وأُدغمتِ الأولى في الثانية طلباً للتلاؤم[٤] وتوقِّياً عن التنافُر، ثم بُني الاسم على هذا الفعل فقيل: التَّقوى، كما في التُّخَمة من اتَّخَم، وأصلُها: وُخَمة، وكذلك التُّهَمة والتُّكَأة[٥] والتُّكْلان والتُّراث والتُّجاه توهُّماً أنها أصليةٌ.

ثـم التَّقـوى قسـمان: أصل وفـرع، فالأصـل: الإيمان، وهـو اتِّقاءٌ عـن الكفر، والفـرعُ: هو اتقـاءٌ[٦] عن الذنـوب، فبالأول: النجاة مـن العذاب المؤبَّـد، وبالثاني: النجـاة من العـذاب المؤقَّت.

أما التقوى التي هي إيمانٌ: ففي مثلِ قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا

---

(١) في (أ): «هو».

(٢) في (أ): «والواو الثانية» وفي (ر): «قالوا والثانية».

(٣) في (ر): «والميزاب».

(٤) في (ف): «للتلازم».

(٥) في (ر): «والتكلة».

(٦) في (أ): «الاتقاء».

﴿لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

وأما التقوى التي هي تركُ الذنوب بعد تمامِ الإيمان[١]: ففي مثلِ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وللناسِ في التقوى والمتَّقي أقاويلُ تبلغ مئةَ قول[٢] عدَّدْناها في كتابنا الموسوم بـ«بحر علوم التفسير على نحو رسوم التذكير»، وفي كتاب الله تعالى في تفسيره ما يغني عن كثيرٍ من ذلك؛ فإنه قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وعدَّ[٣] أشياءَ ثم قال في آخره: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فهذا هو المتَّقي المطلقُ الثابت بحجةٍ لا ريب فيها، والذي يليه في الوضوح قولُ النبي ﷺ: «جماعُ التقوى في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]»[٤].

والذي[٥] يَقربُ منه في الثقة بصحَّته: أن المتَّقيَ المطلقَ مَن ائتَمر بأمرِ التقوى الواردِ في القرآن، وهو[٦] على ثلاثةِ أوجُهٍ: للعامِّ وللخاصِّ ولخاصِّ الخاصِّ:

أما أمرُ العامِّ: فباتقاء النار: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

وأما أمرُ الخاص: فباتقاءِ يومِ القيامة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

---

(١) في (أ): «بعد تمام الآيات»، وفي (ر): «بعد الإيمان».

(٢) «قول»: ليست في (ف).

(٣) في (ف): «وعدد».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٤٢)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٦٠)، ولم أجده مسنداً.

(٥) بعدها في (أ): «يليه».

(٦) في (ر) و(ف): «وهي».

وأما أمرُ خاصِّ الخاصِّ: فبتقوى الله عزَّ وجل: ﴿وَاتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فالعامةُ عصاةٌ فخوَّفهم[١] بالنار كي يتركوا المعصية.

والخاصُّ مطيعون فدعاهم إلى الإخلاص كي لا يتحيَّروا في جوابِ سؤالِ الصدق يومَ القيامة.

وخاصُّ الخاصِّ لله وبالله ومع الله، فأمرهم باتِّقائه، وهو أن يكونوا له ويتَّقوا ملاحظةَ غيره كيلا[٢] يقعوا في الحَجْبة، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] واللبُّ: الخالصُ؛ أي: يا خُلَصائي كونوا لي لا لغيري.

وسُئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فقال: «هو أنْ يُطاعَ فلا يُعْصَى، وأنْ يُذكَرَ فلا يُنْسَى، وأنْ يُشكَرَ فلا[٣] يُكْفَر»[٤].

---

(١) في (ر): «خوفهم».

(٢) في (ر): «لئلا».

(٣) في (ف): «ولا» في المواضع الثلاثة.

(٤) روي مرفوعاً من حديث ابن عباس، وموقوفاً ومرفوعاً من حديث ابن مسعود، والصحيح وقفه: فقد رواه البيهقي في «الزهد» (٨٧٨) وفي «القضاء والقدر» (٢٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، دون قوله: «وأن يشكر فلا يكفر»، وفي إسناده بكر بن سهل، وهو ضعيف. وذكره هبة الله بن سلامة في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٢) بتمامه مرفوعا لكن دون سند ولا راو.

والذي في غالب كتب الحديث والتفسير والنواسخ روايته عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، كما رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢٢)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٤٤١)، وأبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٤٧٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٥٣)، وأبو داود في «الزهد» (١٤٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٨٤٧)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٦٣٧)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٢٨١)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٠١)، والحاكم في «المستدرك» =

قال رضي الله عنه[١]: فارسيتُه: (مطيع باش عاصي بي ذاكر باش ناسي بي شاكر)[٢].

وقيل: التقوى: زمُّ الجوارح وضمُّ الجوانح.

فزمُّ الجوارح: منعُ الأذن عن سماع اللغو، ومنعُ العين عن نظر اللَّهو، ومنعُ اللسان عن فضول الكلام، ومنعُ الحَلْق عن فضول الطعام، ومنع القدم عن التخطِّي إلى الأغيار، ومنعُ النَّفس عن مُلابَسة[٣] الأقذار.

وأما ضمُّ الجوانحِ: فهو جمعُ الهمة عن التَّفاريق، والتفرُّدُ عن وجوهِ التَّعاويق[٤]، والتنزُّهُ عن ألواثِ التَّعاليق، فمَن اتَّقى ظاهرُه ظهَر خلاصُه، ومَن اتَّقى باطنُه بطَن استخلاصُه، وحَظِي أذنُه بسماع كلام الحق، وعينُه برؤية الحق، ولسانُه

= (٣١٥٩) وصححه، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٣٨)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٢٩٢) و(٢٩٣). وقال ابن كثير عند تفسير الآية (١٠٢) من آل عمران: هذا إسناد صحيح موقوف.

أما المرفوع عن ابن مسعود فقد قال أبو نعيم: رواه الناس عن زبيد موقوفاً، ورفعه أبو النضر عن محمد بن طلحة عن زبيد. ثم رواه من الطريق المذكور مرفوعاً، وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص: ١٦٠): وخرجه الحاكم مرفوعاً والموقوف أصح. وكذا ذكر ابن كثير عن الحاكم أنه رفعه وصححه ثم قال: والأظهر أنه موقوف.

وما استظهره هو الصواب، لكن قوله وقول ابن رجب في رواية الحاكم: مرفوعاً، مخالف لما في مطبوعة «المستدرك»، فلعله كذلك وقع في نسختهما منه.

(١) «قال رضي الله عنه»: ليست في (أ) و(ف).

(٢) من قوله: «فارسيته...» إلى هنا ليس في (أ). وفي هامش (ف): «هذه الألفاظ الفارسية تضمنت معنى سؤال النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ فقال ﷺ الحديث».

(٣) في (ر) و(ف): «ملابس».

(٤) في (ر): «التعاليق».

بمكالمةِ الحق، ويدُه بقبضِ عطايا الحق، ورجلُه بالوصولِ إلى مقعدِ الصدق بتقريب الحق، وقلبُه بمشاهدة الحق، وروحُه بقُرب[1] الحق، وسرُّه بلطف الحق، فصار كلٌّ للحقِّ بالحقِّ[2].

وقيل: تفسيرُ المتَّقين فيما ذُكر بعده: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، وهو كما قالوا: إن تفسيرَ ﴿الصَّمَدُ﴾: ما ذُكر بعده: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وتفسيرَ الهلُوع ما ذُكر بعده: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠ ـ ٢١].

***

(٣) ـ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾: فإن ﴿الَّذِينَ﴾ اسمٌ بدلالةِ دخولِ الألف واللام فيه، وهو موصولٌ؛ لأنه يَتمُّ بصلته وهو[3]: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

وأصله: (اللَّذِينَ) بلامينِ؛ إحداهما: لام التعريف، والثانية: لام (لذ)، وإنما اكتُفي في الكتابة بواحدةٍ تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ولهذا تُكتب في التَّثنية: (اللذانِ) بلامين؛ لأنه لم يَكثر استعمالُه.

وهو غيرُ مُعْرَبٍ لفظاً، ولهذا يستوي[4] نصبُه ورفعُه وخفضُه، فيقال: جاءني الذين علمتَ، ورأيتُ الذين علمتَ، ومررتُ بالذين علمتَ.

---

(١) في (ف): «بقوت».

(٢) في (أ): «وبالحق».

(٣) في (ف): «وهي».

(٤) في (ف): «استوى».

وإنما لم يُعرب لأنه موصولٌ لا يَتم إلا بصلته[1]، فصار لفظُه كأنه بعضُ الكلمة، ولا إعرابَ إلا لتمام الكلمة في آخرها، فأما (اللَّذانِ) في التثنية فإنما أُعرب ـ فكان رفعُه بالألف، ونصبُه وخفضُه بالياء ـ لأن منعَ الإعراب كان لإلحاقه بالحروف، ولا تثنيةَ للحروف فلم تُلحق بها، بل تحقَّق فيه معنى[2] الاسمِ فأُعرب لذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾: تقديره: المؤمنين، ومحلُّ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من الإعراب على هذا التقدير: الخفضُ؛ لأنه نعتٌ للمتقين[3] فيتبعُه في إعرابه، ويجوز أن يكون نصباً على المدح، ويجوز أن يكون رفعاً بإضمارِ كلمة: هم.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فالإيمانُ في اللغة هو التصديق، وقد آمَنَ به ولَه؛ أي: صدَّقه، وآمَنَهُ؛ أي: أَثبتَ له الإيمان[4].

وقيل: إن الإيمان الذي هو التصديقُ مأخوذٌ من هذا؛ فإن المصدِّق غيرَه فيما أَخبره[5] به يُثبت لنفسه الأمنَ من إخبارِ المخبِرِ إياه بالكذب أو الخطأ.

ثم اختلَف أهلُ الأصول في ماهيةِ الإيمان المفترَض على العبد:

قال جَهْمٌ[6]: هو المعرفة.

وقالت الكرَّاميَّة: هو مجردُ الإقرار.

---

(١) في (أ): «بصلة».

(٢) في (ر) و(ف): «بمعنى».

(٣) في (ر): «نعت المتقين».

(٤) في (أ): «الأمان».

(٥) في (ر) و(ف): «أخبر».

(٦) هو جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي، قال الذهبي في ترجمته في «الميزان»: الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وما علمته روى شيئا لكنه زرع شرًّا عظيماً.

وقال الرَّقَاشيُّ[1]: هو الإقرار بشرطِ وجودِ المعرفةِ في القلب[2]، والمعرفةُ ضروريةٌ توجد لا محالة، لكنْ إذا وُجدت هي مع الإقرار فالإيمانُ هو الإقرارُ باللسان وحده؛ لأنه اسمٌ لفعلٍ اكتسابيٍّ لا اضطراريٍّ.

وقال أهلُ الحق: هو التصديقُ بالقلب والإقرارُ باللسان.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ ـ وهو مرويٌّ عن أبي حنيفة رحمه الله، وهو قولُ جماعةٍ ـ: هو التصديق[3].

وقال مالكٌ والشافعيُّ والأوزاعيُّ وأهلُ الحديث وأصحابُ الظواهر: الإيمان هو التصديقُ بالقلب، والإقرارُ باللسان، والعملُ بالأركان.

وقال الأشعريُّ: كلُّ ذلك والبقاءُ عليه إلى الموت.

وبيانُ شُبَهِ الخصومِ وحُجَجِ أهل الحقِّ يُذكر في كتب الكلام، ونُشير نحن في بقيَّة هذه الآية وفي تفسير الآيات التي في المنافقين من هذه السورة إلى ما يقع به الاستغناءُ والاكتفاءُ إن شاء الله تعالى.

ثم قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: في قراءةِ أبي عمرو بن العلاء بغير همز، وللقرَّاء في الهمز وتركِهِ مذاهبُ وتفاصيل، فأبو عمرو يتركُ كلَّ همزةٍ ساكنة إلا أن يَعترِضَ أحدُ أربعةِ أشياء:

---

(١) هو الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشيّ، أبو عيسى، واعظ من أهل البصرة، كان من أخطب الناس، متكلماً قاصًّا، وهو رئيس طائفة من المعتزلة تنسب إليه، وكان قدرياً ضعيف الحديث، توفي سنة (١٤٠هـ). انظر: «الأعلام» (٥/ ١٥١).

(٢) في (ر): «بالقلب».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٧٣).

أحدها: أن يكون سكونُها علامةً على[1] الجزم، نحو قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] و﴿إِن يَشَأْ﴾[2] [النساء: ١٣٣].

أو يتغيرَ المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

أو يخرجَ إلى لغةٍ أخرى، نحو قوله تعالى: ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد: ٢٠].

أو يكون التخفيف أثقل، نحو قوله: ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١].

وفي الحاصل: هو يَهمز في ثلاثةٍ وثلاثين موضعاً من القرآن أولها: ﴿أَنۢبِئْهُم﴾، وآخرها: ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌۢ﴾.

والكسائيُّ يترك الهمز في قوله: ﴿ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] ويَهمز ما عداها[3].

وعاصم في رواية أبي بكرٍ يترك الهمز[4] في: ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾، ويهمز في[5] ما سواه.

وحمزةُ يترك همزَ ما يقف عليه ويَهمز ما خَلَاه.

وابنُ كثيرٍ يهمزُ الكلَّ إلا كلمة: ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾.

وابنُ عامرٍ يهمزُ الكلَّ[6].

---

(١) «على»: ليست في (ف).

(٢) في (أ): «نشأ».

(٣) في (أ): «عداه».

(٤) في (ر) و(ف): «وعاصم يترك الهمزة»، والمثبت من (أ) وهو الصواب.

(٥) «في»: ليست في (أ) و(ف).

(٦) انظر تفصيل هذه المسألة في «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ١٣٠ ـ ١٣٢)، و«التيسير في القراءات السبعة» للداني (ص: ٣٤) وما بعدها، و«النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (١/ ٣٩٠) وما بعدها.

وما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «المؤمنُ مَن أَمِنَ جارُه بَوائِقَهُ»[١]، فمعناه ـ واللهُ تعالى أعلمُ ـ: المؤمنُ المستكمِلُ أوصافَ أهلِ الإيمان هذا[٢].

وكذا قولُه ﷺ: «المؤمنُ هيْنٌ ليْنٌ جوادٌ سَمْحٌ كالجملِ الأَنِف[٣]، إذا قِيدَ انقادَ، وإذا أُنِيخَ على حَجَرٍ استناخ»[٤].

وقولُه ﷺ: «المؤمنُ أَلِفٌ مألوفٌ حَيِيٌّ، ولا خيرَ فيمَن لا يَأْلَفُ ولا يُؤلف»[٥].

وقولُه عليه السلام: «المؤمنُ فَطِنٌ حَذِرٌ وقَّافٌ متثبِّتٌ عالمٌ وَرِعٌ»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٦) من حديث أبي شريح رضي الله عنه بلفظ: «واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ» قيل: ومَن يا رسولَ اللهِ؟ قال: «الذي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ». وروى مسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ».

(٢) «هذا»: ليست في (ر).

(٣) في (ر): «الأنوف». والصواب المثبت، والأنف على وزن فَعِلٍ، وهو الذي جُعل الزمام في أنفه فيجره مَن يشاء من صغير وكبير إلى حيث يشاء.

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٨٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٧٧٧٧)، عن مكحول عن النبي ﷺ مرسلاً. ثم رواه البيهقي (٧٧٧٨) من حديث ابن عمر مرفوعاً متصلاً، وقال: الأول مع إرساله أصح.

وعبارة: «المُؤْمِنُ كالجَمَلِ الأَنِفِ، حيثُما قِيدَ انقادَ»، وردت في حديث العرباض بن سارية عند ابن ماجه (٤٣)، وهو حديث صحيح.

(٥) رواه بنحوه الإمام أحمد في «المسند» (٩١٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٥٩) وصححه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه بنحوه أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٨٤٠)، وابن حبان في «المجروحين» (٣/ ٢٩)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جداً.

(٦) رواه أبو الشيخ في «الأمثال» (٢٥٨) من حديث أنس رضي الله عنه. قال المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٢٥٧): فيه أبو داود النخعي كذاب، قال في «الميزان» عن يحيى: كان أكذب الناس، ثم سرد له عدة أخبار هذا منها، قال ابن عدي: أجمعوا على أنه كان وضاعاً.

وقولُه عليه السلام: «المؤمنُ واهٍ راقعٌ، فسَعيدٌ مَن هلَكَ على رَقْعِه»[١].

وعلى هذا ما قاله[٢] أهلُ الحقيقة في تفسير الإيمان، فهو تفسيرُ كمالِ حال المؤمن في مقامات خصال الإيمان.

قال رُوَيمٌ: الإيمان: استصغارُ الكونين عند رؤيةِ المكوِّن، فلا يَستَطْرِقْكَ وارِدٌ، ولا يسترِقَّكَ شاهدٌ.

وقال فارسٌ[٣]: الإيمان: تعظيمُ الحقيقة في صَوْن الشريعة.

وقال الواسطيُّ: أولُ قَدَمٍ في الإيمانِ: أن لا يجريَ عليك التلوين[٤] فيما يَرِدُ عليك من نعمةٍ أو بليَّة؛ إذ لا فرق بينهما في الحقيقة.

وقال داودُ الطائيُّ[٥]: الإيمان: ما يُوْرِثُك النورَ بعد الظُّلمة، ثم اللِّينَ بعد القَسوة، ثم السُّنَّةَ بعد البِدْعة، ثم التلذُّذَ بالعبادة بعد المجاهدة.

وقال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَريُّ رحمه الله: الإيمانُ أربعةُ أركان: التوكُّلُ

---

(١) رواه الحربي في «غريب الحديث» (٣/ ١٠٣٠)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٢٤)، من حديث جابر رضي الله عنه، وقال أبو حاتم كما في «العلل» لابنه (٢/ ١٥٣): حديث منكر.

(٢) في (ر): «ما قال» وفي (ف): «قال». بدل «ما قاله».

(٣) فارس بن عيسى ـ وقيل: ابن محمد ـ أبو الطيب الصوفي، صحب الجنيد بن محمد وأبا العباس بن عطاء وغيرهما، وكان له لسان حسن، ومن المتحققين بعلوم أهل الحقائق ومن الفقراء المجردين للفقر وترك الشهوات. انظر: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٩٠).

(٤) في (ر) و(ف): «التكوين».

(٥) هو داود بن نصير، أبو سليمان، من طيئ من أنفُسهم، وكان قد سمع الحديث وتفقه وعرف النحو وأيام الناس ثم تعبد فلم يتكلم في شيء من ذلك، وجلس في بيته عشرين سنة أو نحوها ومات فحضر جنازته خلق كثير، توفي سنة (١٦٥هـ). انظر: «المعارف» لابن قتيبة (ص: ٥١٥).

علـى الله، والاستسـلامُ لأمـر الله، والرِّضـا بقضـاءِ الله، والشـكرُ لنعمـاء الله عـزَّ وعـلا، والتقـوى بـابُ الإيمـان، واليقينُ قلـبُ الإيمـان، والصبـرُ عمادُ الإيمـان[1]، والإخـلاصُ كمـال الإيمـان.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الإيمان بضعٌ وستُّون ـ أو بضعٌ وسبعون ـ باباً، أفضلُها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[2].

فأهلُ الحديث جعلوا هذا كلَّه من الإيمان.

ونحن قُلنا: هي من خصالِ أهل الإيمان، ولم يَرِدْ تعديدُها بأعيانها في حديثٍ واحدٍ، وأهلُ العلم عَدُّوا ذلك على وجوه، وأقصى ما يتناولُه لفظُ هذا الحديث: تسعةٌ وسبعون، وأنا أَعُدُّها على ترتيبٍ أختارُه، وعلى الاجتهادِ مدارُه، فأقول:

بدأ فيه بالتهليل، والذي يليه: التكبيرُ والتسبيح، والتحميد والتمجيد، والتجريد والتفريد، والتوبة والإنابة، والنظافة والطهارة، والصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة، والقيام والاعتكاف، والقُربان والصدقة، والغزو والعِتق، وقراءة القرآن، ومُلازَمة الإحسان، ومجانَبة العصيان، وترك الطغيان، وهجرُ العدوان، وتقوى الجَنان، وحفظُ اللسان، والثناءُ والدعاء، والخوف والرجاء، والحبُّ والحياء، والصدقُ والصفاء، والنصحُ[3] والوفاء، والندمُ والبكاء، والإخلاصُ والذكاء، والحلمُ والسخاء، والشكرُ في العطيَّة، والصبرُ في البليَّة، والرضا بالقضيَّة، والاستعدادُ للمنيَّة، واتِّباعُ السنَّة، وموافقةُ الصَّحابة، وتعظيمُ أهل الشَّيبة، والعطفُ على صغار البَرِيَّة، والاقتداءُ

---

(١) في (أ): «الدين».

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم (٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (أ): «والنصيحة».

بعلماء الأمَّة، والشفقةُ على العامَّة، واحترامُ الخاصَّة، وتعظيمُ أهل السنَّة، وأداءُ الأمانة، وإظهار الصِّيانة، والإطعام والإنعام، وبِرُّ الأيتام، وصِلَةُ الأرحام، وإفشاءُ السلام، وصدقُ الاستسلام، وتحقُّق[1] الاستعصام، والزُّهد في الدنيا، والرغبةُ في العُقبى، والموافقةُ للمولى، ومخالفةُ الهوى، والحذر من لظى، وطلبُ جنة المأوَى، وبثُّ الكرم، وحفظ الحرم، والإحسانُ إلى الخدم، وطلب التوفيق، وحفظُ التحقيق، ومراعاةُ الجارِ والرفيق، وحُسن الـمَلَكة في الرقيق. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، فمَن استكمَل الوفاءَ بشُعب الإيمان نال بوعدِ الله كمالَ الأمَان، وهو الذي[2] قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: هو في اللغة: نقيضُ الشهادة، وقد غاب فلانٌ عنا غَيبةً، وغابت الشمس ـ أي: غرَبتْ ـ غيبوبةً، وغيابتُ الجبِّ: كالطاقِ في البئر، والغِيبةُ: ذكرُ عيوب الإنسان[3] في الغَيبة.

واختُلف في تفسيره هاهنا:

فقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: أي: يؤمنون بالله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: يصدِّقون الرسل.

وقال ابنُ جريج: أي: يؤمنون بالوحي من قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] معناه: وما هو[4] على الوحي.

---

(١) في (ر): «وتحقيق».

(٢) في (ر): «وقد»، بدل: «وهو الذي».

(٣) في (أ): «الناس».

(٤) «وما هو»: ليس في (ف).

وقال الحسن: أي يصدِّقون بالآخرة[١].

وقال بعضهم: أي: يؤمنون بالله ويطيعونه وإن غابوا عن المؤمنين ـ لا كالمنافقين ـ كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وقال بعضهم: أي: يؤمنون بقلوبهم الغائبةِ مع ألسنتهم الظاهرة، لا كالمنافقين الذين يؤمنون بألسنتهم الظاهرة دون قلوبهم الغائبة.

وبالجملة[٢]: أن الغيب كلُّ ما لا يصلُ إليه العبد إلا بدليلٍ، وهو ما غاب عن الحسِّ مما يجبُ الإيمان به، وهو ما أَخبر به النبيُّ ﷺ من الكائنات بعده في الدنيا وما بعد الموت من أحوال القيامة والجنة والنار.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: قيل فيه بوجهين:

يؤمنون بغيبِ الله ولا يطلبون منه[٣] طلبَ الأمم السالفةِ من أنبيائهم عليهم السلام، كقول بني إسرائيلَ لموسى صلوات الله عليه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥].

والثاني: يؤمنون بغيب القرآن، وبما يُخْبرهم القرآن من الوعد والوَعيد، والأمر والنهي، والبعث والجنة والنار، والإيمانُ إنما يكون بالغيب؛ لأنه تصديق، والتصديقُ والتكذيب إنما يكونان عن الخبر، والخبرُ إنما[٤] يكون عن غيبٍ لا عن مشاهدةٍ[٥].

---

(١) انظر هذه الأقوال في «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٧)، و«زاد المسير» (١/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٢) في (أ) و(ف): «والجملة».

(٣) في (أ): «منه مما»، وفي (ف): «ما».

(٤) «إنما»: ليست في (أ)، ولم ترد في مطبوع «التأويلات».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٧٣).

وقال أهلُ الحقيقة: معناه: أنهم بغيبِ القرآن عايَنوا غيبَ الآخرة، ثم بغيبِ الغيب شاهَدوا الحقَّ مطَّلعاً عليهم في جميع الأوقات، فغابوا باطِّلاعه عليهم عن مشاهدةِ كلِّ شيءٍ سواه، فهم قائمون معه مع المشاهَدة.

ثم الغيبُ في القرآن جاء لمعانٍ:

للسِّر: قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٣٣]؛ أي: سِرَّ أهلهما.

وللزَّوج: قال تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾ [النساء: ٣٤].

وللرِّزق: قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وللَّوْح: قال تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾.

وللْوَحي: قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤].

ولِمَا غاب عن العباد: قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾(١) [الأنعام: ٧٣].

وللْكَيل(٢): قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١].

وللْعَذاب: قال تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]؛ أي: متى ينزل العذاب.

وللْمَوت: قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ أي: متى أموتُ.

وللشَّك: قال تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الكهف: ٢٢]؛ أي: قولاً بالشك.

ولنزول العلَامة: قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]؛ أي: علم نزولها.

---

(١) في (أ): «﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾».

(٢) في (أ) و(ف): «ولليل».

وبمعنى الغَيبة: قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

والتلفيقُ(١): أن الله تعالى أخبر أنه عالمُ الغيب، ولا يعلم غيرُه الغيبَ؛ فإنه قال: ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وذكَر أن عنده مفاتحَ الغيب، وقال لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وذكَر أن الجنَّ علِموا أنهم لا يعلمون الغيبَ بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ [سبأ: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وأَخبر أنه هو الذي أَخبر رسولَه بالغيب بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ووبَّخ الكفار بقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [مريم: ٧٨]، وبقوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ [الطور: ٤١].

وأَمر بالثناء عليه به بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الزمر: ٤٦].

ومدَح المؤمنين بالإيمان بالغيب، وبالخوف بالغيب، وبالخشية بالغيب، وبالنُّصرة بالغيب، بقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [ق: ٣٣]، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

---

(١) في (ر): «والتحقيق».

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [الجمعة: ٨].

ووعدهم الجنة بالغيب فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: دلَّت بقيةُ الآية على أن الأعمال ليست من الإيمان؛ فإنه ذَكر الإيمان وعطَف عليه الأعمالَ، والمعطوفُ غيرُ المعطوفِ عليه .

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: قال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: هذا يَحتمِل وجهين:

يَحتمِلُ الصلاة المعروفة؛ أي: يقيمونها [(١)] بإتمام ركوعها وسجودها والخشوعِ والخضوع له فيها، وإخلاصِ القلب والنية له[(٢)]، على ما جاء في الخبر: «انظُرْ مَن تُناجي» [(٣)].

ويَحتمِلُ الحمدَ لله والثناءَ عليه، فإن كان المراد هذا فهو لا يحتمِلُ النسخَ ولا الرفعَ في الدنيا والآخرة[(٤)].

---

(١) في (ر): «يحتمل الصلاة ويحتمل المعرفة أي يقيمون بها».

(٢) «له»: من (ف)، ولم ترد في «التأويلات»، وفيه: (في النية) بدل: «والنية».

(٣) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٨٠)، ومن طريقه النسائي في «الكبرى» (٣٣٥٠) و (٨٠٣٧)، من حديث البياضي: أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد عَلَت أصواتُهم بالقراءة، فقال: «إن المصلي يناجي ربه عز رجل، فلينظر بما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن». وإسناده صحيح. وله شاهد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥٣٤٩).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٧٤).

ولأهل التفسير في هذا [(١)] ستةُ أقاويلَ:

قال بعضهم: إقامةُ الصلاة: أداؤها؛ فإنَّ قول المؤذِّن: قد قامت الصلاة، معناه: أَخذوا في أدائها، وقيامُ الشيء: وجودُه، وإقامتُه من العبد: تحصيله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إقامتُها: إتمامُ ركوعها وسجودها وما يجب فيها، وهو في معنى التقويم؛ أي: التسويةِ، فلا يُدخل نقصاً في شيءٍ من أفعالها وأركانها، ولا خلَلاً في فرائضها وواجباتها وسُنَنها وآدابها.

وقيل: إقامتُها: إدامتُها وإظهارُها، قال الشاعر:

أقامــت غزالــةُ ســوقَ الضِّراب   لأهــل العراقــينِ حــولاً قميطــاً[(٢)]

أي: أدامت امرأةُ شبيبٍ الخارجيِّ أمرَ الحرب وضرب السيوف حولاً تامًّا، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]؛ أي: مُواظِباً على التَّقاضي.

والرابع: قول ابن كيسانَ: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يقيمون بالصلاة برهانَهم على صدق دعواهم في الإيمان بالغيب.

والخامس: قول بعضهم: إقامتُها: مراعاةُ حقوقها [(٣)] وشرائطِها؛ أي: شرائطِ الجواز والقبول[(٤)]، وشرائطُ الجواز: ستةٌ قبل الشروع وستةٌ بعده، وهي معروفة، وشرائطُ القبول: ستةٌ بالظاهر وستةٌ[(٥)] بالباطن:

---

(١) في (ف): «فيه».

(٢) البيت لأيمن بن خريم كما في «شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري (ص: ٥٢١)، ودون نسبة في «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣١)، و«الكشاف» (١/ ٤٠).

(٣) في (أ): «حدودها».

(٤) في (ر): «وشرائط القبول».

(٥) في (أ): «ست» هنا وفي المواضع الثلاثة المتقدمة.

فالظاهر: الخشوعُ؛ لقوله تعالى: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وتركُ أكلِ [١] الحرام، وقولِ اللغو، والكسلِ والإبطاء.

وأما الباطنُ: فالإخلاصُ، والتفكُّرُ، والخوفُ، والرجاءُ، ورؤيةُ التقصير، والمشاهَدةُ.

والسادس: قولُ القشيري: إقامتُها: القيام بأركانها وسُننِها، ثم الغَيبةُ عن شهودها برؤيةِ مَن يصلِّي له[٢]، يقول اللهُ تعالى: «أنا أغنَى الشركاءِ عن الشِّرك، فمَن عَمِلَ لي عَمَلاً وأَشْرَكَ فيه غيري فهو له وأنا منه بريءٌ» [٣].

وعن أبي بكرٍ الشِّبْليِّ رحمه الله أنه قال: لو نظر قلبي في الصلاة إلى العُقبى توضَّأْت، ولو نظر[٤] إلى الدنيا اغتَسلْت.

وقال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢] والخشوع: سكون الظاهر والباطن، فلا يَصرف شيئاً من أعضائه إلى غير السنَّة، ولا شيئاً من باطنه إلى غير القُربة.

وقال النبيُّ ﷺ حين رأى رجلاً يعبثُ بلحيته في الصلاة: «أمَا لو خَشَعَ قلبُ هذا لخشَعَتْ جَوارِحُه»[٥].

---

(١) «أكل»: ليست في (ف).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧).

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ر): «نظرت».

(٥) رواه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» (٣/ ٢١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وسنده ضعيف كما قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٠٥)، قلت: فيه سليمان بن =

وقيل: إقامةُ الصلاة: بالتطهُّر أولاً ظاهراً وباطناً، وبالتجمُّلِ بلباسِ أهل[1] الدنيا ولباسِ أهل التقوى، ومراعاةِ الوقت مع اتِّقاءِ الـمَقْت، وإخلاصِ النيَّة مع إصلاح الطَّوِيَّة، واستقبالِ القِبلة بالوجه والقلب، والافتِتاح بالتكبير[2] عن توقير، والإتيانِ بالقيام على تمام، والقراءةِ عن تفكُّرٍ وتدبُّر، والاستماعِ عن إنصاتٍ وإخبات[3]، والانحناءِ بركوعٍ عن خشوع، والخُرورِ لسجودٍ عن شهود، والتكلُّم بتسبيحٍ عن تصحيح، والختمِ بقِعْدةٍ عن عُدَّة، وتشهُّدٍ عن تعهُّد[4]، وصلواتٍ ودعوات عن تحقيقٍ وإثبات، وتسليمٍ عن تتميم، ثم الدُّعاءِ على إخلاص، والرجوعِ عن إفلاس.

وقوله تعالى: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فالصلاة في اللغة: اسمٌ للدعاء والثناء والقراءة والرحمة:

قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ أي: ادْعُ لهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قيل: هي الثناء.

= عمرو، قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٠٠): وسليمان بن عمرو هذا يشبه أن يكون هو أبو داود النخعي فإني لم أجد أحداً في هذه الطبقة غيره وقد اتفقوا على ضعفه، قال ابن عدي: أجمعوا على أنه يضع الحديث.

قال العراقي: والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب. قلت: روى هذه القصة وهذا القول عن سعيد بن المسيب ابن المبارك في «الزهد» (١١٨٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٣٠٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٧٨٧)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥١). ورواه المروزي أيضا (١٥٠) عن حذيفة رضي الله عنه.

(١) «أهل»: من (ف).

(٢) في (أ) و(ر): «بتكبير».

(٣) في (ف): «الإنصات والإخبات».

(٤) في (أ): «وتشهد وتعهد».

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ أي: بقراءتك.

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٧]؛ أي: رحمة.

والصلاةُ المشروعة: المخصوصةُ بأفعالٍ وأذكار، سُميت بها لِمَا في قيامها من القراءة، وفي قعودها من الثناء والدعاء، ولفاعلِها من الرحمة.

وقيل: سُميت الصلاةُ بها من قولهم: صَلَيْت العود بالنار؛ أي: ليَّنْتُه، والمصلِّي بالصلاة يَلِينُ ويخشعُ لربِّ العالمين.

وقيل: هي من الصَّلا[١]، وهي مَغْرِزُ الذَّنَبِ من الفرس، والمصلِّي ينحني للركوع والسجود فيرفعُ الصَّلَوَينِ في هذين[٢] الحالين.

وقيل: هي من قولهم: فرسٌ مُصَلٍّ؛ أي: تالٍ للسابق في حَلْبةِ الرِّهان، سمِّيت بها لأنها في الذِّكر ثانيةُ الإيمان؛ فإنها ذُكرت في هذه الآية بعد الإيمان بالغيب، وقد قال النبيُّ ﷺ: «الصلاةُ ثانيةُ الإيمان»[٣].

ثم الصلاةُ في هذه الآية: اسمُ جنسٍ، وأريد بها الجمعُ[٤]، واسمُ الجنس يَصلح لذلك، قال تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤]، وهذا[٥] كقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ أي: الكتب.

---

(١) في (ر) و(ف): «الصلوة»، وسقطت الجملة من (أ)، والصواب المثبت. انظر: «زاد المسير» (١/ ٢٥)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (١/ ٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٥٩).

(٢) في (ف): «من هاتين».

(٣) لم أجده.

(٤) في (أ): «اسم الجنس فأريد بها الجمع»، وسقطت من (ف).

(٥) في (ف): «وكذا هذا».

وهي خمسُ صلواتٍ مكتوبةٍ في كلِّ يومٍ وليلة، وكانت خمسين على مَن كان[١] قبلَنا، وكذا فُرضت علينا ليلةَ المعراج، ثم حُطَّت إلى خمسٍ تخفيفاً وثبتَ جزاء الخمسين تضعيفاً.

وتُكتب (الصلوة) بالواو اتِّباعاً لمصحف الإمام، فقد كتبت فيه: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ و﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ بالواو، وإنما كتبوا ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالواو إشعاراً لأن[٢] أصلها الواو؛ فقد قلنا: إنها من الصلا[٣]، وهو واويٌّ، ولذلك يقال في تثنيَتِه: الصَّلَوان.

ثم إن الله تعالى سمَّاها صلاةً في آياتٍ، وسمَّاها تسبيحاً في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

وسماها إيماناً في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: صلاتَكم إلى بيت المقدس.

وقرآناً في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وحسناتٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقنوتاً في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وركوعاً في قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وسجوداً في قوله تعالى: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

وأمانةً في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وذِكراً في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

---

(١) «كان»: من (أ).

(٢) في (أ): «أن».

(٣) في (أ) و(ف): «الصلوة».

واستغفاراً في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

ثم المذكورُ في الآية: إقامةُ الصلاة، واللهُ تعالى أمر في الصلاة بأشياء: بإقامتِها بقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وبالمحافظة عليها بقوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وإدامتِها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، وبأدائها في أوقاتها بقوله عزَّ وعلا: ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وبأدائها في جماعةٍ بقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وبالخشوعِ فيها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

وبعد هذه الأوامرِ صار الناس على طبقاتٍ خمسٍ:

طبقةٌ: لم يَقبلوها، ورأسُهم أبو جهل لعائنُ الله عليه تترَى، فقال الله[١] تعالى في حقِّه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]، وذكرَ مصيرَهم فقال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٦].

وطبقةٌ: قَبِلوها ولم يؤدُّوها، وهم أهلُ الكتاب، فذكرهم الله تعالى فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، قال الكلبيُّ: هم أهلُ الكتاب، وقال تعالى: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: ٥٩]، وذكَر مصيرَهم فقال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وهو دركةٌ في جهنم هي أهيَبُ موضعٍ فيها تستغيثُ النارُ منها كلَّ يومٍ كذا وكذا مرةً، ثم قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾: أي: من اليهودية والنصرانية ﴿وَءَامَنَ﴾: أي: آمَن[٢] بمحمدٍ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: حافَظ على الصلوات[٣].

---

(١) في (أ): «لعنه الله قال تعالى» بدل: «لعائن الله عليه تترى فقال الله».

(٢) «آمن»: ليست في (أ).

(٣) بعدها في (ر): «الخمس».

وطبقةٍ: أدَّوا بعضَها ولم يؤدُّوا بعضَها متكاسِلينَ وهم المنافقون، فذكرهم الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، وذكر مصيرهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وطبقةٍ: يؤدُّونها لكنْ بعد خروجِ وقتها، فذكَرهم الله تعالى في كتابه فقال[1]: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥]، وذكر أن مصيرهم: ويلٌ، وهو وادٍ في جهنم لو جُعلت فيه جبال الدنيا لماعَتْ؛ أي: لسالت، وقال[2] النبيُّ ﷺ: «مَن تركَ صلاةً حتى غاب وقتُها ثم قضاها، عذِّب في النارِ حُقْباً، والحُقْب: ثمانون سنة، كلُّ سنةٍ ثلاثُ مئةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ ألفُ سنةٍ مما تَعُدُّون»[3].

وطبقةٍ: قبِلوها، وهم يراعونها في مواقيتِها بشرائطها، ورئيسُهم[4] المصطفى ﷺ، فذكره الله بقوله تعالى[5]: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ﴾ الآية [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وأصحابُه كذلك، فذكَرهم الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢]، وذكر مصيرَهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١]، وهو أرفعُ موضعٍ في الجنة وأبهاه، ينال المؤمنُ فيه مُناه، وينظرُ إلى مولاه.

---

(١) «فقال» ليست في (أ)، و«في كتابه» ليست في (ر).

(٢) في (ر) و(ف): «سالت قال».

(٣) لم أجده.

(٤) في (أ) و(ف): «ورأسهم».

(٥) في (أ): «فذكر الله تعالى».

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: فالرزقُ: هو الإعطاءُ وإن اختلفت وجوهه[(١)]:

فإن الرِّزق يكون تمليكاً: قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ملَّكناهم.

ويكون غذاءً: قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]؛ أي: غذؤاها.

ويكون طعاماً: قال الله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

ويكون مالاً: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٦]؛ أي: المال.

ويكون مطراً: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ [الجاثية: ٥].

ويكون هبةً: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]: هو هبةُ الشيء[(٢)] لغير الورثة تبرُّعاً وتصدُّقاً.

ويكون أجزاءَ وظيفةٍ كرَزْق القضاة والجنود.

وكلُّ ذلك راجعٌ إلى الإعطاء.

ثم الرِّزقُ يكون هو التغذيةَ عندنا، وهو عند المعتزلة: التمليك، فالحرام عندهم ليس برزق؛ لأنه ليس بمِلك، وهذا في غايةِ الفُحش منهم، وهو نهايةُ الضَّلال؛ فإنه ردُّ كتاب الله تعالى، قال عزَّ وعلا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

والحيواناتُ عندهم ليست تأكل من[(٣)] رزق الله تعالى؛ لأنها لا تملك[(٤)]، وآكِلُ

---

(١) في (ر): «أنواعه».

(٢) في (ف) و(أ): «شيء».

(٣) «من»: ليست في (أ) و(ف).

(٤) في (أ): «تأكل».

الحرام عندهم وكاسبُه في جميع عمره لم يأكل من رزق الله شيئاً[١]، ولم يرزقه الله عزَّ وجلَّ شيئاً.

ثم إنما ذكَر الله تعالى هذا الفعل بصيغة الجمع من نفسه، وهو واحدٌ لا شريك له؛ لأنه خطابُ الملوك، والله تعالى مالكُ الـمُلْك ومَلِك الملوك، فله استحقاقُه ومنه إطلاقُه.

والمعهود من كلام الملوك أربعةُ أوجهٍ:

الإخبارُ على لفظةِ الواحد[٢]: إنِّي فعلتُ كذا، وعلى لفظة الجمع: فعَلْنا كذا، وعلى ما لم يسمَّ فاعلُه: رُسِمَ لكم كذا، وإضافةُ الفعل إلى اسمه على وجهِ المغايبة: أَمَركم سلطانُكم بكذا.

والقرآن نزل بلغة العرب، فجمع الله تعالى فيه هذه[٣] الوجوهَ كلَّها فيما أَخبر به عن نَفْسه:

فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآية [المدثر: ١١]، وهذا على صيغة الواحد.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١]، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا﴾ [الإنسان: ٢]، وهذا على صيغةِ الجمع.

وقال تعالى فيما لم يُسمَّ فاعله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ

---

(١) «شيئاً» ليست في (ف).

(٢) في (أ) و(ف): «الوحد».

(٣) «هذه»: ليست في (أ).

عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وقال تعالى في المغايَبة: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ الآية [البقرة: ٢١] ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾: فالإنفاق: هو صرفُ المال إلى الحاجة، والإنفاقُ في قوله: ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]: هو الافتقارُ، والنُّفوق: هلاك الدابَّة، والنَّفَاق: رَوَاجُ السُّوق، والانْتِفاق: خروجُ اليربوع من النافِقاء[١]، والنِّفَاق: مخالفةُ السِّرِّ العلانيةَ[٢]، ومرجعُ ذلك كلِّه إلى الإمضاء والإفناء.

وتفسيرُه فيه ستةُ أقاويلَ:

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: أي: من الأموال التي أعطيناهم يؤتون الزكاة[٣]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤]، والوعيدُ لا يكون إلا بترك الفرضِ، وقد قرَن الله تعالى الصلاةَ بالزكاة[٤] في آياتٍ من كتابه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١]، ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ٥٥].

---

(١) النافقاء: موضع يرقِّقه اليربوع في جُحَره، فإذا أُتي من قبَل القاصعاءِ ضَرَب النافقاء برأسه فانتفق منها، وبعضهم يسميه النُّفَقة. انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ١٥٦).

(٢) في (ف): «والعلانية».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٤٩).

(٤) في (ر): «والزكاة».

والنَّظم[١] بينهما: أن الصلاة حقُّ الله تعالى، وصرفُ الزكاة إلى الفقير حقُّ عبادِ الله، والواجبُ مراعاتُهما بأمر الله، ومرجعُ جميع العبادات إلى هذين، فالصلاةُ عبادةٌ بدنيَّة، والزكاة عبادةٌ مالية، وجميعُ العبادات تنقسم إليهما.

والثاني: قولُ ابن مسعود رضي الله عنه: هو الإنفاقُ على الأهل[٢]، قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ الآية [الطلاق: ٧].

والثالث: قول الضحَّاك: هو التصدُّق من أنواع[٣] الأموال في الوجوه المختلفة، ويتناول ذلك الصرفَ إلى كلِّ خير[٤]، قال الله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

والرابع: قولُ بعضهم: إنه قراءةُ القرآن، ونظمُه ـ أي: ضمُّه[٥] ـ إلى الصلاة: أنهم يقرؤون القرآن في الصلاة، قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]؛ أي: مما أعطيناهم من القرآن يَتْلون، فليس هذه حالةَ إنفاق المال؛ فإنها[٦] حالُ صلاة الليل.

والخامس: إنه إنفاقُ الرُّوح، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ أي: بأرواحكم ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ أي: إلى حرمان الحياة الباقية الحاصلة بالشهادة بقوله: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

---

(١) في (ر): «والنظام»، وفي (ف): «والجامع».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٥٠).

(٣) «أنواع»: ليست (أ).

(٤) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٤٩).

(٥) «أي: ضمه»: سقط من (أ).

(٦) في (ر) و(ف): «فإنه».

والسادس: أي: لا يدَّخرون عن الله شيئاً مما هو لهم، فينفقون نفوسَهم في آداب العبوديَّة، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبيَّة، فإنفاقُ أصحاب الشريعة من حيث الأموال، وإنفاقُ أرباب الحقيقة من حيث الأحوال.

والأجمعُ أن يقال: إنَّ إنفاق الأغنياء من أموالهم لا يدَّخرونها عن أهل الحاجة، وإنفاقَ العابدين من نفوسهم لا يدَّخرونها عن وظائف الخدمة، وإنفاقَ العارفين من قلوبهم لا يدَّخرونها عن حقائق المراقبة، وإنفاقَ المحبِّين من أرواحهم لا يدَّخرونها عن مَجاري الأقضية.

والأقصَرُ أن يقال: إن إنفاق الأغنياء من النِّعم، وإنفاقَ الفقراء من الهِمَم، فإنفاقُ الأغنياء: إخراجُ المال من الجيب، وإنفاق الفقراء: إخراجُ الأغيار عن القلب.

والأظهر أن يقال: المراد من النفقة: هي[1] الزكاة، وزكاةُ كلِّ شيء من جنسه.

(زكاة مال مواساة بادر ويشان است، وزكاة عز تواضع وإحسان است، وزكاة شرف نصرة ضعيفا نست، وزكاة فر زندان يواختن يتيما نست، وزكاة خانة اردن مهما نست، وزكاة علم تعليم ديكرا نست، وزكوة صحت برهير ارهاها نست، وزكاة قوة جهاد باكافرا نست، وزكاة أوان خوشن، وزكاة أوان خوس خواندن قران است، وزكوتن باكردن عصيان است، وزكوة رقان ناكفتن بهتان است، وزكوة جشم ناكر بتين بينكار مكان است، وزكوة عبوديت مكاه داستن قرمان است، وزكوة إيمان خدمة أركان است، وزكاة أسلم مخالفة شيطان است، وزكوة زهد دون نودن أرسلطان است، وزكوة ذل تعظيم إيمان است، وزكوة سر مراقبت أمر يردان است،

---

(١) «هي»: ليست في (أ).

وزكوة زندكاي فداكردن جان است، وزكوة محبت يادكردن رحمن است، وزكوة مروت نواختن عربيات است)(١).

ثم ذُكر في هذه الآيةِ الإيمانُ وهو بالقلب، ثم الصلاةُ وهي بالبدن، ثم الإنفاقُ وهو بالمال، وهو مجموعُ كلِّ العبادات، ففي الإيمان النجاةُ، وفي الصلاة المناجاةُ، وفي الإنفاق الدرجاتُ، وفي الإيمان البشارة، وفي الصلاة الكفَّارة، وفي الإنفاق الطهارة، وفي الإيمان العزَّة، وفي الصلاة القُربة، وفي الإنفاق الزيادة.

وقيل: ذُكر في هذه الآية أربعةُ أشياء: التقوى، والإيمانُ بالغيب، وإقامةُ الصلاة، والإنفاق، وهي صفة الخلفاء الراشدين الأربعة، ففي الآيةِ بيانُ فضلهم:

التقوى لأبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٦].

والإيمانُ بالغيب لعمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، قال الله تعالى: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وإقامةُ الصلاة لعثمان ذي النورين رضي الله تعالى عنه، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ الآية [الزمر: ٩].

---

(١) في (ف): «تعريبه: وزكاة المال لمواساة الفقراء، وزكاة العز: التواضع والإحسان، وزكاة الشرف: نصرة الضعفاء، وزكاة الأولاد: الشفقة على الأيتام، وزكاة الدور: الضيافة، وزكاة العلم: التعليم، وزكاة صحة البدن: الاحتراز عن الذنوب والشهوات المحرمات، وزكاة القوة: الجهاد مع الكفار، وزكاة الصوت الحسن: قراءة القرآن، وزكاة البدن: ترك العصيان، وزكاة اللسان: ترك الغيبة والبهتان وزكاة [...]: عدم الالتفات إلى زهرة الدنيا وأهلها، وزكاة العبودية: امتثاله [...] [...]، وزكاة المحبة: دوام ذكر الرحمن، وزكاة المروءة: الإحسان إلى الغرباء، وزكاة الجوارح: إتعاب الجوارح في الطاعة، وزكاة الإسلام: مخالفة الشيطان، وزكاة الزهد: البعد من باب السلطان، وزكاة القلب: تعظيم الإيمان، وزكاة السر: مراقبة أمر الإله الصمد، وزكاة الحياة: أن يفدي روحه في سبيل الله بالجهاد».

والإنفاقُ لعليٍّ المرتضَى[١] رضي الله تعالى عنه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٤].

* * *

(٤) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾: أي: أُوحي إليك.

والإنزالُ في اللغة لمعانٍ:

للإرسال من عُلوٍ إلى سُفلٍ: قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

وللإمطار: قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [الحج: ٥].

وللإعطاء: قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦].

وللخلق: قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: ٢٥].

وللوضع والشرع: قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] فهو في حقِّ الميزان وضع وشرع للتقدير به، كما قال تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

ويكون بمعنى الإعلاء[٢]: قال تعالى: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]: ومنازلُ الجنة ليست للنزول فيها من علوٍ إلى سفلٍ، بل من سفلٍ إلى علوٍ، قال

(١) «المرتضى»: من (ف).

(٢) في (أ): «الإعلاء كما» وفي (ر): «الأعلى».

تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥]، وفي الحديث: «يقال لصاحب القرآن»؛ أي: لقارئه[١]: «اقرأْ وارْقَ»[٢].

ويكون في معنى التَّبوِئة: قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩].

ويكون بمعنى التضييف: قال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[٣] [يوسف: ٥٩]؛ أي: المضَيِّفين.

ويكون في معنى مراعاةِ الشيء على[٤] محلِّه ومَنزله: قال النبيُّ ﷺ: «أَنْزِلوا النَّاسَ على منازلهم»[٥]؛ أي: احترِموهم على أقدارهم.

ويكون بمعنى الوحي: كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فإنْ[٦] حُمل على الإنزال الذي هو من العلوِ إلى السفلِ فمعناه: إنزالُ جبريل لتبليغه؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. والتنزيلُ للتكريرِ والتكثيرِ من الإنزال.

ثم معنى: (ما أنزل إليك) هو[٧]: القرآنُ الذي يُتلى، والوحيُ الذي لا يُتلى،

---

(١) في (أ): «أي لقارئ القرآن» و(ف): «أي قارئه».

(٢) رواه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤) وصححه، وابن حبان في «صحيحه» (٧٦٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) في (ف): «﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾» وهي الآية (٢٩) من سورة المؤمنون.

(٤) في (أ): «عن».

(٥) لم أجده، وروى عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٠٥٨) عن معمر عن قتادة: أن عمر بن الخطاب حين طعن قال: (أوصي الخليفة من بعدي خيراً، وأوصيه بالمهاجرين خيراً، أن يعرف حقوقهم، وأن ينزلهم على منازلهم..).

(٦) في (ف): «وإن».

(٧) في (ر): «أي».

فالمتلوُّ: هو هذه السُّورُ والآيات، وغيرُ المتلوِّ: ما بيَّن النبيُّ ﷺ من أعداد الركعات ونُصُبِ الزَّكَوات وحدودِ الجنايات، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، وقال النبيُّ ﷺ: «ألَا إنِّي أُوتيتُ القرآنَ ومِثْلَه»(١).

ثم هذا الإنزالُ هو من الله تعالى، وإنما ذُكر هاهنا على ما لم يسمَّ فاعله لِمَا مرَّ أن خِطاب الملوك يقع على أربعة أوجهٍ، وقد ذُكرت هذه الوجوهُ كلُّها في هذه الكلمة:

قال في صيغةِ الواحد: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ [البقرة: ٤١].

وقال في صيغة الجمع: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال في ذكر الاسم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٩١].

وقال في ما لم يسمَّ فاعلُه: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

ثم: هاهنا قال: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، فأضاف إلى جميع(٢) الأمة؛ لأن المنزَل على الرسول تلزمُ أحكامُه جميعَهم، فكان خطابُه خطابَهم، وهو أيضاً تشريفٌ لهم وجمعٌ في الكرامة بينه وبينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: أي: ويؤمنون بما أنزل من الكتبِ قبْلَكَ على سائر الأنبياء.

ثم الإيمانُ بكلِّ الكتب مع تَنافي أحكامِها من وجهين:

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٤) من حديث المقدام بن معدي كرب. وقوله: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله»: ليس في (أ)، وقوله: «ومثله» ليس في (ف).

(٢) في (ر): «جمع».

أحدهما: التصديقُ أن كلَّها من عندِ الله.

والثاني: الإيمانُ بما لم يُنسخ من أحكامها.

ثم انتظامُ هذه الآيةِ بما قبلَها: ما ذُكر: أنه لمَّا نزل مدحُ المؤمنين بالتقوى والإيمانِ بالغيب والصلاةِ والإنفاقِ في الآية الأولى، قال أهلُ الكتب: هذا لنا وهي[1] أوصافُنا، فنزل قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: فجعل المدحَ للمؤمنين الذين [2]يؤمنون بما أُنزل على محمدٍ كما يؤمنون بما أُنزل على الأنبياء الذين قبلَه، فثبَت خروجهم عن ذلك بكفرهم بما أُنزل على محمد.

وعلى هذا يكون قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ نعتاً للمذكورين قبلَه، والواوُ لا تكونُ للعطفِ الذي هو للمغايَرة، بل يكونُ ذِكْرَ[3] نعوتٍ مترادفةٍ لمنعوتٍ واحدٍ بالواو، كما قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

ويجوز أن يقال: فلانٌ عالمٌ[4] زاهدٌ صادقٌ، ويجوزُ: عالمٌ وزاهدٌ وصادقٌ؛ لأنَّ الاسم المشتقَّ من الفعل المطلَق على المسمَّى هو دلالةٌ على الذات وعلى الصِّفةِ القائمةِ به، فباعتبارِ أنه دلالةٌ على الذات هو هو، وباعتبارِ أنه دلالةٌ على صفةٍ قائمةٍ به هو غيرُه، فجاز ذكرُ الصفات بغير واوٍ لاتِّحادِ الذات، ومع الواوِ لتغايُرِ الصِّفات، وهذا في حقِّ المخلوقات[5].

---

(١) في (ر): «هذا لنا وهذا في».

(٢) في (أ) و(ف): «المدح للذين».

(٣) «ذكر»: زيادة من (أ) و(ف).

(٤) في (ر): «عابد».

(٥) «وهذا في حق المخلوقات»: سقط من (أ).

ويجوز أن يكونَ هذا ابتداءً، ويكونَ جوابُه: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الآية.

فإنْ قالوا: لماذا كرَّر ذكرَ الإيمان في هذه الآية بعد ما ذكره في الآية الأولى، والقرآنُ على الإيجاز؟

فجوابُه من وجوهٍ:

أحدها: أن التكرير للتأكيد والتقريرِ متعارَفٌ عند العرب، قال قائلُهم:

كَمْ نعمةٍ كانَتْ لكُمْ كَمْ كَمْ وكَمْ[1]

وفي القرآن: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات مراتٍ، وفي سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مراتٍ، والقرآنُ نزل بلغة العرب.

والثاني: أن الثاني ردٌّ لقول أهل الكتاب، فكانت إعادةً جُدِّدتْ إفادَةً[2].

والثالث: أن هذا غيرُ الأول؛ فإنَّ الأول إيمانٌ بالغيب وهو القيامةُ وما فيها، وهذا إيمانٌ بالقرآن وسائرِ الكتب، ولئن حُمل الغيب المذكورُ في الآية الأولى على القرآن فهذا على الإيمانِ بالوحي الذي لا يُتلى وسائرِ الكتب، فلم يكن تكراراً[3].

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: فالآخرة: تأنيثُ الآخِرِ، وهو الذي يقابِلُه[4]

---

(١) الرجز دون نسبة في «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، و«الصناعتين» للعسكري (ص: ١٩٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٨٠)، و«أمالي المرتضى» (١/ ١٢١)، و«البسيط» للواحدي (٢١/ ١٥١). وزاد العسكري فيه تفعيلة وهي: (كانت وكم).

(٢) كلمة «جددت» هكذا ضبطت في (أ): بضم الجيم، وعليه فيكون «إفادةً» مفعولا له، ويجوز فتح الجيم، فيكون «إفادة» مفعولاً به، والنتيجة واحدة لمن تأمل.

(٣) في (ف): «مكرراً».

(٤) في (ف): «يقابل».

الأولُ، وهو في المعدودات: اسمٌ للفردِ اللاحِقِ، والآخَر بفتح الخاء هو[(١)] الذي يلي الأولَ.

والآخرة: هي نعتٌ لأنثَى مضمَرةٍ، واختَلف في ذلك أهل التفسير:

قال بعضهم: هي الدارُ الآخرة، وقد نصَّ عليها في آيات: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وهي تقابِل هذه الدار وهي الدنيا، وقد جُمع بينهما في آياتٍ، فقال تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وقيل: هي الحياة الآخرةُ، فقد جُمع بينها وبين الحياة[(٢)] الدنيا في آياتٍ، فقال: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦]، وقال ﴿يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣].

وَقيل: هي النشأةُ الآخرة، وقد[(٣)] قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠][(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧].

ثم هذه الكلمةُ ذُكرت في القرآنِ لأشياء:

---

(١) «هو» ليست في (ف).

(٢) في (أ): «حياة».

(٣) في (ر): «فقد».

(٤) «وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾» ليس في (ف)، و«وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾» ليس في (أ).

لملةِ عيسى عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [ص: ٧].

وللكلمة الآخرة: قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]؛ أي: بكلمته الأولى، وهي: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وبكلمته الآخرة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وكان بينهما أربعون سنة.

ولحالةِ تأخير الوحي عن[1] النبي ﷺ: قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

وللقبر: قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وللبعث بعد الموت: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وللقيامة: قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥][2].

وللنار: قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩].

وللجنة: قال تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فاليقين: نقيضُ الشك.

وقيل: هو زوال الشك.

وقيل: هو من قول العرب: يَقِنَ الماءُ في الحوض؛ أي: استقرَّ، فكان اليقينُ طمأنينةَ القلب وسكونَه على حقيقة الشيء.

---

(١) في (ف) و(أ): «إلى».

(٢) في (أ) و(ف): «﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾» بدل من «﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾».

وقيل: هو وقوعُ العلم من جهةِ الاستدلال والأسبابِ التي يُستفاد بها العلم، ولذلك لا يوصَف الله تعالى بالإيقان بالشيء؛ لأنه عالمٌ بعلمه الأزلي لا بعلمٍ مكتسَب.

وقيل: هو التصديقُ بالشيء بعد العلم به.

والفعل منه: أَيقنَ بالشيء وتيقَّنَ به واستَيقَنَ[1] به، كما يقال: أقدَم[2] وتَقدَّم واستَقْدَمَ.

فأما تفسيرُه فقد قيل: ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يعلمون بغيرِ شكٍّ، وليسوا كالذين قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

وقيل: أي: يصدِّقون.

وقيل: أي: يعملون بما يعلمون منه، فلا[3] يَرْكَنون إلى الدنيا، ولا يَغْفُلون عن الآخرة، ولا يعملون بما يعاتَبون أو يعاقَبون عليه في الآخرة.

واليقينُ المذكور في القرآن جاء لمعانٍ:

للتَّصديق: كما في هذه الآية.

وللتَّحقيق: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

ولكونه متيقَّناً به في نفسه وإنْ شكَّ فيه البعض: كما قال في حقِّ القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وللموت: كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

---

(١) في (ر): «فاستيقن».

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «وقدم».

(٣) في (ف): «ولا».

وللقيامة: كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧].

وللعلم والعمل به: كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

ثم في اليقين ثلاثةُ أشياءَ: علمُ اليقين، وعينُ اليقين، وحقُّ اليقين، وفي تفسيرها أقاويلُ:

قيل: علمُ كلِّ عاقلٍ بالموت علمُ اليقين، فإذا عايَنَ الملائكة فهو عينُ اليقين، فإذا ذاق الموت فهو حقُّ اليقين.

وقيل: علمُ اليقين: الإخبار عن الشيء على ما(١) هو به، وعينُ اليقين: معرفتُه على ما هو به، وحقُّ اليقين: هو ذلك الشيء بعينه(٢).

وقيل: علمُ اليقين: ما حصل بالخبر والاستدلال، وعينُ اليقين: ما وقع بالتعريف والإفهام(٣)، وحقُّ اليقين: مجموعُهما.

وقيل: علم اليقين: ظاهرُ الشريعة، وعينُ اليقين: الإخلاص فيها، وحقُّ اليقين: المشاهدةُ فيها.

ثم ثمرةُ اليقين بالآخرة: الاستعدادُ لها، فقد قيل: عشرةٌ من المغرورين: مَن أيقنَ أنَّ الله خالقُه فلا يعبدُه، ومَن أيقنَ أن الله رازقُه فلا يطمئنُّ به، ومَن أيقن أن الدنيا زائلةٌ فيعتمدُ(٤) عليها، ومن أيقن أن الورثة أعداؤه فيَجمع لهم، ومَن أيقن أن الموت

---

(١) في (ر): «عن الشيء كما».

(٢) «بعينه»: سقط من (أ) و(ف).

(٣) في (ف) و(أ): «والإلهام».

(٤) في (ف): «ويعتمد».

آتٍ فلا يستعدُّ له، ومَن أيقن أن القبر منزلُه فلا يَعمره، ومَن أيقن أن الديَّان يُحاسبه[١] فلا يصحِّح حجَّته، ومَن أيقن أن الصِّراط ممرُّه فلا يخفِّف ثِقْله، ومَن أيقن أن النار دارُ الفجَّار فلا يَهرب منها، ومَن أيقن أن الجنة دارُ الأبرار فلا يعمل لها.

وقيل: غايةُ اليقين أربعةٌ: تركُكَ[٢] الدنيا قبل ارتحالكَ عنها، وطلبُك الآخرة[٣] قبل قدومِكَ عليها[٤]، واستعدادُك للموت قبل نزوله بك، وإرضاؤك للربِّ[٥] قبل لقائك إياه.

ثم ذكَر في هذه الآية من المؤمنين الإيقانَ بالآخرة فقال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وذكر منهم الظنَّ في آيةٍ فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، وهو لطفٌ من الله تعالى بإثباتِ صفاتٍ لهم تختلف ظواهرُها وتتَّفقُ معانيها.

ووصفَهم بالجهل في قوله تعالى: ﴿عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النحل: ١١٩]، وبالعلم في قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وبالفقر في قوله تعالى: ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، وبالغنى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]، وبالضعف في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وبالقوة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾. وبالذِّلة في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وبالعزَّة في قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وبالنسيان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ [الانفطار: ٦]، وبالذكر في

---

(١) في (أ): «محاسبه».

(٢) في (ر) و(ف): «ترك».

(٣) في (ف): «للآخرة».

(٤) في (أ): «إليها».

(٥) في (أ): «الرب».

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وبالعبودية في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وبالملك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠].

وبأنه أوجدهم أولاً على ملكه فقال الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم أَخبر بأنه اشترى المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، ثم جعلهم في العمل له كالأُجَراء فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة: ٦٢] ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ [فاطر: ٣٠] ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

ثم سماهم أولياءَه فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢]، وسمى نفسَه وليَّهم فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وذكر محبَّته إياهم ومحبَّتهم إياه فقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ووجهُ ذلك كلِّه: أنَّ الظنَّ في ابتداءِ الحال، واليقينَ بعد صحةِ الخبر والاستدلالِ، والجهلَ بعاقبةِ المعصية، والعلمَ بحقيقة الشهادة، والفقرَ بأصلِ الخلقةِ، والغِنَى بنيلِ الخِلْعة، والضَّعفَ بالبِنْيةِ، والقوَّةَ بالهمَّة، والذلَّةَ بمُلايَنةِ الأولياء، والعزَّة بمخاشَنةِ الأعداء، والنسيانَ بالجِبلَّة، والذِّكرَ بالمعونة، والعبوديةَ بالأصل، والتمليكَ[1] بالفضل، والاشتراءَ بالحثِّ على بذل النفسِ والمالِ لوجود ذكر[2] الجلال، والأجرَ لتهنئة[3] الثواب، والولايةَ والمحبةَ لمعامَلته معَنا[4] معاملةَ الأولياء والأحباب، والله أعلم بالصواب.

* * *

(١) في (ف): «والتملك».

(٢) في (أ): «دار».

(٣) في (ر): «لتهيئة».

(٤) في (ر): «لمعاينته معنى».

(٥) ـ ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾: أي: المذكورون قبله، وهم المتَّقون الموصوفون بالإيمان بالغيب وسائرِ الأوصاف المذكورة بعده، على قولِ مَن جَعَل ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ صفةً للأولِينَ أو عطفاً عليهم، ويَتمُّ الكلامُ بقوله تعالى: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾، ويكون ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ مبتدأً، وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ خبرَ المبتدأ.

فأمَّا مَن جعل الواوَ للابتداء، فقولُه: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ يكون[1] خبرَ ذلك المبتدأ، ويَرجعُ على الخصوص إلى المذكورِينَ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية[2].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾: أي: على رُشدٍ، وقيل: أي: بيانٍ وحجةٍ، وقيل: أي: صوابٍ وحقٍّ وصحةٍ، وهذا إثباتُ فعلِ العبد.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: هذا إثباتُ توفيقِ الله تعالى، والأولُ ردٌّ على الجبريَّة، والثاني ردٌّ على المعتزلة، وهما جميعاً دليلُ أهل السنَّة والجماعة، وهو كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والهدى: اسم الإسلام، والله تعالى سمَّى الإسلامَ بأسماءٍ وأضاف كلَّ واحدٍ من ذلك إلى نفسه: هُدَى اللهِ، صِراطَ اللهِ، فِطْرَةَ اللهِ، صِبْغَةَ اللهِ، دِيْن اللهِ، نُورَ الله، حَبل الله، كلمة الله، وآياتُها: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣] ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ [الشورى: ٥٣] ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى﴾ [الروم: ٣٠] ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢] ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

---

(١) «يكون»: من (أ).

(٢) «الآية»: ليست في (أ).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢] ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وسمَّاه بأسماءٍ مفرَدة:

كلمةَ التقوى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦].

والكَلِمَ الطيِّبَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وكلمةً طيبةً[1]: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤].

والقولَ الطيِّبَ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤].

وقولَ الصواب: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

والقولَ المرْضيَّ: ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وقولَ الحق: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

ودعوةَ الحق: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

وشهادةَ الحقِّ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦].

والعهدَ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

والحسنةَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ﴾ [القصص: ٨٤].

والإحسانَ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

والإيمانَ: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

والإسلامَ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

والسَّلَمَ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾[2] [النساء: ٩٤].

---

(١) «وكلمة طيبة»: من (أ).

(٢) في (أ): «والسلام ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلاَمَ﴾» وهي قراءة سبعية وستأتي.

والسِّلْمَ: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والسبيلَ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣].

وسبيلَ الرشاد: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

وسبيلَ الرُّشد: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

والرُّشد: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ٢].

والنعمة: ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨].

والفضل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٥٨].

والعدلَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: بالتوحيد[1]. ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[2].

والحقَّ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الكهف: ٢٩].

والصدقَ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الزمر: ٣٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المؤمنُ الذي يقولُ الصدق[3]، وهذا فرد بمعنى الجمع فقد قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والبِرَّ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والبيِّنةَ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٥) بلفظ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.

(٢) «﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾» زيادة من (ف) في هامشها وعليها علامة التصحيح.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٤) بلفظ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ يقول: مَن جاء بـ: لا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: رسولَه.

والدِّين[1]: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ودينَ الحقِّ: ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

وديناً قيِّماً: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

ودين القيِّمة[2]: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

والطريقة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦].

والشريعة ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣].

فهذه أربعون اسماً، وللمؤمن منها أسماءٌ، ومَنَّ الله علينا بذلك فقال: ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧]، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] ثم قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال للكافر[3]: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣].

ثم قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ مدحٌ لهم، وقولُه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بيانُ أنه مِن عنده حصَل لهم، وهذا فضلٌ منه عليهم حيث مدَحهم وهو الذي منَحهم، وهو كما قال في حقِّ يوسفَ عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وهو بيانُ المنَّة بصرفه وعصمتِه، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] وهو ثناءٌ عليه بإخلاصه وصَفْوته.

---

(١) سقطت من هنا ورقة كاملة من النسخة (ر)، وسننبه على نهاية السقط في موضعه.

(٢) في (أ): «ودين القيمة ودين قيم وديناً قيماً» بدل: «وديناً قيماً ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ ودين القيامة».

(٣) في (ف): «للكافرين».

وقال تعالى في حقِّنا: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ثم أثنى علينا فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وقال حبيبٌ العجَميُّ[١]: إلهي أنت تَمنحُ وأنت تَمدحُ.

ثم مجموعُ الآية أنه قال: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهو مدحٌ بترك كلِّ المخالفات، ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وهو ثناءٌ برأس الطاعات، ثم قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وهو مدحٌ بجامعة العبادات، ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وهو مدحٌ بما هو أساسُ السخاوات، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهو التصديقُ بكلِّ الرسالات، ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وهو الإقرارُ والاعتقادُ بالبعث والجزاءِ على كلِّ المعاملات، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو شهادةٌ لهؤلاء الموصوفين بالهداية في كلِّ الحالات، وحُقَّ لمن جمَع هذه الصفاتِ أنْ يؤهَّل لهذه الصِّلات.

ثم في هذه الآية ذَكر الهدى للموصوفين بكلِّ هذه الصفات، وفي قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآيةَ إلى[٢]: ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧] ذَكر لهم الهدايةَ بالإقرار والاعتقادِ بدونِ سائر الطاعات، بياناً لشرف الإيمان وجلالِ قَدْره وعلوِّ أمره، وأنه[٣] إذا قَوِيَ لم يُبطله نفسُ المخالفات، بل هو الذي يَغلِبُ فيَرُدُّ إلى التوبة بعد التَّمادي في البطالات، وكما هَدَى اليومَ إلى الإيمان يَهدي غداً إلى الجنان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾

---

(١) هو حبيب بن محمد، أبو محمد العجمي البصري، أحد الزهاد المشهورين الموصوفين بالزهد والورع والكرامات واستجابة الدعاء، رَوَى عَن بكر بن عَبد الله المزني، والحسن البَصْرِيّ، وشهر بن حوشب، والفرزدق الشاعر، ومحمد بن سيرين. من رجال «التهذيب».

(٢) في (ف): «إلى قوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾» بدل: «الآية إلى».

(٣) في (ف): «فإنه».

[يونس: ٩]، وذلك أن المطيعين نورُهم يَسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وهم على مراكبِ طاعاتهم والملائكةُ تتلقَّاهم، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ويبقى العصاةُ منفرِدينَ[١] منقطِعينَ في متاهات القيامة ليس لهم نورُ الطاعة ولا في حقِّهم استقبالُ الملائكة، فلا يهتدون السبيل، ولا يهديهم دليل، فيقول الله لهم: عبادي ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥] إن أهل الجنة من حُسن الثواب لا يتفرَّغون لكم، وأهلَ النار من شدةِ العقاب لا يرحمونكم، معاشرَ المساكين سلامٌ عليكم كيف أنتم، إنْ كان أشكالُكم سبقوكم ولم يَهْدوكم فأنا أهديكم[٢]، إنْ عامَلْتُكم بما تَستَوْجِبون فأين الكرم؟ وأنشدوا[٣]:

نحن إذاً في الجفاءِ مِثْلُهم ... إذا هجرناهُم كما هَجَروا

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى﴾ فهو ابتداءٌ آخَرُ، وكلمةُ ﴿هُمُ﴾ تأكيدٌ، ويسمَّى فصلاً وعماداً[٤]، و﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ خبر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وقيل: ﴿هُمُ﴾ مبتدأٌ آخَرُ، و﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ خبرُه، وهما جميعاً خبرُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

والفلاحُ في اللُّغةِ لمعانٍ:

للبقاء: قال لَبيدٌ:

---

(١) في (ف): «مفردين».

(٢) في (ف): «هاديكم».

(٣) في (ف): «وأنشد في معناه».

(٤) في (ف): «ويسمى عمادا».

نَحُلُّ بــلاداً كــلُّهــا حُــلَّ قَـبْـلَـنــا ... ونرجو الفـلاحَ[1] بعـد عـادٍ وحميرِ[2]

وللبقاء في الخير: قال عَدِيٌّ:

ثــم بعــدَ الفــلاحِ والملــكِ والنِّعْـ ... ـمــةِ وارتْـهــم هنــاك القبــورُ[3]

وللعيش: قال عَبيدُ بن الأَبرص:

أفلِـحْ بمـا شـئتَ فقـد يُبلَـغُ بالضْـ ... ـضَـعْــف وقـد يُخـدَعُ الأريـبُ[4]

وللظَّفَر وإصابة[5] الخير، قال لَبيد:

فاعْقِلــي إنْ كنــتِ لمَّــا تَــعْـقِـلي ... ولـقــد أَفْلَــحَ مَــن كان عَقَــلْ[6]

وللفوز والنجاة، قال الشاعر:

قــد أَفلــحَ الساكــتُ الصَّـموتُ ... كـــلامُ راعـــي الــكلامِ قــوتُ[7]

---

(١) في (ف): «فلاحاً»، والمثبت من (أ) والمصادر.

(٢) انظر: «ديوان لبيد» (ص: ٤٧)، و«مجاز القرآن» (١/ ٣٠)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٧٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٣٠)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٦٦)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢٢٠)، و«عيون الأخبار» (٣/ ١٣٢)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٧١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٧٦). وجاء في هذه المصادر عدا «عيون الأخبار»: (والإمة) مكان: «والنعمة»، والمعنى واحد. وعدي هو عدي بن زيد العبادي.

(٤) انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص: ٣٨٢)، و«مجاز القرآن» (١/ ٣٠)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢٦١)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٧٦).

(٥) في (ف): «ولإصابة».

(٦) انظر: «ديوان لبيد» (ص: ٩١)، و«مجاز القرآن» (١/ ٣١)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٥٦)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٥٧).

(٧) البيت لمحمد بن أبي العتاهية الملقب بعتاهية، كما في «معجم الشعراء» للمرزباني (ص: ٤٣٢)، =

فأما تفسيرُه هاهنا فقد قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أي: الناجون من النار[١].

وقال قتادةُ: أي: الباقون في الجنة.

وقال ابنُ كيسان: أي: الذين ظَفِروا بما طلبوا، ونجَوا مما منه هربوا[٢].

وقال أبو عبيدة: أي: المصيبون الخير[٣].

وقال القُتَبيُّ: أي: الباقون في النعيم المقيم[٤].

وقيل: الفائزون بقَهْر الأعداء، وهي هواجسُ[٥] النفوس، وخواطرُ القلوب، ووساوسُ الشيطان.

وحاصلُه كله[٦] يرجع إلى ثلاثة أشياءَ:

أحدها: الظَّفَر، وبسطُه: أنهم ظَفِروا على النفوس فقهَروها فلم تجرَّهم إلى متابعةِ هواها، وعلى الدنيا فهجَروها فلم تَغُرَّهم بزخارف مَرْآها، وعلى

= و«تاريخ بغداد» (٢/ ٣٥)، أو لأبيه كما في «الموشى» للوشاء (ص: ٧)، وذكره أسامة بن منقذ في «لباب الآداب» (ص: ٢٧٦) فقال: وقال أبو العتاهية، وتروى لابنه محمد. وعجز البيت وهو قوله: «كلام راعي الكلام قوت» من (ف) وليس في (أ).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٩)، بلفظ: (الذين أدْركوا ما طلبوا، ونجَوْا من شرّ ما منه هَرَبُوا).

(٢) تقدم تخريجه من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٩).

(٤) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٩).

(٥) في (ف): «وهو حبس» بدل: «وهي هواجس».

(٦) في (أ): «وحاصل كلمه».

الشيطان فخالَفوه فلم[(١)] يفتنهم بالوساوس، وعلى قُرَناء السُّوء فتحامَوْهم ولم يُبْتَلَوا باستِغْواء النَّسانِس[(٢)].

والثاني: النجاة، وبسطُه: أنهم نجَوا من الكفر والضلالة، والبِدعة والجهالة، وغرورِ النفوس، ووسوسة الشيطان، وزوال الإيمان، وفَقْدِ الأمان، ووحشةِ القبور، وأهوالِ النُّشور، وزلَّة الصراط، وتسلُّطِ الزبانيَة الشِّدَاد الغِلَاظ، وحِرمان الجِنان، ونداءِ القطيعة والهجْرَان.

والثالث: البقاء، وبسطُه: أنهم بَقُوا في الملكِ الأبديّ، والنعيمِ السَّرْمديّ، ووجدوا مُلكاً لا زوالَ له، ونعيماً لا انتقالَ له، وسروراً لا حُزنَ معه، وشباباً لا هرَمَ معه، وراحةً لا شدَّةَ معها، وصحةً لا علَّةَ معها، ونالوا نعيماً لا حسابَ له، ولقاءً لا حجابَ له.

فإن قالوا: لو قال: (أولئك على هدًى من ربِّهم وفلاحٍ) لاستقامَ وكان أوجَزَ في الكلام، فلِمَ لم يقُل كذلك؟

قلنا: لأنَّ الفواصِلَ: ﴿يُنفِقُونَ﴾ و﴿يُوقِنُونَ﴾، فالذي يساويهما: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فإن قالوا: لمَ لمْ يقُل: (أولئك هم المهتدون المفلحون)؟

قلنا: لأنه يكون فيه بيانُ اهتدائهم دونَ بيانِ أنه مِن ربهم.

فإنْ قالوا: لمَ لمْ يقل: (وأولئك المفلحون) وهو أَوجزُ؟

---

(١) في (أ): «ولم».

(٢) في (ف): «النسائس». وفي هامش (ف): «النسائس: جنس من الخلق يثب أحدهم على رجل واحدة، ذكره في الصحاح». ومثله في هامش (أ) لكن فيه بدل (النسائس): «النسناس»، وهو الموافق لما في «الصحاح»، والنسائس ليست منه، فهي جمع النسيسة وهي السعاية، فالصواب المثبت، والنسانس ـ كما في «القاموس» ـ: الإناث من النسناس، أو هم جنس أرفعُ قَدْراً من النَّسْناس.

قلنا: في زيادة كلمة ﴿هُمُ﴾ نوعُ تأكيدٍ، وهو أبلغُ.

وفارسيتُها[١] الجامعةُ: (بدنيار است كاران وبقيامت رستكاران بدنيا بدار راست وبقيامت باركار است)[٢].

***

(٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: فأصلُ الكلمة في اللغة: السَّتر[٣] والتغطية، قال لبيد:

يَعْلُو طريقةَ مَتْنِها متواتِرٌ[٤] ... في ليلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غَمَامُها[٥]

والكافر: الليلُ المظلمُ؛ لسَتْره الأشياءَ بظُلمته، قال الشاعر:

حتى إذا ألقَتْ يداً في كافرٍ ... وأَجَنَّ عوراتِ الثُّغور ظَلامُها[٦]

---

(١) في (ف): «وفارسيتهما».

(٢) في هامش (ف): «تعريبه: في الدنيا أفعالهم مستقيمة، وفي الآخرة جروحهم سليمة، في الدنيا على طريق مستقيم، وفي الآخرة سلام لهم من رب رحيم».

(٣) في (أ): «للستر».

(٤) في (أ): «متواترا».

(٥) انظر: «ديوان لبيد» (ص: ١١١)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢٥٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٥٩)، و«وشرح القصائد السبع الجاهليات» لابن الأنباري (ص: ٥٦٠) وفيه: معناه: يعلو طريقةَ متنِ هذه البقرة متواترٌ، أي: مطر متتابع، وقال أبو عمرو: طريقة المتن: ما بين الحارك إلى الكفل. والحارِكُ: أَعْلَى الكاهِلِ من الفَرَسِ، وقيل: هو عظمٌ مُشْرِفٌ من جانِبَيه اكْتَنَفَه فزعا الكتفين، وقيل: هو مَنْبِتُ أَدنَى العُرفِ إلى الظَّهرِ الذي يأخُذ به مَن يركبُه.

(٦) البيت للبيد. انظر: «ديوان لبيد» (ص: ١١٤)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢٦٢)، و«شرح =

والكافر: الزارع؛ لسَتْره البذرَ في الأرض بزراعته.

والكافر: الذي لبسَ فوق درعه ثوباً لسَتْره بدنَه بدرعه ودرعَه بثوبه.

والكافر: البحر والنهر الكثيرُ الماء؛ لستره الأرضَ بمائه.

والكافر: نقيضُ الشاكر؛ لستره النعمةَ بكفرانه.

والكافر: المنكِر؛ لسَتره الحقَّ بباطله.

والكافر: المشرك؛ لستره الإيمانَ بشِركه.

والكفَّارة: مغطِّيةُ الذَّنْب، ورمادٌ مكفورٌ: سَفَتِ الرِّيحُ الترابَ عليه حتى غطَّتْه[1]، قال الراجز:

قــد دَرَسَــتْ غيــرَ رمــادٍ مَــكْفُــور ... مــكتَئِبِ اللــونِ مريــحٍ[2] ممطــور[3]

= القصائد السبع الجاهليات» لابن الأنباري (ص: ٥٨١)، وفيه: (ألقت) يعني: الشمس، أضمرها ولم يذكرها، ومعنى قوله: (ألقت يداً في كافر): بدأت في المغيب، ومن ذلك يقال: وضع فلان يده في كذا وكذا، إذا بدأ فيه.

(١) في (ف): «عفته».

(٢) في (أ): «مبرع»، وفي (ف): «مريج»، والصواب المثبت، وهو رواية في البيت، وفيه رواية أخرى: (مروح)، وانظر التعليق الآتي.

(٣) الرجز دون نسبة في «إصلاح المنطق» (ص: ٩٩ و٢٤٠)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ١١٣)، و«الصحاح» (مادة: روح وكفر)، و«الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (ص: ٣١٦)، و«الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» للبطليوسي (٣/ ٤٢٨) وفيه: المروح: الذي أصابته الرياح، ويروى: مريح، وهو مما جاء نادراً على غير قياس، كأنه بني على فعلِ ما لم يسم فاعله، وجعله مكتئب اللون لتغيره بالقِدم، وكذلك الكآبة إنما هي تغير الوجه من الحزن. ويجوز أن يجعله كالحزين لذهاب أهل الدار.

والكَفْرُ: سوادُ الليل، قال الشاعر:

قـد وردَتْ قبـلَ انْبِـلاجِ الفجرِ وابـنُ ذكاءٍ كامـنٌ فـي كَفْـرِ[1]

والكَفْر: القريةُ؛ لسَتْرِها الناسَ، قال ﷺ: «أهلُ الكُفور هم أهلُ القبور»[2]؛ أي: أهلُ القرى لبُعدِهم عن أهل العلم كالموتى.

والكُفُرَّى: كِمُّ الطَّلْعِ[3]؛ لأنه يَستُره، وكذا الكافورُ، وكافورُ الطِّيب يسترُ الحرارة، والكافور: مِزاجُ شرابِ أهلِ الجنة، وهو من عينٍ في الجنة يَستر كلَّ همٍّ.

والكافر في القرآن على أربعةِ أوجُهٍ:

أحدُها: نَقيضُ المؤمن، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧].

والثاني: الجاحدُ، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢]؛ أي: جحَد وجوبَ الحج.

والثالث: نقيضُ الشاكر، قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والرابع: المتبرِّئ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]؛ أي: يَتبرَّأ بعضُكم من بعضٍ.

---

(١) البيت لحميد بن الأرقط. كما في «إصلاح المنطق» (ص: ٩٩) و(مادة: كفر) في كل من «الصحاح» و«التكملة والذيل والصلة» للصغاني و«اللسان»، و«التاج». وعزاه الجاحظ في «الحيوان» (٥/ ٧١) للعجَّاج. وورد دون نسبية في «الأزمنة» لقطرب (ص: ١٤)، و«البسيط» للواحدي (٢/ ٨٩). قال ابن السكيت: ابنُ ذكاء، يعني: الصُّبْح، وذُكاءُ: الشَّمْس.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٧٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «لا تسكن الكفور فإن ساكن الكفور كساكن القبور».

(٣) أي: وعاؤه.

ثم معنى المذكورِ في هذه الآيةِ: إن الذين ستَروا الإيمانَ بالكفر، والتوحيدَ بالشرك، والحقَّ بالباطل، والنعمةَ بالكفران، وخبرَ الله بالتكذيب، ورسالةَ الرسل بالجحود، وأمورَ القيامة بالإنكار.

واختلفوا في المرادِينَ بالآية:

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: هم اليهودُ الذين حول المدينة(١).

وقال الرَّبيعُ بن أنسٍ: هم قادةُ الأحزاب(٢).

وقال الطبريُّ: هم مشركو أهلِ الكتاب كلُّهم(٣).

ويجيءُ بيانُ هذه الأقاويلِ وأقاويلَ أُخَرَ بعد تمامِ(٤) الآيةِ إنْ شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: مستوٍ عندهم الإنذارُ وتركُه، فهو مصدرٌ أُريدَ به النعتُ؛ كقولك: رجلٌ عدلٌ؛ أي: عادلٌ؛ لأن الفَعَال من أبنية المصادر كالذَّهَاب والصَّلاح والفساد، ويجوز أن يكون بناءَ النعت أيضاً كقولك: سيفٌ كَهَامٌ(٥)، وأَديمٌ صَحَاحٌ، ورجل شَحاح(٦).

وهذه الكلمة ذكرت في القرآن لمعانٍ:

للعدل: في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ أي: عدلٍ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٥٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٥٩).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٥٩).

(٤) في (ف): «ختام».

(٥) أي: كليل لا يقطع.

(٦) في (أ): «شجاع»، وهو خطأ، ورجل شحاح؛ أي: شحيح.

وللوسَط: في قوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]؛ أي: في وسَطِها.

ولقَصْدِ الطريق: في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]؛ أي: قصد الطريق.

وللمستوي: كما في قوله تعالى ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

وللشركاء: في ثلاث آيات: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]، ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨].

ثم قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولم[١] يقل: سواءٌ عليك؛ أي: إنذارُك وتركُ إنذارك ليسا[٢] سواءً في حقك، فإنك[٣] تثابُ على الإنذار وإنْ لم يؤمنوا، فأما في حقِّهم فهما سواءٌ؛ لأنهم لا يؤمنون في الحالين، وهو نظيرُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه[٤] يثاب به الآمرُ وإن لم يَعمل به المأمور.

وكان هؤلاء القومُ كقوم هودٍ الذين قالوا لهودٍ صلوات الله عليه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، وقال تعالى في حقِّ هؤلاء: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال أيضاً: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، ويقالُ لهم في القيامة: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ

---

(١) في (أ): «لم».

(٢) قبلها في (أ): «أي».

(٣) في (ف): «لأنك».

(٤) في (أ): «أنه».

عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وأَخبر عنهم أنهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] فلمَّا كان الوعظُ وتركُه لهم سواءً، وكذا الإنذارُ وتركُه سواءً، كان صبرُهم في النار وتركُه سواءً، وجزعُهم فيها وتركُه سواءً.

وأنت إذا كان عصيانُك في الشباب والشَّيبِ سواءً، وتمادِيكَ في الصحة والمرضِ سواءً، وإعراضُك في النعمة والمحنة سواءً، وقسوتُك على القريب والبعيد سواءً، وزَيغُك في السرِّ والعلانيَة سواءً، أفمَا تخشى أن تكون توبتُك عند الموت وإصرارُك سواءً، وعذرُك عند النَّزْع وسكوتُك سواءً، وزيارةُ الصالحين قبرَك وامتناعُهم سواءً، وقيامُ الشُّفعاء بأمرك في القيامة وتركُهم سواءً؟

وقوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الألف التي تزادُ في أول الكلمة على صورةِ ألفِ الاستفهام تجيءُ على ثمانيةِ أوجُهٍ:

للاستخبار: كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٦٢].

وللاستنكار: كما في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وللإثبات: كما في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وللنفي: كما في قوله تعالى ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧].

وللأمر: كما في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾(١) [الشعراء: ١٠٦].

وللنهي: كما في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ [البقرة: ٤٤].

وللتحقيق: كما في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، هو تحقيقٌ عند بعضهم.

---

(١) في (ف): «﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾».

وللتسوية: إذا كانت الألفُ في أحدِ الشيئين[١] و(أم) في الشيء الآخَر، كما في قوله[٢]: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

· وفي الاستفهام مدخلٌ للتسوية أيضاً في قولك: أزيدٌ في الدار أم عمرٌو؟ وإنما تقول ذلك حين استوَى علمُك فيهما[٣] أنَّ أحدهما فيها، ولذلك تقول في التحقيق: علمتُ أزيدٌ في الدار أم عمرٌو.

وقال صاحب «النظم»[٤]: وإنما ورد هذا بألفِ الاستفهام ـ والاستفهامُ[٥] غيرُ محقَّقٍ وهذا محقَّقٌ ـ لأنه يستقيم هاهنا أن يقال: سواءٌ عليهم أيَّهما فعلتَ: الإنذارَ وتركَ الإنذار، وكلمة (أيّ) في الأصل للاستفهام، وهذا في معناه، فصَلح فيه الاستفهامُ.

ثم الإنذارُ هو التخويفُ، وقيل: الإبلاغ، وقيل: الإعلام بالعذاب.

وأما قراءتُه فقد قرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ ونافعٌ غيرَ قالون[٦] والأعمشُ ممدودةً مهموزةً

---

(١) في (ف): «شيئين».

(٢) في (ف): «كقوله» بدل: «كما في قوله».

(٣) «فيهما» زيادة من (ف).

(٤) «نظم القرآن» لأبي علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني الجماجمي، كان يسكن بجرجان بباب الخندق في سكة تعرف بجماجمو. انظر: «تاريخ جرجان» (ص: ١٨٧)، و«الأنساب» للسمعاني (٢/ ٨٠). قلت: وهذا الكتاب قد نقل منه جمع من أئمة التفسير منهم الثعلبي والواحدي والبغوي والقرطبي وأبو حيان وغيرهم.

(٥) «والاستفهام» سقط من (ف).

(٦) «غير قالون» من (ف). وقالون هو عيسى بن مينا أحد راويي نافع، والثاني هو ورش.

بهمزةٍ واحدة، وكذلك أبو عمرٍو، ولأبي عمرٍو طريقٌ آخَرُ[١] في اجتماع الهمزتين، فإن كانتا متَّفقتين منصوبتين أو مرفوعتين أو مخفوضتين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٢] [الزمر: ٣٣] ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] ليَّن الأولى وحقَّق[٣] الثانيةَ، فإنْ كانتا مختلفتَين: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ﴾ [البقرة: ١٣] ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة: ٤] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ﴾ [الملك: ١٦] حقَّق[٤] وليَّن الثانية، وأما عاصمٌ وحمزة والكسائيُّ وخلفٌ وابن ذكوانَ عن ابن عامر[٥]، فإنهم يُثبتون الهمزتين جميعاً على الأصل[٦].

ثم قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، فكان الإنذارُ منه، والإنذار المذكور في القرآن من ستة:

من الله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

ومن كتابه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

ومن أنبيائه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢].

ومن المصطفى محمدٍ ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

ومن العلماء: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

---

(١) «آخر» من (ف).

(٢) «﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾» ليست في (ف).

(٣) تحرفت في (ف) إلى: «وخفف».

(٤) تحرفت في (ف) إلى: «خفف».

(٥) «وخلف وابن ذكوان عن ابن عامر» من (ف).

(٦) انظر مذاهب القراء في اجتماع الهمزتين في «السبعة» (ص: ١٣٦)، و«التيسير» (ص: ٣١)، و«النشر» (١/ ٣٦٣).

ومن الشَّيب: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] فالشيبُ نذيرُ الموت، وبريدُ الموت، ورسولُ الموت، ورائدُ الموت، والمخبِرُ بمجيء الموت.

واختلفوا في الذين أُريدوا بهذه الآية:

قال الكلبيُّ رحمه الله: هم رهطٌ من اليهود: كعب بنُ الأشرف وحييُّ بن أخطبَ وجديُّ بن أخطبَ وأبو ياسرِ بنُ أخطب ـ وليس بأخي حييٍّ ـ وشعبةُ بن عمرٍو، ومالك بن الصَّيف(١)، وأبو لُبابَةَ، وقد مرَّت قصتُهم عند تفسيرنا ﴿الٓمٓ﴾ بتطويلها، وتفسيرُهم المقطَّعات بتفصيلها.

وبنحوه قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن الآية نزلت في شأن اليهود؛ منهم: كعب بن الأشرف وحييُّ بن أخطبَ ومالك بن الصَّيف وأبو لبابة، وكان مالكٌ رأسَ اليهود، وقد جادل النبيَّ ﷺ يوماً، فقال النبيُّ ﷺ: «هل وجَدْتَ في التوراةِ أن الله تعالى يُبغض الحَبْرَ السَّمين؟» قال: نعم، فقال النبيُّ ﷺ: «أنت منهم»، فغضب مالك وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: ٩١] فقال اليهود لمالكٍ: ما حملك على هذا الإنكار؟ قال: إنه أغضبني، قالوا: كلما غضِبْتَ كفَرْتَ؟! فعزلوه عن الرِّئاسة وأقاموا كعبَ بن الأشرف مقامَه(٢). إلى أن بَعث رسولُ الله ﷺ رَهْطاً من الأنصار فقتلوه.

---

(١) في (ف): «الضيف».

(٢) ذكره عن ابن عباس الواحدي في «البسيط» (٨/ ٢٧٥)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٨٢)، وهو من طريق أبي صالح عن ابن عباس كما صرح ابن الجوزي، وهذه في الغالب هي طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك. ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٦٨)، والبغوي في «تفسيره» =

وكان اليهود[1] آمنوا بالنبيِّ ﷺ قبل مَبعثه، وكان يستنصِرون به، فلما جاءهم ما عَرفوا كفروا به، وكان سببُ كفرهم: حبَّ الرئاسة وأخذَ الرِّشوة، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقال مقاتلٌ: نزلت الآيةُ في شأن شيبةَ وعُتبةَ والوليدِ بنِ المغيرة.

وقال الرَّبيع: نزلت في الذين قُتلوا يومَ بدر.

وقال أبو رَوقٍ: نزلت في شأنِ أبي جهلٍ وجماعةٍ معه، سألوا رسول الله ﷺ معجزةً، حتى قال أبو جهل لعنه الله ـ وكان يسري بالليل فاستقبله رسولُ الله ﷺ فقال ـ: أرني آيةً على نبوَّتك وإلا لأقتلنَّك[2]، فقال: «ما تريد؟»، قال: شقُّ القمر نصفين[3]، فأشار النبي ﷺ إلى القمر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: فانشقَّ نصفين[4]، فرأيتُ حراءً بين شقَّي القمر، فقال اللَّعينُ: ما أسحَرَك يا محمد! فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ١ ـ ٢]، وكان النبيُّ ﷺ يطمعُ في إيمانهم بعد رؤيتهم المعجزةَ وإيقانهم، فأنزل[5] الله تعالى: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦][6].

= (٣/ ١٦٦) واللفظ له، جميعهم عن سعيد بن جبير مرسلاً. لكن كلهم ذكروه في سبب نزول أية سورة الأنعام، ولم أجد من ذكره في سبب نزول هذه الآية هنا.

(١) نهاية السقط من نسخة (ر).

(٢) «وإلا لأقتلنك»: ليست في (أ).

(٣) في (ف): «بنصفين».

(٤) في (ف) و(أ): «فانشق القمر بنصفين».

(٥) في (ف) و(أ): «فقال».

(٦) لم أقف عليه بهذا السياق، وقصة انشقاق القمر ورؤية حراء بين شقيه رواه البخاري (٣٨٦٨) من =

وقوله تعالى: ﴿أَمْ﴾: هذه الكلمةُ في القرآنِ على أربعة أوجُهٍ:

أحدها: عطفٌ على ما دخله ألفُ استفهام[١] كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦] ثم قال: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[٢] [الملك: ١٧].

والثاني: ابتداءُ استفهامٍ كالألف[٣]: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [النساء: ٥٣]؛ أي: ألهم؟

والثالث: بمعنى (بل): ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ أي: بل أنا خير.

والرابع: بمعنى (أو) من غير استفهامٍ كما في هذه الآية: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾؛ أي: أو لم تنذرهم، فلا استفهام في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ﴾: كلمةُ نفي، وكلماتُ النفي:

(لم) و(لمَّا) للماضي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

و(ليس) للحال[٤]: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾.

و(لن) للمستقبل: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

و(ما) و(لا) و(إنْ) الخفيفةُ للكل:

= حديث أنس رضي الله عنه. وحديث ابن مسعود في قصة انشقاق القمر رواه البخاري (٣٨٦٩)، ومسلم (٢٨٠٠).

(١) في (ف): «الاستفهام».

(٢) «﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾»: ليس في (أ).

(٣) في (ر): «كألف».

(٤) في هامش (ف): «أي: (ليس) لنفي الحال».

أمَّا (ما) فتَصلحُ للماضي: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وللحال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وللمستقبل: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وأمَّا (لا) فتَصلحُ للماضي: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]، وللحال: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨]، وللمستقبل: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وأمَّا (إنْ) فتصلح للماضي: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وللحال: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، وللمستقبل: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿تُنذِرْهُمْ﴾ مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: قيل: هو جوابٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وفي الآية تقديمٌ وتأخير، ونظمُه: إن الذين كفروا لا يؤمنون سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم، فهما ابتداءان وجوابان وخبران[١].

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ابتداءٌ، وقولَه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢]: ابتداءٌ آخَر، وجوابُ الابتداء الثاني قولُه: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: أي: سواءٌ عليهم إنذارُك وتركُك الإنذارَ، ثم هذا الابتداءُ وخبرُه جوابٌ للابتداء الأول، وقد اتَّصل بالأول الهاءُ[٣] العائدة؛ أي[٤]: التي في قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، وهو كقولك:

---

(١) «وخبران»: ليست (أ) و(ف)، واستدركت على هامش (ر) وعليها علامة التصحيح، وعليه يكون عطف (خبران) على (جوابان) على التفسير؛ أي: وجوابان هما خبران.

(٢) «أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»: ليس في (أ) و(ف).

(٣) في (ف): «الأول بالهاء»، وفي (أ): «بالأول بالهاء».

(٤) «أي»: ليست في (أ) و(ف).

زيدٌ وجهُه حَسَنٌ، ثم قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كلامٌ تامٌّ فيه[١] تأكيدٌ لقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وبيانٌ له.

ثم هذا تخفيفٌ على النبيِّ[٢] ﷺ وتفريغٌ لقلبه، حيث أخبره عن حالِ هؤلاء في الابتداء بما أَخبر نوحاً ـ صلواتُ الله عليه وعلى سائر الأنبياء ـ في الانتهاء؛ فإنه تعالى قال لنوحٍ بعد طولِ الزمان ومقاساةِ الشدائدِ والأحزان: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فدعا بهلاكهم بعد ذلك، وكذلك سائرُ الأنبياء.

وفي الآية: معجزةٌ للنبي ﷺ، حيث أَخبر أنهم لا يؤمنون، فكان كما أَخبر، وهذا غيبٌ لا يطَّلع عليه بشرٌ إلا بإطْلاع الله تعالى، والله[٣] عزَّ وعلا لا يُطْلع على الغيب إلا مَن اختصَّه بالرسالة؛ قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

وفي الآيةِ: إثباتُ فعلِ العباد؛ فإنه قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفيه إثباتُ الاختيارِ ونفيُ الإكراهِ والإجبار؛ فإنه لم يقل: لا يستطيعون، بل قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فإن قالوا: لِمَ قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وترى[٤] بعضَ الكفارِ يؤمنون؟

قلنا: ليس هذا في حقِّ كلِّ كافر، بل في حقِّ قومٍ بأعيانهم، وقد بيَّنَّاهم.

---

(١) في (ف): «وفيه».

(٢) في (ف): «تخفيف للنبي».

(٣) في (ف): «وهو».

(٤) في (أ): «ونرى».

فإن قالوا: لمَّا[١] عَلِم الله أنهم لا يؤمنون، فلمَ أَمر النبيَّ ﷺ بدعائهم إلى الإيمان[٢]؟

قلنا: كان الإنذارُ للإعذار، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الآية [طه: ١٣٤].

فإن قالوا: لمَّا أَخبر اللهُ تعالى رسوله أنهم لا يؤمنون، فهلَّا أهلكهم كما أهلك قومَ نوح بعد ما أخبر أنهم لا يؤمنون؟

قلنا: لأن النبيَّ ﷺ كان رحمةً للعالمين كما ورد به الكتاب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال الإمام القُشيريُّ: مَن كان في غطاءِ وصفه[٣] محجوباً عن شهودِ حقِّه فسِيَّانِ عنده قولُ مَن دلَّه على الحقِّ وقولُ مَن أعانه على استِجْلابِ الحظ، بل هو إلى داعي الغفلةِ أميلُ، وفي الإصغاءِ إليه أَرغبُ.

وكما أنَّ الكافر لا يَرْعَوِي عن ضلالته لِمَا سَبق من شقاوته، فكذلك المربوطُ بأغلالِ نفسه محجوبٌ عن شهودِ غَيبه وحقِّه، فهو لا يُبصِرُ رُشْدَه ولا يَسلُكُ قَصْدَه.

وقال أيضاً: إنَّ الذي بقيَ في ظلماتِ رعونته[٤] سواءٌ عنده نصحُ الراشدِينَ وتسويلاتُ المبْطِلين؛ لأن الله تعالى نزعَ عن أحوالِهِ بركاتِ الإنصاف، فلا يُصغي إلى داعي الرَّشاد، كما قيل:

---

(١) في (ر): «قد».

(٢) «إلى الإيمان»: ليس في (أ) و(ف).

(٣) في (ف): «صفته»، والمثبت من (أ) و(ر)، وهو الموافق لما في «اللطائف».

(٤) في (ف) و(أ): «دعاويه» وفي (ر): «دعا ربه»، والمثبت من «اللطائف».

وعلى النَّصُوح نَصِيحتي وعليَّ عصيانُ النَّصوحِ[١]

وكتب الغزاليُّ إلى رئيسِ ولاةِ الأمور حين استَنصَحه: أمَّا بعدُ، فإن الذي يَنْصَحُك لا يَصْحَبُك، والذي يَصْحَبُك لا يَنْصَحُك، والسلام[٢].

***

(٧) ـ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: انتظامُه بما قبله: أنه ذَكر هؤلاء بصفاتهم وحالاتهم، ثم أَلحق به[٣] ذكرَ عقوباتهم.

والختم في اللغةِ لثلاثِ معانٍ:

للطَّبع: ومنه سمِّي الخاتم؛ لأنه يُطبَعُ به.

وللإتمام وبلوغِ الآخِرِ: ومنه ختمُ القرآن، ومنه قولُه تعالى في صفة النبيِّ ﷺ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]: هو آخر النبيِّين ومُتمُّ عِدَّةِ المرسَلين، وقولُه: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦]؛ أي: آخِرُ ما تجدُ فيه رائحةُ المسك.

وللإعلام: يقال: ختَم على الكتاب وعلى الباب وعلى الشهادة؛ أي: أَعْلم عليها.

فأمَّا تفسيرُه هاهنا فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: طبع الله على قلوبهم فلا يعقلون الخير[٤].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٢) من قوله: «وكتب الغزالي...» إلى هنا سقط من (أ) و(ف)، واستدرك على هامش (ر) مصححاً.

(٣) في (ر): «بهم».

(٤) في (ر): «الخبر». وانظر: «تفسير أبي الليث السمرقندي» (١/ ٥١)، ولفظه: قال ابن عباس =

وقال مجاهدٌ: هو أن تَحفَّ الذنوبُ بالقلب من كلِّ نواحيه حتى تلتقيَ عليه[١].

وقال القُتَبيُّ: أي: أَقفل عليها وأَغلقها فلا تَعِي خيراً ولا تَسمعُه[٢].

والتحقيقُ على طريقِ اللغة على الأول: أن الله عز وعلا طبَع عليها فجعلها بحيث لا يَخرج منها[٣] ما فيها من الكفر، ولا يدخلها ما ليس فيها من الإيمان.

وعلى الثاني: أن الله عز وعلا أتمَّ جحودها وكُفرَها وعنودها، وجَعل ذلك آخِرَ أمرها، فلا تزول ولا تحول.

وعلى الثالث: أن الله تعالى أَعلم عليها ووسَمها بما فيها، فبه تُعرَف وبه تُوصَف.

وأمَّا معنى هذا الختمِ فعلى ثلاثةِ أوجُهٍ لثلاثِ طوائفَ من المتكلِّمين:

فأمَّا[٤] الجبريَّةُ: فقد جعلوا ذلك من الله منعاً عن الإسلام والمعرفةِ، وإجباراً على الكفر والنَّكَرة[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥]: أنه منعٌ حقيقيٌّ، وهذا منهم جَرْيٌ على مذهبهم الفاسدِ في أن العباد مجبورون ولا فِعْلَ لهم اختياراً، وفسادُ كلامهم ظاهرٌ.

وأمَّا المعتزلةُ: فقد جعلوا ذلك إعلاماً محضاً على القلوب بما يُظهر للملائكة أنهم كفارٌ، فيَلعنونهم ولا يَدْعون لهم بخير؛ كخَتْم الكتاب أو الباب إعلامٌ عليه

= رضي الله عنهما: يعني: طبع الله، ومعنى الختم على القلوب ليس أنه يذهب بعقولهم ولكنهم لا يتفكرون فيعتبرون بعلامات نبوة محمد ﷺ فيؤمنون.

(١) رواه الطبري (١/ ٢٦٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٤١).

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٤٠).

(٣) «منها» زيادة من (ف).

(٤) في (أ): «أما».

(٥) النكرة ـ محركة ـ: الاسم من الإنكار، كالنفقة من الإنفاق. انظر: «القاموس» (مادة: نكر).

بعلامةٍ مجرَّدة، وجعلوا ذلك أيضاً مجرَّدَ شهادةٍ؛ من قولك: كتب فلان شهادته[١] وخَتم عليها؛ أي: أَثْبتَ شهادته، فيقولون ما[٢] معناه: شَهِد الله عليها بكُفرها، وأَظهر ذلك للملائكة. وهذا أيضاً جَرْيٌ منهم[٣] على مذهبهم الفاسدِ في أن أفعال العباد ليست بمخلوقةٍ للهِ تعالى، ولا هي بقضائه وتقديره ومشيئته وإرادته.

وأمَّا أهلُ السنَّة والجماعة فقد قالوا: إنه إثباتُ فعلِ الكفر وإيجادُه[٤].

وحاصلُ الختم عند أهل الحق: عقوبةٌ من الله تعالى لا تَمنع العبد من[٥] الإيمان جبراً، ولا تحمله على الكفر كرهاً، بل هي زيادةُ عقوبةٍ له على سوء اختياره وتمادِيهِ في الكفر وإصراره، يُحرم بها عن اللُّطف الذي يَسهُل به فعلُ الإيمان وتركُ العصيان.

يدلُّ[٦] عليه: أنهم بَقُوا مخاطَبين بالإيمان بقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٧]، ومَلُومين عن الامتناع عنه بقوله[٧]: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٣٩]، وموبَّخين على الكفر بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]؛ أي: ما حمَله على الكفر؟ ولو صاروا مجبورين، وعن الإيمان عاجزين، لزال الخطاب، وسقط اللوم والعتاب،

---

(١) في (ر) و(ف): «شهادة».

(٢) «ما» زيادة من (ف).

(٣) في (أ): «وهذا أيضا مجرد شهادة منهم جريٌ».

(٤) في (أ): «الكفرة وإيجاده»، وفي (ف): «الكفر واتخاذه».

(٥) «من» زيادة من (ف).

(٦) في (أ): «ويدل».

(٧) في (ر) و(ف): «لقوله».

كما في الختم على الأفواه يومَ الحساب، لمَّا عجزوا به حقيقةً عن الكلام لم يبقَ الخطابُ بالكلام.

وتحقيقُ المذهب: إثباتُ فعلِ العبد، وتخليقِ الله تعالى.

والمذكور في هذا المعنى في كتاب الله تعالى ثلاثةُ أشياء: الختمُ والطبعُ والكنانة[١]، وفي كلٍّ واحد منها ذكرُ فعل نفسه وفعل العبد.

أما في الختم فقد قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا إثباتُ فعلِ نفسِه، وقال تعالى قبلَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهذا إثباتُ فعلِهم.

وقال في الطَّبع: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فقولُه: ﴿طَبَعَ﴾: فعلُه، وقولُه: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: فعلُهم.

وقال في الكِنانة[٢]: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال قبله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ﴾ [الكهف: ٥٧].

ثم الختمُ في القرآنِ على ثلاثةِ أوجُهٍ:

للعقوبةِ: كما في هذه الآية.

وللكرامة: كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، قال مقاتل: أي: يَختمْ بالصبر فلا تجدُ غصَّةَ التكذيب، وهذا تسهيلٌ عليه بطريق الكرامة.

وللموعظة: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ

---

(١) في (أ): «والكنان»، وفي (ف): «والكتاب».

(٢) في (أ): «الكنان»، وفي (ف): «الكتاب».

قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، قالوا: يَحتمِلُ أخذَ[١] أعيانِها، ويحتمِلُ أخذَ مَنافعها مع بقاء صور أعيانها، وتقديره: أيها الشاغِلون الأسماعَ والأبصارَ والقلوبَ بغيرِ الحق[٢]، لو أَخَذ الله تعالى هذه الأعيان وأذهبَها فمَن يأتي بها؟ وأيها الشاغلون هذه الأشياءَ[٣] بالحق، لو أن الله أزالها عن الحقِّ فمَن الذي يُعيدها إليه؟ فهو تنبيهٌ وعِظَةٌ للمبطِل والـمُحِقِّ جميعاً.

ثم سببُ هذه العقوبة: الإصرارُ على الذنوب، فقد[٤] روَى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ المؤمنَ إذا أَذنَبَ كانت عليه[٥] نكتةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تاب ونزَعَ واستَغْفرَ صُقِلَ قلبُه منها، وإنْ زاد زادَتْ حتى تَعْلُوَ قلبَه»[٦].

وقالوا: سببُ الحفظِ عن هذا الختمِ: رفعُ الختم عن الكيِّس فلا يمنعُه عن حقٍّ، ووضعُ الختم على اللسان فلا يُطلِقُه في باطلٍ.

وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: هي جمعُ القلب وهو الفؤاد، وقلبُ كلِّ شيءٍ خالصُه وأشرفُه، وعَرَبيٌّ قَلبٌ؛ أي: خالصٌ، وقلبُ النخلة: ما في وَسَطِها، وقلبُ الشيء: صِرْفُه، وانقلابُه: انصرافُه، والقلب: نجمٌ من منازل القمر، والقُلَّب والحُوَّل بالتشديد: الذي يَقلبُ الأمورَ ويحتالُ لها، فسمِّي قلبُ الإنسان به؛ لأنه أشرفُ أعضائه؛

---

(١) في (ر): «أخذ الله».

(٢) في (أ): «حق».

(٣) في (ف): «هذه الأسماع والأبصار والقلوب».

(٤) «فقد»: ليست في (أ).

(٥) «عليه»: سقط من (أ).

(٦) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤١٨).

لِمَا فيه من العقلِ والفهمِ ونحوِ ذلك، ولانقلابه ولإضاءته كالنجم، ولتقلُّبِه في الأمور، ولتصريفِه الأعضاءَ.

والقلبُ في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] قيل: أي: عقلٌ[١].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾: فالسَّمْعُ في الأصل: هو السَّماع، وهو مصدرٌ، والسَّمْع أيضاً الأُذُن بمعنى: السامعة، والسِّمْعُ بالكسر: الصِّيتُ، والاستماعُ: الإصغاءُ للسَّماع، والسَّامعُ والسَّميع[٢]: النَّعت، والسَّميع أيضاً: الـمُسْمِعُ؛ كالبَديعِ بمعنى: الـمُبْدِع.

وقولُه: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥]؛ أي: فأطيعون، و«دعاءٍ لا يُسْمعُ»[٣]: أي: لا يجابُ، و(سَمِعَ اللهُ لـمَن حَمِده)؛ أي: قَبِلَ وأجاب.

و﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]؛ أي: قائلون للباطل.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]؛ أي: جواسيسُ.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]؛ أي: لا تَقدر على[٤] أن توفِّق الكفارَ لقبول الحق.

﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]؛ أي: سماعَ القرآن لبغضِ الرسول.

---

(١) بعدها في (أ) جملة فارسية لم ترد في (ر) و(ف).

(٢) في (أ): «والسميع والسامع» وفي (ر): «والسامع والسمع».

(٣) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٣٠٠٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠١٥)، عن أنس رضي الله عنه، وإسناده على شرط مسلم.

(٤) «على» ليست في (ف).

وفي الخبر: أيُّ الساعاتِ أسمعُ[١]؟ أي: أحقُّ بالدعاءِ وأَرْجَى للإجابة.

وفي الحديث: لم أسمعْ قولاً أسمعَ منه[٢]؛ أي: أبلغَ وأنجعَ في القلب.

كلُّ هذا من السَّماع.

ثم معنى الآيةِ: ختَم الله على آذانهم فجعلَها لا تُصغي إلى خيرٍ ولا تَعيهِ ولا تقبلُه، عقوبةً لهم على سوءِ اختيارهم وميلِهم إلى الباطل وإيثارهم.

وقول المعتزلة[٣] والجبريَّة فيه ـ وقد ردَدْنا[٤] قولَهم ـ على نحوِ ما سبق في ختم القلب[٥].

ثم قولُه: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ على الوحدان دون الجمع لوجوهٍ:

أحدها: أنه في الأصل مصدرٌ، والمصدر يَصلُح للواحد والاثنين والجمع، يقال: هو يَضرب ضرباً، وهما يضربان ضرباً، وهم يضربون ضرباً، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٠٥٩) عن مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ ـ أو كَعْبِ بنِ مُرَّةَ ـ السُّلَمِيِّ أنه سأل النبي ﷺ: أَيُّ اللَّيْلِ أَسْمَعُ؟ قال: «جَوْفُ اللَّيْلِ الآخِرُ».

(٢) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ١٣٤)، و«الغريبين» (مادة: سمع)، في قصة إسلام ضماد بن ثعلبة رضي الله عنه. وقصة إسلام ضماد رواها مسلم (٨٦٨) دون محل الشاهد، وفيه: (لقد سمعْتُ قولَ الكَهَنَةِ، وقولَ السَّحَرةِ، وقولَ الشُّعراءِ، فما سَمِعْتُ مِثْلَ كلماتِكَ هؤلاء، ولقد بَلَغْنَ ناعُوسَ البحرِ).

(٣) في (ف): «القرامطة»، وكذا وقعت في متن (ر) لكن ضرب عليها وصححت في الهامش إلى المثبت.

(٤) «وقد رددنا»: من (أ) و(ف).

(٥) في (ر): «الختم للقلب»

﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٤]، وقال تعالى خبراً عن إبراهيم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ [الحجر: ٦٨]: فوحَّد الضيف[1] لأنه في الأصل مصدرٌ.

والثاني: أن فيه إضماراً، ومعناه: وعلى مواضعِ سمعِهم ـ أي: سماعِهم[2] ـ وهي الآذان، كما في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَها، وثبت هذا الإضمارُ دلالةَ أنَّ السمع فعلٌ، ولا يُختم على الفعل وإنما يُختم على محلِّه.

والثالث: أنه أراد سمعَ كلِّ واحد منهم، وهذا كما يقال: ائتني برأسِ كبشين، وقال الشاعر:

كُلــوا فــي نصــفِ بطنِكــم تعيشوا فــإنَّ زمــانَكم زَمَــنٌ خَمِيــصُ[3]

والرابع: قولُ سيبويه: إنه توسَّط بين[4] جمعينِ، فدلَّ على الجمع وإنْ وحِّد؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] دل على الأنوار ذكرُ الظلمات، وقال الرَّاعي:

بهــا جِيَــفُ الحَسْــرَى فأمَّــا عظامُها فبيــضٌ وأمَّــا جلدُهــا فصَلِيــبُ[5]

---

(١) «الضيف»: ليست (أ).

(٢) في (ف): «أسماعهم».

(٣) البيت في «الكتاب» (١/ ٢١٠)، و«المقتضب» (٢/ ١٧٢)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (١/ ٣١٣)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٥١)، و«أساس البلاغة» (مادة: خمص)، ورواية «الكتاب» و«الأصول» و«الأساس»:

كلــوا فــي بعــض بطنكــم تَعِفُّــوا

(٤) «بين»: من (أ).

(٥) كذا نسب البيت للراعي في «تفسير الثعلبي» (١/ ١٥١)، ونسب لعلقمة بن عبدة في «المفضليات» (ص: ٣٩٤)، و«الكتاب» (١/ ٢٠٩)، و«المقتضب» (٢/ ١٧٣)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٢٤٣)، وورد دون نسبة في «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٤٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٨٣). =

أي: جلودُها صَليبة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾: أي: على عيونهم، فالبصرُ: العين، وجمعُه: الأبصار، كالسفر جمعُه: الأسفار، والإبصارُ بالكسر: الرُّؤية، والبَصارةُ: صفة البَصير[(١)]، وقد بَصُر من حدِّ شَرُفَ؛ أي: صار بصيراً، وبَصُرَ[(٢)] به؛ أي: رآه، قال تعالى خبراً عن السامريِّ: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦].

والبصيرة: رؤيةُ القلب، والبصيرةُ: البيِّنة أيضاً، وقولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ١٤]، قيل[(٣)]: أي: جوارحُه بصيرةٌ؛ أي: شاهدةٌ عليها بما رأت من عملها يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢]؛ أي: علمُك نافذٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]؛ أي: يُبصَرُ فيه.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: ١٢]؛ أي: مضيئةً.

= والبيت لعلقمة من قصيدته في الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني، حين أسر أخاه شأسًا، فرحل إليه علقمة يطلب فكه. وقوله: (بها جيف الحسرى) المراد بالضمير آثار الطريق في متان الأرض كما يفهم من البيت الذي تقدمه، و(الحسرى): المعيية يتركها أصحابها فتموت، و(الصليب): الودك الذي يسيل من جلودها إذا مضى على موتها زمن وهي تحت الشمس ووقدتها. يقول: ماتت وتقادم بها العهد، فابيضت عظامها، وتفانى جلدها فلم يبق منه على أرض الطريق سوى آثار الودك الذي سال من جلودها. ووقع في النسخ: «جيفٌ حسرى»، والمثبت من المصادر.

(١) في (ر): «البصر»، وسقطت من (ف)، والمثبت من (أ)، وفي «العين» (٧/ ١١٧)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ١٢٣): (البصارة مصدر البصير)، والمراد أنها مصدر كالبصر. انظر: «اللسان» (مادة: بصر).

(٢) في (أ): «وقد بصر».

(٣) «قيل»: من (أ).

والاستبصار[١]: التيقُّن.

فإنْ قالوا: لَمَ جَمع الأبصار والواحد: بصرٌ، وهو مصدرٌ كالسمع؟

قُلنا: لأنه اسمٌ للعين أيضاً، فكان اسماً لا مصدراً، فجُمع لذلك.

ومعنى الكلمةِ والله أعلم: وعلى أبصارِ قلوبهم حجابُ غَفلةٍ، وغطاءُ شُبهةٍ، وسحابُ ظُلمةٍ، فلا يَرون الحقَّ ولا يَقبلونه ولا ينقادون له.

وقيل: معناه: يتعامَون عن الحقِّ مع وجودِ العيون، كما[٢] يَتصامُّون عنه مع وجود الآذان.

وقوله تعالى: ﴿غِشَٰوَةٌ﴾: فالغِشاوةُ والغِشاءُ: الغطاءُ، والتغشيةُ: التغطية، وقوله تعالى: ﴿يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ [هود: ٥]؛ أي: يتغطَّون بها، وقولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١]؛ أي: يغطِّي ظلامُه الأفق.

وقولُه: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه: ٧٨]؛ أي: علَاهم فغطَّاهم.

وقولُه: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]؛ أي: وَطِئها، وفيه التغطيةُ.

والغاشيةُ: ما يسترُ السَّرج.

وقولُه تعالى: ﴿غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٧]؛ أي: عقوبةٌ تجلِّلُهم.

وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]: هي القيامة تجلِّلُ الخَلْق.

وقوله: ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ [الأعراف: ٤١]؛ أي: لُحفٌ من نار.

والغَشْيُ: الإغماء، وقوله: ﴿كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ أي: يُغمى عليه، وفيه سترُ العقل.

---

(١) في (ر): «فالاستبصار».

(٢) في (ف): «حتى».

ثم اختُلف في قراءة هذه الكلمة:

فقراءةُ العامة: بكسر الغين وزيادةِ[١] الألف ورفعِ الآخِر.

وقراءةُ الحسن: بضم الغينِ مع الألف.

وقراءةُ أصحابِ[٢] عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: (غَشوةً) بفتح الغين بغير ألفٍ.

وقراءة الجحدريِّ: (غَشاوةٌ) بفتح الغين مع الألف.

وقراءة المفضَّل عن عاصم: (غِشاوةً) بكسر الغين مع الألف ونصبِ الآخر[٣].

ويستقيمُ في اللغة ستةُ أوجهٍ:

غشاوةٌ: بفتح الغين وضمِّها وكسرها مع الألف[٤]، غشوةٌ: بغير ألفٍ بفتح الغين وضمِّها وكسرها.

وأظهرُها وأصحُّها: الكسر مع الألف، قال الشاعر:

تَبِعْتُك إذ عَيني عليها غِشاوةٌ ... فلمَّا انجلَتْ قطَّعْتُ نفسي ألومُها[٥]

---

(١) في (ف): «مع» بدل: «وزيادة».

(٢) «أصحاب» من (ف).

(٣) انظر هذه القراءات في «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ١٠)، وانظر شرحها وتوجيهها في «البحر المحيط» (١/ ١٤١ ـ ١٤٣).

(٤) في (أ): «غشاوة بالألف بفتح الغين وضمها وكسرها» وفي (ر): «غشاوة بفتح الغين، وغِشاوةً بكسرها وضمها مع الألف».

(٥) البيت للحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة. انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣١)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٧١).

وقراءةُ الأكثر برفعِ الآخِرِ، فإن قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٌ﴾ هذا كلامٌ مبتدأٌ، وهو غيرُ معطوفٍ على الأول بالختم، ومَن نصبه فعلى إضمار: جَعَل[١]؛ أي: وجَعَل على أبصارهم غشاوةً.

ثم معناه: وعلى أبصارِ قلوبهم غطاءُ غَفلةٍ وغلافُ شبهةٍ، وكما تعامَوا عن الحقِّ في الدنيا فكذلك يُبعثون في العُقبى، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢].

ولمَّا جُعِلوا على أبصارهم غشاوةٌ، تتَّصلُ بهم هذه الحالة في الدنيا، وعند[٢] الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وفي النار:

قال تعالى في الدنيا: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، وقال في الموت: ﴿كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾[الأحزاب:١٩]،وقال: ﴿غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾[يوسف:١٠٧]، وقال: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، وقال: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، قيل: هي القيامةُ تغشاهم بظُلمتها وفظاعتها، وقيل: هي النار.

وقيل: هي ثلاثةُ أشياءَ: غاشيةُ الأبصار وهي الحَجْبةُ عن لقاء الله تعالى، وغاشيةُ الأبدان وهي حرُّ[٣] النار، وغاشيةُ القلوب[٤] وهي هَيبةُ القطيعة، فهذه

---

(١) في (أ): «وجعل».

(٢) في (ر): «عند».

(٣) في (أ) و(ف): «حرقة».

(٤) في (ر) و(ف): «القلب».

غشاوةٌ في الدنيا أورَثَتْهم هذه هذه الغشاوات في العقبى، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ثم إنما ذكر في هذه[١] الآية القلوبَ والسمعَ والأبصار؛ لأن الخطاب كان باستعمال هذه الثلاثة في الحق، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وكان هذا الخطابُ بعد أن هيَّأ الله لهم الأسباب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [المؤمنون: ٧٨] فلم يستعملوها فيما أُمروا باستعمالها فيه، فعُوقِبوا في الدنيا بالختم على القلوب والأسماع، والغشاوةِ على الأبصار، ويومَ القيامة من جنس ذلك عقوباتُها، وهي ما قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٨]؛ أي: شديدةُ الاضطراب، ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[٢] [الهمزة: ٧]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]؛ أي: المُصِمَّة، وقال[٣]: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٩]؛ أي: ذليلةٌ، لِمَا عرَاها[٤] من التغيُّر والتحيُّر، وقال[٥]: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]؛ أي: عُمياً.

ثم بيَّن عقوبتهم في الآخرة، فقال تعالى:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فالعذابُ: العقوبة، والعَذْب: ذو[٦] العذوبة، وهو[٧] نقيضُ المُلوحة.

---

(١) «هذه»: من (أ).

(٢) في (أ): «أبصارها خاشعة وقال» بدل: «أي: شديدة الاضطراب التي».

(٣) «وقال»: من (أ).

(٤) في (ف): «بما عراها»، وسقطت من (أ).

(٥) «وقال»: من (أ) و(ر).

(٦) «ذو» سقط من (ف).

(٧) في (ر): «وهي».

وإعذابُ النفس عن كذا: هو مَنْعُها عنه، وسمي العذاب عذاباً لأنه يَمنع من[1] الجناية إذا تأمَّلَ فيها العاقل.

وقيل: إنما سمي به لأنه جزاء ما استعذَبه المرء بطبعه؛ أي: استطابهُ، ولذلك قال: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى﴾[2] [القمر: ٣٩] وإنما يُذاق الطيِّب، على معنى: أنه جزاءُ ما استطابه واستحلاه بهواه في دنياه.

وقوله تعالى: ﴿عَظِيمٌ﴾: أي: كبيرٌ، وقيل: أي: كثيرٌ، وقيل: أي: دائم، وهو التعذيب بالنار أبداً.

ثم عِظَمُه بأهوالِه، وشدَّةِ أحوالِه، وكثرةِ سلاسلهِ وأغلالِه.

وقيل: هو القتل والأسر في الدنيا، والتحريقُ بالنار في العُقبى.

ثم ذَكر بعد ذِكر المؤمنين ظاهراً وباطناً، والكافرين ظاهراً وباطناً، المنافقين الذين آمنوا ظاهراً وكفروا باطناً:

* * *

(٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: أي: ومن جنسِ الإنس، والناس: جمع إنسانٍ على غير لفظه، فالإنسانُ فِعْلانٌ من أَنِسَ، ومأخذُه من آنَسَ، أي: أَبصر، والجنُّ مَن اجْتَنَّ؛ أي: استَتَر، فالبشرُ يُرَون والجنُّ لا يُرَون.

وقيل: هو من الأُنْسِ الذي هو ضدُّ الوحشة، وسمِّي به لاستئناس روحه ببدنه، وبدنِه بروحه.

---

(١) في (أ): «عن».

(٢) في (أ): «﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾».

وقيل: هو: إِفْعِلَان، وأصله: إِنْسِيَان، ودليلُ ذلك أنه يقال في التصغير: (أُنَيْسِيَان) فتعادُ الياء المحذوفة، وسمي به لنسيانه، قال الله تعالى في حقِّ آدم عليه السلام: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ولذلك جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]؛ أي: نَسَّاءٌ للنِّعم ذَكَّارٌ للمِحَن.

و(الناس) جمعُه لا من لفظه، فإنه[1] لا يستقيم جعلُه من الإنس، ولا من النسيان[2]، ومعنى هذا الجمعِ من (النَّوسِ) وهو التحرُّك، سمُّوا به لحركاتهم في مباحاتهم وواجباتهم ومحظوراتهم، وحركاتُ سائر الحيوانات لا توجدُ وجودَها منهم.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَقُولُ﴾: (مَن) كلمةٌ تصلُح للواحد والجمع، وهاهنا للجمع؛ أي: قومٌ[3] يقولون، وهم عبدُ الله بنُ أبيٍّ ابنُ سَلُولَ، ومعتِّبُ بنُ قُشَيرٍ، وجَدُّ بنُ قيسٍ، وغيرُهم، وهؤلاء رؤوسُ المنافقين.

قال مجاهدٌ: أربعُ آياتٍ من أوَّل السورة في نعتِ المؤمنين، وآيتانِ في نعتِ[4] الكافرين، وثلاثَ عَشْرةَ آيةً في المنافقين[5].

وقال مقاتلٌ: آيتان من أوَّلها في نعتِ المؤمنين المهاجرين، وآيتان في مؤمِني أهل الكتاب، وآيتان في الكفَّار، وثلاثَ عشرة آيةً في المنافقين[6].

---

(١) في (ر): «فعلى هذا» بدل: «فإنه».

(٢) في هامش (ف): «ولا يستقيم أيضاً جعله من الأُنْس».

(٣) في (ر): «هم قوم».

(٤) في (أ): «ذكر» وسقطت من (ف)، والمثبت من (ر)، وهو الموافق للمصادر.

(٥) انظر: «تفسير مجاهد» (ص: ١٩٥)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٤٥).

(٦) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٥٢). ومن قوله: «وقال مقاتل...» إلى هنا سقط من (ف).

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾: أخبر عنهم أنهم يدَّعون ذلك.

ثم قال(١): ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾: أي: ليسوا بمؤمنين، فنَفَى الإيمانَ عنهم لأنه لم يكن(٢) في قلوبهم، وقد قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال(٣) تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وبَطَل بهذا(٤) قولُ الكرَّامية: إنه مجرَّد الإقرار، فإن المنافقين أقرُّوا بذلك والله تعالى نفَى عنهم ذلك.

ثم إنه قال: ﴿مَن يَقُولُ﴾ وهذا فعلُ الواحد، لأن كلمة (مَن) تصلُح له، ثم قال: ﴿وَمَا هُم﴾ على الجمع لأنه هو المراد، فحَمَل على المعنى، وهو كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١١٢] وهذا على الوحدان(٥) للصيغة، ثم قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] على الجمع للمعنى.

وكذا قولُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ [النحل: ٩٧].

وقولُه تعالى: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾: الباء للتأكيد، وهو كقوله عزَّ وعلا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤١]، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: ٤٢]، ويجوز حذفُها، قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]، وهذا لأن (ما) بمعنى: ليس، ويجوز في (ليس) الباءُ

(١) في (أ): «فقال» بدل: «ثم قال».

(٢) في (ر): «لأنه ليس».

(٣) في (ر) و(ف): «وقد قال».

(٤) في (ر): «وأبطل هذا».

(٥) في (ر): «الواحد».

وحذفُها، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] وقال أيضاً: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣].

وفي الآيةِ معجزةُ النبيِّ ﷺ؛ فإنهم أظهَروا الإيمانَ وأضمَروا الكفر، والنبيُّ ﷺ أَخبر عما في قلوبهم، وذلك غيبٌ، واللهُ جلَّ جلالُه يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦].

ودلَّت الآية أن الدعوى مردودةٌ إذا لم يقم عليها دلالةُ الصحة، قال قائلهم:

مَن تحلَّى بغيرِ ما هو فيه فضَح الامتحانُ ما يدَّعيه

وإن[1] من مدَحَ نفسه ذُمّ، ومَن ذَمَّ نفسه مُدِح، قال فرعونُ عليه لعائن الله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وقال يونسُ صلوات الله عليه: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فقيل له: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

***

(٩) ـ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾: فالخَدْع: الخَتْلُ، والإخداع: الإخفاء، ومنه: المخدَعُ[2]، وهو البيت الصغيرُ يُخفَى فيه الشيء، وخُدِع فوه؛ أي: تغيَّرت رائحتُه، ودينارٌ خادعٌ؛ أي: ناقصٌ، وسِنونَ خدَّاعةٌ؛ أي: قليلةُ المَرَافق.

فقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ قيل: معناه: يخادعون رسولَ الله ﷺ والمؤمنين بإظهارِ

---

(١) في (ف): «فإن».

(٢) مثل: مِنبَر ومُحْكَم. انظر: «القاموس» (مادة: خدع).

الإيمان مع إضمار الكفر، ورفَع[1] درجة النبي ﷺ والمؤمنين حيث جعَل خداعَهم خداعَه،كما جعَل إيذاءَهم إيذاءَه.

وقيل: معناه: يُفسدون ما أظهَروا من الإيمان بما أضمَروا من الكفر.

وقيل: معناه: يخادعون الله على زعمهم؛ أي: هو عندهم خداعُ الله، يظنُّون أنهم يُخفون على الله عزَّ وعلا شيئاً، وهو كما قال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ [فصلت: ٤٧]؛ أي: على زعمكم[2]، وقولُه تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ [هود: ١٠١]؛ أي: على زعمهم.

وقال مقاتلٌ: معناه: اجترؤوا[3] على الله تعالى، وقالوا فيما بينهم: نحن نخادعُ الله، وكان هذا بهتاناً منهم، كسائر ما افتَروا على الله.

وقيل: معناه: أيخادعون الله، على الاستفهام، وهو كقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾؛ أي: أهذا ربي[4].

وقيل[5]: إنهم أظهَروا شيئاً وأضمَروا خلافه، فتَصوَّر بصورةِ الخداع، فسُمي به وإن لم يكن هو، فإن حقيقته أن يمكرَ بأحدٍ فلا يَعلمَ به الممكور، وهو[6] كقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] ولا صبرَ لأحدٍ عليها، لكنْ لمَّا دامُوا على الفعل الذي به يصيرون إلى النار تَصوَّر ذلك بصورة الصبر على النار.

---

(١) في (أ) و(ر): «رفع».

(٢) في (أ): «زعمهم».

(٣) في (ر): «افتروا».

(٤) «ربي»: من (أ).

(٥) في (ر) و(ف): «ويقال».

(٦) في (أ): «وهذا».

وقيل: معناه: يحتالون لإزالةِ الحق بالباطل.

ثم المخادَعةُ وهي على[1] المفاعَلة، وإن كان أصلُها لِمَا يكونُ بين اثنين، فقد تكون لفعلِ الواحد، كالمسافَرة والمصادفة[2]، وإنْ حملت على الوَضع: فالخداعُ كان منهم وجزاءُ الخداع من الله تعالى على ما تبيَّن[3].

فإنْ قالوا: إن لم يعرفوا اللهَ تعالى فكيف خادَعوه[4]؟ وإن عرَفوه فكيف قصدوا خداعَه؟

قلنا: قد بينَّا أنهم عمِلوا عمَل المخادِعينَ من الوجوه التي ذكرناها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفٌ على الأول؛ أي: ويخادعون المؤمنين أيضاً، ويجوز حملُه على الحقيقة في حقِّهم فإنه في وُسعهم، فأمَّا قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فقد مرَّ قولٌ أن معناه: يخادعون الرسول والمؤمنين، والصحيحُ أن يحمل ذلك على مخادَعتهم الرسولَ وحده دون المؤمنين؛ فإن خداعهم المؤمنين مذكورٌ على التصريح بعده، وهو قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

ثم إنما جعَل مخادَعتَهم الرسول[5] مخادعتَه تعالى تشريفاً له، كما جعَل نصرتَه نصرتَه، بقوله[6]: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]؛ أي: إنْ تنصُروا رسولَه، وكما

---

(١) «على» من (ف).

(٢) في (أ): «كالمنافرة والمصادفة»، وفي (ف): «كالمسافرة والمصادقة»، وفي (ر): «كالمسافرة والمصارفة».

(٣) في (أ): «بين»، وفي (ف): «نبين».

(٤) في (ر): «يخادعونه».

(٥) في (أ): «رسوله».

(٦) في (ر) و(ف): «كقوله».

جعل مخادعتَه مخادعةَ الله، فقد جعَل مبايعتَه مبايعةَ الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وكذا في أشياءَ ذكرها في آياتٍ: ﴿ءَامَنُوا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[1] [الأنفال: ١]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٤]، ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٣]، ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨]، ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]، ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]، ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥]، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وما يُخادِعونَ إِلَّا أنفُسَهُمْ﴾: قرأ أبو عمرٍو وابنُ كثيرٍ ونافعٌ: ﴿وما يُخادِعونَ﴾ بألفٍ، على موافقةِ الكلمة الأولى: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ بغيرِ ألفٍ[2]، لأن خَدْعهم أنفسَهم لا يَعْدُوهم.

وقال بعضُ[3] أهل اللغة: يقال: خادَعَ: إذا لم يَبلُغ مرادَه، وخدع: إذا بلَغ مرادَه، فلمَّا لم يَنفُذ خداعُهم فيما قصَدوا كان مخادعةً، ولمَّا وقع ضررُ فعلهم على أنفسهم كان في حقِّ أنفسهم خدعاً.

وتفسيرُه: ولا ينفذُ خداعُهم فيمَن قصَدوه، فكأنهم خدَعوا أنفسهم، كما يقال: فلانٌ يسخر بفلانٍ وما يَسخر[4] إلا بنفسه.

---

(١) في (أ) و(ف): «﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ١٣٩)، و«التيسير» للداني (ص: ٧٢). وقوله: «بغير ألفٍ»: سقط من (أ) و(ف).

(٣) في (ر): «فقال» بدل: «وقال بعض».

(٤) في (ف): «سخر».

وقيل: معناه: وما يرجعُ وَبالُ خداعهم إلا إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ومثلُه: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال[1] في الإحسان: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠].

ثم قال هاهنا: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، وقال في سورةٍ أخرى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وأريد به الجزاء.

وقيل: يعاملُهم على وَفق ما عامَلوه، وذلك فيما جاء: أنهم إذا أُلْقوا في النيران، وعذِّبوا فيها طويلاً من الزمان، واستغاثوا بالرحمن، قيل لهم: هذه الأبوابُ قد فتحت فاخرجوا، فيبادروا إلى الأبواب، فإذا انتهَوا إليها غلِّقت دونهم، وأُعيدوا إلى الآبار والتوابيت، مع الشياطين والطواغيت.

يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الشِّعْرُ: العلمُ والفِطنة، والإشعار: الإعلام، وإشعارُ الهَدْيِ منه، والشِّعار: العلامة، والمشاعر: المعالم، والشعائر: العلامات، وهي معالمُ الحج وأعمالُه، واحدتُها شَعِيْرةٌ وشَعَارةٌ، ثم هو اسمٌ لعِلمٍ خاصٍّ،

---

(١) في (ر): «ثم قال».

وهـو العِلـمُ بدقَّة النظر في الشـيء، مأخـوذٌ من الشِّـعر، ولذلك يطلقُ الشِّـعر[١] على معرفة الـكلام المقفَّـى الموزونِ بـوزنٍ خاصٍّ.

وأما التفسير[٢]:

فقد قيل: أي: وما يعلَمون أنه خداعٌ لأنفسهم.

وقيل: أي: وما يعلمون أن وَباله راجعٌ عليهم.

وقيل: أي: وما يعلمون أن الله تعالى يطَّلع على خداعهم رسولَه والمؤمنين.

وقيل: أي: وما يعلمون أنهم لا يقدِرون أن يخادعوا الله.

وقيل: أي: وما يعلمون أن الله خادعُهم؛ أي[٣]: جازيهم جزاءَ خداعِهم.

وقيل: أي: وما يعلمون أن الله يعلم بصنيعهم، وهذا كما قال: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، والعِظَةُ فيه: أن المنافق عَمِلَ ما عَمِلَ وهو لا يعلمُ بوَبال ما عَمِل، والمؤمِنُ يَعلم به ثم يعمل به[٤]، فما عذرُه[٥] عند ربِّه؟

ثم في هذه الآيةِ نفيُ العلم عنهم، وفي قولِه تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] إثباتُ العلم لهم، والتوفيقُ بينهما: أنهم علِموا به حقيقةً، ولكنْ لمَّا[٦] لم يعمَلوا بما علِموا فكأنهم لم يعلَموا، وهو كقوله عز وعلا: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾

(١) في (أ): «ولهذا يطلق هذا الاسم»، وفي (ف): «ولذلك يطلق هذا الاسم»، بدل: «ولذلك يطلق الشعر».

(٢) في (أ): «تفسيره».

(٣) «خادعهم، أي:» سقط من (ف).

(٤) «به» سقط من (ف).

(٥) في (أ): «فأعذره» بدل: «فما عذره».

(٦) «لما» سقط من (ف).

[البقرة: ١٨]، وكانوا سامِعين ناطقين ناظِرين حقيقةً، لكنْ لم ينتفِعوا بذلك فكانوا كأنهم صمٌّ بكمٌ عميٌ، فذو الآلةِ إذا لم يَنتفِع بها فهو وعادمُ الآلة سواءٌ، والعالمُ الذي لا يعمل بعلمه فهو والجاهلُ سواءٌ، والغنيُّ الذي لا يَنتفع بماله فهو والفقيرُ سواءٌ، والحيُّ الذي لا يَستمتِع بحياته فهو والميتُ سواءٌ.

ثم إنَّ الله تعالى أثبتَ للمؤمنين العلمَ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأثبت لهم الجهلَ بقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، كما أثبت للكفار العلم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والجهلَ بقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]. وليسوا سواءً، بل إثباتُ العلم للمؤمنين إثباتُ الكرامة، وذكرُ الجهل تلقينُ عذرِ المعصية، وإثباتُ العلم للكفار إلزامُ الحجة، وذكرُ الجهل إثباتُ الـمَنقَصة.

* * *

(١٠) ـ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: المرضُ في اللغة: العلَّةُ، والإمراضُ: إثباتُ صفة المرض، والتمريضُ: القيام على المريض.

وقيل: هو كلُّ ما خرج به الإنسان عن حدِّ الصحة في جسدٍ أو اعتقادٍ[1]؛ من علةٍ أو نفاقٍ أو تقصيرٍ في أمرٍ.

والمرضُ في القرآن لأربعة أشياءٍ:

للعلة: في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١].

وللجراح: في آية التيمُّم: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [النساء: ٤٣].

---

(١) «في جسدٍ أو اعتقادٍ»: سقط من (أ) و(ف).

وللفجور: في قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وللشكِّ: في قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

وأمَّا التفسير فقد قال ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه وابن عباسٍ والربيعُ وقتادةُ رضي الله عنهم: أي: شكٌّ[1].

وقال مقاتلٌ: أي: نفاقٌ.

وقال ابن الأنباريِّ: أي: ظُلمةٌ، قال: يقالُ: ليلةٌ مريضةٌ؛ أي: مُظلمةٌ[2].

وقال بعضُهم: أي: غمٌّ[3] بسبب نصرةِ النبيِّ ﷺ وزوالِ رئاستهم إليه.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: أي: اضطرابٌ وتردُّدٌ، ومَرَضُ الجسم كذلك، وطريقُ تسمية النفاق مرضاً: أن المؤمن يسمَّى[4] حيًّا والكافرَ ميتاً، فسمِّي المنافق مريضاً لتردُّده بين موافقةِ الظاهر ومخالفةِ الباطن، كتردُّد المريض بين بقائه حيًّا وبين موته[5].

ولأن[6] الله تعالى قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]؛ أي: خالٍ عن الشكِّ والشِّرك، فكان قلبُ المنافق بخلافه، فلم يكن سليماً بل كان مريضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: الزيادة خلافُ النقصان، ويجيءُ متعدِّياً كما

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

(٢) انظر: «الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٤٧٥).

(٣) بعدها في (ر): «في قلوبهم».

(٤) في (ف) و(أ): «سمي».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٦) في (ر) و(ف): «لأن».

في هذه الآية، ولازماً كما في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، ونظيرُها[١] نقيضُها وهو النقصان، وهو متعدٍّ في قوله تعالى: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، ولازمٌ في قول النبي ﷺ: «هن ناقصاتُ العقلِ والدِّين»[٢].

وأما التفسيرُ:

فقد قيل: معناه: جازاهم الله بزيادةِ شكٍّ على شكِّهم عقوبةً لهم على إصرارهم وعنودهم.

وقال السدِّيُّ رحمه الله: فزادتهم عداوةُ الله مرضاً.

وقيل: أي: زادهم اللهُ تعالى غمًّا على غمِّهم.

وقال الإمام أبو منصورٍ الماتُريدي رحمه الله: أي: زاد[٣] الله تعالى خَلْقَ الكفر في اعتقادهم[٤].

وقالت المعتزلةُ: هو على التَّخلية بين المنافق ونفاقه.

وهذا بناءً على أصلهم الفاسد، أنهم[٥] لا يَرون الكفر والمعاصيَ بتخليق الله تعالى ومشيئته، فلا[٦] يَحمِلون مثلَ هذا إلا على التخلية.

---

(١) في (ف): «ونظير».

(٢) رواه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه: «ما رَأَيتُ مِن ناقصاتِ عقلٍ ودِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرجلِ الحازِمِ مِن إحداكنَّ»، وبنحو هذا رواه مسلم (٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) في (ف): «زادهم».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١/ ٣٨٤).

(٥) في (ف): «لأنهم».

(٦) في (ر): «ولا».

وقيل: معناه: زادهم ضعفاً عن الابتِصار[1]، وعجزاً عن الاقتدار، كما قال الشاعر:

يا مُرسِلَ الريحِ جَنوباً وصَبا ... إنْ غَضبت زيدٌ فزِدْها غَضَبا[2]

وزيدٌ قبيلةٌ، ومعنى الدعاءِ في هذا البيت: أي: لا تُقْدِرْها على الابتصار[3] فيما غضِبت منه.

ثم هذه الصيغةُ للتحقيق عند بعضهم، وللدُّعاء عند آخرين.

فإن قالوا: الدعاءُ للعاجز عُرفاً، فما معنى هذا الدعاءِ من الله تعالى؟

قلنا: هذا تعليمٌ من الله تعالى أنه يجوزُ الدعاءُ عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقولِه: ﴿إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧-١١٨]، وقريبٌ منه: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقولُه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

ثم: في هذه الآيةِ إثباتُ خلقِ الأفعالِ من اللهِ تعالى طاعاتِها ومعاصيها، قال تعالى هاهنا: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

ثم قيل: زيادةُ مرضِهم كان بإنزالِ الآياتِ المتتابِعةِ والبراهينِ والحُجج المتناصِرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

---

(١) في (ف) و(أ): «الانتصار».

(٢) الرجز للأخطل، وهو في «ديوانه» (ص: ٣١٩)، و«التمثيل والمحاضرة» للثعالبي (ص: ٧١)، و«تفسير الراغب» (١/ ٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٣٠٠).

(٣) في (ف) و(أ): «الانتصار».

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]، وذلك على وجه التسبُّب[(١)]؛ أي: صارت الآيةُ سبباً لزيادة يقينِ هؤلاء ولزيادةِ شكِّ هؤلاء، وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] وقال: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦].

ومن العجَبِ ازديادُ شكِّهم بالآيات النيِّرة، واضطرابُ قلوبهم مع الدلائلِ البيِّنة[(٢)]!

لكنَّ الشمسَ تزيدُ عليلَ العين علةً، والماءَ يزيدُ الحجرَ الصُّلبَ صلابةً، هم قومٌ زادهم القرآنُ الذي أنزل شفاءً ورحمةً في القلوب علةً ومرضاً.

وقيل: كانت زيادةُ مرضهم بإنزال الفرائض والحدود، فقد كان يَشُقُّ عليهم التكلُّم[(٣)] بالشهادة، فكيف وقد لحقَتْهم الزيادة[(٤)]؟ وهي وظائفُ العباداتِ ثم العقوباتُ على الجنايات، فازدادوا بذلك اضطراباً على اضطراب، وارتياباً على ارتياب، ويزدادون بذلك في الآخرة عذاباً على عذاب، قال تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] والمؤمنون لهم في الدنيا ما قال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وفي العُقبى ما قال: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾: هذا[(٥)] في العُقبى، والأولُ في الدنيا، والألَمُ في اللغة: الوجع، والأليم: الوجيع، وهو بمعنى: المؤلم؛ أي: الـمُوجِع، كما يقال: السميعُ بمعنى المسمِع، قال الشاعر:

---

(١) في (أ): «التسبيب».

(٢) في (ف): «السنية».

(٣) بعدها في هامش (ر): «بكلمة».

(٤) في (أ): «لحقهم الزيادات»، وفي (ف): «لحقتهم الزيادات».

(٥) في (أ): «وهذا».

أمِـن ريحانـةَ الدَّاعـي السـميعُ يُؤرِّقُنـي وأصحابـي هُجـوعُ(١)

وأما تفسيرُه:

فقد قيل(٢): أي: يصلُ ألـمُه إلى القلوب.

وقيل: هو الشديدُ الذي لا يزولُ ولا ينقطع.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾: أي: بكونهم كاذبين، فإنَّ (ما) مع (كان) مصدر، وكذا كلُّ فعلٍ؛ تقول: سمعتُ ما قلتَ، أي: قولَكَ.

وكلمةُ (كان) قد تَجيءُ للماضي، كما في قوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: ٤٨].

وقد تجيءُ للمستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقـد تجـيءُ للحال، كمـا فـي قولـه تعالـى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريـم: ٢٩].

وقد تجيءُ جامعاً لذلك كلِّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ أي: لم يَزَلْ رحيماً بهم في الأزلِ وفي الحالِ وفي الأبد.

وقد تَجيءُ بمعنى: صار، كما في قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، كما في «مجاز القرآن» (١/ ٢٨٢)، و«الأصمعيات» (ص: ١٧٢)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٣٦٠)، و«الكامل» للمبرد (١/ ١٦٢)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٩١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٨٧)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٨٤)، و«الصحاح» (مادة: سمع).

(٢) في (ر) و(ف): «فقيل» بدل: «فقد قيل».

وقد تجيءُ بمعنى: وَقَع، كما في قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ثم الكذبُ خلافُ الصدق، وفيه لغتان: كَذِبٌ وكِذْبٌ، كقولك: لَعِبٌ ولِعْبٌ، والتكذيب: النسبةُ إلى الكذب.

وقرأ أهلُ الكوفة: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بالتخفيف[1]، وهو كذبُهم فيما قالوا، وقرأ غيرهم بالتشديد، وهو تكذيبهم اللهَ تعالى ورسولَه.

وأما تفسيرُه:

فقد قيل: أي[2]: يَكْذبون على الله تعالى بإثباتِ الشريك.

وقيل: أي: بتحليلِ ما حرَّمه الله وتحريمِ ما حلَّله.

وقيل: أي: بقولهم: إنك لرسولُ الله، بألسنتهم من غير تصديقِ قلوبهم بذلك، وهو منصوصٌ عليه بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] إلى أن قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقيل: أي: بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ من غيرِ اعتقادٍ، وهو الذي سبَق ذكرُه في هذه الآيات، وتحقَّق به ما قلنا: أن[3] الإيمان ليس هو مجردَ الإقرار، فقد كذَّبهم الله تعالى في دعوى الإيمان مع إقرارهم باللسان؛ لمخالفةِ[4] الجَنان، واللهُ المستعان.

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ١٤١)، و«التيسير» للداني (ص: ٧٢). والكوفيون من السبعة: عاصم وحمزة والكسائي.

(٢) «أي»: ليست في (ر) و(ف)، و«فقد قيل» ليست في (ف).

(٣) في (ر) و(ف): «لأن».

(٤) في (ر) و(ف): «بمخالفة».

(١١) ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾: (إذا) كلمة توقيتٍ، وهي ظرفٌ للزمان المستقبَل، و(إذ) ظرفٌ للزَّمان الماضي، والفسادُ ضدُّ الصلاح، والإفسادُ ضدُّ الإصلاح.

وأمَّا تفسيره:

فقد قيل: أي: وإذا قال المسلمون لهؤلاء المنافقين[١]: لا تَعملوا المعاصيَ[٢] في أرض المدينة وما حولها.

وقيل: أي: لا تُداهِنوا.

وقيل: أي: لا تفرِّقوا الناسَ عن محمدٍ ﷺ.

وقيل: أي: لا تَصُدُّوا الناس عن دينِ الله واتِّباع رسوله.

وقيل: أي: لا تُمايلوا[٣] الكفار.

وقيل: أي: لا تتَّبعوا الهوى بتركِ المأمور وارتكابِ المنهيِّ.

واختلفوا في المرادِينَ بهذه[٤] الآيةِ:

قال ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ وجماعةٌ رضي الله عنهم: هم المنافقون[٥].

---

(١) بعدها في (أ) و(ف): «وهو النظم».

(٢) في (ف): «بالمعاصي».

(٣) قوله: «تمايلوا» كذا في النسخ الثلاث، ولعل الصواب: (تُمالِئوا)؛ أي: تُساعدوا وتُشايعوا، أما تمايلوا فمعناه على العكس تقريباً، يقال: مايَلَنا فمايَلْناه؛ أي: أغار علينا فأَغَرْنا عليه. انظر: «القاموس» (مادة: ملأ ومال).

(٤) في (أ): «المراد بهذه» وفي (ف): «المراد من هذه».

(٥) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٩٧).

وقال مقاتلٌ، وهو روايةٌ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: هم اليهودُ من هاهنا إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، قال: ويَدلُّ عليه قولُه تعالى[١]: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ واليهودُ هم الذين كانوا يعتقدون هذا الإفسادَ إصلاحاً[٢]، ويُظهِرون ذلك، فأما[٣] المنافقون فما كانوا يقولون ظاهراً: إن هذا إصلاحٌ، ولو قالوا ذلك لظَهر كفرُهم فقُتلوا، فأما[٤] اليهود ـ لعنهم الله ـ فقد كانوا أَظهروا أنهم على الحقِّ وغيرَهم على الباطل، والمنافقون[٥] كانوا يقولون: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ [التوبة: ٥٦].

ودليلٌ آخَرُ: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ والمنافقون ما كان يمكنُهم التكلُّم بهذا ظاهراً.

فثبَت أنه في اليهود، وإفسادُهم هو كتمانُ حالِ النبيِّ ﷺ، وصدُّ الناس عنه، وأخذُهم الرشوةَ، وتغييرُهم الأحكامَ بها[٦].

وأما القائلون بأنَّ الآية في المنافقين فقد قالوا: إن ما قبلها وما بعدها في المنافقين على ما بيَّنَّا ونبيِّنُ، فأمَّا قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ فمعناه أنهم قالوا: لا نفعلُ هذه الأشياءَ التي هي إفسادٌ[٧] بل نتَّبعُكم على دِينكم، وهذا إنكارٌ منهم للنِّفاق والإفساد.

---

(١) في (أ): «أنه قال قالوا» وفي (ف): «أنه قال جل وعلا». بدل: «قوله تعالى».

(٢) في (ر): «صلاحاً».

(٣) في (ف): «وأما».

(٤) في (ف): «وأما».

(٥) في (ر) و(ف): «وأما المنافقون».

(٦) في (ف): «وتغييرهم أحكام التوراة».

(٧) بعدها في (ر): «منهم».

وكان إفسادُهم على قولِ هؤلاء: ما ذُكر في هذه الآيات: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، وهي قصةُ تنفيرِهم ناقةَ النبيِّ ﷺ ليلةَ العقبة، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ الآية [التوبة: ١٠٧]، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠] وهو كعب بن الأشرف، ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية [الحشر: ١١]، ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾(١) [التوبة: ٦٧]، ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ الآية [المنافقون: ٥]، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، ونحوها.

وقولُه تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هي وجهُ بساطِ الدنيا، والسماءُ سقفُها.

وقيل: أريدَ بها هاهنا أرضُ المدينة، فإن إفسادَ المنافقين كان فيها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾ كلمتان في الأصل، (إنَّ) كلمةُ تأكيدٍ قُرنت بـ (ما)، فصارتْ للحَصْر والقَصْر، فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] تقديرُه: لا إله إلا الله الواحد، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] كذلك، وكذا هاهنا معناه: ما نحن إلا مصلحون.

وقوله: ﴿نَحْنُ﴾: جمعُ (أنا) على غير لفظه، كـ: (هؤلاء) جمع (هذا) و(هذه)، وكقولهم: (أولئك) هو جمعُ (ذاك) و(ذلك) و(تلك)، وكالنسوة جمع المرأة، وكالإبل جمع الجمل والناقة، وكالغنم جمع الشاة.

---

(١) في (أ): «الآية» بدل: «﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾».

ثم هذه الكلمةُ يتكلَّم بها الواحدُ إذا أَخرج[١] الكلامَ مُخْرج خطابِ الملوك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ [الحجر: ٢٣]، ويتكلم بها الاثنان، قال تعالى خبراً عن هاروتَ وماروتَ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ويتكلَّمُ بها الجماعةُ كما في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

والإصلاحُ: ضدُّ الإفساد، والصَّلاح والصِّلاح والصُّلوح: ضدُّ الفساد.

وفي تصريفه ثلاثُ لغاتٍ: صَلُح يَصْلُح؛ كقولك: شَرُف يَشْرُف، وصَلَح يَصْلُح؛ كقولك: دَخَل يَدْخُل، وصَلَح يَصْلَح؛ كقولك: صَنَع يَصْنَع.

والصُّلح والمُصالحة والإصلاح[٢] من ذلك.

ثم لقولهم هذا وجوهٌ:

أحدها: أنهم أنكروا الإفساد ـ وهو النِّفاق وما نُهوا عنه ـ لأنهم كانوا يُخفون ذلك، فأَظْهَرَ الله تعالى ما أضمَروا، وكَشَفَ ما ستَروا.

والثاني: أنهم اعتذروا إلى المسلمين، وقالوا: إنما نوافقُ الكفارَ ونمايلهم[٣] نريد بها الإصلاحَ بينهم وبين المؤمنين، وهذا قولُ ابن عباسٍ رضي الله عنهما[٤].

والثالث: أنهم قالوا: نُصلح[٥] أمرَنا بموافقة الكفار في الباطن، وموافقةِ

---

(١) في (ف): «خرج».

(٢) في (ف): «والاصطلاح».

(٣) «ونمايلهم» كذا في النسخ، ولعل الصواب: «ونمالئهم» كما ذكرنا قريباً، وفي «البحر المحيط»: «إنَّ مماِلأتنا الكفار».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٤٥). وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١/ ١٨٥).

(٥) في (ر): «يصلح».

المؤمنين في الظاهر؛ نظراً في العاقبة، حتى لو كان الظَّفَرُ لهؤلاء قالوا: نحن منكم[١]، ولو كان لهؤلاء قالوا لهم كذلك.

والرابع: أنَّ هذا جوابُ اليهود، وأظهَروا به أنَّ ما هم فيه إصلاحٌ وليس بإفسادٍ.

* * *

(١٢) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾: (أَلَا) كلمة تنبيهٍ، و(إنَّ) كلمة تأكيدٍ، و(هم) كنايةٌ عن المذكورين قبلَه، و(هم) ثانياً تأكيدٌ؛ لأن التكريرَ تأكيدٌ[٢] وتقريرٌ، وهذا كقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

أثبَتوا لأنفسهم اسمَ المُصلِحين، فنفاه الله عنهم وأثبت لهم اسم المفسِدين، فكان[٣] لكلامهم أربعةُ أوجهٍ، وفي هذا ردُّهم على تلك الوجوه:

أما الأول: فكان إنكاراً منهم وإسراراً، وكان هذا هتْكاً لأستارهم وإظهاراً.

والثاني: كان اعتذاراً بأنَّا نطلب الإصلاح باستمالة الكفار، فأَخبر بهذا أنَّ هذا إفسادٌ منهم، حيث علمَ الكفارُ أنَّ المنافقين لهم أنصارٌ، وهذا باعثٌ لهم على الإصرار.

والثالث: كان ظنًّا منهم أنَّ موافقةَ الفريقين من وجهين تنفعهم في الحالين،

---

(١) في (أ): «معكم».

(٢) في (ف): «التأكيد تكرير»، وفي هامشها: «صوابه: لأن التكرير تأكيد وتقرير».

(٣) في (أ): «وكان».

فيكون إصلاحاً لبالهم، فأخبر أنَّه إفسادٌ لحالهم ومآلهم، فإنهم طلبوا رضَى الفريقين، وقد فاتَهم ذلك كلُّه؛ فإنَّ المؤمنين يبغضونهم؛ لِمَا أنهم لا يوافقونهم في الباطن، والكافرون[1] يردُّونهم؛ لِمَا أنهم لا يتابعونهم[2] في الظاهر، وكذلك حالُ أهل الرِّياء، ولا خلاصَ لهم إلا بالإخلاص.

والرابع: كان هذا جوابَ اليهود ـ لعنهم الله ـ جِهَاراً، وكانوا ممَّن قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وكانوا كفرعون لعنه الله، سَمَّى صلاحَ موسى فساداً، وغوايةَ نفْسِه رشاداً، فقال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فردَّ الله تعالى عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، وقال: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

وقيل: في هذا ما يدلُّ على أنهم وصفوا أنفسَهم بالإصلاح والمؤمنين بالإفساد[3]، واقتضى أنهم قالوا: إنما نحن مصلحون وأنتم مفسدون، فردَّ الله عليهم القولين[4]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾، وتقديرُه: هم المفسدون لا أنتم، ولو كان كلامُهم هذا الواحدَ المنصوصَ عليه فحسب؛ كفى جواباً لهم: إنهم مُفسدون، فتكرارُ (هم) وتعريفُ النَّعت بالألف واللام دليلٌ على ما قلنا، وهو كقوله: ﴿إِنَّ

(١) في (أ): «والكفار».

(٢) في (أ): «يوافقونهم».

(٣) في (ف): «بالفساد».

(٤) في (أ): «القول».

شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، هو ردُّ قول ذلك اللَّعين: إنَّ محمداً لأبترُ، إذا ماتَ انقطع ذِكرُه، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ لا أنت(١).

ثم فيه بيانُ شرف المؤمنين، حيث تولَّى جوابَ المنافقين عمَّا قالوه للمؤمنين، كما كان في حقِّ المصطفى عليه السَّلام، فإن الوليد بن المغيرة قال له: إنك مجنونٌ(٢)، فنفاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢](٣)، ثم قال في حقِّ(٤) ذمِّ ذلك اللعين: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠](٥)، وهي عشرةُ أسماءٍ مذمومةٍ(٦).

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، واللعين المذكور هو العاص بن وائل.

(٢) في (أ): «إنك لمجنون»، وفي (ف): «إنه مجنون».

(٣) وروي عكس هذا، وهو أن الوليد بن المغيرة نفى عنه ﷺ ذلك الوصف بالجنون عندما أراد كفار قريش وصفه به، فروى البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنها: أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفراً من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: إن وفودَ العرب ستقدُم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً... فقالوا: نقول كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيتُ الكهان، فما هو بزمزمة الكهان، فقالوا: نقول مجنون، فقال ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه... إلى أن قال: وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر، فتقولوا: هو ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه... فأنزل الله عز وجل في الوليد بن المغيرة، وذلك من قوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.

(٤) «حق»: من (أ).

(٥) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٤٠) عن الربيع بن أنس.

(٦) في هامش (ف): «أسماء المنافقين عشرة في القرآن: مخادعون، جاهلون، كاذبون، مرضى، مفسدون، سفهاء، طاغون، صمٌّ، بُكمٌ، عُميٌّ».

فكذلك في حقِّ المؤمنين، فإنَّ المنافقين سَمَّوا المؤمنين مفسدين، فنفاه الله عنهم، وسمَّى المنافقين بعشرة أسماءٍ مذمومةٍ:

مخادعين: بقوله[1] تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

جاهلين: بقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

مرضى: بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

كاذبين: بقوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾.

مفسدين: بقوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

سفهاء: بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

طاغين: بقوله تعالى: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وتمامُها بقوله[2]: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾: (لكنْ) كلمةُ استدراكٍ، وقيل: هي تحقيقُ شيءٍ تُثْبته بدلَ شيءٍ تنفيهِ.

ويُشَدَّد ويُخَفَّف، والمُشَدَّد ناصبٌ، والمُخَفَّف رافعٌ، ويدخلان جميعاً الاسمَ، والمُخَفَّفُ منه يدخل الفعلَ أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾[3] [هود: ١٠١].

وقد تسقُطُ نونُه للضرورة في الشِّعر، قال الشاعر:

---

(١) في (ر) و(ف): «لقوله»، والمثبت من (أ)، وكذا وقع في المواضع الستة الآتية.

(٢) في (ر): «لقوله».

(٣) في (ر): «﴿كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾» بدل: «﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾».

فلستُ بآتيه ولا أستطيعُه[١] ولاكِ[٢] اسقِني إنْ كان ماؤكَ ذا فَضْلِ[٣]

وفي موضع العطف تكون (لكنْ) المُخَفَّفةُ كسائر حروف العطف في العمل، تقول: ما جاءني زيدٌ لكنْ عمرٌو، و: ما رأيتُ زيداً لكنْ عَمْراً، و: ما مررتُ بزيدٍ لكنْ[٤] عمرٍو.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون.

واختُلف في معناه:

قيل: لا يعلمون أنَّهم مفسدون، وأنَّ فِعلَهم إفسادٌ.

قال[٥] الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: إنْ كان التأويلُ هذا؛ فهو ينقضُ قولَ مَن يقول: إن الحُجَّةَ لا تلزم إلا بالمعرفة، وهو قولُ الناشئ[٦] وغيره من المعتزلة؛ لأنه أخبرَ بفسادِ صنيعهم وإن لم يشعروا به، وهو كقوله أيضاً: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] أخبر بحَبطِ أعمالهم وإنْ كانوا لا

---

(١) «فلست بآتيه ولا أستطيعه» ليس في (أ) و(ف)، ولكن في هامش (ف): «وتمامه:

فلست بآتيه ولا أستطيعه ولك اسقني إن كان ماؤك ذا فضل»

(٢) رسمت في (أ) و(ف): «ولك».

(٣) البيت للنجاشي الحارثي. انظر: «ديوانه» (ص: ٥٦).

(٤) في (ر): «ولكن»، وكذا في الموضعين السابقين بالمشاركة مع (ف).

(٥) في (ر) و(ف): «وقال».

(٦) هو عبد الله بن محمد، أبو العباس، المعروف بابن شرشير الناشئ، شاعر متكلم يعد في طبقة ابن الرومي والبحتري، أصله من الأنبار، وأقام ببغداد مدة طويلة، وخرج إلى مصر فسكنها، وتوفي بها سنة (٢٩٣هـ)، وكان من كبار المعتزلة. انظر: «تاريخ الإسلام» (٢٢/ ١٨١). وتحرف «الناشئ» في مطبوع «التأويلات» إلى: «الناس».

يعلمـون[1]، بعـد أن كانـوا بسـبيل العلم بـه؛ أي: مُتَمكِّنيـن من الوصول إلـى العلم بالنظر فـي دَلائِله.

وقيـل: ليـس هـذا نفيَ حقيقـة العلم، بل هـو نفيُ عملهـم بالعلم، وقـد قرَّرناه فيمـا مر.

وقيل: أي: لا يشعرون[2] أنهم يعذَّبون على ذلك.

وقيل: أي: لا يشعرون متى ينزل بهم الموتُ فتنقطعَ عنهم التوبة.

ولمَّـا كانـوا موصوفيـن بالعلـم فـي الأصـل بقولـه تعالـى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وصـاروا موصوفيـن بالجهـل بقولـه: ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ مـن الوجـوه الثلاثـة: أنهـم لـم يعلموه إفسـاداً، ولم يعلمـوا أنَّ عليـه عذاباً، ولـم يعلموا متـى يموتـون قبـل أنْ يتوبـوا؛ أَلزمهـم الحجَّـة، فأزال هـذه الجهـالات بالدَّلالات، فقـال: إنـه إفسـادٌ، بقولـه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾، وقـال في عذابـه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النسـاء: ١٤٥]، وقـال فـي المـوت: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشـعراء: ٢٠٢].

وكذا وصفَ المؤمنين بالعلم بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ثم وصفَهم بالجهل لمخالفتهم[3] العلم، فقال: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، وكان جهلُهم من هذه الوجوه الثلاثة، فأزالها، فقال في حقِّ الأول: إنَّه فسوقٌ، بقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال في عقوبته: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١/ ٣٨٥).

(٢) في (أ): «يعلمون».

(٣) في (أ): «بمخالفتهم».

لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]، وقال في الموت: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الآيات[1] [المنافقون: ١٠].

***

(١٣) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: ذكر الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ الآيةَ نزلت في شأنِ اليهود ومسلمي أهل الكتاب: عبدِ الله بنِ سَلَام وأصحابِه، والنَّجاشيِّ وأصحابِه، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ بعث ابنَ مسعودٍ وجعفرَ الطَّيَّارَ رسولاً إلى النَّجاشيِّ، فاستقبلهم عيرُ الشام وفيهم أهلُ الكتاب، وكان ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه يقرأ جهراً، فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧]، وفي العِير عبدُ الله بن سلَام، فلما سمع ذلك هاب، وجعل يمسح رأسَه ووَجْهَه خوفاً من المَسْخ، وهَمَّ أنْ يأتي رسولَ الله فيُسْلِمَ[2] على يديه، فأتى المدينة، ودخل على رسولِ الله ﷺ وقال: يا رسول الله! إنِّي سيدُ قومي، وهم[3] يُعظِّمونني، فأرجو أنهم يُسلمون بإسلامي، فادعُهم وسَلْهم عنِّي ومَن[4] أنا فيهم، وأخبرهم بإسلامي، فعسى

(١) في (أ): «الآية» بدل: «﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الآيات».

(٢) في (ف): «ويسلم».

(٣) في (أ): «وإنهم».

(٤) في (أ) و(ر): «مَن».

يجيبونك، ففعل، فلمَّا دخلوا عليه قال لهم[١]: «ما تَعُدُّون فيكم ابنَ سَلَام؟» قالوا: هو[٢] سيدُنا وابنُ سيدِنا، وأعلمُ يهوديٍّ بقي على وجه الأرض بالكتاب الذي أَنزل الله تعالى على موسى عليه السَّلام، فقال النبيُّ ﷺ: «أَتُسلمون إنْ أَسْلَم هو؟» فقالوا: هو لا يُسلم، فكرَّرَ رسولُ الله ﷺ ذلك، فأجابوا كذلك، فخرج عليهم عبدُ الله بنُ سَلَام وقال[٣] لهم: يا أعداء الله! فعلَ الله تعالى بكم كذا وكذا، أمَا وجدتم نعتَ محمدٍ وصِفَتَه مكتوباً في التوراة في موضع كذا؟ فقالوا: يا ابنَ سَلَام! ما كنت أهلاً للَّذي أثنينا عليك، ولكنْ كنتَ غائباً فكرهنا أن نغتابك، وخرجوا وهم يقولون: إنك رجلٌ جاهلٌ سفيهٌ، فأنزل الله هذه الآية[٤].

فعلى هذا تأويلُ الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لليهود: ﴿ءَامِنُواْ﴾ بمحمدٍ وكتابه ﴿كَمَآ ءَامَنَ﴾ عبدُ الله بنُ سَلَام وأصحابُه والنَّجاشيُّ وأصحابُه؛ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي[٥]: هؤلاء الجهَّال؛ أي: ابنُ سَلَام وأصحابُه والنجاشيُّ وأصحابُه.

وقال الحسن: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي: النساء والصبيان[٦].

---

(١) «لهم»: من (أ).

(٢) في (أ): «فقالوا» بدل من «قالوا: هو».

(٣) في (أ): «فخرج عبد الله إليهم فقال».

(٤) لم أجده بهذا السياق، وإنما أورده السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصرا: أنها نزلت في شأن عبد الله بن سلام وأصحابه، وعلى كل حال فالكلبي متروك والخبر بهذا السياق واه، وروى البخاري (٣٩١١) و(٤٤٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه قصة إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه ولم يذكر فيه سبب نزول الآية ولا قصة العير.

(٥) «﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي» ليس في (ر) و(ف).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣٨٨).

وقال ابن مسعودٍ وابن عباسٍ رضي الله عنهم في روايةٍ، ومجاهد وقتادة والربيع والسُّديُّ: إنها في المنافقين[١].

وتفسيرها على هذا القول: وإذا قيل للمنافقين: آمِنوا بالقلوبِ مع إيمانكم بالألسنةِ كما آمن أصحابُ رسول الله ﷺ؛ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي[٢]: هؤلاء الصحابةُ الذين لا يعلمون شيئاً؟

فعلى التفسير الأول: كان قولهم هذا جهرةً[٣]؛ لأنهم كانوا مُصرِّين على اليهودية ظاهرين، وبالكفر[٤] مجاهِرين.

وعلى التفسير الثاني: كان المنافقون لعنهم الله يتكلَّمون بهذا الكلام في أنفسهم دون أنْ ينطقوا به بألسنتهم، لكنْ هَتَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ أستارَهم وأظهرَ أسرارَهم؛ عقوبةً لهم على عداوتهم، وهذا كما أظهر ما أضمرَه أهلُ الإخلاص من الكلام الحسَن وإنْ لم يتكلَّموا به بالألسنة[٥]؛ تحقيقاً لولايتهم، قال الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٧] إلى أنْ قال: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، وكان هذا في قلوبهم، فأظهره الله تعالى تشريفاً لهم وتشهيراً لحالهم.

وفي الآية بيانُ رسالة النبيِّ ﷺ، وهو أنه أَخبر بما في قلوب المنافقين بإخبار ربِّ العالمين على ما مرَّ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٣) عن ابن مسعودٍ وابن عباسٍ والرَّبيع والسُّدِّي. وانظر: «النكت والعيون» للماوردي (١/ ٧٥).

(٢) «﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي» ليست في (ر) و(ف).

(٣) في (ر) و(ف): «جهراً».

(٤) في (أ): «بالكفر».

(٥) في (أ) و(ف): (بالألسن».

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: هو جمع السَّفيه، ومصدرُه: السَّفَه والسَّفاهة، وذلك ضدُّ الحِلم، ويقال: هو خِفَّةُ العقل، يقال: ثوبٌ سَفِيهٌ؛ أي: رَدِيءُ النَّسج، وتَسَفَّهَتِ[1] الرِّيحُ الشَّجرة؛ أي: مالتْ بها وحرَّكَتْها واستخَفَّتْها، قال أبو تمَّام:

سَفيهُ الرُّمح جاهلُهُ إذا ما بَدا فَضْلُ السَّفيه على الحليم[2]

أي: سريعُ الطَّعن بالرمح خفيفُه.

وسَفَّهتُ الشَّيءَ: إذا[3] استَحْقَرتَه، وتسَفَّهتُ[4] فلاناً عن ماله؛ أي: خدعتُه.

والسَّفَه: أنْ يُكثر الرجلُ شُربَ الماء فلا يَرْوَى، وسافَهْتَ الدَّنَّ: إذا قعدتَ عنده تشربُ منه ساعةً بعد ساعةٍ، وسافَهَتِ الناقةُ الطريقَ؛ أي: لازَمَتْه لا تبالي به.

وأما التفسيرُ[5]:

فقد قيل: السُّفهاء: الجُهَّال.

---

(١) في (ر) و(ف): «وسفهت»، والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في كتب اللغة والتفسير. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٦٢)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٨٤٩)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٣١٥)، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج» (مادة: سفه)، و«مجمل اللغة» (١/ ٤٦٣)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (١/ ٩١٩)، و«المحكم» (٤/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (١/ ٣٣). لكن وقع في «الفائق» (٢/ ١٨٢)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٣٠٨): «سفَّهت»، ولعله خطأ من الناسخ.

(٢) انظر: «شرح ديوان أبي تمام» للخطيب التبريزي (٢/ ٧٨).

(٣) في (ر): «أي».

(٤) في (ر) و(ف): «وسفهت»، والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في كتب اللغة. انظر: «الصحاح» و«اللسان» و«التاج» (مادة: سفه)، و«مجمل اللغة» (١/ ٤٦٣)، و«مقاييس اللغة» (٣/ ٨٠)، و«شرح ديوان المتنبي» للعكبري (٤/ ٢٠٦).

(٥) في (أ): «تفسيره».

وقيل: البهَّاتون المُتعمِّدون لخلاف ما يعلمون(١).

وقيل: الجُهَّالُ الظَّالمون القائلون خلافَ الحقِّ.

وقيل: المُجاهرون التَّاركون النَّظَرَ في العواقب.

وقيل: الجُهَّالُ بمصالح الأمور، الخِفافُ العقول والآراء.

وحاصلُ تفسير السَّفَه(٢) في صفة المنافق على مجموع اللُّغات وأقاويل الطَّبقات: أنه ظاهرُ الجهل، عَديمُ العقل، خفيفُ اللُّبِّ، ضعيفُ الرَّأي، رديءُ الفَهْم، مُمالُ الغَيِّ، مُستَخَفُّ القَدْرَ، سريعُ الذنب، حقيرُ النَّفس، مَخدُوعُ الشيطان، أسيرُ الطُّغيان، دائمُ العِصيان، مُلازمُ الكفران، لا يبالي بما كان.

وفي قولهم هذا شيئان اثنان: تأييسُهم(٣) عن إيمانهم، وتسفيهُ مَن آمَن من إخوانهم.

وهذا الاستفهام في أول الكلام للاستعجاب والاستعظام، تراءى لهم أنهم هم الأَلِبَّاء(٤)، وأنَّ غيرَهم السُّفهاء(٥)، وهذا من تسويلِ النفس وتزيينِ الشيطان، ومنه ضلالاتُ أهل الهوى والطُّغيان، فقال(٦) الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

وهذا أكرمُ رُتبةً وأعزُّ رِفعةً للمؤمنين المخلِصين إذ حمَاهم ورعاهم، ورَدَّ(٧)

---

(١) في (ف): «يعملون».

(٢) في (أ): «السفيه».

(٣) في (ر): «تأبيتهم».

(٤) في (أ): «أنهم الأولياء»، وفي (ف): «أنهم ألباء».

(٥) في (ر): «هم السفهاء».

(٦) في (ر) و(ف): «قال».

(٧) في (أ): «أي ورد».

على مَن عاداهم، وبالسُّوء رماهم، فقال بأبلغ ما يُبدأ به الكلام: ﴿أَلَآ﴾، وبأَوْكَد ما يُؤَسَّس به النظام: (إنَّ)، وبأحسن ما يُتبع به البدء بالختام[1]: (هم[2] هم السفهاء)؛ أي[3]: لا هؤلاء؛ لأنهم بإيمانهم وإخلاصهم من السَّفَهِ هربوا، وفي العلم والحقِّ رغِبوا، وهم العلماء على الحقيقة، والمستقيمون على الطريقة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون أنهم هم السُّفهاء.

وقيل: أي: لا يعلمون علماً يُميِّزون به بين الحقِّ والباطل.

وقيل: أي: لا يعلمون عاقبةَ صنيعهم.

وقيل: أي: لا ينتفعون بعلمهم، لا أنهم يُعذَرون بجهلهم.

ثم[4] من لطائف الآية: أن الذين قالوا لهودٍ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] أجابَهم هو بنفسه، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]، والله تعالى تولَّى جوابَ المؤمنين، وأثبتَ السَّفَهَ للقائلين، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾: ﴿لَقُوا۟﴾؛ أي: عايَنوا، واللِّقاء:

---

(١) في (ر): «والختام».

(٢) «هم» ليس في (ر) و(ف).

(٣) «أي»: ليست في (أ).

(٤) في (ف): «و».

الرُّؤيـة والمُعايَنـة، واللُّقِـيُّ واللِّقِيَّـا[١] كذلـك، والمُلاقـاةُ والالتقـاء: الاجتماع، وهو للاجتمـاع فـي الحرب أيضـاً على الخصـوص، قـال تعالـى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ [آل عمران: ١٣].

والتَّلَقِّي: الاستقبال، وهو الأخذُ أيضاً في قوله[٢]: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، وهو روايةُ بعضهم من بعضٍ في قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور: ١٥].

وأما تفسيره:

فقد قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما ـ في روايةٍ عنه ـ ومقاتلٌ[٣] وأبو سهلٍ الطَّالقانيُّ: معناه: وإذا عاين اليهودُ المؤمنين[٤]، ويدلُّ عليه قولُه تعالى في هذه السورة: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ [البقرة: ٧٦]، وذاك في حقِّ اليهود بالإجماع[٥].

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما في روايةٍ ومجاهد والجمهور: وإذا عاين المنافقون المؤمنين[٦].

---

(١) في (أ): «واللقياء»، ولم نقف على هذا اللفظ في معاجم اللغة، واللِّقِيَّا: بكسر اللام وضمها، كما في «القاموس» (مادة: لقي) وزاد في المعنى ألفاظاً كثيرة.

(٢) في (ر): «قال الله تعالى» بدل: «في قوله».

(٣) «ومقاتل» ليست في (ف)، والعبارة في (أ): «فقد قال بعضهم وهو رواية عن ابن عباس وبه قال مقاتل».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٠٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (١/ ٩٠ ـ ٩١).

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٠٧) عن ابن عباس ومجاهد. وانظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (١/ ٩٤).

وأما النزول:

فقد رُوي أن عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ المنافقَ كان جالساً مع أصحابه المنافقين على قارعة الطَّريق، إذ استقبله أصحابُ رسولِ الله ﷺ، فقال عبد الله لأصحابه: انظروا إلَيَّ وتَعَلَّموا مني كيف أردُّ هؤلاء السُّفهاءَ عنكم، فانظروا كيف أُكلِّمهم، فافعلوا كما أفعل، فقال لأبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه وكان أولَ مَن لقيه: مرحباً بسيد بني تَيْم بنِ مُرَّة، القويِّ في دين الله، صاحبِ رسولِ الله ﷺ في الأسفار، ثاني اثنين إذ هما[1] في الغار، الباذلِ نفسَه وبنتَه ومالَه لرسولِ الله.

ثم استقبله عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه فقال: مرحباً بسيد بني عَديٍّ بن كعب بن مُرَّة، القويِّ في دين الله، الشَّديدِ الغَضبِ على أعداء الله، الباذلِ نفسَه وبنتَه وماله لرسولِ الله ﷺ.

ثم استقبله عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه فقال: مرحباً بسيد بني هاشم ما خلا رسولَ الله ﷺ؛ لأن الله جلَّ جلالُه اصطفاه وخَصَّه من بين خَلْقه بالنبوة.

فقال له عليٌّ رضي الله عنه: اتَّقِ الله ولا تُنافق، فإن المنافقين شرُّ خليقةِ الله عزَّ وعلا في الأرض، فقال: يا أبا الحسن! لا تقُلْ هكذا، فوالله إنَّ إيمانَنا كإيمانكم، وتصديقَنا كتصديقكم، ونحن مؤمنون في السِّرِّ والعلانية.

ثم افترقوا، فقال عبدُ الله بن أُبَيٍّ لعنه الله: كيف رأيتم ردِّي هؤلاء عنكم؟ فقالوا: لا نزال بخيرٍ ما عشتَ فينا[2].

---

(١) «إذ هما» ليس في (أ).

(٢) في (أ): «بيننا».

ثم رجع أبو بكرٍ رضي الله عنه وأصحابُه إلى النبيِّ ﷺ فأخبروه بذلك، فنزلت هذه الآية في شأنهم[١].

فأمَّا مَن حملها على اليهود ـ وهم مجاهرون بالكفر ـ فإنه حمل[٢] قولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾[٣] على الإيمان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وأما مَن[٤] حَملها على المنافقين فظاهرٌ.

وانتظامُ هذه الآيةِ بالآية التي قبلَها: أنه ذكر في تلك الآية ما قالوا لهم، وذكرَ في هذه الآية ما قال المنافقون لأولئك، في تلك الآية مقابلةُ التَّسْفيه بالتَّسْفيه[٥]، وفي هذه الآية مقابلةُ الاستهزاء بالاستهزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾: فقوله: ﴿خَلَوْاْ﴾ للجمع، وللواحد: خلا، وصَرْفُه: خَلا يَخْلُو خَلْوةً، وخَلا المكانُ خَلاءً[٦]؛ أي: صار خالياً، وخلا فلان[٧] بفلانٍ: إذا اجتمعا على الخَلْوة، وخَلا بامرأته؛ أي: دخل بها، وخَلا

---

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢) من طريق محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٥): محمد بن مروان متروك متهم بالوضع، وسياقه في غاية النكارة.

(٢) في (أ): «يحمل»، وهي ليست في (ف).

(٣) «قولهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾» كذا في النسخ الخطية، ولو كانت: (قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾) لكان أنسب.

(٤) «من» ليس في (ف).

(٥) في (أ): «السفيه بالسفيه».

(٦) «خلاءً» ليس في (أ).

(٧) «فلان» ليس في (أ) و(ف).

إليـه؛ أي: انصـرف إليـه للخَلْـوة، وخَلَـتِ المـرأةُ؛ أي: صـارت خَلِيَّـةً؛ أي: طالقاً، وخَـلا؛ أي: مضى.

وأما تفسيره هاهنا:

فقد قيل: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾؛ أي: أَفْضَوا إليهم.

وقيل: أي: رجعوا إليهم.

وقيـل: أي: خلَـوا مـع شـياطينهم؛ أي: اجتمعوا معهـم على الخَلْـوة، و﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى (مع)، قال النَّضْر بن شُميل: وهو كقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]؛ أي: مع الله[1].

وعلى هذا قولُه: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]؛ أي: مع المرافق.

وقيل: معناه: انصرَفوا من لقاء المؤمنين إلى شياطينهم، فمَن دخل على أحدٍ ابتداءً؛ قيل: خلا به، وإذا انصرف عن أحدٍ ودخل على غيره؛ قيل: خلا إليه.

وقال الأخفش: خَلَوت إليه؛ أي: جعلتُه غايتي في حاجتي[2].

وقـال بعـض الكوفييـن: ﴿خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾؛ أي: صرفـوا خَلْوتَهـم إلـى شـياطينهم.

فأما الشياطين؛ فهو جمع شيطان.

وقال الخليل: كلُّ مُتَمرِّدٍ عند العرب شيطانٌ[3].

واختلفوا في المُرادِينَ بهذا الاسم هاهنا:

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٥٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٥١).

(٣) انظر: «العين» للخليل (٦/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (مادة: شطن).

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: هم اليهودُ الذين أمَروهم بالتكذيب[١].

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: هم رؤساؤهم في الكفر[٢].

وقال الضحَّاك: هم كَهَنتُهم[٣].

وهم في قريظة: كعبُ بنُ الأشرف، وفي بني أسلم[٤]: أبو بُردة، وفي جُهينة: عبدُ الدَّار، وفي بني أسد: عوفُ بنُ عامرٍ، وفي الشام: عبد الله بن السَّوداء[٥].

وكانت العربُ تعتقدُ فيهم أنهم مُطَّلعون[٦] على الغيب، ويعرفون الأسرار، ويُداوون المرضى[٧]، وليس من كاهنٍ إلا وعند العرب أنَّ معه شيطاناً يُلقي إليه كهانَتَه.

وسُمُّوا شياطينَ لبُعدهم عن الحقِّ، فإنَّ الشُّطُونَ: هو البُعد، ولعُتوِّهم وتَمرُّدهم،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٠٦) من طريق الضحاك عن ابن عباس، و(١/ ٣٠٧) من طريق محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس. والضحاك لم يسمع من ابن عباس، ومحمد بن أبي محمد مجهول.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٠٧) من طريق السدي عن أشياخه عن ابن مسعود وابن عباس. وهذا إسناد متكلم فيه كما سيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٣) أورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ٣٥).

(٤) في (أ): «حليم»، وفي (ر) و(ف): «سليم»، والمثبت من المصادر وستأتي.

(٥) أورده السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٥) عن الكلبي، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٥٦)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٦٧)، والخازن في «تفسيره» (١/ ٢٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولعله من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ومثل هذا كثيراً ما يرد عند بعضهم عن الكلبي وعند آخرين عن ابن عباس.

(٦) في (أ): «يطلعون».

(٧) في (أ): «الأمراض».

فإنَّ الشيطان: هو العاتي المُتمرِّد، ولأنَّ الشياطينَ قُرناؤهم فسُمُّوا بقُرنائهم، ولأنَّ مَن شابَهَ أحداً سُمِّي به، ولمَّا كان هؤلاء على صفة الشياطين سُمُّوا بهم، ولذلك قال النبيُّ ﷺ لمَن رآه يَتْبع حمَاماً: «شيطانٌ يَتْبعُ شيطاناً»(١).

وقال للمارِّ بين يدي المُصلِّي: «فلْيُقاتِلْه؛ فإنه شيطانٌ»(٢).

وقال نسوةٌ في المدينة ليوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] لمَّا رأينَه بصفة المَلَك.

وقال النبيُّ ﷺ: علماءُ أمَّتي كأنبياءِ بني إسرائيل (٣)، لمَّا كانوا بصفتهم.

فعلى العاقلِ أن يتَّصف بصفةِ الملائكة والأنبياء، ولا يتَّصفَ بصفة الشياطين والأغوياء(٤).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾: (مع) كلمةُ قِران، يقال: جاء زيدٌ مع عمرٍو؛ أي: مقترِناً به، وفيه لغتان: تحريكُ العين وتسكينُها، قال الشاعر:

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٨٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه ابن ماجه (٣٧٦٤) و(٣٧٦٥) و(٣٧٦٦) و(٣٧٦٧) من حديث عائشة وأبي هريرة وعثمان وأنس رضي الله عنهم، وهو حديث حسن.

(٢) رواه البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) ذكره ابن حجر الهيتمي في «الفتاوى الحديثية» (ص: ١٩٩) ونقل عن الدميري قوله: هذا الحديث لا يُعرف له مَخرَج، لكن في «صحيح البخاري»: «العلماء هم ورثة الأنبياء». وانظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ٤٥٩).

واللفظ الذي نسبه للبخاري ذكره في «صحيحه» في (كتاب العلم)، (باب: العلم قبل القول والعمل) تعليقاً، ورواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٤) في (أ): «الأغوياء».

ومَـن يتَّـقْ فـإنَّ الله مَعْـهُ ورزقُ الله مُؤْتـابٌ وغـادِ(١)

ويقـال: جـاءا معـاً، بالتنويـن؛ أي: مقترِنَيـن، ويقـال: جئـتُ مِن مَعِـه؛ أي(٢): مِـن عندِه.

وهو في القرآنِ لمعانٍ:

للقِرَانِ: وهو الأصل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ [النور: ٦٢].

وللقِرَانِ واللُّحوق: قال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾(٣) [الأنبياء: ٢٤].

وبمعنى: بَعْدَ، قال: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦].

وبمعنى: عند، قال تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤١].

وبمعنى: سوى، قال: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠]؛ أي: سوى الله.

وبمعنى: المعونة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل: ١٢٨].

وبمعنى: العلم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ١٠٨].

وبمعنى: المتابعة، قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

---

(١) البيت دون نسبة في «معجم ديوان الأدب» للفارابي (٤/ ٢٣٤)، و«شرح كتاب سيبويه» لأبي سعيد السيرافي (١/ ٢٢٣)، «الحجة في القراءات السبعة» لابن خالويه (ص: ٢٦٣)، و«الحجة للقراء السبعة» للفارسي (١/ ٤٠٩)، و«الخصائص» لابن جني (١/ ٣٠٦). وجاء في هامش (أ) عند كلمة «مؤتاب»: «راجع».

(٢) بعدها في (ف): «راجع»، وليست في المصادر. انظر: «أدب الكاتب» لابن قتيبة (ص: ٥٠٤)، و«المنتخب من كلام العرب» للهنائي الملقب بكراع النمل (١/ ٦٠٤)، و«حروف المعاني» للزجاجي (ص: ٧٧).

(٣) «﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾» ليس في (ف).

وبمعنى: شهود الصورة، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ [النساء: ١٤١].

وبمعنى: شهود القلب، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾[1].

وبمعنى: شهود الصورة والقلب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وأما تفسيره هاهنا:

فقد قيل: معناه: إنَّا عونٌ لكم على محمدٍ وإنْ كنَّا معه ظاهراً.

وقيل: معناه: إنا لكم أنصارٌ.

وقيل: أي: إنَّا على ما أنتم عليه من التكذيب والعداوة.

وقيل: أي: إنَّا على دينكم.

أرادوا الجمع بين الأمرين فحُرموا منهما[2]، قال الله تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

كذلك مَن أراد[3] أنْ يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يَلتئمُ له ذلك، والضِّدَّان لا يجتمعان، ومَن كان له في كلِّ ناحيةٍ خليط، وفي كلِّ زاويةٍ من قلبه رَبِيطٌ، كان نَهْباً للطَّوارق، ومُنقسماً بين العلائق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾، الهُزْء: السُّخرية من شيءٍ يَحِقُّ عند صاحبه ولا يَحِقُّ عند الهازئ، وقد هَزَأَ به؛ أي: سَخِر، والـهُزْأَةُ[4] بتسكين الزاي:

---

(١) في (ف): «﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾» بدل: «﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾».

(٢) في (أ): «عنهما»، وفي (ف): «عنها».

(٣) في (ف): «رام».

(٤) في (ر): «والهزء»، وفي (ف): «والـهُزْاء».

هـو الذي يُسـخر منه، والـهُزَأة[١] بفتحهـا: هو الذي يَسـخر من الناس، والاسـتهزاء كالهُـزْء، بمنزلة الاستسـخار، وهو كالسُّـخرية.

وانتظامُه بما قبلَه: أنهم لمَّا قالوا لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، قالوا: فما لكم تشهدون مشاهدَهم، وتدخلون مساجدَهم، وتحُجُّون وتَغْزون معهم؟ قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

قيل: معناه: ساخرون بمحمدٍ وأصحابه ﷺ.

وقيل: أي: مُكذِّبون بما يدعو إليه.

وقيـل: أي: نُريهـم أنَّـا نوافقهم علـى دينهم ظاهـراً وباطناً، وإنمـا نكون معهم ظاهـراً لنشـاركهم في غنائمهـم، وننكحَ بناتِهـم، ونطَّلع على أسـرارهـم[٢]، ونحفظَ أموالنا وأولادَنا ونسـاءَنا مـن أيديهم.

* * *

(١٥) ـ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾: له ثمانيةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّه عاملَهم في الدنيا على وَفْق معاملتهم، فإنَّهم أظهروا الإيمان وفي باطنهم النفاق، والله تعالى أظهرَ لهم في الحال الأمانَ، وعاقبتُهم الإحراقُ بالنيران.

والثاني: أن معناه: يجازيهم في الآخرة جزاءَ استهزائهم، والعربُ تُسمِّي الجزاءَ باسم الابتداء، قال عمرو بن كلثوم:

---

(١) في (ر): «والهزَء».

(٢) في (ف): «سرائرهم».

أَلَا لا يَظلِمَنْ أحدٌ علينا فنَظلِمَ فوقَ ظُلْم الظَّالمينا[(١)]

أَلَا لا يَجهلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجَاهِلِينا[(٢)]

وفي القرآن: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩]، ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾.

والثالث: قول سيبويه: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾؛ أي: يُوقِعُ بهم ضررَ استهزائهم، كما قال في الخداع: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة: ٩]، وهو كقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

والرابع: قول ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كلَّما أحدثوا خطيئةً جدَّدَ لهم نعمةً[(٣)].

والخامس: قول الحسين بن الفضل البَجَلي رحمه الله: هو إعطاءُ المراد في الحال، وأَخْذُ البَغتة في المآل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ [الأنعام: ٤٤].

---

(١) هذا البيت من (ر) و(ف) ولم أجده.

(٢) انظر: «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لابن الأنباري (ص: ٤٢٦)، و«شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص: ٢٢٦).

(٣) أورده الواحدي في «التفسير البسيط» (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١). وكلمة «نعمة» وقع بدلاً منها في (ر): «عقوبة»، وفي (ف): «نقمة».

والسادس: أنهم قالوا للنَّبيِّ ﷺ: نشهد إنك لرسول الله، ولم يكنْ ذلك في عقيدتهم، ويقال للمنافق: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وليس ذلك من صِفَتهم[١].

والسابع: قول قتادة: وهو ما أخبر الله تعالى عن حالهم يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ إلى أن قالوا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] بما قُلتم لشياطينكم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، واليومَ تقولون لنا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، وكنتم تستهزئون[٢]، فاليوم نحن بكم مستهزئون[٣].

فيكون الاستهزاء من المؤمنين مجازاةً لهم، وإنما أضاف اللهُ تعالى ذلك إلى نفسه بقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ تشريفاً للمؤمنين، وجَعْلاً لفعلهم[٤] فِعْلَه، كما قال لنبيِّه عليه السلام: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

والثامن: قولُ الكلبي: أنهم ضحكوا من المؤمنين في الدنيا، فيجعلهم يوم القيامة يضحكون منهم، وهو أنه يَجعل المؤمنين يطَّلعون على المنافقين من[٥] الجنة، فيقولون لهم: أتحبُّون أن تخرجوا من النار وتدخلوا الجنة، فيقولون: نعم، فيُفتح لهم بابٌ من النار، فيقصدون إليه، فيُغلَق عليهم، ثم يُفتح لهم[٦] بابٌ آخرُ،

---

(١) انظر: «النكت والعيون» للماوردي (١/ ٧٨).

(٢) في (ف): «مستهزئون».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (١/ ٩١)، و«تفسير الطبري» (١/ ٣١٢).

(٤) في (ر): «كفعلهم».

(٥) في (ر): «في».

(٦) «لهم» ليس في (أ) و(ف).

فيقصدونه فيُغلق عليهم(١)، فلا يزال يُفعل بهم كذلك والمؤمنون يضحكون منهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] إلى أن قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الآيات(٢) [المطففين: ٣٤].

ودلَّت الآيةُ على قُبْح الاستهزاء بالناس، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال في قصة موسى عليه السَّلام: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فأخبر أنه فِعْلُ الجاهلين، وإذا كان وعيدُ الاستهزاء بالناس هذا، فما جزاء الاستهزاء بالله تعالى؟! وهو فيما قال النبيُّ ﷺ: «المستغفِرُ من الذَّنب وهو مُصِرٌّ عليه كالمستَهْزِئ بربِّه»(٣).

ثم مُقابلةُ الاستهزاء بالاستهزاء دليلٌ على أنَّ الجزاءَ من جنس العمل، وقد عدَّدنا آياتٍ في أجزيَة أعمال السُّوء، وأجزيةُ أعمال الخير كذلك، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾(٤) [يونس: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) في (ر): «فيقصدون إليه»، والعبارة ليست في (ف).

(٢) في (أ) و(ف): «الآية». والخبر المذكور رواه البيهقي في «الأسماء الصفات» (٣/ ٥٧) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٠٤): سنده ضعيف.

(٤) «وقال تعالى: ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾» ليس في (أ).

وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: فمَدُّ الحبل: جَرُّه، ومَدُّ النَّهار: ارتفاعُه، ومَدُّ الظِّلِّ: بَسْطُه، ومَدُّ العيش: تَطويلُه[1]، ومَدُّ النَّهر: ازديادُ مائه، وزيادةُ نهرٍ آخر في مائه، لازمٌ ومُتعدٍّ، ومَدُّ الألف والواو والياء: تطويلُها، ومديدُ القامة: طويلُها، ومَدُّ الدَّواة وإمدادُها: إلاقتُها بالمِداد، وإمدادُ الجيش: إلحاقُ المَدَد به.

وذكروا في الفرق بين مَدَّ وأمَدَّ ثلاثةَ أوجهٍ:

قال يونس: مَدَدْتُ في الشَّرِّ، وأمْدَدْتُ في الخير[2].

وقال الفرَّاء: مَدَدْتُ فيما كانت الزيادةُ منه؛ كمدِّ النهر، والإمدادُ فيما كانت الزيادةُ من غيره؛ كإمداد الجيش[3].

وقال الأخفش: المَدُّ: التَّرك، والإمداد: الإعطاء، قال تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]، وقال: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ [الحج: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]؛ أي: نعطيهم.

وأما تفسيره هاهنا:

فقد قيل: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾؛ أي: يتركهم.

وقيل: أي: يُخلِّيهم[4].

وقيل: يُطَوِّلُهم[5].

---

(١) في (ر): «تبوئته».

(٢) أورده الطبري في «تفسيره» (١/ ٣١٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٩).

(٤) في (ف): «نخليهم». وكلمة «أي» ليست في (أ) و(ف).

(٥) في (أ): «يطيلهم»، وفي (ف): «نطيلهم».

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: يُمْلِي لهم(١).

وقال مجاهد رحمه الله: يزيدُهم مُدَّةً(٢).

وقال ابن كَيسان: يُمْهلُهم(٣).

وهي أقاويلُ متقاربةٌ.

وأما الطُّغيان: فهو مجاوزةُ الحد في اللغة، يُقال: طَغَى السَّيل؛ أي: جاء بالماء الكثير، وطَغَى البحر: إذا هاجتْ أمواجه.

وقال الخليل: هو من الواو والياء أيضاً جميعاً(٤)، يقال: طَغَوتُ، وطَغَيتُ، طُغْياناً وطُغْواناً.

وأما تفسيرُه هاهنا:

فقد قال ابن عباسٍ والسُّدِّي: ﴿فِي طُغْيَـٰنِهِمْ﴾؛ أي: في كفرهم وضلالهم(٥).

وقيل: هو إظهارُ القوة على مَن لا قوة له.

وقيل: أي: في غُلُوِّهم(٦) في الكفر.

وقيل: أي: في عُتُوِّهم.

وقيل: أي: في تكبُّرهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣١٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣١٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٩١).

(٤) انظر: «العين» للخليل (٤/ ٤٣٥). وكلمة «أيضاً» ليست في (أ).

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٢١).

(٦) في (أ): «علوهم».

وقيل: أي: في جهلهم.

وقيل: أي: في عَماهم.

وقيل: أي: في تماديهم.

وقيل: أي: في مجاوزتهم قَدْرَهم، ومعناه: يُطيل مُكْثَهم في طُغيانهم في الدنيا، وقيل: أي: يُطيل[1] مُكْثَهم في جزاء طُغيانهم في العُقبى.

وأما العَمَه: فهو التَّردُّدُ في الحَيرة، وقد عَمِه يَعْمَه، فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ، وجمعُه: عُمَّهٌ، قال الشاعر:

وَمَهْمَهٍ أَطْرافُهُ في مَهْمَهِ أَعْمَى الهُدَى بالجاهلين العُمَّهِ[2]

ويقال: ذهبت إبلُه العُمَّيْهَى: إذا لم يَدْرِ أين ذهبت.

وأما تفسيره هاهنا:

فقد قال ابن عباسٍ ومجاهدٌ والربيع: معناه: يتردَّدون[3].

وقيل: أي: يتحيَّرون.

وقيل: أي: يَعْمَون[4] عن رُشْدهم فلا يُبصرونه.

وهذه الصفات الثلاث ثابتةٌ فيهم:

أما التَّردُّد: ففي قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣].

وأما التَّحيُّر: ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

---

(١) في (ف): «نطيل» في الموضعين، وشاركتها (ر) في الثاني.

(٢) القائل: رؤبة بن العجاج. انظر: «ديوانه» (ص: ١٦٦).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

(٤) في (ف): «يعمهون».

وأما العَمَى: ففي قوله تعالى: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

ثم قولُه: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ مذكورٌ في القرآن في صفة الكافرين والمبتدعين والمرتدِّين والمنافقين:

قال تعالى في الكفار: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

وقال في المبتدِعين: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال في المرتدِّين: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى في المنافقين في هذه الآية: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

ثم في(١) الآيةِ دليلُ أهل السُّنَّة والجماعة، فإنه قال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾، وهو إثباتُ فعلِ نفسِه، وقال: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وهو إثباتُ فعلِ العبد، فدلَّ على أنَّ العبدَ فاعلٌ، واللهَ تعالى لفعله(٢) خالقٌ، وبطَل قولُ الجبرية أنْ لا فعلَ للعبد، وقولُ القدريَّة أنْ لا صنعَ لله في فعل العبد.

ثم ما ينبغي أنْ يفرح العبدُ بطول العمر وامتدادِه، ولا بكثرةِ أمواله وأولادِه، والله تعالى يقول في أعدائه في حقِّ العُمر(٣): ﴿ونمدهم﴾، وفي حقِّ المال والبنين:

---

(١) «في» من (ف).

(٢) في (أ): «لفعل العبد».

(٣) في (ف): «المعمر».

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، وكان طولُ العمر لهم خُذْلاناً، وكثرةُ المال[١] والأولاد لهم حِرماناً.

ثم لهم بمُقابلة هذا المَدِّ مَدٌّ لا يُحمَد، قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، ثم قال: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]، وقد جعل الله تعالى لعدِّوه في الدنيا مالاً ممدوداً، ولَوليِّه[٢] في الآخرة ظلًّا ممدوداً.

وقال الله جلَّ جلالُه لمحمدٍ ﷺ ليلةَ المعراج: إنَّ مِن نِعَمي[٣] على أمَّتك أنِّي قصَّرتُ أعمارهم كي لا تَكثرَ ذنوبهم، وأَقْلَلْتُ أموالهم كي لا يَشتدَّ في القيامة حسابُهم، وأخَّرتُ زمانهم كي لا يَطولَ في القبور حَبْسُهم[٤].

***

(١٦) ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾: فالشراء: البيع، والاشتراء: الابْتِيَاع، والشَّرْوى: المِثْل.

وتفسيره هاهنا:

في قول ابن عباسٍ وابن مسعودٍ رضي الله عنهم: أَخذوا الكفرَ، وتَركوا الإيمان[٥].

---

(١) في (أ): «الأموال».

(٢) في (أ): «وللولي».

(٣) في (أ): «نعمتي».

(٤) لم نقف عليه.

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٢٥).

وقال قتادة رحمه الله: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧][(١)]؛ أي: آثروها.

وقيل: أي: اختاروها.

وقيل: أي: استبدَلوها، وهو كقوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

ثم هذا على قول الذين قالوا: إن الآية في اليهود، يرجع إلى قوله: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، فكان هذا استبدالاً منهم الضَّلالةَ بالهدى.

وعلى قولِ مَن جعلها في حقِّ المنافقين - وهم لم يكونوا في الهدى قطُّ - فمعناه: أخذوا النِّفاق وتركوا الإخلاص أصلاً، لا أنِ استبدَلوا الضَّلالةَ بالهدى، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وفي حقِّ الكفار: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، ليس هذا بطريق النقل، بل بالإبقاء على الأصل.

ثم هذا مجازٌ، وهو مُتعارَفُ أهلِ اللسان، وهو أبلغُ في البيان، وأوقَعُ في القلوب والآذان، وهو كثيرٌ في القرآن، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال عزَّ وعلا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال هاهنا: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦].

وأصله في استبدالِ مالٍ بمالٍ، واستُعير في الهدى والضلال، والجامعُ بينهما

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٢٥).

معنى الاختيار والاستبدال، فكلُّ مُشترٍ مختارٌ، وكلُّ مشترٍ مُستبدِلٌ، وكذلك[١] هؤلاء اختاروا الكفرَ على الهدى واستبدَلوه به.

وقد أشار إلى هذَين المعنيين في آيتين، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ قيل: الكفرَ بالإيمان، وقيل: الشَّكَّ بالإيقان، وقيل: الجهلَ بالعلم، وقيل: الفُرقةَ بالجماعة، وقيل: النِّفاقَ بالإخلاص، وقيل: الدنيا بالآخرة، وقيل: النارَ بالجنة، ومعناه: أنَّ اختيارَ الدنيا ضلالٌ، والعملَ بما يُوجب النارَ ضلالٌ، واختيارَ الآخرة هدًى، والعملَ بما ينال به الجنةَ هدًى.

ثم[٢] هذا دليلٌ على أنَّ حكمَ البيع يَثبتُ بالتعاطي من غير تكلُّمٍ بالإيجاب والقَبول، فإنَّ هؤلاء سُمُّوا مُشترِين بترك الهدى وأخذِ الضلال من غير تكلُّمٍ بهذه المبادَلة، أشار إليه الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾: فالرِّبْح والرَّبَح: الفضل، ونظيرُهما المِثْل والمَثَل، والرَّباحُ كذلك، قال النَّبيُّ ﷺ: «السَّمَاحُ رَبَاحٌ»[٤].

---

(١) في (أ): «فكذا»، وفي (ف): «وكذا».

(٢) في (ف): «و».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١/ ٣٨٨).

(٤) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص: ٢٩٥): متروك، ونسبه ابن حبان إلى الوضع. ورواه الديلمي في «مسنده» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعاً كما في «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ٣٩١)، وفيه الحجاج بن فرافصة، قال عنه أبو زرعة الرازي في «الضعفاء» (٣/ ٨٠١): ليس بالقوي. وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب»: صدوق عابد يَهِم.

والتجارةُ: مصدر (تَجَر) من بابِ (دخل)، واتَّجَر افتَعل منه، وجمع التاجر: التَّجْر، كالرَّكْب، والتُّجَّار كالفُجَّار[١]، والتِّجَار كالصِّيَام.

ومعناه: فما ربحوا في تجارتهم، وهي اشتراءُ الضلالة بالهدى، وهو مَجازٌ واستعارةٌ، كالشِّراء، ثم هو مع الاستعارة من مقلوب الكلام؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]؛ أي: عزموا عليه، وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤]؛ أي: يُسرى فيه، وقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]؛ أي: مكرُهم فيهما، ومَن كان على هذا الوجه مُبايعتُه؛ فقد[٢] خسرتْ صَفْقتُه، وما ربحتْ تجارتُه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: قد مرَّ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] أنَّ (كان) يصلح للماضي والحال والاستقبال[٣]، وهاهنا قد قيل بالوجوه الثلاثة:

قيل: أي: وما كانوا على الهدى، فلذلك خُذلوا، فاختاروا الضلالةَ على الهدى.

وقيل: أي: ﴿وما هم بمهتدين﴾ للحال؛ لتَمَسُّكهم بالضلال[٤].

وقيل: أي: وما يكونون مهتدين؛ أي: لا يؤمنون من بعدُ.

وقيل في انتظام هذا بالأول: وما نالوا الهدى حيث اشتروا الضلالةَ بالهدى.

وقيل: إنما يتَّجِر المرءُ للربح والاهتداء[٥]، ولم يكن لهؤلاء رِبْحٌ ولا اهتداءٌ.

---

(١) في (ف): «الفخار».

(٢) «فقد» زيادة من (ف).

(٣) في (ف): «وللحال وللاستقبال».

(٤) في (أ): «في الضلال».

(٥) في (ف): «وللاهتداء».

وقيل: أي: ما اهتدَوا إلى الاتِّجار بالتجارة الرابحة التي اهتدَى إليها المؤمنون؛ فقد قيل لهم ـ أي: المؤمنون[1] ـ: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، و: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، وقيل لهؤلاء: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، و: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ الآية [الأعراف: ٩].

* * *

(١٧) ـ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾: المَثَل في القرآن لعشرةِ معانٍ:

للصِّفَة: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وللشِّبه[2]: قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؛ أي: لا تصفوا لله الأَشْبَاه.

وللنَّوع: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]؛ أي: من كلِّ نوعٍ.

وللعِبْرة: قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]؛ أي: عِبْرةً لهم.

وللإمام: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وللحال: قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]؛ أي: حالُهم كحال المُستوقِد.

---

(١) «أي المؤمنون» من (ف)، والصواب: «المؤمنين».

(٢) في (ف): «وللتشبيه».

وللعاقبة: قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١١٧].

وللمثال: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

وللصِّلة والزِّيادة: قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ١٥]؛ معناه: كالذين.

وللعذاب: قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: عذاب هؤلاء كعذاب الذين من قبلهم.

والمَثَل في اللغة: الشَّبَه، والمِثال: ما يُماثِلُ الشيءَ[١]، والتِّمْثال: الصورة.

وفي القرآن أمثالٌ، وهي للإيضاح والإبلاغ، فإنه أَوجَزُ في الذِّكر، وأَوقَعُ في الفَهْم.

وقالوا: إنَّ المَثَل للكلام كالمرآةِ للوجه، يَرى الناظرُ فيها مَثَلَ وجهه، فيقفُ على حقيقة حاله، ويَعرف كمالَ وصفه، وكذا وقوفُ السامع على معنى كلام المُتَمَثِّل، ووصولُه إلى مُراد قوله للمُتأمِّل[٢]، مع ما تذهبُ النَّفْسُ فيه كلَّ مَذْهب، وتستفيد منه[٣] كلَّ معنًى مُعْجِب.

ونوضِّحُ ذلك في واحد: أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ [يونس: ٢٤]، فتكلَّموا في معنى تمثيله بالماء، فقيل: إنَّ الماءَ إذا قلَّ نَفَع، وإذا كثُرَ ضرَّ، ففي القليل التَّطهُّرُ من الحَدَث والجَنابة والحيض والنِّفاس، واتخاذُ الأطعمة والأشربة، وغَسْلُ الأعيان النجسة، وسقيُ الدَّوابِّ والأراضي والأشجار، وإحياءُ

---

(١) في (ر): «ما تماثل للشيء».

(٢) في (أ): «للتأمل».

(٣) في (أ) و(ف): «يستفيد فيه» بدل «وتستفيد منه».

الفَلاة، فإذا كثُرَ هَدَمَ البُنيان، وأفسدَ الزَّرع، وقَلَعَ الأشجار، وشقَّ الأنهار، وسدَّ الطُّرق، وأغرق الناس.

وكذا المالُ القليل: تُكفَى به المُؤَن، وتُقام به المصالح، ويُتَزوَّد به للمَعاد، فإذا كثُرَ أوردَ الطُّغيان، ووَلَّدَ العِصيان، وأورث البغضاء والشَّنَآن، وأكثر الأعداء والحُسَّاد.

وقيل: إذا قلَّ الماءُ أجريتَه حيث شئتَ، وفيه الحياة والعمارة، وإذا كثُرَ جرى[1] حيث شاء، وفيه الخرابُ والإماتة، فكذا حالُ المال، وعلى هذا[2] جميعُ الأمثال.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: أي: أشعل[3] ناراً، يقال: وَقَدَتِ النارُ وُقوداً؛ أي: اشتَعَلت، وأوقَدَها غيرُها واستوقَدَها؛ أي: أشعلَها، والوَقود بالفتح[4]: الحَطَب؛ لأنه به تُشعلُ النار، والوَقَد بفتح الواو والقاف: النار، ووَقْدَةُ الحَرِّ: شدَّتُه[5].

والاستيقادُ هاهنا كالإيقاد[6]، بمنزلة الاستيقان والإيقان، والاستخراجِ والإخراج، والاسترهابِ والإرهاب، وكذا قال الأخفش: إن معناه: كمثَل الذي أشعل[7] ناراً بنفسه[8].

---

(١) في (أ): «أجراك».

(٢) في (ر): «على» بدل «وعلى هذا».

(٣) في (أ) و(ف): «اشتعل»، وكلمة: «أي» ليست في (ر).

(٤) في (أ): «بفتح الواو».

(٥) في (ف): «شديده».

(٦) في (ر): «الإيقاد».

(٧) في (أ): «اشتعل».

(٨) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٥٣).

ويقال: استوقد؛ أي: سأل غيرَه أنْ يُوقِد، فإن سينَ الاستفعال للطلب والسؤال.

واختلفوا في المُرادِينَ بهذه الآية:

قال ابن عباسٍ رضي الله تعالى عنهما في روايةٍ، وسعيد بن جُبير، ومحمد بن كعبٍ، وعطاء، ويمان بن رِئابٍ: هم اليهود لعنهم الله، كانوا يُقِرُّون بالنبيِّ ﷺ قبل مبعثه، فكانوا في نورٍ، فلمَّا بُعث جحَدوه، فصاروا في الظُّلمة؛ كمَن أوقدَ ناراً في المفازة[1] للأمن فطَفِئت[2].

وعلى هذا[3] جاء عنهم في قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ أي: أَرسل عليها ريحاً عاصفاً فأطفأتها[4]، وهو ما جاء في صفة اليهود لعنهم الله في آيةٍ أخرى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارًا لِّلۡحَرۡبِ﴾؛ أي: مع محمدٍ، ﴿أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال مقاتلٌ[5] وقتادةُ والضحَّاك والسُّدِّيُّ والقُتبيُّ ـ وهو قول ابن عباسٍ، وابن مسعودٍ رضي الله عنهم ـ: الآية في المنافقين، آمنوا بالشهادة كما آمن صاحبُ النار في المفازة[6]، ثم زال ذلك بالموت[7].

---

(١) في (ر): «المغارة».

(٢) أورده السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٧) ابن عباس رضي الله عنهما، وأورده الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٦١) عن سعيد بن جُبير ومحمد بن كعبٍ وعطاء ويمان بن رئاب.

(٣) في (أ): «ولهذا» بدل من «وعلى هذا».

(٤) في (ر): «فأطفأها».

(٥) في (ر) و(ف): «مقاتل بن حيان».

(٦) في (ر): «المغارة».

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩) عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وقتادة والضحاك. وانظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (١/ ٩١)، و«تفسير السمرقندي» (١/ ٥٧).

ثم إنما قال: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ على الوحدان وإن كان معنى[١] قوله: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ على الجمع لوجوهٍ:

أحدها: أن معناه: مَثَلُ كلِّ واحدٍ منهم كمَثَل المستوقِد، وهذا[٢] كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] ولم يقل: أطفالاً، وإن خاطب الجمع؛ لأن معناه: يُخرج كلَّ واحدٍ منكم طفلاً.

وقيل: هو اسم جنسٍ فيَصلح للواحد والجمع.

وقيل: الـمُوقِدُ للجمع يكون واحداً والمستضيئون كثيراً.

وقيل: هو تمثيلُ فعلِهم لا أعيانِـهم، ومعناه: مَثَلُ فعلِ المنافقين كمَثَل فعلِ المستوقِد، وكِلَا الفعلين واحدٌ، وإضمارُ الفعل في الاسم جائزٌ كما في قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]؛ أي: كخَلْقِ نفسٍ واحدةٍ وبَعْثِها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾: أي: أنارت، والضوء: النور، وضاء؛ أي: نارَ، وأضاءَ يكون بمعنى ضاء أيضاً لازماً، ويكون متعدِّياً بمعنى نوَّر، وهو في قوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ [البقرة: ٢٠] لازمٌ، ويكون ضاء وأضاء بمعنًى واحدٍ، كقولهم[٣]: نارَ وأنار، وبان وأبان.

وفي هذه الآية: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ متعدٍّ، لأنه ذكَره بالتاء، ومعناه: فلما نوَّرتِ النارُ المواضعَ التي حول هذا المستوقِد، ولو كان لازماً لكان يقول: فلما أضاء ما حوله؛ لأن (ما) مذكَّرٌ.

---

(١) «معنى» من (ف).

(٢) في (ف): «وهو».

(٣) في (أ): «واحداً كقولك»، وفي (ف): «واحدٍ كقولهم»، بدل: «بمعنى واحدٍ كقولهم».

فإن قالوا: هل بينَ الضوء والنور مغايرةٌ، أو هما شيءٌ واحدٌ؟ فإن كانا غَيْرَين[١] فلمَ أثبتَهما جميعاً في شيءٍ واحدٍ هاهنا، فقال[٢]: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾؟ وإن كانا واحداً فلمَ غايَر بين الكلمتين؟

قلنا: هما واحدٌ هاهنا، وإنما ذكرهما جميعاً لأنه أعذَبُ لفظاً، وأحسنُ نظماً، وأبلغُ في الفصاحة، وألطف في العبارة، من الإعادة بلفظ الأول، ودليلُ اتِّحادهما قولُه تعالى في صفة نور المعرفة: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾[٣] [النور: ٣٥] وقال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، وقال في التوراة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: ٤٨] وقال فيها أيضاً[٤]: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿مَا حَوۡلَهُۥ﴾؛ أي: جهات المستوقد، يقال: حَوْلَه وحَوَالَيْه وحَوْلَيْه.

وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾: أي: أَذْهبه الله، والذَّهاب والذُّهوب: الانتقال، والمَذْهب: الطريق، والذَّهاب: الزَّوَال أيضاً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ أي: ليزيلَه.

و(ذهب) لازمٌ، ويصير متعدياً بالباء، كما يقال: أتى فلانٌ وأتى به غيرُه، وذهب هو وذهب به غيره، وقام هو وقام به غيره.

والنور هاهنا: ضوءُ النار التي أوقَدوها، وإنما لم يقُل: بنارهم، وإنْ كانت هي

---

(١) في (ر): «مغايرين».

(٢) في (ف): «ثم قال».

(٣) في (ر): «﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٌ﴾».

(٤) في (أ): «فيها آيات».

المذكورةَ قبلَها؛ لأن للنار شيئين: حرارةً ونوراً؛ واللهُ تعالى أذهب النورَ، وبقي عليهم الحرُّ المحذور[١].

والإمامُ أبو منصورٍ[٢] رحمه الله يشير إلى أن معناه: أَذْهَبَ الله تعالى نورَ بصرهم[٣]، على ما نبين إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾: أي: خلَّاهم في ظُـلُماتٍ، هي جمع الظُّـلْمة، وتُجمع على الظُّـلَم، والظُّلُمات بضم اللام[٤]، والظُّـلَمات بفتح اللام، وكذا الحُجرات والغُرفات.

وهي الظلمات المحيطة به من كل جهةٍ، ففي كل جهةٍ ظلمةٌ، ومن الجهات ظلماتٌ.

وأما تفسيرُه[٥]:

فقد قال الحسن: هو النورُ الذي أظهَروه للرسول بالإسلام، قطعه الله عنهم بالموت في قبورهم.

وقال أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: سوَّد وجوههم في الآخرة عقوبةً لهم[٦].

وقيل: معنى ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾؛ أي: لم يأتهم بضياءٍ يبصرون به.

---

(١) في (ف): «وبقي عليهم الحر المحرور»، وفي (ر): «وبقي عليهم الحرارة».

(٢) في (أ): «المنصور» بدل: «أبو منصورٍ».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٩١).

(٤) في (ر) و(ف): «وتجمع على الظلم بالضم».

(٥) في (ف): «التفسير».

(٦) انظر القولين في «النكت والعيون» (١/ ٨٠)، لكن الأول فيه دون نسبة للحسن ولا لغيره.

وقيل: أي: لم يُخرجهم منه، كما يقال: تركَه في الدار؛ أي: لم يُخرجْه منها، وهذا تأويل المعتزلة؛ فإنهم لا يقولون بخلقِ أفعال البشر من الله تعالى.

والصحيح من التأويل عند أهل السنَّة والجماعة: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾؛ أي: جعَلهم في الظلمات، وهو كقوله: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ أي: جعَله صلداً.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: لا يبصرون ما حولهم[1] لذهابِ النور.

ثم إنما قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ بالجمع، مع أن المذكور في أول الآية: ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ وهو واحدٌ؛ لِمَا مرَّ أن الـمُوقِد واحدٌ والمصطَلُون[2] جمعٌ.

أو أُريد بالواحد الجمعُ من الوجه الذي مرَّ، وهو كقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ثم في آخره: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

ومعنى الآية في قول ابن عباسٍ وقتادةَ والضحاكِ ومقاتلٍ والسدِّي: مثلُ المنافقين في كفرهم ونفاقهم كمثلِ رجلٍ أَوقد ناراً في ليلةٍ مظلمةٍ في مَفازةٍ[3] واستضاء بها واستَدفأ بها، ورأى ما حوله واتَّقى ما حَذر وخاف فأمن، فبينا هو كذلك إذ طَفِئتْ نارُه فبقي في ظلمةٍ خائفاً متحيِّراً، فكذلك المنافقون إذا أظهروا

---

(١) في (ر) و(ف): «حوله».

(٢) في (أ): «والمبطلون».

(٣) في (ر): «مغارة».

كلمة الإيمان واستناروا بنورها[١] واعتزوا[٢] بعزِّها وأمنوا[٣] بسببها، فناكحوا المسلمين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم وأَمِنوا على أموالهم وأولادهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الخوف والظُّلْمة وبقُوا في العذاب والنِّقمة[٤].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: في هذه الآية كشفُ قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، فإنه فضَحهم في الدنيا والآخرة، لأنهم[٥] طلبوا بنفاقهم الأمنَ فأَعقبهم الله خوفاً دائماً، كما قال: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ الآية [محمد: ٢٠]، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وقال: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ﴾ الآية [التوبة: ٦٤].

ولأنهم طلبوا بالنِّفاق رضى الفريقين والشرفَ والعزَّ فيهم، فعَلم الفريقان جميعاً بذلك فطردوهم، قال الله تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ [المجادلة: ١٤]، وقال الله تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] فزال الشرفُ والعزُّ وجاء الهوانُ والذلُّ.

فمثَلُهم كمثَلِ مستوقِدِ النار ليستضيء بها وينتفعَ بحرِّها، فأذهب الله تعالى بصرَه فذهب ما كان يأمل من الاستضاءة بضوئها والانتفاعِ بحرِّها، وأَعقبه خوفَ

---

(١) في (ر): «فاستناروا بها».

(٢) في (ف): «واستعزوا».

(٣) في (أ): «فأمنوا».

(٤) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩) عن ابن عباس وقتادة والضحاك، واختاره.

(٥) في (ر): «فإنهم».

الإحراق لو دنا منها، وذهب الانتفاعُ بحرِّها في البرد وإصلاحِ الأغذية بها بذهاب البصر، وأمَّا في الآخرة فما ذكرنا من جواب المؤمنين لهم عند اقتباس النور، وضحك المؤمنين منهم وهم في النار[١].

***

(١٨) ـ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ صُمٌّ ﴾: الصَّمَم: انسداد خروقِ المسامع، والأصمُّ: الصخر الأملس، والجَذْرُ الأصمُّ: أصل الحساب الذي لا يَصل إلى معرفته العِباد، والقناة الصَّمَّاء: التي ليست بمجوَّفةٍ، والصَّمَّاء: الداهية، والصِّمَّة: الشجاع، والصِّمَّة: الأسد، وقارورةٌ مصمومةٌ؛ أي: مسدودةٌ، وصِمَامُها: سِدَادُها.

وأصلُ كلِّه: السدُّ والشدُّ، والأصمُّ: النعتُ من الصَّمَم، وجمعُه: الصُّمُّ، وكذا كلُّ أَفْعَلَ كان نعتاً ممَّا هو خِلْقةٌ فجَمْعُه: الفُعل، ومِثْلُه: البُكْمُ والعُمْي، فإن كان اسماً فعَلَى الأفاعل يُجمع؛ كالأرنب والأرانب، والأعجم والأعاجم، فإن كان نعتاً مما هو آفَةٌ فعلى الفَعلى؛ كالأَعجَف والعَجْفى، والأحمق والحَمْقى.

وقوله تعالى: ﴿بُكْمٌ ﴾: فالبَكَمُ[٢]: هو الخَرَس، وهو آفَةٌ في اللسان لا يتمكَّن معها أن يعتمد مواضعَ الحروف.

وقيل: الأبكمُ هو الذي يُولد أخرسَ.

وقيل: هو الخَرَس مع ذهاب الفؤاد.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).

(٢) في (أ): «البكم».

وقوله تعالى: ﴿عُمْيٌ﴾: فالعَمَى[1]: ذهابُ بصر العين والقلب، والعَمَايَة: الجَهَالة، والعَمَى[2]: الخفاء أيضاً، والتَّعمية: الإخفاء.

والنعتُ من البَكَم: الأبكم، وجمعُه: البُكْم، ومِن العمى: الأعمى في العين، وجمعُه: العُمْي، ومن القلب العَمِي، وجمعه: العَمُون، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

ثم رفعُ هذه الكلمات بإضمارِ كلمةِ: هم، أي: هم صمٌّ بكمٌ عميٌ.

وقرأ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه: (صمًّا بُكماً عُمياً)[3]، ولنصب ذلك ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: وتركَهم صمًّا بكماً عُمياً.

والثاني: على الذمِّ.

والثالث: على الحال.

وأما تفسيره:

فقد قال قتادة: أي: صمٌّ عن استماع الحق، بكمٌ عن التكلُّم به، عُميٌ عن إبصاره[4].

وقيل: أي: يتصامُّون ويتباكَمون ويتعامَون مع قيام الآلات، في الإعراض عن الحقِّ الذي قامت على حقيقته الدلالات، وقد قال قائلُهم:

---

(١) في (أ): «العمى».

(٢) في (ر) و(ف): «والعماء».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠ ـ ١١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٤٨). ووقع في (ف): «عمي عن الإبصار».

قُـلْ مـا بـدا لك مِـن زورٍ ومِـن كذبٍ حِـلْـمـي أصـمُّ وأُذْنـي غيرُ صمَّـاءِ[١]

وقيل: معناه: كأنهم صمٌّ بكمٌ عميٌ، فإنهم لا ينتفعون بهذه الآلات مع وجودها، فكأنهم عَدِموها، وهذا كما سمِّي[٢] الكافر ميتاً؛ لأنه لا يَنتفِع بحياته.

ثم[٣] لمَّا وُصفوا بهذه الصفات في الدنيا عوقبوا في الآخرة بحسَبها[٤]، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] فلا يسمعون سلامَ الله، ولا يخاطِبون الله ولا يرونه، والمسلمون كانوا سامعينَ الحقَّ قائلين بالحقِّ ناظرينَ إلى الحق، فيُكرمون يوم القيامة بخطابه وسلامه ولقائه.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ الرجوع: الانصراف، والرَّجع: الصَّرف، فيكون رجع سالماً ومتعدِّياً، والرِّجَاع: رجوعُ الطير بعد قِطَاعها؛ أي: خروجُها من بلادِ البردِ إلى بلاد الحرِّ، والإرجاعُ: سِمَنُ الإبلِ وحُسنُ حالها بعد هُزالها، ورجعةُ الزَّوج في المطلقة بفتح الراء وكسرها، والرُّجعى: الرجوع، والمرجوع: جواب الرسالة.

وتفسيرُه هاهنا:

لا يرجعون إلى الحق.

وقيل: عن التَّعَامي والتَّصامِّ والتباكُم.

وقيل: إلى رؤية الحق وسماعه والتكلم به.

---

(١) البيت لبشار بن برد، كما في «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ١٤٠)، ودون نسبة في «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٥٢)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٣٩٨).

(٢) في (أ) و(ف): «يسمى».

(٣) «ثم»: ليست في (ر).

(٤) في (أ) و(ف): «بجنسها».

وقيل: إلى ثواب الله تعالى.

وأفادت الآية أنهم كانوا يستطيعون الرجوعَ باستطاعةِ سلامةِ الآلات، حيث استحقُّوا الذَّمَّ بتركه، وأن قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ ليس بنفي الآلات، بل هو نفيُ تركهم استعمالَها.

ثم إن الله تعالى نَدب الخلقَ إلى الرجوع إليه والائتمارِ[1] بأمره والانتهاءِ بنهيه بقوله عز وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤] فمَن لم يَرجع إليه اختياراً يرجع بالموت والبعث إجباراً[2]، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ومَن رجع إليه في الدنيا بفعله وحقَّق ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] كان رجوعُه إليه بالكرامة، ويخاطَب بقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ الآية [الفجر: ٢٧].

***

(١٩) ـ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ (أو) جاءت[3] في القرآن لثلاثةَ عشَر معنًى:

أحدها: للشك، قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

---

(١) في (أ) و(ف): «بالائتمار».

(٢) في (ر): «اختيارا رجعوه إليه إجباراً بالموت والبعث»، وكذا في (ف) لكن سقطت كلمة: (إجبارا) منها.

(٣) «جاءت»: ليست في (أ) و(ف).

وللتشكيك: قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وهذا غيرُ الأول، هذا إخفاء الحال على السامع من غير شكٍّ من القائل.

وللتخيير: قال تعالى: ﴿فَكَفَّرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَكِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وللإباحة: قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وهذا غير التخيير، ذاك بيانٌ أن الواجب أحدُها لا كلٌّ وله الخِيَارُ، وفي الإباحة: له أن يفعلهما وله أن يفعل أحدهما.

وللتفصيل: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٣]، كلُّ عقوبةٍ منها لجنايةٍ غيرِ الأخرى.

وبمعنى الواو: قال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وبمعنى: بل، قال تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وبمعنى: ولا، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وبمعنى: حتى، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ولذكر شيئين يتعلق الحكمُ بأيهما وجد أو(١) **بهما إنْ وُجدا**: قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] وقال تعالى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤] قَتَل المسلمُ الكافرَ أو قَتَل الكافرُ المسلمَ، أو اجتماع الأمرين كلُّ واحدٍ منها بسبب استحقاق الآخر(٢).

---

(١) في (أ) و(ر): «و».

(٢) من قوله: «قتل المسلم الكافر...» إلى هنا من (ر)، وقد استدرك بهامشها وعليه علامة التصحيح.

وللدخولِ بين مذكورَين ومُلحقٌ[1] بهما مذكوران بينهما كلمة (أو) أيضاً: والمراد تعيينُ أحدهما لأحدهما وتعيينُ الآخَرِ للآخَر، قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ أي: إنَّا لعَلَى هدًى وإنكم لفي ضلالٍ مبين.

وللذِّكر بين أمرين، وتوهَّم أنه مخيَّرٌ بينهما ويباحُ له كلاهما: والمراد به أنه لو فعلهما لم ينفعاه، ولو فعل أحدهما لم ينفعه، قال تعالى: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ ﴾.

ولاحتمالِ وجهين أو وجوهٍ مما يُستعمل فيه: كما في هذه الآية: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ ﴾ يحتمِل أن يكون للتخيير؛ أي: إن شئتُم فاجعلوا مَثَل المنافقين كمَثَل المستوقِد ناراً، وإن شئتُم فاجعلوا مَثَلَهم كمَثَل أصحابِ صَيِّبٍ، ويجوز أن يكون بمعنى الواو؛ أي: وكصيبٍ، ويجوز أن يكون بمعنى: بل، ويجوز أن يكون للتفصيل، فالتشبيه الأول لشيءٍ[2] والثاني لشيءٍ آخر على ما نبيِّن إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿كَصَيِّبٖ﴾ الكافُ للتشبيه، وهو أحدُ أقسام البلاغة، وهو أبلغُ في المعنى، وأوقعُ في القلب، وأعذبُ في الأسماع[3]، وأوصلُ إلى المراد.

وهو في القرآن كثيرٌ: ﴿ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النور: ٣٩]، ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ﴿ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]، ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾

---

(١) في (أ) و(ف): «ويلحق».

(٢) في (ر) و(ف): «بشيء».

(٣) في (أ): «السماع».

[البقرة: ٢٦١]، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ [الحديد: ٢٠]، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨].

والصيب: المطر، من قولهم: صاب يَصُوب صَوباً: نزل، قال الشاعر:

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لمـلْأَكٍ ... تَنَزَّلَ من جوِّ السَّماءِ يَصُوبُ(١)

والصيِّب: السَّحاب أيضاً، قال أبو ذُؤيب:

بقرارِ قِيعانٍ سَقَاها صيِّبٌ ... واهٍ فأَثْجَمَ بُرهةً ما يُقْلِعُ(٢)

---

(١) نسب لعلقمة بن عبدة في «المفضليات» (ص: ٢٩٤)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٢٥٥)، وهو في زيادات ديوانه (ص: ١١٨)، ونسب في «مجاز القرآن» (١/ ٣٣)، و«الصحاح» (مادة: ملك)، لجاهلي من عبد القيس يمدح بعض الملوك، ودون نسبة في «الكتاب» (٤/ ٣٨٠)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٧١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ١١٢). وقال السيرافي في «شرح أبيات إصلاح المنطق» (ص: ٢٠٧): يروى لأبي وجزة يمدح عبد الله بن الزبير، ويروى لرجل من عبد القيس يمدح النعمان.

(٢) انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ٥)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢٠٦)، و«المحكم» لابن سيده (٦/ ١٢٢)، و«الفائق» (٣/ ١٨٧)، و«اللسان» و«التاج» (مادة: قرر)، وفيها جميعا: سقاها وابل، وفي «المفضليات» (ص: ٤٢٣): (سقاها صائف). وجاء في هامش (أ): «أثجم المطر: كثر ودام». وفي هامش (ف): «قرار: جمع قرارة، وهو مستقر الماء، وقيعان: جمع قاع، وهو الأرض المستوية، وأثجم أي: دام، برهة: وهلة، ما يقلع أي: ما يسيل، يقال: أثجم المطر: إذا دام، وأثجم: إذا أقلع سريعاً». ووقع في جميع المواضع من حاشية ومتن في (ف) بدل «أثجم»: «أتخم» ولا معنى لها هنا.

والصيِّب أصله: صَيْوِبٌ، صارت الواو ياءً ـ لوقوعها بين ياءٍ وكسرةٍ ـ وأُدغمت، كالسيِّد والجيِّد والطيِّب والليِّن، إلا أنَّ السيِّد والجيِّد واويَّان والطيِّبَ والليِّنَ يائيَّان، وأصلهما: طَيْيِبٌ ولَيْيِنٌ، فصارتا واحدةً بالإدغام.

وتفسيرُه هاهنا: المطر[1]، في قولِ ابن عباسٍ وابن مسعودٍ رضي الله عنهم[2].

وقد قال بعضهم: أي: كسحابٍ، لأنه تعالى قال: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، وذلك في السحاب لا في المطر، وسمِّي السحاب صيِّباً لأن الصيِّب منه، وهو المطرُ الذي يَصُوبُ، أي: يَنزل.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فالسماء[3] في اللغة: سقفُ الدنيا، والسماء: السحاب أيضاً، والسماء: المطر أيضاً، والسماء: سقف البيت أيضاً، والسماء: ظهر الفرس أيضاً، وهي في القرآن على وجوهٍ ذكرت:

للسموات السبع: قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩].

وللسماء التي تلينا: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ [ق: ٦].

وللسحاب: قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

وللمطر: قال تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

وللهواء: قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[4] [إبراهيم: ٢٤].

ولسقف البيت: قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥].

---

(١) في (أ): «أو كمَطرٍ».

(٢) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٥١ ـ ٣٥٢)

(٣) في (أ): «السماء».

(٤) في هامش (ف): «أي متعال مرتفع في الهواء».

ولسماء الجنة: قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٨].

ولسماء جهنم: قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧].

وتفسيره[١] هاهنا:

أي: من السماء الدنيا.

وقيل: من السحاب.

فمَن جعَل الصيِّب سحاباً لم يُمْكِنه صرف السماء إلى السحاب، فيصرِفُه إلى السماء الدنيا[٢]، ومَن جعَله مطراً أَمْكنه صرفُه إلى كلٍّ واحدٍ منهما.

والتوفيقُ بين التفسيرين: أن المطر من السحاب عِياناً وهو من السماوات أصلاً؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣].

وروى وهب بن منبِّهٍ في «المبتدأ» ـ اسم كتاب[٣] ـ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال[٤]: تحت العرش بحرٌ ينزل منه أرزاقُ الحيوانات بوحي الله إليه[٥]، فيُمطِرُ ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، ويُوحي إلى الريح فتحمله فتَبثُّه[٦] في السحاب، والسحابُ بمنزلة الغربال، ثم يوحي إلى السحاب أنْ

(١) في (ر) و(ف): «وتفسيرهما».

(٢) بعدها في (ف) عبارة: «وقيل أي من السحاب» وهي زيادة لا يظهر لها تعلق بالسياق.

(٣) قوله: «في المبتدأ اسم كتاب»: ليس في (ف)، وقوله: «اسم كتاب»: ليس في (أ). و«المبتدأ» كتاب لابن وهب ذكره ابن النديم في «الفهرست» (ص: ١٣٨).

(٤) في (ف): «أن» بدل: «أنه قال».

(٥) في (أ): «ليوحي الله إليه». وفي (ر): «يوحى إلى السحاب إليه».

(٦) في (أ): «فتثبته» وسقطت الجملة من (ر)، والمثبت من (ف).

غَرْبِلْه فيُغَرْبِلُه، فليس من قطرةٍ تقطر إلا ومعها ملكٌ يضعُها موضعَها، ولا ينزل من السماء قطرةٌ إلا بكيلٍ معلومٍ ووزنٍ معلومٍ، إلا ما كان من يوم الطُّوفان، فإنه نزل ماءٌ منهمرٌ بغيرِ كيلٍ ولا وزنٍ.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾: هي ظلمة الليل والسحابِ والمطرِ.

وقيل: ما يستره المطرُ والسحاب من نور المطالع(١).

وقوله تعالى: ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾: أما الرعد فقد سُئل وَهْب بن منبِّهٍ عن الرعد: ما هو؟ فقال: اللهُ أعلم(٢).

وعن معمرٍ قال: سألتُ الزُّهريَّ عن الرَّعد ما هو؟ فقال: اللهُ أعلمُ(٣).

وسأل كعبٌ عبدَ الله بن عُمر رضي الله عنهما عن الرَّعد، فقال: مَلكٌ وكَّله الله بسياقةِ السحاب، فإذا أراد الله تعالى أن يَسوقه إلى بلدٍ أَمَره فساقه، فإذا تَفرَّق عليه زجَره بصوته حتى يجتمعَ كما يردُّ أحدكم رِكابه، ثم قرأ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣](٤).

وعن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: أنهم كانوا إذا سمعوا الرعد قالوا: سبحانَ مَن يسبِّحُ الرعدُ بحمده والملائكةُ من خِيفَته(٥).

---

(١) في (أ) و(ف): «الطوالع».

(٢) رواه عبد الرزاق قال: حدثني أبي أن وهب بن منبه سئل عن الرعد فقال: الله أعلم. انظر: «الاستذكار» (٨/ ٥٨٩).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٦٥). وانظر: «الاستذكار» (٨/ ٥٨٩).

(٤) رواه أبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. انظر: «الدر المنثور» (٤/ ٦٢٢).

(٥) رواه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٤/ ٣٠٣)، وأبو داود في «الزهد» (٣٧١) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٧٧) عن علي وابن عباس، ورواه الطبري أيضا من طريق رجل عن أبي هريرة مرفوعا.

وعن شَهْرِ بنِ حَوْشَبٍ: أن الرعد ملكٌ يحثُّ[١] السحابَ كما يحثُّ الراعي الإبلَ، وكما يَنْعِقُ الراعي بغنمه، فإذا تفرَّقت سحابةٌ ضمَّها، فإذا اشتدَّ غضبه طار من فيه النار، فهي الصواعق[٢].

وقال قتادة: الرعدُ خَلْقٌ من خَلْق الله سامعٌ مطيعٌ[٣].

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: ليس شيءٌ أحسنَ مَنْطِقاً ولا أحسنَ ضحكاً من السحاب، قالوا: ما مَنطقُه وما ضحكُه؟ قال: منطقُه الرعدُ وضحكُه البرقُ[٤].

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما في روايةٍ: الرعدُ ريحٌ تختنقُ تحت السحاب فيتصاعد، فيكون منه ذلك الصوت[٥].

وقيل: الرعد صوتُ اصطِكاكِ الأجرام، وهو من الرَّعد؛ لأنه صوتٌ يَرتعِد؛ أي: يضطرب.

وأُرْعِدت[٦] فرائصُه عند الخوف، من هذا، والرِّعْديد: الجبان؛ لارتعاده من خوفه، والرِّعديدةُ: المرأةُ الليِّنة الأعضاء من ذلك.

---

(١) في (أ): «يحدو».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٥٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٥٩).

(٤) لم أجده عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٤٨) عن عمرو بن أبي عمرو عن الثقة عن النبي ﷺ. ورواه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٦٨٦)، والعقيلي أيضا (١/ ٣٥)، وابن الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٣١٧)، من حديث شيخ من الصحابة مرفوعا أيضا. وإسناد أحمد صحيح، ولفظه: «إنَّ الله يُنْشِئُ السَّحابَ، فيَنْطِقُ أَحسَنَ المَنْطِقِ، ويَضحكُ أَحسَنَ الضَّحِكِ».

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦١)، و«النكت والعيون» (١/ ٨٢).

(٦) في (ف): «وارتعدت».

والبرق: هو ما يَنقدِح من اصطكاكِ الأجرام عند هؤلاء.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: هو ضرب الملَك الذي هو الرَّعدُ السحابَ بمخراقٍ من حديدٍ[١].

وقال ابن عباسٍ والضحَّاك: هو سوطٌ من نارٍ يَزجر به الملَكُ السحابَ[٢].

وقيل: هو تلألؤ الماء.

وقال مجاهد ومحمد بن مسلمٍ الطَّائفيُّ: البرقُ ملَكٌ له أربعة أوجهٍ: وجهُ إنسانٍ، ووجه ثورٍ، ووجه نسرٍ، ووجه أسدٍ، فإذا مَصَع بأجنحته فذلك البرق[٣].

والـمَصَع: التحريكُ والضرب.

وقال شعيب بن الحبحاب[٤]: وجدتُ في كتاب الله تعالى أن حملة العرش

---

(١) رواه الإمام أحمد في «العلل» (٥٦٣٨)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٣) بلفظ: هو سوطٌ مِن نُورٍ يَزُجُّ به المَلَكُ السَّحابَ.

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٥)، وهذا لفظ الطائفي، ولفظ مجاهد: (البرق مصع ملك).

(٤) في (ر): «بن الجنحاب» وفي (ف): «بن الجيحاب». والذي في «تفسير الطبري»: شعيب الجبائي. قال محمود شاكر في حاشية «الطبري» (١/ ٣٤٥): شعيب الجبائي: بفتح الجيم والباء الموحدة مخففة، نسبة إلى: جبأ، بوزن جبل، وهو جبل في اليمن قرب الجند، كما قال ياقوت وغيره، وشعيب هذا ترجمه البخاري في «الكبير» (٤/ ٢١٨)، وترجمه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ٣٥٣) قال: (شعيب الجبائي: يماني، يروي عن الكتب [يريد الكتب المنسوبة لأهل الكتاب من الأساطير]، روى عنه سلمة بن وهرام)، ثم جزم ابن أبي حاتم بأنه شعيب بن الأسود، ثم روى بإسناده عن زمعة، عن شعيب بن الأسود، قال: (أجد في كتاب الله)، وله ترجمة في «لسان الميزان» وقال: (أخباري متروك)، ثم ذكر شيئًا مما لا يقبله العقل من كلامه، وقال: (ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: كان قد قرأ الكتب).

لكلِّ ملَكٍ منهم وجهُ إنسانٍ ووجهُ ثورٍ ووجهُ أسدٍ ووجهُ نسرٍ، فإذا حرَّكوا أجنحتهم فهو البرق.

وعلى كلِّ هذه الأقاويل: الرعدُ والبرقُ المذكوران في هذه الآية هو الصوتُ والنار التي تلمع في السَّحاب، فإن كان الرعد والبرق اسمين لملَكٍ أو ملكين، فقد أُريد بما ذكر في هذه الآية صوتُهما وأثرهما، لا عينُهما.

وفي قصة المعراج من روايةِ ابن عباسٍ رضي الله عنهما: قال عليه الصلاة والسلام: «ثم مررتُ على ملَكٍ يشبهُ الآدميَّ خَلْقاً، نصفُه من الثَّلج ونصفُه من النار، وسمعتُ تسبيحَه وهو يقول: سبحانَ الذي[1] ألَّف بين الثَّلجِ والنار، سبحان الذي يؤلِّفُ بين عباده المؤمنين، فقلت: يا جبريل! مَن هذا الملك؟ فقال: هذا ملكٌ خلقَه الله تعالى بقدرته كما ترى، وكَّله[2] على السَّحاب يَسُوقه من موضعٍ إلى موضعٍ، واسمُه: رعد، ومنه الرعدُ والبرق»[3].

---

(١) في (ر): «سبحان من».

(٢) في (أ): «كما تراه ووكله».

(٣) لم أجده بهذا السياق، وورد بعضه ـ لكن دون محل الشاهد ـ في حديث طويل جداً عن ابن عباس في المعراج رواه ابن حبان في «المجروحين» (٣/ ١١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٢١٠)، مقتصرَين على أوله، وذكره بتمامه السيوطي في «اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» (١/ ٦٢)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ١٥٥)، وفيه: «... ثم مررت بخلق عجيب من العجب، رأيت ملكا من الملائكة نصف جسده مما يلي رأسه ثلج والآخر مكون نارا، ما بينهما رتق، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار، وهو قائم ينادي بصوت له رفيع جداً: سبحان ربي الذى كفَّ برد هذا الثلج فلا يطفئ حر هذه النار، سبحان ربي الذى كفَّ حر هذه النار فلا تذيب هذا الثلج، اللهم مؤلفا بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين، فقلت: من هذا يا جبريل؟ فقال: هذا ملك من الملائكة وكله الله بأكناف السموات وأطراف الأرضين، وهو من أنصح =

يعني: بسياقه السحابَ يَظهر الرعدُ، وبعنفه على السحاب يظهر البرق، ألم تسمع اللهَ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ الآية [النور: ٤٣].

وقال في كتاب «حقائق القرآن»: قال ابن الرَّيحانيِّ[1]: الرعد صَعقاتُ الملائكة، والبرقُ حُرقاتُهم[2]، والمطرُ بكاؤهم.

فإنْ حُمل هذا الكلامُ على الظاهر[3] فالملائكةُ موصوفون بالخشية والخِيفة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وبكاؤهم شديدٌ أيضاً، حكاه النبيُّ ﷺ أنه رآهم ليلة المعراج

= الملائكة لأهل الأرض من المؤمنين، يدعو لهم بما تسمع فهذا قوله منذ خلق، ثم مررت بملك آخر...». وعزاه ابن عراق لابن حبان وابن مردويه في تفسيره، قال: كلاهما من حديث ابن عباس من طريق ميسرة بن عبد ربه واتهم به، إلا أن ابن مردويه أخرجه من طريق آخر دل على أن الآفة فيه من غير ميسرة، وأنها من شيخه عمر بن سليمان الدمشقي.

(١) لعله: علي بن عبيدة الريحاني أحد البلغاء والفصحاء، له اختصاص بالمأمون وله معه أخبار، كان كاتباً بارعاً، وله تصانيف كثيرة يسلك فيها طريقة الحكمة، وكان يرمى بالزندقة، قال الذهبي: وتصانيفه تدل على فلسفته وفراغه من الدين، وهي كثيرة سردها ياقوت في «تاريخ الأدباء». انظر: «الفهرست» (ص: ١٧٢)، و«معجم الأدباء» (٤/ ١٧٨)، و«تاريخ الإسلام» (١٥/ ٣١١).

وهذا القول رواه عن الريحاني: السلمي في «حقائق التأويل» (١/ ٣٢٩)، وذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص: ٤٠٤)، والآلوسي في «روح المعاني» (١٣/ ١١٧)، وفيهما: (الزنجاني)، ولعله نفسه فإن الريحاني المذكور يقال له أيضا: الزنجاني، كما في «هدية العارفين» (١/ ٦٦٨).

وهذا القول جعله الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٥١٩) من بدع المتصوفة.

(٢) جاء في جميع المصادر السابقة: (والبرق زفرات أفئدتهم).

(٣) في (أ): «ظاهره».

باكِين، أهلُ كل سماءٍ إلى العلو[١] أشدُّ أثراً من الذين دونهم، فيجوز أن يكون ما نَرى من الهواء هو[٢] منهم من السماء.

وإنْ حُمل على التمثيل فله وجهٌ؛ أي: كما تسمعون صوت الرعد فاعلموا أن صياح الملائكة من الخوف[٣] كذلك، وكما ترون لـمَعان البرق فلمعانُ نيران أشواقهم كذلك، وكما تَرون تقاطُر الأمطار فدموعُهم كذلك، وهذا حالُهم مع أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم عبادٌ مُكرَمون، وهم من خشيته مشفِقون، فكيف ينبغي لنا أن نَغفل مع هَفَواتنا وجَفْواتنا وخُطواتنا وخطيئاتنا؟!

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾: قيل: يضعون، وقيل: يُدخلون.

ودلت هذه الكلمة ـ وهي[٤] فعلُ الجمع ـ أن المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾: أو كأصحابِ صيِّبٍ، حتى صار هذا فعلاً لهم[٥].

والأصابع جمع إصبعٍ، وفيها خمسُ لغاتٍ: أَصبع بفتح الهمزة وكسر الباء، وأُصبَع بضمها ـ أي: الهمزة[٦] ـ وفتح الباء، وأُصبُع بضمهما، وإِصبع بكسرهما، وإِصبَع بكسر الهمزة وفتح الباء وهي أشهرها.

وهي إحدى أصابع اليدين والرجلين، والإصبعُ مؤنثةٌ سماعاً، قال النبيُّ ﷺ في رَجَزٍ له في بعضِ مغازيه:

---

(١) في (ر) و(ف): «العلى».

(٢) في (ف): «ما ترى من الهواء هو»، وفي (ر): «ما ترى الهوى هوى».

(٣) في (ر): «في الخوف»، وفي (ف): «في الجو».

(٤) في (أ): «على»، بدل: «وهي».

(٥) في (ر) (ف): «فعالهم».

(٦) في (أ): «بضم الألف» بدل: «بضمها أي: الهمزة».

هـل أنـت إلا إصبـعٌ دَمِيـت وفـي سـبيلِ الله مـا لَقِيـت[١]

ودلت الآيةُ أن إطلاق اسمِ الشيء على بعضه جائزٌ مجازاً، فإنه ذكر جَعْلَ الأصابع في الآذان، والمقصودُ جعلُ[٢] بعضِها لا كلِّها، ومعنى هذا: يسدُّون آذانهم بأصابعهم خوفاً من الرعد.

وقولـه تعالـى: ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾: هـي جمـعُ أُذن، وهـي الجارحـة السـامِعة، وقد أَذِنَ يَأْذَنُ؛ أي: سـمع، قال الله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشـقاق: ٢]؛ أي: سـمعتْ مُطيعـةً، وقـال النبيُّ ﷺ: «مـا أَذِنَ اللهُ لشـيءٍ كأَذَنِهِ لنبـيٍّ يَتغنَّى بالقـرآن»[٣]؛ أي: ما قَبِـلَ اللهُ ورضـي[٤]، والأذان: الإعـلام بالإسـماع[٥]، وأَذِن؛ أي: عَلِـم إذْ[٦] سـمع، ورجـلٌ أُذُنٌ؛ أي: يسـمع كلَّ قـولٍ ويَقبله.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: هي جمع الصاعقة، وهي الصوت مع النار.

وقيـل: هـي صـوتُ الرعـد الشـديد الـذي يُصْعـق منـه الإنسـان؛ أي: يُغشـى عليـه أو يمـوت.

وقيل: هي نارٌ لا دخان لها.

وقيل: هي عذابٌ ينزل من السماء يموت منه أكثرُ مَن يسمعه.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦)، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٢) «جعل»: من (ر).

(٣) رواه مسلم (٧٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «أي: ما قبل الله ورضي»: ليس في (أ) و(ف).

(٥) في هامش (ف): «والأذان الإعلان بالإسماع».

(٦) في (أ) و(ف): «إذا».

وقيل: الصاعقةُ والصاقعة واحدةٌ، وهي من الصَّقع[١] أي: الضرب، وهو الصوت أيضاً، والصقيع[٢]: البرد المحرق للنبات، والصَّقَع بفتح القاف: الغَشْيُ أيضاً.

وقيل في الصاعقة ـ وهو أجمعُ ما قيل فيه ـ: هو الشديدُ من صوت الرعد يقع معه قطعةُ نارٍ تُحرق ما أتت عليه، وهو المراد هاهنا.

وقد ذُكرت الصاعقة في القرآن[٣] لأشياءٍ:

للنار: في قصة بني إسرائيل قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥].

وللريح: في قصة عادٍ، قال: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾ [فصلت: ١٣].

وللصيحة: في قصة ثمودٍ، قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [فصلت: ١٧].

ولمطلق العذاب: قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ [فصلت: ١٣].

وللعذاب النازل من السماء: قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣].

ولصوت الرعد: كما في هذه الآية.

وقولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾؛ أي: من قِبَل الصواعق وبسببها[٤]، أو فيه مضمرٌ

---

(١) في (ر) و(ف): «الصعق».

(٢) في (ف): «والصقع».

(٣) في (ف): «جاءت» بدل: «ذكرت الصاعقة في القرآن».

(٤) في (ر): «تشبيها»، وفي (ف): «وتشبيهاً».

وتقديره: يجعلون أصابعهم في آذانهم تحرُّزاً من الصواعق، أو: خوفاً من الصواعق.

والألف واللام في ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ بدلُ الإضافة؛ أي: من صواعقِ الرعد وصواعقِ الصَّـيِّب، وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]؛ أي: مأواه.

وقوله تعالى: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: الحذر: الخوفُ الباعثُ على التحفُّظ والتيقُّظ، ورجلٌ حَذِرٌ وحَذُرٌ ـ بكسر الذال وضمِّها ـ من ذلك، وطيرٌ حَذِرٌ؛ أي: يتحفَّظ[1] في شربه والتقاطِ حَبِّه.

والموت: زوالُ الحياة.

ونُصب ﴿حَذَرَ﴾ على أنه مفعولٌ له؛ أي: لأَجْل حذَرهم من الموت يفعلون كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: الإحاطة: إدراك الشيء بكماله من كلِّ جهاته، ويُستعمل في العلم بالشيء من كلِّ وجوهه، قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، ولإهلاكِ الشيء بكلِّيَّته، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: تَهلكوا جميعاً.

وتفسيرُه هاهنا عند بعضهم: أي: يُميتهم إن شاء فلا فائدةَ لحذَرهم.

وقيل: أي: هو عالمٌ بالكفار فيُطْلعُ رسولَه على أفعالهم.

وقيل: أي: عالمٌ بهم فيجازيهم يوم القيامة بأعمالهم.

وقيل: أي: يجمعهم في جهنم بما فعلوا، وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠]؛ أي: لا يخرجون عن ملكه وعلمه وقدرته.

* * *

---

(١) في (ف): «منخفض».

(٢٠) ـ ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ كاد يَكاد مَكادَةً؛ أي: قارَبَ، يقال: كاد يفعلُ كذا؛ أي: قَرُبَ أن يَفْعَلَ ولمْ يَفْعَلْ[١]، وإذا قلتَ: ما كاد يَفعلُ، فمعناه: قَرُب أنْ لا يَفْعَلَ وفَعَلَ، وهو مِثْلُ (عسى)، إلا أن (عسى) يُوْصَل بكلمةِ (أنْ)، و(كاد) يستعمل بغيرِ (أنْ)، وقد يستعمل أيضاً مع (أنْ)، واللغةُ الفاشيَةُ هي الأُولى، وفي القرآن كذلك.

وقالوا: إذا وُصل (كادَ) بـ(أنْ) فهو تشبيهٌ بـ(عسى)، وإذا أُسقط عن (عسى) فهو تشبيهٌ بـ(كاد)، قال الله تعالى في (عسى): ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ ﴾[٢] [المائدة: ٥٢]، وقال تعالى في (كاد): ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ [النور: ٤٠].

وقوله: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ الخَطْف[٣]: الاستِلابُ بسرعةٍ، من حدِّ عَلِم، ورجلٌ خَيْطَفٌ: سريعُ المَرِّ، والشيطانُ يَخْطَفُ السَّمْعَ؛ أي: يَسترِقُه، والبرقُ يَخْطَفُ البَصَر؛ أي: يَستَلِبُه.

وقرأ الحسن البصريُّ رحمه الله: (يَخِطِّفُ) بفتح الياءِ وكسرِ الخاء والطاء[٤].

---

(١) «ولم يفعل» سقطت من (ر) و(ف)، ووقع مكانها في (ر): «كذا».

(٢) في (أ): «﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾».

(٣) في (ر) و(ف): «فالخطف».

(٤) مع تشديد الطاء. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٣٤)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٦٤)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٠٣)، و«البحر» (١/ ٢٥٢).

وقرئ: (يَخَطِّفُ) بفتح الياء والخاء وكسر الطاء[١].

وقرئ: (يِخِطِّفُ) بكسر الياء والخاء والطاء[٢].

وقرأ بعض أهل المدينة: (يَخْطِّفُ)[٣] بسكون الخاء وتشديد الطاء[٤].

وقراءةُ الأكثر: ﴿يَخْطَفُ﴾[٥] بفتح الياءِ وسكونِ الخاء وفتحِ الطاء وتخفيفِها.

فأمَّا وجهُ تشديد الطاء: فعلى أن أصله: يَخْتَطِفُ، فأدغمت التاء في الطاء.

وأمَّا كسرُ الخاء: فلاجتماع الساكنَين، فحرِّكَ الأولُ إلى الكسر كما في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١].

وأما كسرُ الياء: فإتباعاً للخاء.

وأما فتحُ الخاء: فلِنَقْل حركة التاء المدغَمة إليها.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾: يجوز (أضاء) لِلَّازم[٦] والمتعدِّي، ومعنى الأولِ: كلما ضاء[٧] لهم البرقُ، ومعنى الثاني: كلما أضاء البرقُ الطريقَ لهم.

---

(١) مع تشديد الطاء أيضاً. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٩٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٣٤)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٠٣)، و«البحر» (١/ ٢٥٢).

(٢) مع تشديد الطاء أيضاً. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٩٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١)، و«المحتسب» (١/ ٥٩)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٠٣)، و«البحر» (١/ ٢٥٢).

(٣) «يخطف»: من (أ).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٣٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١)، و«المحتسب» (١/ ٦١)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٠٣)، و«البحر» (١/ ٢٥٢).

(٥) وهي قراءة العشرة. وكلمة: «يخطف» من (أ).

(٦) في (ر): «اللازم».

(٧) في (ف): «أضاء».

وقوله تعالى: ﴿مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾: المشي: السَّيرُ السَّهل، والـمَشِيُّ بالتشديد والمشوُّ: الدواء[1] المسهل.

والمشيُ في القرآن لمعانٍ:

للسير: كما في قوله تعالى: ﴿يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء: ٩٥].

وللمُضيِّ: كما في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥].

وللاهتداء: كما في قوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

وللانجرار: كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥].

وللنميمة: كما في قوله تعالى: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١١].

وتفسيرُه هاهنا: كلما نارَ البرقُ فأنارَ الطريقَ مضَوا في طريقه وضوئه، فإذا انقطَع وقفوا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾: القيام: الانتصاب، قال تعالى: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ [هود: ١٠٠].

والقيام: الاستواء، قال تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ [الجمعة: ١١].

والقيام: النهوض، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ [الكهف: ١٤].

والقيام: البقاء، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

والقيام: الوقوف، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾؛ أي: وإذا زال الضوءُ وجاء الظلام وقفوا.

---

(١) في (ر): «شرب الدواء»: والمثبت من (أ) و(ف)، وهو الصواب. انظر: «النهاية» (مادة: مشى)، و«القاموس» (مادة: مشو).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾: (لو) كلمةُ شرطٍ، والمعلَّق به يَمتنِعُ بامتناعِ شرطه، وقد يكون للتمنِّي كما في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]. والمشيئة: الإرادة.

وقوله تعالى: ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾: أي: لأَذْهَبها، فالتَّعدِيَة قد تقع بالباء أيضاً.

ثم ذكرُ السمعِ على الوحدان ـ مع إضافتِه إلى الجمع ـ وذكرُ الأبصار[١] بالجمع؛ لِمَا مر في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وتفسيرُ هذه الكلمات: ولو شاء اللهُ لذهب بسمعِ رؤوسهم وأبصارِ رؤوسهم كما ذهب بسمع قلوبهم وأبصارها.

وقيل: ولو شاء الله لجعلهم صمًّا وعمياً في الآخرة كما جعلهم في الدنيا كذلك.

وقيل: ولو شاء الله لذهب بأعيانِ الأسماع والأبصار منهم كما ذهب بمنافع الأسماع والأبصار منهم.

وبمعرفة هذه الأقاويلِ اندفع[٢] سؤالُ مَن سأل فقال: لمَّا قال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ فقد نفَى السمعَ والنُّطق والبصر عنهم، فما معنى تعليقِ إذهابها عنهم بالمشيئة؟

لأنَّا نقول: ما نفاه عنهم غيرُ ما علَّق إذهابَه عنهم بالمشيئة، وهو ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: (كلّ) كلمةُ استيعابٍ يتناول جميع ما دخل فيه، والشيءُ اسمٌ لكل موجودٍ، وهاهنا هو اسمٌ لكلِّ موجودٍ مخلوقٍ، لأنه هو الذي يجوز دخولُه تحت القدرة.

---

(١) في (ر) و(ف): «على الوحدان والأبصار».

(٢) في (ف): «يدفع».

والقدير: هو القادر؛ كالعليم هو العالم، والصفة: القدرة والمقدرة، والإقدارُ: إثبات القدرة، واقْتَدر فهو مُقتدِرٌ، بمعنى: قدَر فهو قادرٌ.

وتفسيره هاهنا: إنه على كل شيءٍ قادرٌ[(١)]، وإنما ذُكر قبلَه إذهابُ السمع والبصر لا غير لأنهما هما المذكوران في القصة، فالرعدُ يؤثِّر في السمع، والبرقُ يؤثر في البصر، والله تعالى قادرٌ على إزالتهما في هذه الحالة، وقادرٌ على كل شيءٍ في كلِّ حالةٍ[(٢)].

فأما تأويلُ جملةِ هذه الآيات ففيها أقاويل كثيرةٌ[(٣)]:

منها: ما روي: أنه كان رجلان من المنافقين من المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين، فأصابهما هذا المطرُ الذي ذكر الله عز وجل، فيه رعدٌ وبرقٌ وصواعق، فجعلا كلما أضاء لهما الصواعقُ جَعَلا[(٤)] أصابعهما في آذانهما من الفَرَق، [وإذا لمع البرقُ مَشَيا في ضوئه]، فإذا[(٥)] لم يلمع لم يُبصرا فكانا لا يمشيان، فجعلا يقولان: ليتنا أَصبحنا فنأتيَ محمداً فنضعَ أيديَنا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما، فضَرب الله تعالى مثلَهما للمنافقين بالمدينة[(٦)].

---

(١) في (ر) و(ف): «قدير».

(٢) في (ف): «شيء وحالة».

(٣) في (أ): «فقد وردت فيه أقاويل كثيرة»، و«كثيرةٌ»: ليست في (ف).

(٤) في (ر) و(ف): «فجعلا كلما أضاء لهم البرق مشيا وجعلا»، والمثبت من (أ)، وهو الموافق لما في «تفسير الطبري».

(٥) في (أ): «وإذا».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٨) من طريق السدي عن أشياخه عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة، وما بين معكوفتين منه. وقد قال الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٧٥) عن هذا الإسناد: ولست أعلمه صحيحًا، إذ كنت بإسناده مرتاباً. =

وقال ابن عباسٍ وعطاءٌ والضحاكُ وعليُّ بن طلحةَ ومقاتلٌ والكلبيُّ وجعفرُ بن محمد الصادقُ: هذا مَثَلُ القرآن؛ أي: مَثَلُ المنافقين مع القرآن كمَثَل مسافرٍ أصابه مطرٌ، فشبَّه القرآنَ بالمطر؛ لأن في القرآن حياةَ مَن آمَنَ به.

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾: ذكرُ الكفرِ والوعيدُ عليه وعلى المعاصي، وهو كالرعد[1]، وفيه الوعدُ على الإيمان والطاعاتِ كالبرق.

وقيل: الظلمات: بيانُ الفتن، والرعدُ: الزَّجر والتخويف، والبرق: بيان النُّصرة والظَّفَر.

= قال الشيخ أحمد محمد شاكر في حاشية الطبري: وحق لأبي جعفر رحمه الله أن يرتاب في إسناده، فإن هذا الإسناد فيه تساهل كثير من جهة جمع مفرق التفاسير عن الصحابة في سياق واحد تجمعه هذه الأسانيد، فإذا كان الأمر في تفسير معنى آية كان سهلا ميسورًا قبوله، إذ يكون رأيًا أو آراء لبعض الصحابة في معنى الآية، وما في ذلك بأس. أما إذا ارتفع الخبر إلى درجة الحديث، بالإخبار عن واقعة معينة أو وقائع كانت على عهد رسول الله ﷺ، من أسباب لنزول بعض الآيات، أو نحو ذلك مما يلحق بالحديث المرفوع لفظًا أو حكمًا، كان قبول هذا الإسناد ـ إسناد تفسير السدي ـ محل نظر وارتياب، إذ هو روايةٌ غير معروف مصدرها معرفة محددة: أيُّ هؤلاء الذي قال هذا، وأيهم الذي عبر عنه باللفظ الذي جاء به؟ نعم، إن ظاهره أنه عن الصحابة: إما ابن عباس، وإما ابن مسعود، وإما ناس من أصحاب النبي ﷺ، فقد يقول قائل: إن مرجع الرواية فيه إلى الصحابة، وسواء أعرف الصحابي الراوي أم أبهم اسمه، فإن ذلك لا يخرجه عن رواية الصحابة، وجهالة الصحابي لا تضر؟ ولكن سياق هذه الروايات المطولة المفصلة في التفسير وفي الحوادث المتعلقة بأسباب النزول، مثل الرواية التي هنا في هذا الموضع، مع إعراض أئمة الحديث الذين خرجوا الروايات الصحيحة والروايات المقبولة مما هو دون الصحيح عن إخراج هذه الرواية ونحوها، وإعراض مؤرخي السيرة عن روايتها أيضًا، كل أولئك يوجب الريبة في اتصال مثل هذه الرواية، وفي الجزم بنسبتها إلى الصحابة، إذ لعلها مما أدرج في الرواية أثناء الحديث بها، والاحتياط في نسبة الحديث المرفوع وما في حكمه واجب.

(١) في (ف): «الرعد».

وقيل: الرعد: المتشابهات، والبرق: المحكَمات.

وقيل: الرعد: بيان المحرَّمات والوعيدُ عليها، والبرق: بيان المحلَّلات والوعدُ عليها.

وقيل: الرعد: ما في القرآن من ذكر الامتحان والابتلاء، والبرق: ما فيه من الهدى والشفاء.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾[1]: ينفرون عن[2] الجهاد وسائرِ الأوامر كأنْ لم يسمعوا.

وقيل: يتصامُّون ويتعامَون كيلا يسمعوا ما نزل في شأنهم والأمرِ بقتلهم.

وقيل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ حقيقةً كيلا يسمعوا القرآن، تكاد حجج القرآن تبهرُ العقول وتجذبها إلى نفسها لوضوحها.

وقيل: يكاد القرآن[3] يدلُّ على عوراتهم.

وقيل: يكاد بيانُ القرآن يَذهب بضلالتهم ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾: كلما تفكَّروا في المحكَمات قصدوا أن يؤمنوا بالقرآن، وإذا اشتبَهت عليهم المتشابهات[4] أَعرضوا وكفروا.

وقيل: كلَّما تمسَّكوا بالمتشابهات ليحتجُّوا بها على المؤمنين انقطعت حججُهم بالمحكَمات، فبقُوا في ظلمة كفرهم متحيرين ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾».

(٢) في (ف): «من».

(٣) في (أ): «البرق».

(٤) في (ف): «المشتبهات».

﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ عقوبةً لهم، كما ذهب بسمع قلوبهم وأبصارها خذلاناً لهم، إنه قديرٌ على ما أراد.

وقال[١] الربيعُ بن أنسٍ وابنُ جُريجٍ ومجاهد والضحَّاك، والكلبيُّ عن ابن عباس: هذا مثلٌ لإقرارهم بألسنتهم وإنكارِهم بقلوبهم؛ أي: مَثَلُ المنافق في الإيمان كمسافرٍ في الـمَفازةِ في ليلةٍ مظلِمةٍ أصابه مطرٌ، شبَّه الإيمانَ بالمطر لأنه به حياةُ القلوب، وفيه ظلماتٌ في قلبه: ظلمةُ الكفر، وعلى لسانه نورُ الأقدار كالبرق، وهو خائفٌ بين ذلك كالخائف من الرعد ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ لا يتفكرون بقلوبهم إلى دليلِ الرشد ومعجزاتِ الرسول، ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾؛ أي: تلك الدلائل تَذهب بظلمةِ قلبه وغطاءِ بصره وإن لم يتفكَّروا فيها.

وقيل: يكاد نورُ إيمانِ المنافق بلسانه يخفَى على المؤمنين حالُه ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾؛ أي: ما داموا في الحيرة[٢] يتكلَّمون به وينتفعون به، وإذا ماتوا بقُوا في ظلمة القبر وعقوبةِ الحشر، ولو شاء الله لأهلك المنافق للحال ولا يُمهَلوا إلى الموت؛ لأنه قدير على كل شيء.

وقيل: هذا مَثَلُ خوف المنافق وتحيُّرِه فإن ليلة المطر والرعد والبرق والظلمات في غايةِ الهول والإيحاش، ومعنى جعلِ الأصابع في الآذان حذَرَ الموت: خوفُ المنافق أن يُطَّلَعَ على سرِّه فيُقتلَ أو يُنفى ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: قادرٌ على إنزال نقمته بهم ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يكاد خوفُ المنافق يهلكُه ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾؛ أي: كلما ظهرت غلبةُ أحد الفريقين تابَعوهم، وإذا انقلب الأمر انقلبوا، ولو

(١) من هنا وقع سقط في (ر) و(ف) بمقدار صفحتين، وسنشير إلى نهايته في موضعه.

(٢) كذا في (أ)، ولعل الصواب: «في الحياة».

شاء الله لحقَّق ما يخافه صاحبُ الصيِّب لاختطاف[1] السمع والبصر وليس ترك الله المنافق على هذا التذبذُب لعجزه، إنه على كل شيء قدير.

وقيل: هذا مثلُ لقاءِ المنافقين المؤمنينَ بالإيمان والكفارَ بالكفر، قال: مَثَلُهم كمَثَلِ الرَّجلِ في ظلمات الليلِ والسحاب والمطر، وفي المطرِ رعدٌ وبرقٌ، فقد اجتمع نورٌ وظلمةٌ وخوفٌ، فالنورُ ما يُظهره من الإيمان، والظلمةُ ما يضمِرُه من الكفر، والخوفُ منهم ظهورُ أمرِهم نفاق المنافقين وينكشف لهم أسرارهم ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾: كلما تكلَّموا بالإيمان كانوا سالمين مع المؤمنين، وإذا دخلوا[2] إلى شياطينهم وقالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾، وقعوا في ظلمات الضلال، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأزال أسباب التحرُّز عنهم وواقَعَ بهم المؤمنين، كما لو شاء لذهب بسمع صاحبِ الصيِّب وبصرِه من غيرِ صاعقةٍ ورعدٍ وبرقٍ ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عالمٌ بهم مالكٌ لهم، وهم في قبضته، فلا مَخْلَصَ ولا مَهْربَ لهم، وهو على كلِّ شيء قدير.

وقال قتادةُ وابنُ جُريج: هذا مَثَلٌ لجبن المنافق وخوفهِ من الموت إذا دُعي إلى القتال، وفي الجهاد إحياءُ الدِّين كما أن المطر حياةُ الأرض وأهلِها، فكانوا إذا دُعوا إليه قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍ﴾ الآية [الأحزاب: ١٣] وقال: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ١٤١] وإذا لم يرغبوا في الجهاد لأنهم كانوا لا يصدِّقون النبيَّ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] وفي قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولا يصدِّقون بالبعث وما أَعَدَّ الله للشهداء، ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ﴾؛ أي: عزُّ الإسلام، فظهورُه مُلجِئةٌ إلى الإيمان ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾

---

(١) كذا في (أ)، ولعل الصواب: «باختطاف».

(٢) كذا في (أ)، ولعل الصواب: «خلوا».

لهم عزُّ المسلمين مشَوا فيه، وإذا كانت الدَّبْرةُ[1] عليهم قاموا متحيِّرين في كفرهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأهلكهم وأماتهم من غيرِ قتال، إنه على كل شيء قدير، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٨]، وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٦].

وقيل: ﴿لو شاء الله﴾ لعطَّل أبدانهم ومصالحَها فلم يَصلُحوا لجهادٍ ولا لغرضٍ آخَرَ، إنه على كل شيء قديرٌ.

وقيل: أي: كلما دُعوا إلى غنيمةٍ ومنفعةٍ أجابوا ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾؛ أي: إذا أُمروا بالخروج للغزو تثاقَلوا.

وقيل: كلما سمعوا غَلَبة أشياعِهم فرحوا ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾؛ أي: وإذا رأوا غلبة المؤمنين تحيَّروا ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأذهب أشياعهم، إنه على كلِّ شيء قديرٌ[2].

وقيل: هذا في الذين آمنوا، ولمَّا[3] مسَّهم الضرُّ ارتدُّوا، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ الآية [الحج: ١١]، فقال[4] تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ فشبَّه الإسلام بالمطر، والنعمةَ فيه بالبرق، والفتنَ والمحنَ فيه بالرعد ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾؛ أي: لا يحبُّون أن يسمعوا بشيءٍ من الشدائد والبلايا، يكاد ما يَرونه من عزِّ المسلمين وإصابةِ الغنائم يمحو عن قلوبهم الشبهات ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾: وإذا زال نفعُ الدنيا وقفوا، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لسلب ما في أيديهم وزادهم ذلًّا إلى ذلٍّ، إنه على كلِّ شيءٍ قدير.

---

(١) في هامش (أ)،: «الدبرة: الهلاك».

(٢) هنا نهاية السقط في (ر) و(ف).

(٣) في (ر) و(ف): «لما».

(٤) في (أ): «قال»، وفي (ر): «وقال».

وقيل: المثَلُ لليهود، وذلك أن المسافر ينتظِرُ المطرَ ليَعمُرَ[١] الطرق ويملأَ الحياض[٢] فينتفعَ به هو ودوابُّه، ولا يتوقَّعُ الظلماتِ والرعدَ والبرق، فكذا اليهودُ كانوا ينتظرون خروج نبيِّنا عليه الصلاة والسلام ليهتدوا به ويَقهروا الأعداء[٣]، ولم ينتظِروا نسخَ شريعتِهم والوعيدَ[٤] بالنار لمن كان على دينهم، فالمطرُ: مثالُ محمدٍ ﷺ، والظلماتُ: نسخُ شريعتهم، والرعدُ: الوعيدُ بالنار، والبرق: معجزات النبي ﷺ ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾: يعاندون في الإنكار مع ظهورِ الحق والآيات[٥] ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ أي: كاد ظهورُ دلائله يَذهب بظُلمة قلوبهم ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾؛ أي: المسافرُ لو نظر إلى البرق لأبصر الطريق، ولو غمَّض عينيه خَفِي عليه الطريق، فكذا اليهودُ لو تأمَّلوا في حال النبيِّ ﷺ لاهتدَوا، ولَمَّا أعرضوا بَقُوا في الضلالة.

وقيل: المثلُ لليهود مع التوراة، فالمطر: التوراة، والظلماتُ: متشابِهاتُها، والرعد: الوعيد، والبرق: ذكرُ محمد ﷺ ونعتِه وشرفِه ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾: يُعرِضون عن ذكرِه والتأمُّلِ فيه مخافةَ فَوْتِ الرياسة والمأكلة[٦]، يكاد ظهورُ حاله يُزيل كفرَهم، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾؛ أي: ما وافَقَ أهواءهم قَبِلوه وما خالفَها ردُّوا.

---

(١) في (ر): «ليعرف».

(٢) في (ف): «الحيضان».

(٣) في (ر) و(ف): «أعداءه».

(٤) في (ر): «والوعود».

(٥) في (ر) و(ف): «مع ظهور الآيات».

(٦) في (أ): «ذا المأكلة».

وقيل: معناه: لو تفكَّروا آمَنوا وسُعدوا، ولكنْ أَعرضوا فهلَكوا وخسِروا، وكما أنَّ الله تعالى قادرٌ على تنوير بصرِ المسافر وإنْ تعامَى، فكذا هو قادرٌ على تنوير قلوبِ اليهود وإن أعرضوا، ولكنْ لم يَشَأْ ذلك، فهو على ما يشاء قدير.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله تعالى: المثَلُ لكفارِ عصرِ النبيِّ ﷺ، ألَا ترى أنه قال: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وكانوا صِنفين:

صنفٌ: أهلُ كتابٍ قد غيَّروه؛ كما قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، ومن أهل الكتاب قومٌ ابتدَعوا الكتاب، كما قال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨] فاندرستِ الكتبُ الحقُّ، وصاروا في ظلمةِ الضلالة[١]، وظهر منهم القولُ المختلِف المتناقِض الذي لا تحتمِلُه الحكمةُ.

وصنفٌ: لا ينتحِلون الكتاب ولا يؤمنون بنبيٍّ، بل يعبدون الأوثانَ والأحجار والنيران، ليس لهم مَن يدلُّهم على رشدهم.

فاحتاجوا[٢] إلى مَن يُخرجهم من الضلال إلى الهدى، ومن الفُرقة إلى الائتلاف، فبعث الله إليهم نبيًّا[٣]، وألزمهم[٤] بالآيات ليستنقذَهم به إنْ أطاعوه،

---

(١) في (ف): «الظلمة» بدل: «ظلمة الضلالة» وفي الهامش كالمثبت.

(٢) في (أ): «رشد فاحتاجوا» وفي (ر) و(ف): «رشدهم احتاجوا». وعبارة «التأويلات»: (فأحوج الفريقين جميعًا ما حل بهم من الحيرة والتيه إلى من يشفيهم من داءِ الضلالة بنور الهدى...).

(٣) في (ف): «نبينا».

(٤) في (أ): «وأكرمه». وفي «التأويلات»: (فبعث إليهم عند شدة حاجتهم رسولا، وأكرمهم بما أَراهم من الآيات التي يعلمهم بها أنه أنعم بها عليهم ليستنقذهم...).

فكانـوا كقـوم بقُـوا في ظلمات الليـل والسـحابِ متحيِّريـن، أو[1] كقومٍ ابتُلوا بشـدة الجـوع والعطـش بالقحـط[2] والجُدوبـة، فأغاثهـم بالمطـر، فتلقَّـوا نعمـه بالشـكر، فنَجَـوا بذلـك مـن الهلكة، وذلـك مَثَلُ مَـن اتَّبعه، ومنهم مَـن تلقَّاه بالكفـران، وذلك مثَلُ مَـن لم يتَّبعـه[3].

فشـبَّه نبيَّـه بالمطـر إذ هو رحمـةٌ كالمطر، وشـبَّه إيمانَ مَـن آمَن به بضـوءِ البرق والمشـيِ فيه، وشـبَّه عنـاد المعانِديـن بالرَّعد، يكاد نـورُ محمدٍ ﷺ وبركتُـه تَخْطَفُهم مـن العـذاب مع كفرهـم، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾؛ أي: كلَّمـا ظهَر لهم نورُه وبركتُه سـكَنوا إليـه، ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾؛ أي: وإذا رُفـع محمـد ﷺ عذِّبوا بأنـواع العذاب، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾؛ أي: لعذَّبهـم ومحمـدٌ فيهـم، إنـه قديـرٌ علـى كلِّ شيءٍ.

***

(٢١) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قال الزجَّاج: (يـا) نداء، و(أيُّ) اسـمٌ مبهَمٌ مبنيٌّ علـى الضـم لأنه منـادًى مفـردٌ معرفـةٌ[4]، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ صفـةٌ له، و(هـا)[5] تنبيـهٌ لازمٌ لـ(أيّ)، وهـو عـوضٌ عـن الإضافة فـي (أيّ)؛ لأن أصـلَ (أيّ) أن يكـون مضافاً في الاستفهام.

---

(١) في (أ): «فتحيروا» بدل من «متحيرين، أو».

(٢) في (ر): «والقحط».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

(٤) «معرفة»: من (أ).

(٥) في (ر): «والهاء».

وقال سيبويه عن الخليل: المنادى المفرد مبنيٌّ وليس بمعرَبٍ، ولذلك لم ينوَّن، وصفتُه مرفوعةٌ رفعَ إعرابٍ، ولذلك دخله الألف واللام[1].

وقال الأخفش: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ صلةٌ لـ(أي).

والنداء: تنبيهُ الغافلين، وإحضارُ الغائبين، وتحريكُ الساكنين، وتعريفُ الجاهلين، وتفريغُ[2] المشغولين، وتوجيهُ المعرِضين، وتهييجُ المحبين، وتشويقُ المريدين، وإن الله تعالى نادى الأمم[3] الماضين باسم المساكين، ونادانا باسم المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وباسم الإنسانية، وهي المروءةُ وحسنُ[4] المعاملة وصدقُ المجاملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهو[5] مدحٌ ابتداءً، وبعثٌ على ملازمة الإنسانية انتهاءً، وهو مشتقٌّ أيضاً من آنَسَ؛ أي: أَبْصَر، كأنه قال: يا أولي الأبصار. وهو[6] من الأُنس أيضاً، وهو مدحٌ له بالأُنس بذِكْر ربه، ومن النسيان، وهو عتابٌ وتلقينُ عذرٍ؛ أمَّا العتاب فكأنه يقول: يا أيها الناسي[7] نعمَنا بالكفران وأوامرنا بالعصيان، وأما التلقينُ للعذر فكأنه يقول: يأيها المخالف لنا ناسياً لا عامداً، وساهياً لا قاصداً[8]، عذَرْناك لنسيانك وعفونا عنك لإيمانك.

وقوله: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا يَصلح اسماً للمؤمنين والكافرين والمنافقين.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٩٨). وانظر: «الكتاب» (٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩).

(٢) في (أ) و(ف): «وتقريع».

(٣) «الأمم»: من (ر).

(٤) في (أ): «وبحسن».

(٥) في (ف): «وهذا».

(٦) «هو»: ليست في (أ) و(ف).

(٧) في (ف): «الناس قابلتم».

(٨) في (أ): «ناسياً وساهياً لا عامداً ولا قاصداً».

وقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾: أمرٌ لهم[١] جميعاً، وقد سبق ذكرُهم جميعاً: ذكرُ المؤمنين في أول السورة، وذكرُ الكفار بعدهم، وذكرُ المنافقين بعدهم.

وقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾ معناه: أيها المؤمنون أطيعوا، وأيها الكافرون آمِنوا، وأيها المنافقون أَخلصوا، وهو وجهُ انتظام هذه الآية بتلك الآيات.

وقد مرَّ في تفسير العبادة أقاويلُ، ونذكر هاهنا قولاً واحداً؛ وهو أن العبادة: استفراغُ الطاقة في استكمال الطاعة، واستشعارُ الخشية في استبعاد المعصية.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾؛ أي: إلهكم ومالككم ومربِّيكم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ الخلقُ في اللغة: التقدير، قال الشاعر:

ولأنت تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعْـ ـضُ القوم يَخلُقُ ثم لا يَفري[٢]

ومنه قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠]، فالخَلْق: الإيجاد.

والخَلْق: الافتراء في قوله تعالى: ﴿إن هذا إلا خَلْقُ الأولين﴾ [ص: ٧]، والاختلاقُ كذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧].

والخَلْق: المخلوق في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١].

والخَلْق: المخلوقون في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

والخَلْق: البعث بعد الموت في قوله تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

---

(١) في (ر): «أمرهم».

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في «ديوانه» (ص: ١١٩)، و«الكتاب» (٤/ ١٨٥)، و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ٥٧). وجاء في هامش (ف): «الفري: القطع على وجه الإصلاح، والإفراء: القطع على وجه الفساد».

وتفسير ﴿خَلَقَكُمْ﴾ هاهنا: أَوْجَدكم، فهو المستحِقُّ لعبادتكم إياه، وهي العملُ له على الخلوص.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: العبادةُ: جَعْلُ العبد[1] كلِّيَّتَه لله قولاً وعملاً وعَقْداً[2].

قال رضي الله عنه[3]: وقرَّر معنى التخليق، بأنْ كَرَّره[4] في القرآن من كلِّ طريق، أَخبر أنه هو الخالق، فقال تعالى: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وأنه الخلَّاق فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وأنه أحسنُ الخالقين قال الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وأنه خلَق كل شيءٍ فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١] وأنه يخلق ما يشاء فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وخصَّ بعضَ المخلوقات بالذِّكر:

فمنها: السماء، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [لقمان: ١٠].

ومنها: الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ [فصلت: ٩].

وجمعهما فقال: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومنها: الليل والنهار، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وذكَر الجنَّ والإنس، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) «العبد» ليست في (أ) و(ف)، و«العبادة» ليست في (ر)، والعبارة كاملة في «التأويلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٣٩٩).

(٣) في (أ): «قال نجم الدين».

(٤) في (ر): «ذكره».

وخصَّ الجان فقال: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]، وإبليسَ فقال خبراً عنه: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾[1] [الأعراف: ١٢]، والملائكةَ فقال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ [الصافات: ١٥٠]، وآدمَ فقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، وحواء فقال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وأزواجنا فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١]، وأولادَ آدمَ وحواء فقال تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، والتَّارات فقال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال تعالى: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

وأثنى على نفسه به فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لأنه أَحْسَنَ التخليقَ؛ قال[2] تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وذكر خَلْقَ أعمالهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وخَلْقَ[3] أسرارِهم فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

وذكرَ خَلْقَ الذكر والأنثى، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]، وخَلْقَ الأنعام لأجْلهم فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾ الآيات [النحل: ٥]، وكذا كلُّ الحيوانات فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٥].

وذكر الذبابَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ [الحج: ٧٣].

وذكر الجماداتِ فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النحل: ٨١].

---

(١) زاد في (ر) و(ف): «﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾».

(٢) في (ر) و(ف): «فقال».

(٣) في (ر): «وذكر».

وذكر خلقَ ما لا[١] نعلمُ فقال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وذكر خلقَ الموت والحياة فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

وذكر[٢] أنه ما خلقَنا عَبَثاً فقال عزَّ وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وذكر[٣] أنه خلَق وأنه رزَق وأنه يحيي وأنه يميت فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

فإذا[٤] كان هذا كلُّه منه كان استحقاقُ عبادةِ الخلق له دون غيره[٥]، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: الواو للعطف؛ أي: وخلَق الذين من قبلِكم فاستحقَّ عبادتهم وأمَرهم أيضاً بعبادته فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ دلالةٌ على شمول القدرة والصَّنعة، وتنبيهٌ عن سِنَة الغفلة، أنهم كانوا فمضَوا، وجاؤوا وانقضَوا، فلا تنسَوا مصيركم، ولا تستجيزوا تقصيركم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: (عَلَّ) و(لعلَّ) في اللغة كلمةُ تَرَجٍّ ممن[٦] لا

---

(١) في (ف): «وخلق ما لم» بدل: «وذكر خلق ما لا».

(٢) في (أ) و(ف): «ثم ذكر».

(٣) في (أ): «ثم ذكر».

(٤) في (أ) و(ف): «وإذا».

(٥) في (ر): «كان استحقاقاً للعبودية دون غيره»، «دون غيره» ليست في (أ).

(٦) في (أ): «ترجي لمن».

يَعلـم العاقبـة، وهو ترجيَـةٌ[1] مـن الله تعالى، فإنـه لا تَخْفَى عليه خافيـةٌ، وهو ككلمة (كيـف) هـي للتعجُّب منا وللتعجيب مـن الله تعالى، ومِثْلُها كلمة (أو)، وهي للشـك منا وللتشـكيكِ من الله، وكذلك (عسـى).

وفارسيتُهما: (ترجي أميد داشتن، وترجية ما أوميد داشتن، تعجب شكفت داشتن، وتعجيب شكفت داشتن).

ومعناه: اعبدوا ربَّكم راجين التقوى، وللتقوى هاهنا معنيان: التقوى في الدنيا عملاً، والتقوى[2] في الآخرة أملاً:

ففي الدنيا: الاتِّقاءُ عن الشرك إنْ حُمِلَ الأمرُ بالعبادة على التوحيد، والاتِّقاءُ عن الذنوب إنْ حُمل ذلك على الطاعات.

والاتِّقاءُ في الآخرة هو الاحتفاظُ عن النار وسائر العقوبات.

وهذه مخاطبةُ لطفٍ، يقول الرجل لآخَرَ: لا أؤاخذُك بالجَفوة لعلك ترجعُ إلى الصَّفوة.

والله تعالى يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [طه: ١١٣] ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١] ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥] ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧].

---

(١) في (أ): «وهي توجيه».

(٢) «التقوى»: ليست في (ف).

ومـن العجيب(١) ذكـرُه في حقِّ فرعـون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وكان الشِّبليُّ رحمه الله يقول في هذا: يا ربّ! هذا لطفُك بمن يقول: أنا ربكم الأعلى، فكيف لطفُك بمن سجَد لك على التراب، وقال في سجوده: سبحان ربي الأعلى؟!

وهذا(٢) كلُّه على ما مرَّ أنه ترجيةٌ، ومعناه هاهنا: أنه قال لموسى وهارون: اذهبا إليه وادعواه إلينا وأنتما على رجاءِ إجابته، واعتذارِه عن جنايته، والله تعالى قد علِم أنه لا يجيب، لكنْ أمر بذلك إلزاماً للحجة، وأخفَى الحال عليهما لئلا يقصِّرا في الدعوة.

* * *

(٢٢) ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾: هو صفـة قوله: ﴿رَبَّكُمُ﴾، وتفسـيره: صيَّر لكـم الأرض، وقيـل: خلَق، وقيل: بسَـط.

و(جَعَل) في القرآن لمعانٍ:

للخلق: قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وللإنزال: قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

---

(١) في (أ): «العجب».

(٢) في (أ): «وعلى هذا».

وللحبس: قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾؛ أي: حبَسْناه ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٢] إلى وقتِ الولادة.

وللوضع: قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]؛ أي: ضَعُوا دراهمهم في جُوالقهم[1].

وللإدخال: قال تعالى: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٧].

وللجمع: قال تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف: ٩٤].

وللبناء: قال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

وللتمليك والتسليط: قال تعالى: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

وللقول والوصف: قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩].

وللإرسال: قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٩].

وللتحويل: قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾[2] [الأنبياء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

وللتصيير: قال تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وللتَّرك: قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠].

وللإعطاء: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ [المدثر: ١٢].

وللاتِّخاذ: قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: ٥٩].

وللتَّسخير: قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

---

(١) في (ر): «جواليقهم».

(٢) «قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾»: من (ر).

وللرَّفع: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وللبَسط: قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: هي التي نحن عليها، واشتقاقُها من أشياءَ:

فالأرضُ: قوائمُ الفرَس وهي أسافلُه، وأرضُنا التي نستقرُّ عليها متسفِّلة[1].

والأرض: الرِّعدةُ، وأرضُنا قد[2] تتزلزل، وكانت متزلزلةً قبل خلقِ الجبال عليها لتوطيدِها.

والأَرِيض: الخليق بالخير، وكذلك أرضُنا ففيها الماءُ والمرعى، وعليها القرارُ والمأوى، للأحياء والموتى.

والإرَاض[3]: البساط، وهي بساطُنا.

والأرَض بفتح الراء: الاتِّساع، وأرضُنا متَّسعةٌ.

والأَرَضةُ دُوَيْبَّةٌ تأكل العود، وأرضُنا تتأرَّض ما دُفن فيها.

والتأريض: التأسيسُ والتأصيل، قال النبيُّ ﷺ: «لا صيامَ لمن لم يؤرِّضْه من الليل»[4]، وأرضُنا هي الأساس.

---

(١) في (ر): «منسفلة».

(٢) «قد»: من (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «والأرض».

(٤) رواه ابن ماجه (١٧٠٠)، وثابت بن قاسم السرقسطي في «الدلائل في غريب الحديث» (٦٥٨)، والخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٢٠٦)، من حديث ابن عمر عن حفصة رضي الله عنها مرفوعاً. ولفظه في مطبوع ابن ماجه: «يَفْرِضْه»، وفي بعض نسخه: «يؤرضه» بلفظ الشاهد. وهو عند أبي داود (٢٤٥٤)، والترمذي (٧٣٠)، والنسائي (٢٣٣٥)، بلفظ: «من لم يُجْمِعْ الصِّيَامَ قبل الفَجْرِ فلا صِيَامَ له». قال الترمذي: حدِيثُ حفصةَ حديثٌ لَا نَعْرِفُهُ مرفوعًا إلا من هذا الوَجْهِ، وقد رُوِيَ عن نَافِعٍ عن ابن عُمَرَ قَوْلهُ وهو أَصَحُّ. قلت: روى موقوف ابن عمر النسائي (٢٣٤٢) و(٢٣٤٣).

وقوله تعالى: ﴿فِرَٰشًا﴾: أي: بساطاً، والفَرْش: البَسْط، وهو مصدرٌ، والفراش: البساط، وهو اسمٌ لِمَا يُفرش؛ أي: يُبسط، والمرأةُ فراشُ الرجل لأنه يَستفرِشُها، قال الله تعالى في أزواج الجنة: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤].

ونظيرُ هذا الاسم للأرض في القرآن: المهدُ والمهادُ والبساط، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦]، وجمَع بين الفَرْش والمهدِ في آيةٍ فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل: ٦١].

وقريبٌ من هذه الصفة ما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس: ٦]، والدَّحْوُ: البَسْط، والطَّحْو: البَسْط والتوسيع، وقال: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]؛ أي: بسطت، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: معطوفٌ على الأول؛ أي: وجعَل السماء بناءً، وهي السماء[1] التي فوقنا، مشتقَّةٌ من سما يسمو سموًّا؛ أي: عَلا، وقد مرَّت وجوهه في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩].

وهي تَصْلُح للواحدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الملك: ٥]، وللسماوات السبع كما في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩]. فكونُها للواحد ظاهرٌ، وللجمع بطريقين:

---

(١) في (أ): «والسماء هي» بدل من «وهي السماء».

أحدهما: أنها جمع السماءة[١]؛ كالعَباءِ والعَباءة.

والثاني: أنه جنسٌ، فيجوز أن يتناول كلَّها[٢].

وقوله تعالى: ﴿بِنَآءً﴾؛ أي: مبنيَّةً. فالفِعَال بمعنى المفعول كثيرٌ، منها: الكتابُ بمعنى المكتوبِ، والفِراشُ بمعنى المفروشِ، والبساطُ بمعنى المبسوطِ، والمهادُ بمعنى الممهودِ، والبناء بمعنى المبنيّ[٣].

والبناء مصدرٌ أيضاً من بَنَى يَبْني، وهو في اللُّغةِ لثلاثِ معانٍ:

للتركيب: كما في قوله تعالى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦].

وللرفع: كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]؛ أي: رفَعَها[٤].

وللوصل: كما في قوله عليه الصلاةُ والسلامُ: «فلْيَنْصَرِفْ ولْيَتَوَضَّأْ ولْيَبْنِ على صَلَاتِه»[٥].

فسمَّى السماءَ بناءً لهذه الوجوه؛ وهي أنها مركَّبةٌ مرفوعةٌ موصولةٌ.

والبنيان كالبناء، والكلمةُ جاءت في القرآن لأشياء:

للجدار وحده: قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وللرِّباط: قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ [الكهف: ٢١].

---

(١) في (أ): «أنها جمع السماء»، وفي (ف): «أنه جمع السماءة»، وفي (ر): «أي جمع السماءة».

(٢) في (أ): «فيكون متناولًا للكل».

(٣) «والبناء بمعنى المبنيّ»: ليس في (أ) و(ف).

(٤) «أي: رفعها»: ليس في (أ) و(ف).

(٥) رواه الدارقطني في «سننه» (٥٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وللبَطَر(١): قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

وللمسجد: قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وللأتون: قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا﴾ [الصافات: ٩٧].

وللعمارة التامة: قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧].

وللسماء: قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥].

ولمنازل الجنة: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

ونظيرُ هذه الصِّفة للسماء في القرآن قولُه: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٨]، وقولُه: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: ٥]، من قولهم: سَنَامٌ سامِكٌ؛ أي: مرتفعٌ، وسمَّاها سقفاً لانحنائها مع ارتفاعها، والأَسْقَفُ: الطويل المنحَني، وقولُه: ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]، وقولُه: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الروم: ٢٥].

ومن صفاتها ما قال:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وحفظُها بمعنيَين: من الشياطين قال: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]، وعن الوقوع قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

وقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

وقال ﴿سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وقال: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقال: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧]، وقال: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾

---

(١) في (أ) و(ف): «وللمنظر».

[الحجر: ١٦]، وقال: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧][(١)]، وقال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦][(٢)].

ثم معنَى ذكرِ خلقِ السماءِ والأرضِ في حالِ الأمرِ بالعبادة خمسةُ أوجهٍ:

أحدها: أن الله تعالى هو الذي قدَر على خَلْقهما، فهو المستحِقُّ لأنْ يكونَ إلهاً يُعبد.

والثاني: أنه هو الذي تفرَّد بخَلْقهما فعليهم أن يوحِّدوه ولا يُشركوا به شيئاً.

والثالث: أنه هو الذي أنعم عليهم بجَعْل الأرضِ بساطاً لهم وموضعاً لأرزاقهم وذلولاً يمشون في مناكبها، والسماءِ سقفاً لهم منها ينزل عليهم البركات، فعليهم أن يشكروا له بعبادته وطاعته[(٣)].

والرَّابع: أنه على سبيل الاحتجاج، لأنَّ من الكفار مَن يَعبد ما في الأرض من الأوثان والنيران، ومنهم مَن يَعبد ما في السماء، وهو الشمسُ والقمرُ والملائكة، فقال جل وعلا: الأرضُ والسماء وما فيهما مِلْكي وخَلْقي، فكيف تجعلون مِلْكي وخَلْقي شريكاً[(٤)] لي في العبادة؟!

والخامس: أنه على سبيلِ الوعيد، يعني: السماءُ والأرض مِلْكي، فإنْ شئتُ خسَفْتُ الأرض بكم، وإنْ شئتُ أَلقيتُ السماء عليكم، كما قال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا

---

(١) في ذكر هذه الآية هنا تكرار لا لزوم له.

(٢) من قوله: «ونظير هذه الصفة للسماء في القرآن...» إلى هنا من (أ).

(٣) «وطاعته»: من (أ).

(٤) في (ف): «تجعلون لملكي شريكا».

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: عطفٌ على قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السماء التي هي سقفُ الدنيا، أو من السحاب، وقد بينَّا في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنه قيل لكلِّ واحدٍ منهما، ووفَّقْنا بينهما أيضاً.

وقوله: ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً، والماءُ أصلُه: الـمَوَهُ، بدليلِ أن جمعَه: المياه والأمواه، وتصغيرُه: الـمُوَيه، والفعلُ منه: مَوَّهَ السكِّين[1]، وأَمَاهتِ البئرُ، إلا أن الواو من (الـمَوَهِ) سكِّنت لحركةِ ما قبلها طلباً للتخفيف لأنها معتلَّةٌ، ثم صيِّرت ألفاً لفتحةِ ما قبلها، كما في المال والحال والخال، فصار: ماه، ثم أُبدلت الهاء همزةً[2] لتجانُسهما كما في قولهم: إيَّاك وهِيَّاك، وأَيْهاتَ وهَيْهاتَ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: الخروج في الحقيقة[3]: الانتقالُ من الحِصن إلى العورة، والإخراجُ متعدٍّ، والاستخراجُ: الاستنباط، والتخارُجُ من الورثة: إخراجُ بعضهم بشيءٍ من الميراث، وتخريجُ شيءٍ من المسألة[4] وتخريجُ المعلم معروفان.

وهذه الكلمة ذكرت في القرآن لوجوهٍ:

---

(١) لعل المعنى: سقاه الماء، وذلك حين يَسنُّه به، ذكره في «التاج» في معنى: أماهَ السكِّين.

(٢) في (أ) و(ف): «بالهمزة».

(٣) في (أ): «الخروج حقيقة».

(٤) في (أ): «وتخريج المسألة».

لهذه الحقيقة التي مرت: قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ [الأنفال: ٤٧].

وللنُّزول: قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣].

وللصُّعود: قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبأ: ٢].

وللظُّهور: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

وللفراق: قال تعالى: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وللرُّجوع إلى الدنيا: قال تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

وللخَلق والإيجاد: كما قال تعالى[١] في هذه الآية: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا﴾؛ أي: أَوْجَدها، ليس أنها موضوعةٌ في الأشجار فأخرجها منها.

وللحياة: قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وللموت: قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وللاتِّخاذ: قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [طه: ٨٨]؛ أي: اتَّخذ وصاغ.

وللدعاء: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾؛ أي: الشياطين ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ أي: يَدْعونهم من الهدى إلى الضَّلال[٢].

وللنجاة: قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

ولتغيُّر[٣] **الصورة**: قال الله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أي: من صورة الملائكة.

---

(١) «قال تعالى»: ليس في (أ).

(٢) في (أ) و(ف): «الضلالات».

(٣) في (أ): «ولتغيير».

وللذِّكر: قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ أي: ذُكرت لمَن سَلَف من الناس.

وقولُه تعالى: ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالماء الذي ذُكر وهو المطر.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (من) كلمةُ تجنيسٍ هاهنا، وأصلُه للتبعيض، وفي التجنيس معنى التبعيض؛ لأنه بعض الأجناس.

والثمرات: جمع الثمرة، وأصلها: الزيادة والنماء، يقال: ثمَّر الله مالَه؛ أي: زاده وكثَّره، والفاكهة تسمَّى ثمرةً لهذا، وكذا ثمرةُ كلِّ عينٍ وعملٍ هو ما زاد عليه، وتُجمع الثمرةُ: ثَمَراً، بحذف الهاء التي هي للتوحيد، ثم: ثماراً، كالبَلد يُجمع بلاداً[1]، ثم الثمار تجمعُ على الثُّمُر، كالحمار يُجمع على الحُمُر، وهذه جموعُ تكسيرٍ، وجمعُ السلامة هو الثَّمَرات.

ثم هي هاهنا المأكولاتُ كلُّها من الحبوب والفواكه وغيرِها مما يخرج من الأرض والشجر، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] والحصادُ يكون للزرع.

وقد بسَط الله تعالى ما اختصره في هذه الآية في آيةٍ أخرى، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ الآية [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ إلى أنْ قال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٧ـ٢٨].

ثم الألفُ واللام في ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للتعريف، وله وجوه:

---

(١) في (ر): «ثماراً كالبَلدةِ تُجمع بلداً ثم تُجمع بلاداً».

أحدها: تعريفُ الجنس وهو لتعميم الكلِّ.

والثاني: أنه لتعريف المعهود وهو ما تعارَفوه من الثمار.

والثالث: أنه لتعريفِ المعهود، وهو الثمارُ المخرَجة من الجنة، قال النبيُّ ﷺ: «لـمَّا أُهبط آدم عليه السلام من الجنة علَّمه الله صَنعةَ كلِّ شيءٍ، وزوَّده من ثمار الجنة، فثمارُكم هذه من ثمار الجنة، إلا أن ثمار الجنة لا تتغيَّر» [١].

وقوله تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾: قيل: طعاماً[٢]، وقيل: قُوتاً، وقيل: غذاءً، وهي متقاربةٌ، وقد مرَّ تفصيله وتفسيرُه في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

وجملتُه[٣]: أن الله تعالى تعرَّف إليهم بذكرِ ما منَّ به عليهم؛ مِن خَلْق السماءِ لهم سقفاً مرفوعاً، وإنشاءِ الأرض لهم فراشاً[٤] موضوعاً، وإخراجِ النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً.

ويقال: أعتقَهم عن منَّة الأمثال بأنْ هيَّأ لهم ما لا بدَّ منه، فكافأهم فجعل

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٣٠٢٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً، وقال: وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن عوف عن قسامة عن أبي موسى موقوفاً، ولا نعلم أحداً رفعه إلا ربعي. قال عبد الحق في «الأحكام الكبرى» (٤/ ١٦٩): ربعي هو ابن علية أخو إسماعيل ابن علية وهو ثقة مأمون. وقسامة بن زهير ثقة، ذكر ذلك فيهما يحيى بن معين، ولم يذكره أبو بكر البزار. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩٧): رواه البزار والطبراني ورجاله ثقات.

والموقوف رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٩٩٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) في (أ): «أي طعاماً لكم» بدل: «قيل: طعاماً».

(٣) في (أ): «وحكمته».

(٤) في (أ) و(ف): «فرشاً». وضبطت (سقفا) في (أ) بضم السين.

السماءَ[١] غطاءً، والأرضَ وطاءً، والمباحاتِ رزقاً، والطاعةَ حِرفةً، والعبادةَ شُغلاً، والذِّكر مُؤْنساً، والربَّ كافياً.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: دلَّت الآيةُ أن المقصود في خلق السماوات[٢] والأرضِ، وإنزالِ الماء، وإخراجِ الثمرات وأنواع المنافع، بنو[٣] آدم وهم الممتحَنون فيها، فإنه قال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ الآية [النحل: ١٢]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وفي كثيرٍ من الآيات أضاف ذلك كلَّه إلينا، ثم جعل بلطفهِ منافعَ السماء متَّصلةً بمنافع الأرض على بعدِ ما بينهما، فلا يُخرجُ من الأرض شيئاً[٤] إلا بما يَنزل من السماء من الماء؛ ليُعلم أن مُنشئهما واحدٌ، لأنه لو كان منشئُ هذا غيرَ الآخَر لم تتَّصل منافعُ هذا بمنافع الآخر[٥] على بُعْدِ ما بينهما، ويُوهِم خلافَ أحدهما الآخَر، فإذا كان كذلك دلَّ أن مُنشِئَهما واحدٌ لا شريك له[٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾: هو جمعُ نِدٍّ، وهو المِثْلُ، وكذلك النَّدِيدُ والنَّدِيدة، قال الشاعر:

---

(١) «فكافأهم» سقطت من (ر)، و«فجعل» سقطت من (أ)، وكلاهما سقط من (ف)، وجاء فيها: «فالسماء».

(٢) في هامش (ف): «السماء»، ومثله في «التأويلات».

(٣) في (ر) و(ف): «لبني»، والمثبت من (أ)، وهو الصواب والموافق لما في «التأويلات».

(٤) «شيئاً»: من (ف). وفي «التأويلات»: (فلا تُخرج الأرض شيئاً).

(٥) في (ف): «هذا».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٤٠٠).

لكيلا[١] يكونَ السَّنْدريُّ نَدِيدتي وأشتمَ أعماماً عموماً عماعِمَا[٢]

والأعمام: جمع عَمٍّ، والعُموم: الطِّوال، والعماعِمُ: الجماعات.

وفي النِّدِّ والنَّديد قال آخَرُ:

أَتَيْماً تجعلونَ إليَّ ندًّا وما تَيمٌ لذي حَسَبٍ نَديدُ[٣]

ونِدُّك هو الذي يُنادُّك؛ أي: يقابلُك[٤] ليُنفِّرك، من قولهم: ندَّ نُدوداً ونِدَاداً؛ أي: نفَر.

وتفسيره هاهنا:

ما قاله ابن عباسٍ والحسن: أي: لا تَصِفُوا لله أمثالاً وشركاءَ في مُلكه[٥].

وفي بعض الألفاظ: أشكالاً وأعدالاً[٦].

وقال مجاهدٌ وعكرمةُ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لا تعتمِدوا على غير الله، وتوكَّلوا على الله.

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: لا تقولوا: لولا فلانٌ لأصابني كذا، ولولا كلبُنا يصيحُ على الباب لسُرق متاعُنا.

---

(١) في (ف): «لئلا».

(٢) البيت للبيد، وهو في «ديوانه» (ص: ١٢٧)، و«جمهرة اللغة» (١/ ١١٥)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٢٤)، و«مجمل اللغة» (ص: ٨٤٣). ورواية الديوان: (وأجعل أقواماً عموماً...).

(٣) البيت لجرير، وهو في «ديوانه» بشرح ابن حبيب (٢/ ٣٣١).

(٤) في (ر) و(ف): «يقاتلك».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٩١) عن ابن عباس وابن مسعود بلفظ: (أَكْفَاءَ مِن الرِّجالِ تُطيعونهم في معصيةِ اللهِ).

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٤٠١). وروى الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٩١) عن مجاهد وقتادة قولهما: (عُدَلاء).

وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إياكم ولو، فإنه من كلام المنافقين، ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي: أن الله هو الذي خلقكم ومَن قبلَكم، وخلَق السماءَ والأرض وخلَق الأرزاق، دون الأصنامِ فإنَّها لا تَضُرُّ ولا تَنفع، قال تعالى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ أي: على علمٍ أن الذي اتَّخذه إلهاً لا ينفعُه.

وقيل: أي: وأنتم تعلمون وتُقِرُّون أن الله هو الذي فعَل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أنشأ فيكم ما لو تدبَّرتُم وتفكَّرْتُم وتأمَّلْتُم علمتُم أنه لا نِدَّ له ولا شِكْلَ له(٢)، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١](٣).

وقيل(٤): وأنتم تعلمون أنه ليس له ندٌّ.

---

(١) لم أجده مسنداً بهذا اللفظ، وروى مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «.. وإنْ أصابكَ شيءٌ، فلا تَقُلْ لو أني فَعَلْتُ كان كذا وكذا، ولكنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وما شاء فَعَلَ، فإنَّ لو تَفْتحُ عملَ الشَّيطانِ»

(٢) في (ر): «ولا شريك له».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٤٠١).

(٤) في (ر) و(ف): «قيل أي».

وقيل: أي: وأنتم تعلمون أنه واحدٌ.

وقيل: وأنتم تعلمون بما نزل بـمَن اتَّخذ لله أنداداً.

وقيل: أي: لا تخدِموا غيرَ الله وأنتم تعلمون أنه لا يستحقُّ الخدمةَ غيرُه، ولا ترجُوا ولا تخافوا غيرَه وأنتم تعلمون أنه لا نافعَ ولا ضارَّ ولا معطيَ ولا مانعَ غيرُه.

والوعظ الكلِّيُّ: أنه قال في الآية: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ وقال تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] فلو[1] قال لكم في القيامة: فعلتُ هذا كلَّه لكم، فما فعلتُم لي؟ فما تقولون؟

وعن الشِّبليِّ رحمه الله: أنه وعظ يوماً الناس، فأبكاهم لِمَا ذكر من القيامة وأهوالها، فمر بهم أبو الحسين النوريُّ وقال: لا تُفَزِّعهم[2] فإن حساب يومِئذٍ ليس بهذا الطول، إنما هو كلمتان: (من ترابودم توكرا بودي)[3].

قال المصنف رحمه الله[4]: وأنا أقول: (شماجه خواهيت كفتن در جواب أين سؤال بشريه كردكني من راموديم لختي زن شوى رابودم لاختي كوارا خوجه كديد لاختي سلطان را بودام كختي سود وزيان واسكت له كويد من همه حق رابودم)[5].

---

(١) في (أ): «ولو».

(٢) في (أ): «تقرعهم».

(٣) في هامش (ف): «تعريبه: كنت لك فلمَن كنت أنت».

(٤) في (أ): «قال نجم الدين».

(٥) في هامش (ف): «تعريبه: قال المصنف: وأنا أقول: أنتم أي شيء تقولونه في جواب قوله: فلمن كنت أنت؟ فيقول الزوج: كنت مشغولاً للبدل وقتاً ووقتاً للزوجة، وتقول الزوجة: كنت للزوج ساعة ولنفسي ساعة، ويقول التاجر: كنت ساعة للربح والكد ساعة للسلطان، فأين الرجل الذي يقول: كنت للحق في جميع الأوقات؟».

(٢٣) ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾: انتظامُه بما قبلَه: أنه خطابٌ للَّذين ناداهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وقد أمرهم بالإيمان، وهو بالله ورسوله وكتابه، فأثبت دليلَ ربوبيَّته بما ذَكر في تلك الآية، وأثبت رسالةَ رسوله وصحةَ كتابه في هذه الآية.

ثم كلمة (إنْ) لمعانٍ:

للشَّرْط: كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وبمعنى (إذ): كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وللنفي: كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠].

وللتأكيد: بمنزلةِ (لقد) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨]؛ أي: لقد كان.

وبمعنى (إنَّ) المشدَّدة: نحوَ[1]: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

وللصلة: كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ أي: فيما مكناكم فيه.

وللتحقيق: كما يقال: عليك بالصدق وإنْ ضرَّك، وإياكَ والكذبَ وإنْ نَفَعَك؛ أي: مع أنه كذلك.

وقوله: ﴿كُنتُمْ﴾؛ أي: أنتم.

---

(١) في (أ) و(ف): «كما في قوله».

و(كنتُم) في القرآن جاء للماضي والحال والاستقبال، وقد بيَّنَّا ذلك في كلمةِ (كان) عند قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

و(كنتم) أيضاً على ذلك: أمَّا للماضي ففي قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، وأمَّا للحال ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وأمَّا للاستقبال ففي قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]؛ أي: يوم القيامة.

وقوله: ﴿فِى رَيْبٍ﴾؛ أي: شكٍّ، وقد مر شرحُه في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾: (مما) كلمتان: (مِن) و(ما)، أُدغمت النونُ في الميم فصارتا ميماً واحدةً مشدودةً خَطًّا وميمين نُطقاً.

و(ما) بمعنى: الذي، ومعنى (ما نزلنا)؛ أي: الذي نزَّلنا وهو القرآن، وإنزالُه: ما فسَّرناه في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤].

والتنزيل: التفصيل، ودلَّت[1] الكلمةُ على إنزاله مفصَّلاً، وحكمتُه ما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

نزلت كتب الأوَّلين جملةً فتركوها جملةً، ونزل القرآن مفصَّلاً فبقي في القلوب مثبَتاً محصَّلاً.

ولأن أولياء الله اليوم في دار الحَجْبة، فجدَّد لهم الأُنسَ بكتابه ساعةً فساعةً، وقد ذكر الله تعالى تنزيلَه[2] ثلاثةَ أشياءَ شيئاً فشيئاً:

القرآنَ: بقوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾.

---

(١) في (أ): «للتفصيل فدلت».

(٢) في (أ): «تنزيل».

والمطر: بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨].

والرزق: بقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

(اكربا ران جملة امدى برعالميان طوفان شدي، واكر روزي جمله امدى برعالميان طوفان شدي، راكر وروزي جملة امدى بنده ارنكاه داشتن همة سركردان شدي، واكر قرآن جمله امدى عمل بهمة بردل هريكي كران شدي)[١].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: هو نبيُّنا المصطفى محمدٌ ﷺ، وله أسماءٌ كثيرةٌ في القرآن، وكان أحبَّها إليه: العبدُ، فهو[٢] المستجمِعُ لمعاني العبادة والعُبودة، وكرَّر هذا الاسمُ له في القرآن، وكأنه قال: (قرآن بوى وحي كريديم ووى مار بنده، نزل القرآن على عبده مادار سالت برخاست ووي بنده، وأنه لما قام عبد الله وبحضرة برديمش ووى بنده، سبحان الذي أسرى بعبده وياوى راز كفيتم ووى بنده، فأوحى إلى عبده ما أوحى ودران مقام بارنتا كفت، التحيات لله والصلوات والطيبات ووى مارا بنده وما وى مارا بنده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله درهمه أحوال وى مارا بنده وماوى را بسنده، أليس الله بكاف عبده ووى مارا بشكر خدمت ارنده، أفلا أكون عبداً شكوراً)[٣].

---

(١) في هامش (ف): «تعريبه: لو نزل القرآن [كذا ولعله: المطر] جملة لصار طوفانا، ولو نزل الرزق جملة لعجز المرزوق عن حفظه وضبطه، ولو نزل القرآن جملة لثقل العمل بأحكامه على المكلفين».

(٢) في (ر): «لأنه».

(٣) في هامش (ف): «وتعريبه: أوحينا إليه القرآن وهو عبد، نزَّل الفرقانَ على عبده ونهض بأداء الرسالة وهو عبد، ولما قام عبد الله وقربناه إلى حضرتنا وهو عبد، سبحان الذي أسرى بعبده وأوحينا إليه [...] شريفة وهو عبد، فأوحى إلى عبده ما أوحى، والسلام عليه في ذلك المقام بقوله: التحيات لله إلخ وهو عبد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وفي كل أحواله أنا عبد، وليس له التقارب إلى غيرنا =

وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾: هذا أمرٌ بالإتيان بسورةٍ، والإتيانُ في اللغة هو المجيء، والإتيانُ: الفعل، والإتيان: الغِشْيان، والإيتاء: الإعطاء، وتَأْتِيَةُ السَّيل: تسهيلُ سُبله[1]، والتأتِّي: التَّهيُّؤ، والمؤاتاةُ: الموافَقة، والإتاء: الغلَّة، والأَتِيُّ والأَتَاويُّ: الغريب، والـمِيْتاء[2]: الطريق المسلوك، ومعانيها متقارِبةٌ.

والإتيانُ في القرآن لأربعينَ معنىً عدَّدْناها في تفسيرِنا الأولِ الأطول.

وهو في هذه الآية: المعارَضة، أي: عارِضوا هذا القرآن بسورةٍ، وهذا خلافُ قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [آل عمران: ٩٣] ذاك إظهارُ ما قد كان، وهذا إنشاءُ ما لم يكن.

وهذا إلزامُ الحجة عليهم بأنَّ القرآن مما أنزله[3] الله على عبده، وهو صادقٌ في دعوى الرسالة، وأنه مبعوثٌ لإقامة الدَّلالة، والدعوةِ إلى الهدى من الضَّلالة، وأنهم معانِدون في إنكاره، وفي دعواهم أنه مما افتراه محمد باختياره، يقول[4]: إن كان هذا من كلام البشر فعارِضوه بمثله من عندِكم، وتَفصَّوا[5] عن هذه العُهدة بجَهدكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟﴾ صيغتُه صيغةُ أمرٍ، ومعناه: الإعجاز، وهذه الصيغة في القرآن على وجوهٍ:

= أليس الله بكاف عبده، وﷺ يؤدي في الخدمة والعبادة شكر النعمة وبقوله: أفلا أكون عبداً شكوراً».

(١) في (ر): «سيله». وقال الأزهري: يقال: أَتَّيْتُ السَّيْلَ فأنا أُوَتِّيه: إذا سهَّلْتَ سبيلَه من موضِع إلى مَوضع ليخرجَ إليه. انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٥١).

(٢) في (ر): «والمأتي».

(٣) في (أ): «أنزل».

(٤) في (ف): «بقول» وفي (ر): «بقوله لهم».

(٥) في (ر): «وتفضوا»، وفي (ف): «وتقصوا». والتفصِّي: التخلُّص.

للفَرْضية: كما في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وللنَّدْب: كما في قوله عز وجل: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وللإباحة: كما في قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢].

وللتخيير: كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وللنهي: كما في قوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

وللرَّد: كما في قوله: ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وللتكوين: كما في قوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وللشَّرط: كما في قوله: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٠]؛ أي: إن كنتم كذلك فلكم الموت والبعث.

وللإعجاز: كما في قوله: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكذا قولُه سبحانه: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ والفاءُ هاهنا للتعقيب، وبدونِ الفاء يقال: اِيتوا، الألف مجتلَبةٌ، والهمزةُ صارت ياءً لكسرةِ ما قبلها، وسقطت همزتُها كراهةَ التقاء الهمزتين، وثبتت الياء كتابةً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ﴾ [طه: ٦٤] لأنه يُوقَف على (ثم) ويُبدأ: ايتوا، ولا تَثبت في قوله ﴿فَأْتُواْ﴾ وفي قوله: ﴿وَأْتُواْ﴾ لتعذُّر الفصل بين الفاء وبين الكلمة، وكذا بين الواو وبينها.

وقوله تعالى: ﴿بِسُورَةٍ﴾ الباء لتعدية فعلِ الإتيان الملازِم(١)، والسُّورةُ هي مأخوذةٌ من قولهم: سار يَسُورُ: إذا ارتَفَع وعلا، وسمِّي الجدارُ المحيطُ

---

(١) «الملازم» كذا في جميع النسخ.

بالمدينة سوراً لارتفاعه، ويقال: لفلانٍ سَوْرةٌ في المجد، أي: سَناً ورفعةٌ، قال النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أعطاكَ سُوْرةً يُرى كلُّ مَلْكٍ دونها يتذبذبُ[1]

فالسُّورة من[2] القرآن على هذا: مجموع آياتٍ مفصَّلةٍ ارتفعت وعلَت وظهرت وصارت كالعَلَم في مغايرتها سائرَ السُّور.

وقيل: هي منزلةٌ من منازل القرآن رفيعةٌ.

وقيل: هو[3] قسمٌ من أقسام القرآن ارتفع شأنُه وعلا قَدْرُه.

وقوله: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إطلاقُه يتناول أقصرَ السور، وهي في القرآن سورةُ الكوثر، وهي ثلاثُ آياتٍ قصارٍ، وهذا أبلغُ إلزامٍ، وأتمُّ قطعٍ لأهل الخصام، فقد كان التحدِّي أولاً بالإتيان بمثلِ كلِّ القرآن بقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤]، ثم أخبر عن عجزهم عن ذلك بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم بعشرِ سورٍ بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]، ثم بسورةٍ بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، وقد عجزوا عن ذلك كلِّه فلزمتهم الحجة.

وقوله تعالى: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: الـمِثْل: الشِّبْه، والـمُماثِل: الـمُشابه، والتمثيل: التشبيه، ومِثْلُ الشيء حقيقةً: ما ينوب مَنابه، ويَسدُّ مَسدَّه.

واختُلف في المراد بالهاء التي في آخره: أنها كنايةٌ راجعةٌ إلى ماذا؟

---

(١) انظر: «ديوان النابغة» (ص: ١٩).

(٢) في (أ) و(ف): «في».

(٣) في (أ): «هي».

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أي: مِن الذي جَعَلْتُموه لي ندًّا، فقد سَبَق ذكرُه.

وقال ابن كَيسان: أي: من مثلِ محمدٍ من[١] البشر؛ لأنه بشرٌ مثلكم، وقد سبق ذكره في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: أي: ائتوا أنتم بمثل ما أتى به[٢] هو، إذ أنتم وهو سواءٌ في الجوهر والخلقة واللسان، وليس هو أولى بالاختلاقِ منكم[٣].

وقيل: أي: من مثل محمدٍ من[٤] رجلٍ أميٍّ لا يقرأ ولا يكتب، وهذا أبلغ في قطع الأوهام، فإن[٥] النبيَّ ﷺ مع أنه لا يكتبُ ولا يقرأ، ولا ينظر في الكتب، ولم يسمع القَصَص من الناس، أَخبر بنزول هذا الكتاب، فلا شبهةَ في أنه لم يختلِقْه من تلقاء نفسه، ولم يأتِ به إلا بوحيٍّ من ربِّه.

وقال مجاهدٌ وقتادةُ: أي: مِن مثلِ هـذا القرآن[٦]. وقد سَبَق ذكرُه في قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا﴾.

ثم القرآنُ وإن كان لا مثلَ له لأنه صفةُ الله تعالى وكلامُ الله ووحيُ الله[٧]، ولا مثلَ لصفاته كما لا مثلَ لذاته، لكن معناه: مِن مِثْلِه على زَعْمكم، فقد كانوا

(١) في (ف): «في».
(٢) «به»: ليست في (ف).
(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٤٠١).
(٤) «من»: من (أ).
(٥) قبلها في (ر) و(ف): «وقال».
(٦) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧).
(٧) في (أ): «وكلامه ووحيه» بدل: «وكلام الله ووحي الله».

يقولون: لو نشاء[1] لقلنا مثل هذا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ [فصلت: ٤٧]؛ أي: على زعمكم، وقال تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ [طه: ٩٧]؛ أي: على زعمك.

ثم التحدِّي إلى مثلِ القرآنِ كان في وجوهه، وهي سبعةٌ:

أحدها: الإيجاز والبلاغة، حتى يشتمِلُ يسيرُ كلماته على كثيرٍ من المعاني، قال ﷺ: «أُوتيتُ جوامعَ الكَلم»[2]، وذلك مثلُ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقولِهِ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١]، وقولِهِ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١].

والثاني: البيان والفصاحة التي عَجَز عنها الفصحاء، وقَصَر[3] عنها البلغاء، حكى أبو عُبيدةَ أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدتُ لفصاحة هذا الكلام[4]!

والثالث: النَّظْم الذي نقَض العادة حتى صار خارجاً من جنس كلامهم في النظم والنثر والرَّجَز والشعر والخُطب والسَّجْع والرسائل، فلا يمتزج بها ولا يدخل في شيءٍ منها، مع استعمال حروفه وكلماته.

والرابع: أن قارئه لا يَكلُّ وسامعَه لا يملّ، وإكثارُ تلاوته تَزيدُ في حلاوته، وغيرُه من الكلام وإن كان مستحسَنَ النَّظْم مستعذَبَ النَّثْر، يُمَلُّ إذا أُعيد، ويُستثقَلُ إذا ردِّد.

---

(١) في (ر) و(ف): «شئنا».

(٢) رواه البخاري (٧٢٧٣)، ومسلم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قصَر عن الشيء: عجز عنه ولم يبلغه. انظر: «الصحاح» (مادة: قصر).

(٤) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ١٠٢).

والخامس: ما فيه من الإخبار بما كان من قِصص الأنبياء عليهم السلام مع أُممها، والقرونِ الخالية في أزمِنَتها، وهو أمِّيٌّ من أمَّةٍ أمِّيين ليس لها[1] عِلمٌ بما عرَفه أهل الكتاب مما في الكتب السالفة.

والسادس: ما فيه من علم الغيب والإخبارِ بما يكون، فكان كما أخبر، كقوله: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾[القمر:٤٥]،وقولِهِ: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾[الأنفال:٧]، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾.

والسابع: كونه جامعاً للعلوم كلِّها، ومشتمِلاً على ما في الكتب المنزلة كلِّها، ومنتظِماً لجوابات الحوادثِ كلِّها، وآتياً على المصالح كلِّها، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأنعام: ١٤١] يأتي على جميع علوم الطب، وكذا فيه كلُّ علمٍ من الأدب من اللغة والنحو والبلاغة، ومن الكلام والفقه والتذكير وفنون الفوائد.

فكلُّ أهل العلم يصنِّفون تصانيف كبيرة[2] كثيرةً بفوائدِ القرآن، فحُججُ المتكلِّمين منتزَعةٌ من القرآن، ومسائلُ الفقهاء مستخرَجةٌ من القرآن، ولغاتُ الأدباء مصحَّحةٌ بالقرآن، وفوائدُ النَّحْويين مستوضَحةٌ بالقرآن[3]، وعظاتُ المذكِّرين مأخوذةٌ من القرآن، وإشارات الحكماء مستفادةٌ من القرآن، ولطائفُ أهل المعرفة مستنبَطةٌ من القرآن، وكذا وكذا.

---

(١) في (ف): «لهم».

(٢) «كبيرة»: من (أ).

(٣) في (ر): «بالقراءات».

وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾: يقال: دعا إلى الشيء دُعاءً، ودَعوةً بفتح الدال، فالأول[١] مطلَقُ المصدر، والثاني: المرةُ منه، والدُّعوة بالضم: المأدُبة، والدِّعوة بالكسر: ادعاءُ الولد، وتداعَتِ الحيطان: تهادمت، من هذا مجازاً.

والدعاءُ في القرآن لمعانٍ، واختُلف في المذكور هاهنا؛ فقيل: ﴿ادعوا﴾؛ أي: أَحْضِروا، وقيل: أي: استَعينوا[٢]، وقال الشاعر في الاستعانة[٣]:

وقبلَكَ رُبَّ خَصْمٍ قد تمالَوا   عَلَيَّ فما جَزِعْتُ ولا دعوتُ[٤]

ونظيرُه في القرآن قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ [القصص: ٦٤]، وقولُه تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق: ١٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ [فاطر: ١٨].

وهذا أمرُ إعجازٍ كقوله: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ وبيَّن أن الاستعانة هاهنا بالخلق الكثير لا تُغنيهم شيئاً، وما يُغني[٥] رجوعُ المحتاج إلى المحتاج، واعتمادُ الفقير على الفقير، والْتِجاءُ العاجز بالعاجز؟ فلا ترفَعْ حوائجك إلا إلى مَن لا يَشُقُّ عليه قضاؤها، ولا تَسأل إلا مَن لا تَفْنى خزائنُه، ولا تعتمِدْ إلا على مَن لا يعجز عن شيءٍ.

يَنصرُك من غيرِ مُعينٍ، ويحفظُك من غيرِ صاحبٍ، ويُغنيك من غيرِ مالٍ، فيَقِلُّ عَددُ[٦] الأعداءِ الكثيرُ إذا حمَاك، ويَكْثُر عددُ المالِ القليلِ إذا كَفَاك.

---

(١) في (ف): «والأول».

(٢) في (ف): «استغيثوا».

(٣) في (ف): «الاستغاثة».

(٤) البيت لسِنَان بن الفَحْل أخي بني أم الكَهْف من طيِّىء، كما في «الحماسة» بشرح التبريزي (١/ ٢٣١).

(٥) بعدها في (أ): «من».

(٦) في (ف): «أعداد».

وقوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ الشهادة: الإخبارُ بما شُوهد[1] شهودَ عِيَانٍ أو شهودَ إيقانٍ. والشهود: الحضور، والمشاهَدة: المعايَنة، والمشهد: محضرُ الناس، وعالمُ الغيب والشهادة؛ أي: السرِّ والعَلَانيَة.

وأمَّا تفسيرُه هاهنا:

فالشهداء: جمعُ شهيدٍ؛ كالفقهاء: جمعُ فقيهٍ، ومعناه عند ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أعوانَكم[2]؛ لأن الشاهد كالعون للمدَّعِي في استخراجِ حقِّه.

وقال مجاهدٌ: أي: ناساً يشهدون لكم أنه مِثْلُ القرآن[3].

وقيل: أي: فصحاؤكم وشعراؤكم وبُلغاؤكم، وهم كُبَراءُ المشاهِدِ والخطباءُ في المحافل.

وقال الفرَّاء: يعني: آلهتكم[4]؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها تشهد لهم[5] وتشفَعُ لهم، وهو الأشبهُ؛ لأن قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ خطابٌ للكلِّ، فيتناول كلَّ الفصحاء وكلَّ الأعوان والشهداء، فكان الكلُّ مأمورين بأنْ يكونوا داعين، فلا يكونون مدعوِّين، فالأصحُّ إرادةُ: ما تعبدون، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا صلةُ قوله: ﴿شُهَدَآءَكُم﴾؛ أي: الذين اتَّخذْتُموهم شهداءَ من دون الله، وهذا صفةُ الأصنام؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الشورى: ٩]، وقولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) بعدها في (ر): «عن».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٩٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠) بلفظ: (ناس يشهدون)، وفي رواية: (قوم يشهدون لكم).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٩).

(٥) في (ر) و(ف): «أنها شهداؤهم».

﴿شُفَعَآءَ﴾ [الزمر: ٤٣]، ثم قال في هذا: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٤]، وقال في الأولياء الذين اتَّخذوهم[1]: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: غيرِ الله، وكلمة (دون) لها معانٍ، ومعناها هاهنا: غير.

و(دون) في الأصل اسمٌ، ولهذا دخلها الخافضُ وهو (من) وخفَضَها، ولكنها تستعمل استعمال الحروف، لأنها تفيدُ المعنى في غيرها كالحروف، فأُجريت مجراها لذلك؛ أي: مفردةً عن اللام التي هي للتعريف، والتنوينِ الذي هو للتنكير، وهما من خصائص الأسماء.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فالصدقُ: هو الإخبارُ عن المخبَرِ به على ما هو به، وهو نقيضُ الكذب، فإنه الإخبارُ عن المخبَر به على خلافِ ما هو به، والصَّدْق بالفتح: الرُّمح الصُّلب، والحسامُ المستوي، والصَّديق: الخليل، والصداقة: الخُلَّة، وفلانٌ رجلُ صدقٍ ـ بالإضافة ـ؛ أي: نِعْمَ الرجلُ هو، وثوبُ صدقٍ، وقَدَمُ صدقٍ، ومَقعدُ صدقٍ، كلُّه بالإضافة على هذا الوجه، والصِّدِّيق بالتشديد: المبالِغُ في الصدق.

فمعنى[2] قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: في مقالتِكم: إن محمداً تقوَّله مِن تِلقاء نفسه.

وقيل: أي: إن كانت لدعِواكم[3] صحةٌ.

---

(١) بعدها في (أ): «أولياء».

(٢) في (أ): «ومعنى».

(٣) في (ر) و(ف): «لدعوتكم».

وقيل: هو خطابٌ لليهود؛ أي: إنْ كنتم في شكٍّ مما نزَّلنا من القرآن على محمدٍ أنه ليس من الله تعالى، فأتوا بسورةٍ من مِثل القرآن من التوراة، وقابِلوها بالقرآن لتجدوها موافِقةً لِمَا في التوراة، لتعلَموا أن هذا لم يختلقْه محمدٌ ﷺ من عندِ نفسه، وأنه[1] من عند الله، واستعينوا بأحباركم ورهبانكم إن كنتُم صادقين أنكم تشكُّون فيه، وهذا تفسيرُ تمام هذه الآية.

***

(٢٤) ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ خطابٌ لهؤلاء أيضاً، والفاء للتعقيب، و(إنْ) للشرط، و(لمْ) كلمةُ نفيٍ تدخل على[2] المستقبل فتجعلُه بمعنى الماضي، ثم دخول (إنْ) وهو للشرط يجعله بمعنى المستقبل.

والإشارة فيه: أن المؤمن عزيزٌ بإيمانه وطاعته، ثم ذلَّ بعصيانه وجفوته، ثم يعودُ عزيزاً بتوبته وندامته.

و﴿تَفْعَلُوا۟﴾ فعلُ جمعٍ، وسقطت النونُ من آخره بـ﴿لَّمْ﴾ لأنه جازمٌ، والنونُ كانت علامةً للرفع[3]، والفعل في اللغة: العمل، وجاءت من فلانٍ فَعْلةٌ حسَنةٌ أو سيئة، وفلانٌ حَسَنُ الفَعَال، بالفتح، وسيِّئُ الفِعال، بالكسر، عليه أكثرُ أهل اللغة.

---

(١) في (أ): «وأنه كان».

(٢) «على»: من (ف).

(٣) في (أ) و(ف): «الرفع».

وقال ابن الأعرابي: الفَعال بالفتح: مصدرٌ في الخير والشر، وبالكسر: اسمٌ في الخير والشر.

وفي «مجمل اللغة» يقول: الفِعال بالكسر: جمعُ فِعل، وبالفتح: الكرَم[1].

و: ما فَعَل فلانٌ؟ أي: أين ذهَبَ؟

والفعلُ عند أهل الكلام: هو صرفُ الممكِن من الإمكان إلى الوجوب، ويقعُ على المباشَرة والتركِ جميعاً لشموله إياهما، وهو مستمرٌّ في الشاهد والغائب.

وتفسيره هاهنا:

فإن لم تأتوا بسورةٍ من مثله، ولم تستعينوا بالشهداء. والكلمة صالحةٌ لكلِّ فعلٍ، وهو أوجزُ من التصريح بما سبق، فكان أبلغَ وأفصحَ.

ونذكر آياتٍ في استعمال هذه الكلمة لأعمالٍ مختلفةٍ إيضاحاً لِمَا قلنا:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] هذا يتناولُ كلَّ عملٍ وقولٍ وقصدٍ[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]؛ أي: مؤدُّون.

وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ﴾ الآية [النساء: ٦٦].

وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ١٧٣] إلى أن قال: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

---

(١) انظر: «مجمل اللغة» لابن فارس (ص: ٧٢٣).

(٢) في (ر): «وتصدقٍ»، وفوقها كلمة لم تجود، ولعلها: «ونية».

وقال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف: ٦١].

وقال تعالى: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] إلى قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ هذا اعتراضُ الكلام قبلَ التَّمام، وهو من محاسن الكلام وبدائعه، ومعدودٌ في الصناعة وأنواعِ البلاغة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ هذا اعتراضُ الكلام قبل التمام، وقوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ جوابُ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾[1]، وهاهنا أيضاً ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ جوابُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾.

---

(١) الآية بتمامها: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

ومعنى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾؛ أي: لستُم بفاعلين ذلك أبداً، فـ(لن) نفيُ تأبيدٍ.

وقيل: معناه: لن تقدروا أن تفعلوا، وهو كقوله تعالى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] وقولِهِ: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣]، هذا كلُّه نفيُ[1] القدرة.

وهذه الآيةُ دليلُ صدقِ النبيِّ ﷺ؛ فإنه أَخبر فكان كما أَخبر، وذاك غيبٌ عنا، فلا يكونُ إلا عن إخبارٍ مِن عالمَ الغيب له بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: أي: ولمَّا عجزتُم عن معارَضة القرآن بمثلِه لزمتْكم الحجةُ أن محمداً رسولي والقرآنَ كتابي، ولزمَكم تصديقُه والإيمانُ به، ولمَّا لم تؤمنوا صرتُم من أهل النار فاتَّقوها.

والكلامُ في تفسير التَّقوى ووجوهه قد مرَّ في تفسير قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

والنارُ هي نارُ جهنم[2]، وهي مؤنَّثةٌ سماعاً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا﴾ فأنَّث الصفة والكناية.

وقوله[3]: ﴿وَقُودُهَا﴾؛ أي: حطبُها، فالوَقود بفتح الواو: ما يُوقد به النارُ وهو الحطب، والوُقود بضمها: التهابُها، فهو مصدرٌ والأول اسمٌ.

وقوله: ﴿النَّاسُ﴾ هم الكفَّار هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ هي جمع حجرٍ، والحجر: الصخر، وهو

---

(١) في (ف): «هذا كلمة نفي» وفي (ر): «هذا نفي كلمة».

(٢) في (ف): «هي جهنم».

(٣) في (أ): «قوله تعالى».

كالجَمَل والجِمَالة، وهذا[1] جمعٌ على غير قياسٍ، والقياسُ فيه: الأحجار، كالشجر والأشجار، والسَّحَر والأسحار، والسَّفَر والأسفار.

وأما التفسير:

فقد قيل: هي جبالُ الدنيا علِقَت بهم، حتى إذا ألقَتْهم النار عُلْواً حطَّتْهم الحجارة سُفْلاً.

وقال ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ وابنُ جريجٍ رضي الله عنهم: هي حجارةُ الكبريت[2]، وإنما خصَّت بالذكر لأن فيها خمسةَ أشياءَ: هي أسرعُ وقوداً، وأبطأُ خموداً، وأنتنُ رائحةً، وأشدُّ حرًّا، وألصقُ بالبدَن.

وقيل: هي الأصنامُ التي عبدوها، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وإنما جُعل التعذيب بها ليتحقَّقوا أنهم عذِّبوا بعبادتها، وليَرَوا ذلَّها ومهانتَها بعد اعتقادهم عزَّها وعظمتَها.

وقيل: الأحجارُ تُحرقها النار كما تُحرق الناسَ، ذكر ذلك تهويلاً وتهييباً.

وقيل: أي: وقودُها الناسُ إذا صاروا إليها، والحجارةُ قبل أن يَصيروا إليها.

ثم إدخالُ الأصنام في النار ليس لتعذيبِها، فلا ذنبَ لها، بل لتعذيب[3] الكفَّار بها، وما يكونُ به العذاب لا يكونُ له العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية [التوبة: ٣٥]؛ أُدخلت الأموال جهنم ليعذَّب بها مانعُ الزكاة لا هي،

---

(١) في (ف): «وهو».

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

(٣) في (ف): «ليس لتعذبها... بل لتعذب».

وهذا كما في حقِّ الثواب، فإن رضوان والخزَنةَ والحورَ العِين في الجنة بهم الثوابُ، وليس لهم الثواب.

والحكمةُ في تعذيب الكافرين[١] بها: أن الكافر عَبَدَ الصنَم واعتقَده واعتمَده ورجاهُ، فعذِّب به إظهاراً لجهله وقَطْعاً لأمله، كأَتْباعِ الكُبراءِ[٢] خدَموهم ورجَوْهم، وفي النار يُسحَبون[٣] معهم، ليكونَ أشقَّ عليهم وأقطعَ لرجائهم، وقد يقع كذلك في الدنيا لذلك.

وقوله تعالى: ﴿**أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ**﴾: أي: هُيِّئت وخُلقت، والإعداد: التَّهيئة، والاستعداد: التهيُّؤ، والعُدَّة: ما أُعِدَّ للشيء، والإعْتادُ مثلُ الإعداد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[٤] [الإنسان: ٤].

والآيةُ ردٌّ على المعتزلة، فإنهم قالوا: النار والجنةُ لم يُخلقا بعدُ، وإنما يُخلَقان يوم القيامة عند حضور أهلهما، وقولُهم باطلٌ مردودٌ بهذه الآية، ولقوله تعالى في الجنة: ﴿**أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ**﴾، ونحوِهما من الآيات.

وقولُه تعالى: ﴿**أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ**﴾ خَتْمٌ بما وقَع به البدءُ؛ أي: اتَّقوا الكفرَ الموجِبَ للنار، فإنها أُعدَّتْ للكفار[٥].

---

(١) في (أ): «الكفار»، وفي (ف): «الكافر».

(٢) في (ر): «الأمراء».

(٣) في (أ): «يسجنون».

(٤) في (أ): «﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾»، وفي (ف): «﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾».

(٥) في (ف): «للكافرين».

ثم لم يَقُل: (أُعدَّتْ لكم) خطاباً كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ خطاباً؛ لأنه عَلِم[1] أن منهم مَن يُؤمِن، فقصَرَ الوعيدَ بالنار على طبقةِ الكفار.

قال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: هذا ينقضُ على المعتزلة قولَهم؛ حيث خلَّدوا صاحبَ الكبيرةِ في النار، ولم يُطلقوا عليهم اسمَ الكفَّار، ففي زعمِهم أنها أعدَّت لغير الكفَّار أيضاً[2].

ثم عندنا يجوز أن يعذَّب المؤمنُ العاصي فيها مدةً، فقد أَوْعَد الله بالتعذيب بها في القرآن على أشياءَ، وثبت بالأحاديث المشهورةِ خروجُ المؤمنين منها بعدَ مدةٍ.

ثم الجمعُ بين هذه الآيةِ وبين غيرها في هذين الأمرين عند بعضهم: أن هذه النار واحدةٌ لكلِّ من فيها، لكنْ يتفاضلُ عقابهم فيها.

وقيل: هذه النار التي وقودُها الناس والحجارة هي للكفار خاصةً، ولغيرهم نارٌ غيرُها.

ولمَّا خوَّف بالنار الكافرين بشَّر بالجنة المؤمنين تحقيقاً لوصفِ[3] كتابِه بالمثاني، ومَن تأمَّلَ في نَظْمه وجَد على الانتظام تثنيةَ المعاني، وقد شرحنا ذلك في الفاتحة.

وكذا نظمُ سورةِ البقرة، فإنه ذَكر الكتاب، وبيَّن أن الناس في حقِّه صنفان: مؤمنون وكافرون، وبينهما طبقةٌ لهم وصفان: إظهارُ الإيمان وإضمارُ[4] الكفر، ولهم مَثَلان:

---

(١) في (ر): «عالم».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٤٠٢).

(٣) في (أ) و(ف): «لوصفه».

(٤) في (أ): «وإبطان».

مَثَل مستوقِد النار، ومَثَلُ الواقع في الظلمات والأمطار، ثم خاطبَهم كلهم فأمرهم بشيئين: الاعتقادِ والإقرار، في حقِّ شيئين: ربوبيَّةِ الله ونبوَّةِ رسوله، فصاروا فريقين: جاحِدين فخوَّفهم بالنار، ومُقِرِّين[1] فبشَّرهم بالجنات[2] والأنهار:

***

(٢٥) ـ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والبشارةُ بفتح الباء وضمِّها وكسرها: الخبرُ الصِّدق السَّارُّ الذي ليس عند المخبَرِ علمُه، سمِّيت بها لأنها تؤثِّر في البَشَرة بالبِشْر، ويسمَّى بها الخبرُ المحزِن أيضاً لأنها تؤثِّر في البشرة أيضاً، لكن المتعارَف في الأول الإطلاقُ وفي الثاني التقييدُ.

والبشرة: ظاهرُ جلدِ الإنسان، قال الله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩]، والبشَر: الناس؛ قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]، وهذا جمعٌ، والبشَر: الواحد منهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، والبشير: المبشِّر، والبشير: الحسَنُ الوجه، والبِشْر: الطَّلَاقة، والاستبشار: الفرح، وتباشير الصبح: أوائلُه، وبشَّرْتُه بالتشديد وبَشَرتُه ـ من حدِّ دَخَل ـ فأَبشر؛ أي: قَبِل البشارة.

وقوله: ﴿بشِّر﴾ أمرٌ للنبيِّ ﷺ أن يُخبر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنَّ لهم الجنة.

---

(١) في (أ): «وقائلين»، وفي (ف): «وقابلين».

(٢) في (أ): «بالجنان».

والكلامُ في الصلاح من حيث اللغةُ مرَّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دليلٌ على أن الطاعات غيرُ الإيمان؛ لأنه عطَفَها على الإيمان، والعطفُ دليلُ على المغايرة، وهو ردٌّ على الشافعي رحمه الله في جعلِه العملَ من الإيمان.

ثم العملُ في اللُّغة هو الفعلُ، والعَمالة: أجر العمل للعامل، والإعمالُ: الحملُ على العمل، واستعمالُ الشيء: العملُ به، والمعامَلةُ بين اثنين والتعامُل[1]: التعارف، واليَعْمَلة: الناقةُ القويةُ على العمل.

و(الصالحات) نعتٌ لجمعِ اسمٍ مؤنَّثٍ محذوفٍ، وهي الخصلةُ أو الفعلةُ.

واختلف في تفسيرها:

قال عثمانُ بن عفَّانَ رضي الله عنه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: أَخلَصوا الأعمالَ، يَدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]؛ [أي: خالصاً] لأنَّ غيرَ الخالص لا يكون صالحاً[2]، والمنافقُ لا يكون عملُه صالحاً؛ لأنه لا يكونِ خالصاً.

وقال علي بنُ أبي طالب رضي الله عنه: أي: أقاموا الصلواتِ المفروضاتِ، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وهو كالتفسير لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: أي: عملوا الصالحات فيما بينهم وبين ربهم.

---

(١) «والتعامل»: سقط من (أ).

(٢) «لأن غير الخالص لا يكون صالحاً»: ليس في (أ)، ولم يرد في المصدر.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: العمل الصالح الذي يكون فيه أربعةُ أشياء: العلمُ والنيَّة والصبر والإخلاص.

وقال سهل بن عبد الله: أي: لَزِموا السنَّة؛ لأن عمل المبتدِع لا يكون صالحاً البتَّة.

وقال بعضهم أي: أدَّوا الأمانات، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ أي: أميناً.

وقيل: أي: تابوا عن السيئات، قال تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]؛ أي: تائبين[1].

وقيل: أي: أدَّوا الفرائضَ واجتنَبوا المحارِم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في روايةٍ: هي الشرائعُ، وهي: الصلاةُ، والزكاةُ، والحجُّ، والصومُ، والاغتسالُ من الجنابة.

وقيل: هي نوعان: أعمالٌ بينك وبينَ العباد؛ كأداءِ الأمانات، والوفاءِ بالعهود، وقضاءِ الحقوق، وصلةِ الأرحام، وأعمالٌ بينك وبينَ الله عزَّ وجلَّ، وهي نوعان: ظاهرةٌ وباطنةٌ، فالظاهرةُ: أداءُ الشرائع، والباطنةُ: صفات القلب؛ كالتوكُّل[2]، والرضا بالقضاء، والصبر في البلاء، والشكر في الرخاء.

ثم هذا تعليقُ البشارةِ المطلَقة بالإيمان والعملِ الصالح، فإن المؤمن المطيعَ له الجنةُ بوعدِ الله تعالى من غيرِ تعذيبٍ، والكافرَ له التعذيبُ المؤبَّد، والمؤمنَ العاصيَ

---

(١) انظر جميع هذه الأقوال في «تفسير الثعلبي» (١/ ١٧٠)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) في (أ) و(ف): «التوكل».

في مشيئةِ الله عزَّ وعلا: إنْ شاء غَفر له وأدخله الجنة قبل التعذيب، وإن شاء عذَّبه بذنبه[(١)] كلَّ عقوبته أو بعضَها ثم أدخله الجنة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾: هي جمع جنة، وهي البستان، والجُنَّة بالضم: التُّرس، وكذا الـمِجَنُّ، وأصله من: جَنَّ عليه الليل جَناناً؛ أي: ستره، والجنونُ يستر العقل، والجِنَّة بالكسر كذلك، والجِنُّ والجِنَّة مستورون[(٢)] عن أعين الناس، والجُنَّة والـمِجَنُّ يسترُ اللابس[(٣)]، والجنَنُ: القبر، وهو يستر الميتَ، والجَنَان: القلب، وهو مستورٌ، والجنينُ: الولد في البطن، وهو مستور.

وأما تفسيرُه[(٤)]:

فقد قال المفضَّل: الجَنَّة كلُّ بستان فيه نخلٌ، وقيل: فيه شجرٌ، فإن كان فيه كَرْم فهو فردوسٌ.

وقيل: الجَنَّة اسمٌ لبستانٍ جامعٍ فيه النخلُ والعنبُ وكلُّ ثمر؛ قال الله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ [يس: ٣٤]، سُميت بذلك لأنها تَسترُ وتُظِلُّ مَن يكون فيها بما فيها من الشجر، أو لأنها تستر الأرض بظلِّ أشجارها.

---

(١) في (أ): «بقدر ذنوبه».

(٢) في (أ) و(ف): «مستترون».

(٣) في (ر): «الإنس».

(٤) في (أ) و(ف): «تفسيرها».

ثم الجنَّات جمعٌ، وهي ثمانيةٌ[١]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي[٢] دارُ الجلال، ودارُ القرار، ودارُ السلام، وجنةُ عَدْنٍ، وهي قصبةُ الجنَّة، وهي مشرفةٌ على الجنان كلِّها، وبابُ جنةِ عدنٍ مصراعان من زُمرُّدٍ وياقوتٍ، بين المصراعين كما بين المشرقِ والمغرب، وجنةُ المأوى، وجنةُ الخلد من فضةٍ كلُّها[٣]، وجنةُ الفردوس، وجنةُ النعيم.

قال[٤]: ودارُ الجلال كلُّها من النُّور: مدائنُها وقصورُها وبيوتُها وشُرَفُها وأبوابها ودُرُجها وغرفُها وأعاليها وأسافلُها وخيامُها وأوانيها وحُليُّها وكلُّ ما فيها[٥]، ودارُ السلام كلُّها من الياقوتِ الأحمر، ودارُ القرار كلُّها من المرجان، وجنةُ عدن من الزَّبَرْجَد كلُّها، وجنةُ المأوى من الذهب الأحمر كلُّها، وجنةُ الخلدِ من الفضة كلُّها، وجنةُ النعيم من الزُّمرُّد كلُّها، وجنةُ الفردوس من اللُّؤلؤ كلُّها، وحيطانُها لَبِنةُ ذهبٍ ولَبِنةُ فضةٍ ولبنةُ ياقوتٍ ولبنةُ زَبَرْجَدٍ، ومِلاطُها[٦] المسك، وقصورُها الياقوت، وغرفُها اللؤلؤ، ومصاريعُها الذهبُ، وأرضُها الفضة، وحَصْباؤها المرجانُ، وتُرابها المسكُ، ونباتها الزَّعفرانُ والعَنبر.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يقال: جَرَى الماءُ يَجْرِي جَرْياً وجِرْيَةً

---

(١) في (أ): «ثمان».

(٢) في (ف): «هن».

(٣) «من فضة كلها»: من (ف).

(٤) في (ر): «قال ابن عباس».

(٥) إلى هنا أورده ابن الجوزي في «بستان الواعظين» (ص: ١٣٠) من طريق ابن وهب عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) الملاط: الطين يطلى بِهِ الْحَائِط، وطين يُجْعَل بَين كل لبنتين أَو آجرتين أَو حجرين فِي الْبناء والمرفق. انظر: «المعجم الوسيط» (مادة: ملط). ووقع في (ر): «وبلاطها».

وجَرَياناً؛ أي: سال، وماءٌ جارٍ، ومياهٌ جاريةٌ، وعينٌ جاريةٌ؛ أي: يجري ماؤها، والجارية: السفينة؛ لأن الماء يجري بها، وصدقةٌ جاريةٌ؛ أي: وَقْفٌ دائمُ النَّفعِ، والأرزاقُ الجارية: الدارَّة، وقد أَجْرَى على جنده وأصحابه الأجريات، والجرِيُّ: الوكيل؛ لأنه يجري مَجرى الموكِّل، وجمعُه: الأجرياءُ بفتح الهمزة، والإجْرِيَّا بكسر الهمزة: العادةُ التي يجري عليها الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ وفي بعضِ الآيات: ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا﴾ [التوبة: ١٠٠] بالحذف[1]؛ لِمَا أنه ظرف، والفتحة تدلُّ عليه، وإثباتُ ﴿مِن﴾ للصلة أو لبيانِ أن ابتداء الجريان منه، فإنه لابتداءِ الغاية.

و(تَحْت) بمعنى: سِفْلٍ، وهو اسمٌ ولهذا خُفض بـ(مِن)، ولكنْ يُستعمل استعمالَ الحروف لأنه يفيد المعنى في غيره غالباً فأَشْبَهَ الحرفَ[2]، فلم يَظهر فيه علامة التعريف والتنكير.

وقوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾؛ أي: من أسافِلِ أرضها.

وقيل: من تحت أشجارها.

وقيل: من تحت غُرفها.

وقيل: إنها تجري في غير أُخدود.

وفي الآية التي قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣ ويونس: ٩ والكهف: ٣١] فمعناه: بأمرهم؛ أي: ذاك تحتَ ولائهم وأمرِهم، وهو كقول فرعون: ﴿وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]؛ أي: بأمري، ومعنى جَرْيِها بأمرهم ما قال

---

(١) في (ر) و(ف): «فالحذف».

(٢) في (أ): «الحروف».

عزَّ وعلا في آيةٍ أخرى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]؛ أي: حيث شاؤوا عُلْواً وسُفْلاً.

وقال الإمام أبو منصور: الجنةُ ليست باسمٍ للأرض والبقعةِ خاصةً، بل هي اسمٌ لكل ما يجمع الأشجار والغرائس[١]، فقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وغرائسها[٢] ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

قال: وقيل: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: حيث يقعُ أبصارهم عليها وهم في العُلو، وذلك أَنْزهُ عند الناس وأحلى وأطيب.

قال: وقيل أيضاً: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت ما علا منها من القصور والغرف، لا تحت الأرض، كقوله عليه السلام: «تحت كلِّ شعرةٍ جنابةٌ»[٣]؛ أي: تحت ما علا لا تحت الجلد[٤].

وقوله: ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ هي جمع نهر، وهو مَسيل الماء، وقد أَنْهرَ الدَّمَ؛ أي: أسالَهُ، ونَهَرٌ نَهِرٌ؛ أي: كثيرُ الماء. وقيل: سمِّي به لسعته وضيائه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى

---

(١) في (أ): «اسم لما يجمع الأشجار والعرائش» وفي (ر): «اسم لتجتمع الجنان والعرائس». وفي «تأويلات أهل السنة»: (ولكن ما يجمع من الأشجار، وما ينبت فيها من أَلوان الغروس المثمرة).

(٢) في (أ): «وعرائشها».

(٣) رواه أبو داود (٢٤٨)، والترمذي (١٠٦)، وابن ماجه (٥٩٧)، من طريق الحارث بن وَجيهٍ، عن مالك بن دينار، عن محمَّد بن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا. قال أبو داود: الحارثُ حديثُه منكر، وهو ضعيف. وقال الترمذي: حديث الحارث بن وجيه حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وهو شيخٌ ليس بذاكَ.

قلت: وله شواهد، لكنها جميعاً لا تخلو من مقال، فمنها حديث أبي أيوب الأنصاري عند ابن ماجه (٥٩٨) وإسناده منقطع. ومنها حديث عائشة عند أحمد (٢٤٧٩٧) وإسناده ضعيف. ومنها حديث علي عند أبي داود (٢٤٩) وإسناده ضعيف مرفوعاً.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١/ ٤٠٣).

جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]؛ أي: ضياءٍ وسعةٍ، وسمِّي النهارُ به لسَعَته وضيائه، وقيل: سُمِّي نهاراً لجَرَيان الشمس فيه كجَرَيان الماء في نهره.

وأمَّا تفسيرها:

فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «في الجنةِ بحرُ اللَّبَنِ وبحرُ الماءِ وبحرُ العسلِ وبحرُ الخمرِ، ثم تَشَقَّق الأنهارُ منها بعدُ»(١).

قالوا: وهي الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥].

وقيل: النهرُ واحدٌ، ويجري فيه الخمرُ والماءُ واللبنُ والعسلُ لا يخالِط بعضُها بعضاً كما لا يخالط الماءُ العذبُ الأجاجَ المِلْحَ(٢) في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

وقال بعضهم: الجاري واحد، ويَختلف باختلافِ المُنْيَة(٣)، إنْ تمنَّى أن يكون لبناً كان لبناً، وكذا سائرُها.

وقال بعضهم: الجاري واحدٌ وطبائعُه أربعٌ: طبعُ الماء في إنبات الحياة، وطبعُ اللبن في التربية، وطبعُ العسل في الحلاوة، وطبعُ الخمر في الإطراب، وإنما ذكر الأنهارَ جمعاً على قولِ هؤلاء لكثرة معانيها مع اتِّحاد عينِها، فإذا دخلوا الجنة وقد

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٧١) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه وقال: حسن صحيح.

(٢) في (أ): «الماءُ العذبُ الماءَ الأجاجَ والملح».

(٣) المنية: ما يتمنى الرجل. ووقع في (ف): «التمنية».

ذاقوا الموتَ وذاقوا[١] النارَ وخافوا وضعُفوا، فأهلُ الجنة[٢]سقَوهم الماءَ ليحيَوا ثم إنهم لا يموتون، وسقَوهم اللَّبن ليتربَّوا ثم إنهم لا يَنقصون، وسقَوهم الخمرَ ليَطرَبوا ثم إنهم لا يحزنون، وسقوهم العسل ليَصِحُّوا ثم إنهم لا يَسقمون.

ثم[٣] في الجنة عيونٌ أيضاً: عينُ الكافور، وعينُ الزَّنجبيل، وعينُ السَّلسَبيل، وعينُ الرَّحيق ومزاجُه من تسنيمٍ، وهذه الأنهارُ تنبع من عيونٍ في ساقِ العرش.

ورُوي أنه كُتب على ساق العرش عرضاً: بسم الله الرحمن الرحيم، فعينُ الماء تنبعُ من ميم بسم، وعين اللَّبن تنبع من هاءِ الله، وعين الخمر تنبع من ميم الرحمن، وعين العسل تنبع من ميم الرحيم.

هـذا منبعُهـا، وأمَّـا مَصبُّهـا: فكلُّها تنصبُّ فـي الكوثـر، وهو حـوضُ النبيِّ ﷺ، وهـو فـي الجنـة اليـومَ، ويُنقل يـوم القيامـة إلـى العَرَصـات لسـقي[٤] المؤمنيـن، ثم ينقـل إلـى الجنة، ويُسـقى أهـلُ الجنة من هـذه الأنهـار والعيـون بواسـطة الملائكة، ويسـقيهم الله تعالـى الشـرابَ الطهور بلا واسـطةٍ، قـال تعالـى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسـان: ٢١].

وقد قال بعضُ أهل المعرفة: إن للهِ تعالى شراباً ادَّخَره لأهل المعرفة، فإذا شرِبوا طَرِبوا، وإذا طرِبوا قاموا، وإذا قاموا هاموا، وإذا هاموا طاشوا، وإذا طاشوا[٥] عاشوا، وإذا عاشوا طارُوا، وإذا طارُوا طَلبوا، وإذا طَلبوا وجَدوا، وإذا وجَدوا نزلوا،

---

(١) في (ر) و(ف): «ودخلوا».

(٢) «فأهل الجنة»: زيادة من (ف).

(٣) في (ف): «و».

(٤) في (أ): «ليسقي».

(٥) في (أ): «وإذا هاموا شاطوا وإذا شاطوا».

وإذا نزلوا قرُبوا، وإذا قرُبوا كوشفوا، وإذا كوشفوا شاهَدوا، وإذا شاهَدوا عايَنوا، وإذا عايَنوا أَنِسوا، وإذا أَنِسوا أَبْصَروا.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾: (كلما) كلمةٌ تقتضي عمومَ الأفعال، وكلمةُ (كلّ) تقتضي عموم الذَّوَات، وحقيقتُها: أن كلمة (كلّ) لعمومِ ما دخل فيه، و(ما) مع الفعل المذكورِ بعده بمنزلةِ المصدر، فيقتضي عمومَ ذلك الفعلِ لدخولها فيه، فاقتضَى التكرارَ بهذا الطريق.

وقوله ﴿رُزِقُواْ﴾؛ أي: أُعطوا، وقد بينَّا حقيقةَ هذا في[1] قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [الأنفال: ٣].

وقوله: ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الجنات، و(مِن) في ﴿مِنْهَا﴾[2] لبيان المكان؛ أي: من هذا المكان يرزقون.

وقوله: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ (مِن) في هذا للتجنيس.

وقيل: هي زائدةٌ؛ أي: كلما رزقوا ثمرةً، كما قيل في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]: (مِن) هذه زائدةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وقيل: هي للتأكيد، كما في قولهم: ما في الدار من رجلٍ.

وقوله تعالى: ﴿رِّزْقًا﴾ هو خبرُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه، وهو مفعولٌ ثانٍ في الحقيقة، أَخبر أنَّ لهم رزقاً في الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ٤١]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن

---

(١) في (ر) و(ف): «من».

(٢) في (ر): «ومن فيها».

نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وأَخبر أن لهم ثمراتٍ، ومن صفتِها: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢]، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠] ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨] ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٨-٢٩] ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] والقِطْف: عنقود العنب.

وسأل أعرابيٌّ رسولَ الله ﷺ عن أعنابِ الجنة وعنقودِها فقال: «مسيرةُ شهرٍ للغراب يطيرُ ولا يَفتُرُ عن طيرانه(١)، ولو اجتَمع الخلائقُ على عنقودٍ واحدٍ(٢) لأَشْبَعهم»(٣).

وقد رُوي أنه لا يُقطَع من شجرِ الجنة ثمرٌ إلا نَبتَ مكانه مثلُه.

ورُوي أنه يخرج من حَبَّةِ عنبِ الجنة مثلُ الدُّرَّة، فتَنفلقُ(٤) عن حوراءَ عيناءَ يغلبُ نُورها الشمسَ.

وفي الخبر: أن المؤمن إذا دخل الجنة رأى سبعين ألفَ حديقةٍ، في كلِّ حديقةٍ سبعون ألفَ شجرةٍ، على كلِّ شجرةٍ سبعون ألفَ ورقةٍ، على كلِّ ورقةٍ مكتوبٌ: لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله، أمَّةٌ مذنِبةٌ وربٌّ غفورٌ، كلُّ ورقةٍ عرضُها مِن مَشرِق الأرض إلى مَغْرِبها(٥).

---

(١) في (أ): «الطيران».

(٢) «واحد»: زيادة من (أ).

(٣) رواه بنحوه ابن حبان في «صحيحه» (٧٤١٦) من حديث عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه.

(٤) في (ر) و(ف): «فتنفلق الدرة».

(٥) في (أ): «من شرق الأرض إلى غربها».

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال ابنُ مسعود وابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادةُ رضي الله تعالى عنهم؛ أي[1]: قالوا: هذا الذي رُزقناهُ مِن ثمار الجنة مِثْلُ الذي كنَّا رُزقناه مِن ثمار الدنيا[2]؛ أي: في الصورةِ والاسمِ، فقد قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ليس في الدُّنيا ممَّا في الجَّنة إلَّا الأسماء[3]، فأشجارُ الجنَّة مِن الزَّبَرجد والياقوتِ والذهب والفضَّة.

وقال أبو عبيدة ويحيى بنُ أبي كَثيرٍ: ثمارُ الجنَّة إذا جنيتَ مِن أشجارها استُخلفَ مكانها مِثْلُها، فإذا رأوا ما استُخلِف بعد الذي جُني، اشتَبه عليهم فقالوا: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾[4].

وقيل: يُؤتى بالعَشاء مِثْلَ ما كان يُؤتى بالغداة[5]، فيقولون: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مِثْل ما تقدَّم.

وقيل: معناه: هذا الذي وُعدنا في الدُّنيا أنْ يكون رزقاً لنا في الجنَّة.

وقيل[6]: أي: هذا ثوابُ ما رُزقنا مِن العمل الصالح في الدنيا، فالثوابُ مُضمَر، والإضمارُ جائزٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهل القرية.

وقوله تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ هو على ما لم يُسمَّ فاعلُه على قراءة العامة، وقرأ

---

(١) في (ف): «إنهم».

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٦)، وانظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٧١).

(٤) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٠٩ ـ ٤١٠)، وانظر: «النكت والعيون» (١/ ٨٦). وأبو عبيدة هو ابن عبد الله بن مسعود.

(٥) في (ف): «بالغداء».

(٦) «وقيل»: ليست في (أ).

هارون بنُ موسى: (وأَتَوا) بفتح الألف على الفعل الظاهر[١]؛ أي: الخَدَمُ أَتَوا بالرِّزق، ومعنى القراءة المشهورة: وجِيئوا به؛ أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين دَخلوها.

والمُتَشابِه في اللغة مُتَفاعِل مِن الشِّبْه والشَّبَه، وهما كالمِثْل والمَثَل، والتَّشبيهُ كذلك، والتَّشبيه: التمثيلُ، والمشابَهة: المماثلة، والشَّبَه ـ بفتح الشين والباء ـ الأشباه أيضاً[٢]، والشَّبَه: جوهرٌ يُشبِه الذهبَ، والأمورُ المشتَبِهات[٣]: المُشكلات، والمتشابهات كذلك، وحقيقةُ المتشابه: الذي فيه شَبَهٌ مِن غيره حتى لا يكادُ يتميَّز[٤] مِن غيره، والمتشابهات: المتماثلات، والشُّبهة: ما يُشبه الحلالَ مِن وجهٍ والحرامَ مِن وجهٍ، والشُّبْهة ما يُشبِه الحُجَّة.

وأمَّا تفسيره هاهنا؛ فقد قال الحسن وقتادةُ وابنُ جُريج: معنى التشابهِ: هو التَّماثل في الجودة؛ أي: كلُّه خِيارٌ[٥] يُشبِه بعضُه بعضاً؛ لا رَذْلَ فيه ولا فاسد ولا متغيِّر[٦]، وليس كثمار الدُّنيا التي لا تتشابه لأنَّ فيها خياراً وغيرَ خيارٍ[٧].

وقال ابنُ عباس وابنُ مسعود والربيع بنُ أنس رضي الله عنهم: التَّشابهُ هو التَّماثلُ في اللونِ دونَ الطَّعم، فتكون ثمار الجنَّة في ألوان ثمار الدُّنيا، وإنْ خالَفَتْها في الطَّعم فكانت ألذَّ وأطيبَ[٨].

---

(١) انظر: «المختصر في القراءات الشواذ» (ص: ٣).

(٢) «أيضاً»: زيادة من (أ).

(٣) في (ف): «المشبهات».

(٤) في (ف): «يميز»، وفي (أ): «حتى كاد لا يتميز».

(٥) في (ر): «جياد».

(٦) في (أ): «ولا فاسد ولا تغير»، وفي (ر): «ولا فساد ولا متغير».

(٧) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٣). ووقع في (ر) و(ف): «جياداً وغير جياد».

(٨) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

وقال مجاهد ويحيى بنُ سعيد: إنَّها تُشابه ثمارَ الدُّنيا في اللون والطعم جميعاً، أي: هي تُشبه ثمارَ الدُّنيا في لونها وطعمها[١]، وفي ذلك ترغيبُهم في طلبِ ما عرفوه في الدُّنيا بلونه وطعمه.

وقال مجاهد في رواية: أي: يُشْبه بعضها بعضاً في الألوان، ويختلف في الطعوم[٢]، وفي ذلك زيادةُ نشاطٍ لهم حيث وجدوا ممَّا تتَّفق صُوَرها ما تتفاوت[٣] معانيها.

وقال أبو زيد والأشجعيُّ[٤]: التَّشابه في الأسماء دون الألوان والطعوم، فلا تُشبه ثمارُ الجنَّة شيئاً من ثمار الدُّنيا في لون ولا طعم، وإنَّما تتَّفق أساميها لا غير، وفي ذلك ترغيبُهم في وجوه[٥] لذَّات لم يَعهدوها ولا يَقفون على غايتها.

وقيل: معناه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾؛ أي: متماثلاً في كلِّ الأوقات على

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٥).

(٢) في (أ): «الطعم»، والأثر رواه عنه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

(٣) في (ر) و(ف): «تتقارب».

(٤) قوله: «والأشجعي» كذا قال المؤلف، ومثله في «النكت والعيون» للماوردي (١/ ٨٦)، ولعله وهم، والصواب: ابن عباس، وسبب الوهم سياق الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٦) حيث قال: (حدثني أبو كريب، قال: حدثنا الأشجعيّ (ح)، وحدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا مؤمَّل، قالا جميعًا [يعني: الأشجعي ومؤمل]: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي ظَبْيَان، عن ابن عباس، قال أبو كريب في حديثه عن الأشجعي: لا يشبه شيءٌ مما في الجنة ما في الدنيا إلا الأسماء. وقال ابن بشار في حديثه عن مؤمل، قال: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء). فالخبر كما ترى لابن عباس، لكن قد يوهم ظاهره أنه للأشجعي.

(٥) في (ر) و(ف): «وجود».

الطَّـراوة، وليـس فـي الجنَّة خريفٌ ولا شـتاء ولا ربيعٌ ولا صيـف، ولا حرٌّ ولا برد، ولا نقـصٌ ولا فَقْـد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ الزَّوجُ: البَعْلُ في اللغة[1]، والزَّوجةُ البَعْلةُ، والزَّوجُ ذَكَر وأنثى مِن كلِّ حيوان، وهما زوجان أيضاً، وهو في القرآن لأشياء:

للبعل: قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وللبعلة: قال الله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وللذَّكر والأنثى مِن كلِّ حيوان: قال الله تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وللشَّفْع مِن كلِّ شيءٍ: قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وللصِّنْف: قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧].

وللَّون: قال الله تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]؛ أي: لونٍ حَسَنٍ.

وللشِّبه: قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦].

وللقَرين: قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وأمَّا تفسيره:

فمعناه: ولهم في الجنات زوجاتٌ؛ وهنَّ نساء الدُّنيا وحُور الجنَّة جميعاً، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ الآيات [الواقعة: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤] وَعَدهم الجمعَ بينهم وبين الزوجات؛ ليتمَّ لهم الأُنْس والراحات[2]، وتَهْنَأَ لهم الجنَّة والأطعمةُ والأشربة والكرامات.

---

(١) بعدها في (أ): «والزوج».

(٢) «والراحات»: من (ر).

وقولـه تعالـى: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ الطُّهـر والطَّهـارة خـلافُ الدَّنَـس، يقـال: فـلانٌ طاهـرُ الثياب؛ أي: نقـيٌّ عن العيب، والتَّطهُّـرُ: التنزُّه عن الإثم والقبيـح، والتَّطهيرُ: إثبـات الطهارة.

وقرأ ابنُ مسعود رضي الله عنه: (مُطَهَّراتٌ)[١]؛ لأَنَّها نعتُ النِّسوة، وهنَّ[٢] جمعٌ، وقراءةُ العامة وهو الذي في مصحفِ الإمام: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ لأنَّ المسموعَ مِن العرب في نعتِ الجمع القليلِ الألفُ والتاءُ، وفي نعتِ الجمعِ الكثيرِ الهاءُ وحدها، يقال: أَحمرةٌ مُستنفِراتٌ، وحُمُرٌ مُستنفِرة، ولأنَّ الأزواجَ جمعُ زوجٍ، وهو مذكَّرٌ في اللفظ، وإنَّما صار مؤنَّثاً بالجمع للحال، فصارت كالواحدة، كقولك: بيتٌ خاوٍ[٣]، ثم تقول: بيوتٌ خاويةٌ، ولا يقال: خاوياتٌ، ونقول: دارٌ خاويةٌ، ودُورٌ خاوياتٌ؛ لأنَّ الواحدةَ كانت مؤنَّثة، وهذه جماعة المؤنَّثات.

وإنَّما قال: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾، ولم يقل: طاهرة؛ لأنَّ المُطهَّرةَ أبلغُ، فإنَّ طاهرة تدلُّ على طهارتها، والمُطهَّرة تدلُّ على أنَّ اللهَ هو الذي مَنَّ بتطهيرها، ولأنَّ التفعيلَ للتكثير، فيدلُّ على أنواع التطهير، ولأنَّ التفعيلَ للنسبة والوصف فيدلُّ على أنَّهنَّ الموصوفاتُ بها المنسوباتُ إليها، ولأنَّها إنْ جُعلت في أوصاف نساءِ الدُّنيا دلَّت على أنَّهنَّ جُعلن كذلك[٤] في العُقبى وإنْ كنَّ غيرَ ذلك في الدُّنيا، وإنْ جُعلت في صفةِ الحُور العِين، فمعناه أنَّهنَّ خُلقنَ كذلك، وأبداً يبقَين كذلك.

---

(١) نسبها الزمخشري في «الكشاف» (١/ ١٣٩) لزيد بن علي.

(٢) في (أ) و(ر): «وهي».

(٣) في النسخ: «خاوي» والمثبت هو الجادة.

(٤) في (ر): «جعلت ذلك»، وفي (ف): «جعلن لذلك».

وأمَّا التفسيرُ:

فقـد قيـل: مُطهَّرات الأبـدان في الخِلْقـة، فهنَّ مِن المِسـك والكافـور والعنبر والزَّعفران، لا مِـن التراب والمَنِـيِّ والعَلَقة.

وقيل: مُطهَّرات الأبدان في الحال، فليس تحتَ الجلود دمٌ ولا قيحٌ، ولا في البطونِ ما في بطون البشر.

وقيل: مُطهَّرات الأبدان عن الأمراض والأَعراض؛ مِن الوَرَم والدَّرَن والصُّداع وسائرِ الأوجاع.

وقيل: مُطهَّرات الأبدان عن الولادة، وهو قول يمان بنِ رئاب(١).

وقيل: مُطهَّرات الأبدان عمَّا يَخرج منها؛ مِن بولٍ أو مَنِيٍّ أو غائطٍ أو حيضٍ أو نفاسٍ أو مخاطٍ أو بلغمٍ.

وقيل: مُطهَّرات الأفعال؛ فلا يُصاحبن ولا يُجادِلن، ولا يَعترضن ولا يُعْرِضن، ولا يُغلِظن القولَ، ولا يُسِئن الفعلَ، ولا يَنشُزن.

وقيل: مُطهَّراتُ الأخلاق؛ فلا يَحسدن ولا يَحقدن ولا يُبغضن ولا يَغَرْن.

وقيل: مُطهَّراتٌ عن استرابة القلوب بهنَّ؛ فلا يَمِلن إلى غيرِ أزواجهنَّ، ولا يقعُ في قلوب الرجال ما يُنفِّر طباعهم عنهنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ الخلودُ: البقاءُ لغةً، والإخلادُ: الإقامةُ والركون أيضاً، وحقيقةُ الخلودِ: الدَّوامُ مِن وقتٍ مُبتَدَأ، ولهذا لا يجوز أنْ يُقال لله تعالى: إنَّه(٢) خالد؛ لأنَّه قديمٌ أزليٌّ لا ابتداءَ له.

---

(١) في النسخ: «رباب»، والمثبت هو الصواب.

(٢) «أنه»: من (أ).

وتفسيره: وهم في الجنَّات باقون دائمون مقيمون، لا يموتون ولا يخرجون، والبقاء الأبديُّ في الجنَّة لأهلها وفي النار لأهلها، قولُ جميعِ أهلِ الإسلام.

وقال جَهْمٌ ـ لَعَنه اللهُ تعالى ـ: إنَّ الجنَّة والنار يَفنيان؛ لأنَّ البقاءَ الأبديَّ لله وحده[1].

ودليلُنا: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] وقولُه تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧] وقولُه تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٥٦] وقولُه تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقولُه تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣]، ولأنَّ أهلَ الجنَّة لو عَلموا بالزوال لكانوا في أشدِّ عقوبة، ولو أنَّ[2] أهلَ النار عَلموا بالفَناء لكانوا في أتمِّ راحة؛ فيصير الثواب عقاباً والعقابُ ثواباً.

وجواب قولهم: أنَّ اللهَ تعالى باقٍ بذاته[3]، وبقاء الجنَّة والنار وأهلِهما بإبقاء اللهِ تعالى، فلا مشابهة.

* * *

(١) انظر: «التبصير في الدين» لأبي المظفر الإسفراييني (ص: ١٠٨).

(٢) «لو أن»: ليست في (أ).

(٣) أي: قولهم: «لأنَّ البقاءَ الأبديَّ لله وحده» جوابه: «أنَّ اللهَ تعالى باقٍ بذاته...»، وفي (ر): «لذاته».